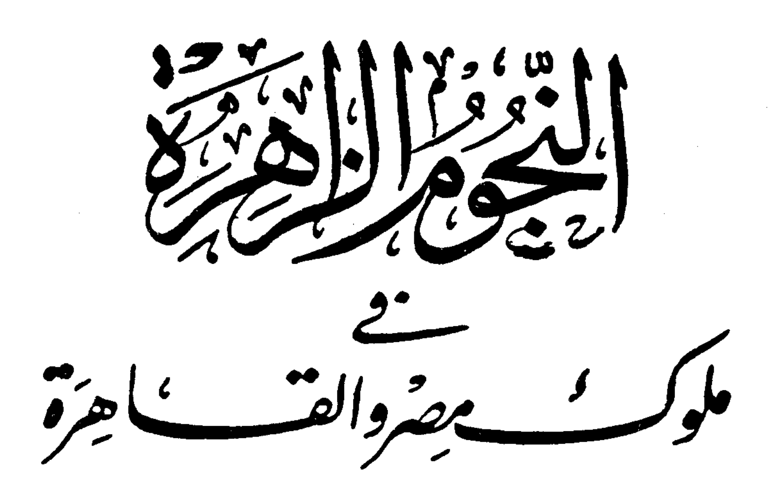
تراثنا



تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤ هـ

الجزء الثامن

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحابته والمسلمين

الجزء الثامن

من كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

ذكر ولاية الملك الأشرف خليل على مصر

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل آبن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفىّ الصالحىّ النّجْمِىّ، جلس على تَخْت المُلْك يوم وفاة أبيه فى يوم الأحد سابع[1] ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة . وكان والده قلاوون قد سَلْطَنه فى حياته بعد موت أخيه الملك الصالح[2] علىّ بن قلاوون فى سنة سبع وثمانين وستمائة، والمُعْتَدُّ به جلوسه الآن على تخت الملك بعد موت أبيه . وجدّد له الأمراء والجند الحَلِفَ فى يوم الأثنين ثامن ذى القعدة المذكور . وطلب من القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده[3]، فأخرجه إليه مكتوبا بغير علامة الملك المنصور، وكان

(١) ذكر صاحب تاريخ الدول والملوك فى حوادث سنة ٦٨٩ ﻫ روايتين أخريين أولاهما أنه جلس على تخت السلطنة يوم الاثنين ثامن ذى القعدة الشهر المذكور. وثانيتهما أنه آستقر الأمر للملك الأشرف عاشر المحرم سنة تسعين وستمائة .

(٢) راجع صفحة ٣٢٠ فى ترجمة قلاوون فى الجزء السابع من هذه الطبعة .

(٣) يقال قلدته أمركذا إذا وليته إياه، ومعناه الأصطلاحى مايكتب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم . ومعناه هنا العهد . (انظر صبح الأعشى ج ١١ ص ١٠١ وما بعدها . وآنظر نص هذا العهد فى المرجع نفسه ج ١٠ ص ١٦٦ . وانظر التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى ص ٨٤ وما بعدها) .

ٱبن عبد الظاهر قد قدّمه إليه ليعلّم عليه فلم يَرْضَ، وتقدّم طلَبُ الأشرف وتكرّر، وٱبن عبد الظاهر يُقدّمـه إلى الملك المنصور، والمنصـور يمتنع إلى أن قال له : يا فتحَ الدين، أنا ما أولّى خليلًا على المسلمين! ومعنى ذلك أنّ الملك المنصور قلاوون كان قد نَدِم على توليته السلطنة من بعده . فلمّا رأَى الأشرف التقليد بلا علامة ، قال : يا فتحَ الدين، السلطان ٱمتنع أن يُعطيني وقد أعطانى الله ! ورَمَى التقليد من يده وتَمّ أمرُه ، ورَتّب أمور الديار المصريّة، وكتَب بسلطنته إلى الأقطار، وأرسل الخلَع إلى النوّاب بالبلاد الشامية .

وهو السـلطان الثامن من ملوك الترك وأولادهم . ثم خَلَع على أرباب وظائفه بمصر، والذين خلَع عليهـم من الأعيان : الأمير بدر الدين بَيْدَرا[1] المنصوريّ نائب السـلطنة بالديار المصريّة ، ووزيرُه ومدبِّر مملكته شمس الدين محمـد بن السَّلْعُوس الدِّمَشْقِيّ، وهو فى الحجاز الشريف . وعلى بقيّة أرباب وظائفه على العادة والنوّاب بالبـلاد الشاميّة يوم ذاك . فكان نائبه بدمشق وما أُضيف إليهـا من الشام الأمير حُسام الدين لاچين[2] المنصوريّ . ونائب السلطنة بالممـالك الحلبيّة وما أُضيف إليها الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوريّ . ونائب الفتوحات الساحليّة والأعمـال الطرابُلُسيّة والقِلَاع الإسماعيلية[3] الأميرَ سيفَ الدين بَلَبان[4] السِّلَحْدَار المعروف بالطبّاخى . ونائبـه بالكَرَك والشوبَك وما أُضيف إلى ذلك الأمير ركن الدين بِيبَرْس[5] الدَّوَادَار المنصوريّ ، صاحب التاريخ المعروف « بتاريخ بيبرس الدوادار » . وصاحب حماة

(١) هو الذى قتل الأشرف سـنة ٦٩٣ هـ وقتله كتبغا فى اليوم الثانى، كما سيأتى ذكره فى السـنة المذكورة . (٢) هو الذى ولى مصر سنة ٦٩٦ هـ بعد كتبغا، وقتل سنة ٦٩٨ هـ كما سيأتى ذكره فى هـذا الجزء . (٣) راجع الحاشية رقم ٣ ص ١٨٧ من الجزء السابع من هـذه الطبعة .

(٤) سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٠٠ هـ .

(٥) سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٢٥ هـ .

والمَعَرَّة الملك المظفَّر تقيّ الدين محمود ابن الملك المنصور محمد الأيُّوبيّ . والذين هم تحت طاعته من الملوك صاحب مكّة المشرّفة الشريف نجم الدين أبو نُمَيّ محمد بن إدريس بن عليّ بن قَتَادة الحَسَنِيّ (1) ، وصاحب اليَمَن الملك المظفَّر شمس الدين يوسف (2) ابن عمر ، فهؤلاء الذين أرسل إليهم بالخِلَع والتقاليد . انتهى .

ولمّا رَسَخَتْ قَدَمُ الملك الأشرف هذا في المُلْك أخَذ وأعْطَى وأَمَر ونَهَى ؛ وفرّق الأموال وقَبَض على جماعة من حواشي والده ، وصادرهم على ما يأتي ذكره .

ولمّا استهلّت سنة تسعين وستّمائة أَخَذ الملك الأشرف في تجهيزه إلى السّفر (3) للبلاد الشاميّة ، وإتمام ما كان قَصَدَه والده من حِصار عكّا ، وأرسل إلى البلاد الشاميّة وجَمَع العساكر وعَمِل آلات الحِصار ، وجَمَع الصُّنّاع إلى أن تمّ أمره ، خرج بعساكره من الديار المصريّة في ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين المذكورة ، وسار حتّى نازل عَكّا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر ، ويوافقه خامس نَيْسان (4) ، فاجتمع عنده على عَكّا من الأمم ما لا يُحصَى كثرةً . وكان المُطَّوِّعة أكثر من الجند ومَنْ في الخدمة . ونَصَب عليها المجانيق (5) الكِبار الفرنجيّة خمسة عشر مَنْجَنيقا ، منها ما يَرْمِي بقِنطار دِمَشْقيّ وأكبر ، ومنها دونه . وأمّا المجانيق الشيطانيّة

---

(1) في الأصلين : « الشريف نجم الدين محمد بن شيحة الحسنى » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه . (راجع عيون التواريخ ، وجواهر السلوك في الخلفاء والملوك لمحمد بن إبراهيم الجزرى ، والنهج السديد) .

(2) سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٩٤ هـ .

(3) يريد أنه أخذ في التجهز للسفر للبلاد الشامية الخ .

(4) نيسان : هو الشهر السابع من شهور السريان وهو ثلاثون يوما ، وابتداؤه في اليوم السادس من برمودة من شهور القبط وينتهي في اليوم الخامس من بشنس ويوافقه إبريل من شهور الروم (عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٨٢) .

(5) المجانيق جمع منجنيق ، وهو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه (صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٧) .

وغيرها فكثيرة[1]، ونَقب عِدّة نقوب . وأنجد أهلَ عَكّا صاحبُ قُبْرُس[2] بنفسه وفى ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانًا عظيمةً لم يُرَ مثلُها فرحًا به ، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام ، ثم عاد عند ما شاهد ٱنحلالَ أمرهم وعِظَمَ ما دهَمهم . ولم يزل الحصار عليها والجِدّ فى أمر قتالها إلى أن ٱنحلّت عزائم مَنْ بها وضَعُف أمرهم واختلفت كلمتهم .

٥ هذا والحصار عمّال فى كلّ يوم ، وٱستُشْهِد عليها جماعةُ من المسلمين .

فلمّا كان سَحَرُ يوم الجمعة سابع عشر جُمادَى الأولى ركب السلطان والعساكر وزَحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكُوسات فكان لها أصوات مَهُولة وحِسٌّ عظيم مُزعِج، فخال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هَرَب الفرنج ومُلِكت المدينة بالسيف، ولم تَمِض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلّا وقد ٱستولى المسلمون عليها

١٠ ودخلوها ؛ وطلَب الفرنج البحرَ فتبِعتْهم العساكر الإسلاميّة تقتُل وتأسِر فلم ينجُ منهم إلّا القليل؛ ونُهِب ما وُجِد من الأموال والذخائر والسلاح وعمِل الأَسْرُ والقتل فى جميع أهلها ، وعصَى الدِّيوِيّة[3] والإسبتار[4] وٱستتر الأَرْمَنُ فى أربعة أبراج شواهق فى وسط البلد فحُصِروا فيها .

فلمّا كان يوم السبت ثامن[5] عشر الشهر، وهو ثانى يوم فتح المدينة ، قصد

١٥ جماعةُ من الجند وغيرهم الدارَ والبرجَ الذى فيه الدِّيوِيّة فطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان وسيّر لهم صَنْجَقًا، فأخذوه ورفعوه على بُرْجهم وفتحوا الباب، فطلَع إليهم جماعةٌ

---

(١) فى عيون التواريخ وجواهر السلوك : « وأما عكا فانهم نصبوا عليها ٱثنين وسبعين منجنيقا ما بين افرنجية وشيطانية » . وفى السلوك للقريزى : « وعدّتها ٱثنان وتسعون منجنيقا » .

(٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٢٨ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

٢٠ (٣) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٣٣ من الجزء السادس، والحاشية رقم ١ ص ٣١٦ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٤) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٣ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

(٥) فى الأصلين : « تاسع عشر » . وما أثبتناه عما تقدّم ذكره للؤلف قريبا والتوفيقات الإلهامية .

كثيرة من الجند وغيرهم، فلمّا صاروا عندهم تعرّض بعض الجند والعوامّ للنهب، ومدّوا أيديهم إلى مَنْ عندهم من النساء والأصاغر، فغلّق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف، فقتلوا جماعةً من المسلمين، وَرَمَوْا الصّنْجق وتمسّكوا بالعِصْيان وعاد الحِصار عليهم . وفى اليوم المذكور نَزَل مَنْ كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على يد الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا المنصورىّ، وتمّ القتال على برج الدَّيْوِيّة ومن عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر[1] من جُمَادَى الأُولى طَلَب الدَّيْوِيّة ومَنْ بَقِىَ فى الأبراج الأمان[2]، فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجّهوا حيث شاءوا . فلما خرجُوا قتلُوا منهم فوق الألفين وأسَرُوا مثلَهم، وساقوا إلى باب الدِّهليز النساءَ والصِّبيان ، وكان من جملة حَنَق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير آقْبُغَا المنصورىّ أحد أمراء الشام كان طلع إليهم فى جملة مَن طلَع فأمسكوه وقتلوه ، وعَرْقَبُوا ما عندهم من الخيول ، وأذهبوا ما أمكنهم إذهابه، فتزايد الحَنَق عليهم . وأخذ الجندُ وغيرُهم من السَّبى والمكاسب ما لا يُحْصَى .

ولمّا علِم مَنْ بَقِىَ منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعِصْيان ، وآمتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشدّ قتال، وآختطفوا خمسة نفَر من المسلمين ورَمَوْهم من أعلى البُرْج فسَلِم منهم نفرٌ واحد ومات الأربعة . ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين[3] جمادى المذكورة أُخذ البرج الذى تأخّر بعكا، وأُنزِل مَن فيه بالأمان، وكان قد غُلِّق من سائر جهاته . فلمّا نزلوا منه وحوّلوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرّجين وممّن قصَد النّهب فهلكوا عن آخرهم . ثمّ بعد ذلك عزل السلطانُ النساء والصِّبيان

(١) فى الأصلين : «التاسع والعشرين» . وتصحيحه عما تقدّم ذكره قريبا .

(٢) فى الأصلين : «طلب الديوية الأمان ومن بقى من الأبراج الامان» .

(٣) فى الأصلين : «ثامن عشر» . وتصحيحه عما تقدّم ذكره للؤلف .

ناحيةً وضرَب رِقاب الرجال أجمعين وكانوا خلائق كثيرة . والعجبُ أن الله سبحانه وتعـالى قَدّر فتحَ عكّا فى مثـل اليوم الذى أخذَها الفرنج فيـه ، ومثل الساعة التى أخذوها فيهـا ، فإنّ الفرنج كانوا آستولَوْا على عكّا فى يوم الجمعة سابع عشر[1] جمادى الآخرة [سنة سبع وثمانين وخمسمائة][2] فى الساعة الثالثة من النهار، وأمّنوا مَنْ كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غَدْرًا ، وقَدّر الله تعالى أنّ المسلمين آسترجعوها منهم فى هذه المرّة يوم الجمعة فى الساعة الثالثة من النهار ، ووافق السابع عشر[3] من جُمادى الأُولى ، وأمّنهم السلطان ثمّ قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين ، فآنتقم الله تعالى من عاقبتهم .

وكان السلطان عنـد منازلته عكّا قـد جهّز جماعة من الجند مقـدّمهم الأمير علم الدين سَنْجَر الصَّوَابى الجَاشْنَكِير إلى صُور لحفظ الطّرق وتعرّف الأخبار ، وأَمَره بمضايقة صُور . فبينما هو فى ذلك لم يشعُر إلّا بمراكب المنهزمين من عكّا قد وافت المِيناء التى لصُور ، لحال بينها و بين المِيناء ؛ فطلَب أهلُ صور الأمان فأمّنهم على أنفسهـم وأموالهم و يُسَلِّموا صـور فأُجيبوا إلى ذلك ، فتسلّمها . وصُور من أجلّ الأماكن ومن الحصون المَنِيعـة ، ولم يفتحها السلطان صـلاح الدين يوسف بن أيّوب فيما فتَح من الساحل ، بل كان صلاح الدين كلّمـا فتح مكانا وأمّنهم أوصلهم إلى صُور هذه لحَصَانتها ومَنَعَتها ، فألقى الله تعالى فى قلوب أهلها الرُّعْب حتّى سلّموها من غير قتال ولا مُنازلة ، ولا كان الملك الأشرف فى نفسـه شىء من أمرها البتّة . وعند ما تَسَلّمها جهّز إليهـا مَن أخربها وهدَم أسوارها وأبنيتَها ، ونُقِل من رُخامها وأنقاضهـا شىءٌ كثير . ولمـّا تيسر أخذ صور على هـذه الصورة قَوِى عزمُ الملك

(١) فى الأصلين : « سابع عشرين » . وتصحيحه عن جواهر السـلوك وتاريخ سلاطين المماليك والتوفيقات الإلهامية .
(٢) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك وجواهر السلوك .
(٣) فى الأصلين : « السابع والعشرين » . والتصحيح عن المصادر المتقدّمة .

الأشرف على أخذ غيرها . ولما كان الملك الأشرف محاصرًا لعكا آستدعى الأمير حُسام الدين لاچين المنصوري نائب الشام، وهو الذي تسلطن بعد ذلك حسب ما يأتي ذكره، والأمير ركن الدين بيبرس المعروف بطُقصُو في ليلة الآثنين ثالث عشر جمادى الأولى إلى المُخيّم وأمسكهما وقيّدهما، وجهّزهما في بكرة نهار الآثنين إلى قلعة صَفَد، ومنها إلى قلعة الجبل . وكان تقدّم قبل ذلك بستّة أيام مسكُ الأمير سَنْجَر المعروف بأبي خُرْص وجهّزه إلى الديار المصريّة محتاطًا عليه . ثم آستقرّ الملك الأشرف بالأمير علم الدين سَنْجَر[1] الشُّجاعى المنصوري في نيابة الشام عِوضًا عن الأمير لاچين المذكور. وعند ما أمسك الأشرف هذين الأميرين الكبيرين حصل للناس قَلَقٌ شديد وخَشُوا من حدوث أمر يكون سببًا لتنفيس الخناق عن أهل عكّا، فكفَى الله تعالى ذلك. ثم أمسك الأشرفُ الأميرَ علم الدين[2] أَيْدُغْدِي الإلْدِكْزِي نائب صفد وما معها لأمرٍ نَقَمه عليه وصادَره، وجعل مكانه الأميرَ عَلَاء الدين أيدِكين[3] الصالحي العمادي، وأضاف إليه مع ولاية صَفَد عكّا وما آستجد من الفتوحات الأشرفيّة . ثم لما فَرَغ[4] الأشرف من مصادرة أيدكين المذكور ولّاه بَرَّ صَفَد عوضًا عن علم الدين سَنْجَر الصَّوابي . ثم آستدعى الملك الأشرف الأميرَ بيبرس الدّوادار المنصوري الخطائي المؤرّخ نائب الكَرَك وعزله، وولّى عوضه الأميرَ آقوش[5] الأشرفي . ثم رحل الملك الأشرف عن عكّا في بُكرة نهار الآثنين خامس جُمادَى الآخرة، ودخل دمشق يوم الآثنين ثاني

(١) سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٩٣ هـ . (٢) في الأصل الآخر: «علاء الدين» .

(٣) هو أيدكين بن عبد الله الصالحي العمادي الأمير علاء الدين . استنابه الملك الأشرف على صفد ومات بها سنة ٦٩٠ هـ . (عن المنهل الصافي وتاريخ الاسلام وجواهر السلوك) .

(٤) هذه العبارة تخالف ما ذكره أن الأشرف خليلا قبض على علم الدين أيدغدي وولى مكانه أيدكين هذا .

(٥) هو آقوش بن عبد الله الأشرفي الأمير جمال الدين نائب الكرك . أصله من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٣٦ هـ .

عشره بعد أن زُيّنت له دِمَشق غايةَ الزينــة ، وعُملت القِباب بالشوارع من قريب المُصَلّى[1] إلى الباب الجديد[2] ، وحصل من الاحتفال لقدومه ما لا يوصف ، ودخَل و بين يديه الأَسْرَى من الفرنج تحتهم الخُيول وفى أرجلهم القيود، ومنهم الحامل من سناجق الفرنج المنكّسة ، وفيهم من حمل رُمحا عليــه من رءُوس قَتْلى الفرنج؛ فكان لقدومه يوم عظيم . وأقام الأشرف بدمشق إلى بُحر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب . وعاد إلى الديار المصريّة فدخلها يوم الاثنين تاسع شعبان؛ فآحتَفَل أيضا أهلُ مصر لملاقاته آحتفالا عظيما أضعاف آحتفال أهل دِمَشق ، وعند دخوله إلى مصر أطلق رُسَل صاحب عكّا الذين كانوا معوَّقين بالقاهرة . ثم إنّ الأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعِيّ نائب الشام فتح صَيْدا بعد حصار كبير بالأمان فى يوم السبت خامس عشر شهر رجب . ولـمّـا أُخذت هذه البلاد فى هذه السنة أَمَر السلطان أن تُخَرَّب قلعة جُبَيْل وأسوارُها بحيث يُلْحقها بالأرض فخُرِّبت أصــلًا ؛ ثم أُخذت عَثْليث[3] بعد شهر .

وأمّا أهل أَنْطَرْطُوس لـمّـا بلغهم أخذُ هذه القِلاع عزموا عَلى الهَرَب ، بُخرّد الأميرُ سيف الدين بَلَبَان الطّباخِى عسكرا، فلمّا أحاطوا بها ليلةَ الخميس خامس شعبان

(١) المراد بالمصلى : مصلى العيد بدمشق . (٢) الباب الجديد ، هو الآن (القرن التاسع الهجرى) خاص بالقلعة ، وهو الذى أحدثه الأتراك فى دولتهم ثم صحفته العوام بالحديد (عن نزهة الأنام فى محاسن الشام ص ٢٧) . (٣) عثليث ، كانت ميناء على ساحل فلسطين بين حيفا وطنطورة . وشهرة عثليث فى التاريخ القديم ترجع لعهد الحروب الصليبية . ففى سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م سقطت فى يد صــلاح الدين . وفى ســنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م فتحها الأشرف خليــل بن قلاوون . وفى سنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م . كانت كورة ذات قرى متسعة فى آخر حدود المملكة الصفدية . وهى الآن محلة لمائتى فلاح يسكنونها و يعملون فى معامل الملح فيها .

(انظر ياقوت وصبح الأعشى ومختصره وجغرافية فلسطين الحديثة لحسين روحى) .

ركبوا البحر وهَرَبوا إلى جزيرة أَرْوَاد[1] ، وهي بالقرب منها ، فندب إليها السَّعْدِيّ بما كان أحضره من المراكب والشواني فأخلوها . وكان فتح هذه المدن الستّ في ستة شهور .

ثم رسم الملك الأشرف بالقبض على الأمير علم الدين سَنْجَر الدوادار ؛ فقُبِض عليه في شهر رمضان ، وجُهِّز الى الديار المصريّة بعد أن أُحيط على جميع موجوده، ثم أَفرج الملك الأشرف على جماعة من الأمراء ممّن كان قبَض عليهم وحبَسهم . وهم : الأمير لاچين المنصوريّ الذي تسلطن بعد ذلك، و بِيبَرْس طُقْصُو الناصريّ ، وسُنْقُر الأشقر الصالحيّ ، و بدر الدين بَيْسَرِي الشمسيّ ، وسُنْقُر الطويل المنصوريّ ، و بدر الدين خِضْر بن جودى القَيْمُرِيّ . وفي شهر رمضان سنة تسعين وستمائة المذكورة أنعم السلطان الملك الأشرف على علم الدين سَنْجَر المنصوريّ المعروف بأَرْجَوَاش خُبْزاً وخَلَع عليه وأُعيد إلى ولاية قلعة دمشق . ثم طلب الملك الأشرف قاضيَ القُدْس بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة[2] إلى الديار المصرية وولّاه قضاءها بعد عزل قاضي القضاة تقيّ الدين[3] ابن بنت الأعز . واستمرّ الملك الأشرف بالديار المصريّة إلى أن تجهّز وخرج منها قاصدًا البلاد الشامية في يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وتسعين وستمائة ، وسار حتّى دخل دِمَشق في يوم السبت سادس جُمادَى الأولى . وفي ثامن جمادى الأولى أَحْضر السلطان الأموال وأنفق في جميع العساكر المصريّة والشامية. ووصل الملك المظفر تقيّ الدين صاحب

(١) جزيرة أرواد جزيرة صغيرة في الجهة الشمالية من طرابلس الشام على بعد خمسين كيلو مترا وفي الجنوب الغربي من أنطرطوس ، على بعد ثلاثة كيلو مترات . طولها ٨٠٠ متر وعرضها ٥٠٠ متر ، وفيها ٨١٠ بيت يسكنها ٤٠٥٣ نسمة تقريباً معظمهم مسلمون ، يمتهنون الملاحة واستخراج الاسفنج من البحر .

(٢) سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٧٣٣ هـ .

(٣) هو تقي الدين عبد الرحمن ابن تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز . سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٩٥ هـ .

حَماة لتلقّى الملك الأشرف فالتقاه فزاد السلطان فى إكرامه، وآستعرض الجيوش عليه وأمر بتسفيرهم قدّام الملك المظفّر المذكور . ثم توجّه الملك الأشرف من دِمَشق بجميع العساكر قاصدًا حلب، فوصلها فى ثامن عشرين جُمادَى الأولى، ثم خرج منها ونزل على قلعة الروم بعساكره وحاصرها إلى أن آفتتحها بالسيف عَنْوَةً فى يوم السبت حادى عشر شهر رجب، وكتَب البشائر إلى الأقطار بأخذها . ثم عاد السلطان إلى دِمَشق وترك بقلعة الروم الشّجاعىّ وعساكر الشام ليُعَمّروا ما آنهدم منها فى الحصار. وكان دخول السلطان إلى دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان بعد أن عزَل الأميرَ قرا سُنْقُر المنصورىّ عن نيابة حلب بالأمير بلَبان الطبّاخى، وولّى عوضا عن الطّباخى فى الفتوحات طُغْرِيل الإيغانى . ولمّا كان السلطان بدمشق عمِل عسكره النَّوْرُوز كعادتهم بالديار المصريّة، وعظُم ذلك على أهل دِمَشق لعدم عادتهم بذلك. وفى يوم الجمعة ثامن عشرين شهر رمضان قَبَض السلطان على الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر، وعلى الأمير ركن الدين طُقْصُو، وهَرَب الأمير حُسام الدين لاچين المنصورىّ ونادَوْا عليه بدِمَشق : مَنْ أحضره فله ألفُ دينار، ومَنْ أخفاه شُنِق . ثمّ ركب الملك الأشرف ومماليكه فى طلب لاچين المذكور، وأصبح يوم العيد والسلطان فى البرية مُهَجّج، وكانوا عملوا السّماط بجارى العادة فى الأعياد، وأطلعوا المِنْبر إلى المَيْدان الأخضر وطلَع الخطيب مُوَفّق[1] الدين فصلّى فى المَيْدان بالعوامّ، وعاد السلطان بعد صلاة العصر إلى دِمَشق، ولم يَقَع للاچين على خَبر. ثم سيّر الملك الأشرف طُقْصُو وسُنْقُر الأشقر تحت الحَوْطة إلى الديار المصريّة . وأمّا لاچين فإنّ العرب أمسكوه وأحضروه إلى الملك الأشرف فأرسله الملك الأشرف مُقَيّدًا

(١) هو موفق الدين محمد آبن عز الدين محمد بن عبد المنعم بن جيش بن أبى المكارم الفضل (عن جواهر السلوك ص ١٢٠) .

إلى مصر . وفى سادس شوّال ولّى السلطانُ الأميرَ عزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِىّ نيابة دِمَشق عوضًا عن الشّجاعىّ .

ثم خرج الأشرف من دِمَشق قاصدًا الديار المصريّة فى ليلة الثلاثاء عاشر شوّال ، وكان قد رسَم الأشرف لأهل الأسواق بدِمَشق وظاهرها أنّ كلّ صاحب حانوت يأخذ بيده شَمْعةً ويخرج إلى ظاهر البلد ، وعند ركوب السلطان يُشعلها ؛ فبات أكثرُ أهل البلد بظاهر دمشق لأجل [الوَقْدو][1] الفُرْجة ! فلمّا كان الثُّلث الأخير من الليل رِكب السلطان وأَشْعَلت الناس الشموع ، فكان أوّل الشمع من باب النصر وآخر الوقيد عند مسجد القَـدَم[2] ، لأنّ والى دمشق كان قد رتّبهم من أوّل الليل ، فكانت ليـلة عظيمة لم يُرَ مثلُهـا . وسافر السلطان حتّى دخل الديار المصريّة يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة من باب النصر وخرج من باب زُوَيْلَة ، وآحتفَل أهل مصر لدخوله آحتفالًا عظيمًا ، وكان يومُ دخوله يومًا مشهودًا . ولمّـا أن طلَع السلطان إلى قلعـة الجبل أنعم على الأمير قَرَا سُنْقُر المنصورىّ المعزول عن نيابة حلب بإمْرة مائة فارس بديار مصر . ثم أَفرج عن الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ وأعطاه أيضا خُبْزَ مائة فارس بديار مصر ، وسببه أنّ السلطان عاقب سُنْقُر الأشقر وركن الدين طُقْصُو فاعترفوا أنّهم كانوا يريدون قتله ، وأنّ لاچين لم يكن معهم ولا كان له آطّلاع على الباطن فخَنقهم وأفرج عن لاچين بعد ما كان وضع الوَتَر فى حَلْقه لخَنْقه ، فَضمنه خُشداشُه الأمير بدر الدين بَيْـدَرَا المنصورىّ نائب السلطان ، وعَلَم الدين سَنْجَر الشجاعىّ وغيرهما .

(١) زيادة عن جواهر السلوك .

(٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٢٦ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

قلت وسُنْقُر الأشقر هو الذى كان تسلطن بدِمَشق فى أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون، ووقع له معه تلك الأمور المذكورة فى عدّة أماكن . وأمّا لاچين هذا فهو الذى تسلطن بعد ذلك وتلقّب بالملك المنصور حسب ما يأتى ذكره . وكلّما ذكرنا من حينئذ لاچين فهو المنصور ولا حاجة للتعريف به بعد ذلك .
ثم إنهم أخْرَجُوا الأمراء المخنَّقين وسلَّموهم إلى أهاليهم، وكان السلطان خنَق معهما ثلاثة أمراء أُخرفأُخرجوا الجميع ودُفنوا؛ ثم غرّق السلطان جماعة أُخرى، وقيل إنّ ذلك كان فى مستهلّ سنة آثنتين وتسعين وستّمائة . وآستمرّ السلطان بمصر إلى أن تجهّز وخرج منها إلى الشام فى جُمادَى الأولى من سنة آثنتين وتسعين وستمائة المذكورة، وسار حتّى دخل دِمَشق فى يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة؛ ونزل بالقصر الأَبْلَق[1] من المَيْدان الأخضر .

ولمّا آستقر ركابه بدَمَشق شرَع فى تجهيز العساكر إلى بلاد سِيس[2] والغارة عليها، فوصل رُسُل صاحب سِيس بطلب الصلح ورِضا السلطان عليه، ومهما طلب منه من القِلاع والمال أعطاه وشَفَع الأمراء فى صاحب سِيس، وآتفق الحال على أن يتسلّم نوّاب السلطان من صاحب سِيس ثلاث قِلاع، وهى : بَهَسْنَا[3] ومَرْعَش[4] وتلّ حَمْدون[5] ففرِح الناس بذلك، لأنه كان على المسلمين من بَهَسْنَا

(١) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٢٧٨ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٢) راجع الحاشية رقم ٣ ص ١٣٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٣) بهسنا : قلعة فى شمالى حلب على نحو أربع مراحل منها . قال فى تقويم البلدان : هى قلعة حصينة مرتفعة لا ترام حصانة . ثم قال : وهى بلدة واسعة كثيرة الخير والخصب وهى فى الغرب والشمال من عينتاب، و بينهما مسيرة يومين، و بينها و بين سيس نحو ستة أيام (عن صبح الأعشى رابع ص ١٢١) . (٤) مرعش : مدينة فى الثغور بين الشام و بلاد الروم لها سوران وخندق وفى وسطها حصن عليه سور يعرف بالمروانى، بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار . (عن معجم البلدان لياقوت) . (٥) تل حمدون : قلعة حصينة ببلاد الأرمن لها سور جيد حسنة البناء، وهى على تل عال ولها ربض و بساتين ونهر يجرى عليها، وهى على القرب من جيحان على بعض مرحلة فى جهة الجنوب عنه، وبين تل حمدون و بين سيس نحو مرحلتين . (عن تقويم البلدان لأبى الفدا إسماعيل و راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٦) .

أذًى عظيم . وأقام السلطان بدمشق إلى مستهلّ شهر رجب توجّه منها، وصحبته عسكر الشام والأمراء وبعض عساكر مصر . وأمّا الضعفاء من عسكر مصر فأعطاهم السلطان دستورًا بعودتهم إلى الديار المصريّة . وسار السلطان حتّى وصل إلى حِمْص، ثم توجّه منها إلى سَلَمْيَة[1] مظهرا أنّه متوجّه إلى ضيافة الأمير حُسام الدين مُهَنّا بن عيسى بن مُهَنّا أمير آل فضل ، وكان خروج السلطان من دِمَشق في ثانى شهر رجب ، فلمّا كان بكرة يوم الأحد سابع شهر رجب وصل الأمير لاجين وصحبته مُهَنّا إلى دِمَشق وهو مقبوضٌ عليه ، أمسكه السلطان لمّا آنقضت الضيافة وولّى عِوضَه شخصًا من أولاد عمّه ، وهو الأمير محمد بن علىّ بن حُذَيْفَة . وفى بقيّة النهار وصل السلطان إلى دِمَشق ، ورسَم للأمير بَيْدَرا أن يأخذ بقيّة العساكر ويتوجّه إلى مصر، وأن يركب تحت الصناجق عِوضَ السلطان وبَقِى السلطان مع خواصّه بدمشق بعدهم ثلاثة أيام، ثم خرج من دِمَشق [في يوم السبت ثالث عشر رجب][2] وعاد إلى جهة الديار المصريّة فى العَشْر الأخير من شهر رجب من سنة آثنتين وتسعين وستمائة؛ ثم إن السلطان أمر الأمير عزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِىّ الأفرم أمير جَانْدار[3] نائب الشام أن يُسافر إلى الشوبك ويُخرّب قلعتها، فكلّمه الأفرم فى بقائها فآنتهره ، وسافر من يومه، وتوجّه الأفرم إلى الشوبك وأخربها غير القلعة . وكان ذلك غاية ما يكون من الخطأ وسوء التدبير ، وكان أخرب قبل ذلك أيضًا عِدّة أماكن بقلعة الجبل،

(١) راجع الحاشية رقم ٢ ص ١١٩ من الجزء الثانى من هذه الطبعة . (٢) زيادة عن جواهر السلوك ، وتاريخ الدول والملوك، وتاريخ سلاطين المماليك . (٣) أمير جاندار : مركب من جان (أى روح ونفس) ومن دار (أى حارس وحافظ) . والمتولى إمرة جاندار يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان (عن صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ والألفاظ الفارسية المعربة) .

و بقلعة دِمَشق أيضا أخرب عِدّة قاعات ومبانى هائلة . وأمّا قِلاع السواحل فأخرب غالبها، وكان يقصد ذلك لمعنًى يَخْطُر بباله .

ثم فى العشرين من ذى الحِجّة نصَب السلطان ظاهر القاهرة خارج باب النصر القَبَق ، وصـفة ذلك أن يُنصَب صارٍ طويلٌ ويُعمَل على رأسـه قرعةٌ من ذَهَب أو فضّة ويُجعل فى القرعة طيرُ حَمَـام ، ثمّ يأتى الرامى بالنُّشّاب وهو سائقٌ فرسَـه ويَرْمى عليـه ، فمَن أصاب القرعة وطيّر الحمامَ خُلِـع عليه خلعة تليق به ، ثم يأخذ القرعة . وكان ذلك بسبب طهور أخى الملك الأشرف ؛ وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وطهور آبن أخيه الأمير مظفّر الدين موسى آبن الملك الصالح علاء الدين علىّ بن قلاوون ، فآحتفل السـلطان لطهورهما وعَمِل مُهِمًّا عظيماً . وكان الطهور فى يوم الآثنيـن ثانى عشرين ذى الحِجّة . وعندما طَهّروهم رَمُوا الأمراء الذهب لأجل النّقوط ؛ فإن كان الأميرُ أميرَ مائة فارس رَمَى مائة دينـار ، وإن كان أميرَ خمسين فارسا رمى خمسين دينارا ، وقِسْ على ذلك سائر الأمراء ؛ ورمَى حتى مُقدّمو الحَلْقة والأجناد ، بَجُمِـع من ذلك شىء كثير ؛ وهو آخر فَرح عمِله الأشرف هذا .

ثم بعـد فَرَاغ المهمّ بمدّة يسيرة ، نزل السـلطان الملك الأشرف المذكور من قلعة الجبل متوجِّهاً إلى الصَّـيْد فى ثانى المحرّم سـنة ثلاث وتسعين وستمائة وصُحْبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السَّلْعُوس ، ونائب سلطنته الأمير بدر الدين بَيْدَرَا وجميع الأمراء ، فلمّا وصل إلى الطّرّانة[1] فارقه وزيرُه آبن السَّلْعُوس المذكور وتوجّه إلى الإسكندرية .

(١) الطرانة ، هى من البلاد المصرية القديمة ، اسمها المصرى : «طرنوت» والرومى «طرنوتيس» . وسماها العرب : « الطرانة » . وهى اليوم قرية صغيرة واقعة على الشاطئ الغربى لفرع النيل الغربى (فرع رشيد) ضمن قرى مركز كوم حمادة بمديرية البحيرة جنوبى محطة كفر داود وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات منها .

وأمّا السلطان فإنّه نزل بالحمّامات[1] لأجل الصَّيد، وأقام إلى يوم السبت ثانى عشر المحرّم . فلمّا كان قرب العصر وهو بأرض تَرُوجة[2] حضر إليه الأمير بدر الدين بَيْدَرَا نائب السلطنة ومعه جماعةٌ كثيرة من الأمراء ؛ وكان السلطان بُكْرة النهار قد أمَره أن يأخذ العسكر والدِّهْليز ويمشى عوضه تحت الصناجق وأن يتقدّمه ، ويبقى السلطان يتصيّد وحدَه بقيّة يومه ويعود العشيّة إلى الدِّهليز، فتوجّه بَيْدَرَا على ذلك ؛ وأخذ السلطان الملك الأشرف يتصيّد ومعه شخص واحد يقال له شهاب الدين [أحمد بن] الأَشَل[3] أميرُ شِكار[4]، وبينما السلطان فى ذلك أتاه هؤلاء : بَيْدَرَا ورفقته، فأنكر السلطان مجيئهم ، وكان فى وسط السلطان بندُ حريرِ وليس معه بُمجة[5] لأجل الصيد ، وكان أوّل من ابتدره الأمير بَيْدَرَا فضربه بالسيف ضَرْبةً قطع بها يدَه مع كَتِفه ، فجاء الأمير حُسام الدين لاچين، وهو الذى تسلطن بعد ذلك بمدّة ، وقال لبَيْدَرَا : يا نحس ! مَنْ يُريد مُلْك مصر والشام تكون هـذه ضربته ! ثم ضربه على كَتِفه فحلّها ، ووقع السلطان على الأرض ، فجاء بعدهما الأمير بَهادُر رأس نَوْبة[6] ، وأخذ السيف ودسّه فى دُبُره وأطلعه من حَلْقه ، وبقى يجىء واحد من الأمراء بعد

(١) الحمامات، ذكر ابن إياس فى كتابه تاريخ مصر (ص ١٢٦ ج ١) : أن الملك الأشرف خليلا خرج من القاهرة فى ثالث المحرّم سنة ٦٩٣ هـ وتوجه إلى جهة البحيرة للتنزه فلما وصل هناك ضرب خيامه فى مكان يعرف بالحامات وهو غربى تروجة فأقام هناك مدة .

وأقول : إن هـذا المكان لا يزال يعرف إلى اليوم باسم كوم الحمام ويقع غربى كوم تروجة على بعد أربع كيلومترات منه بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبى المطامير بمديرية البحيرة .

(٢) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٣٠ من الجزء الرابع من هذه الطبعة .

(٣) تكلة عن تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٥، وما سيذكره المؤلف فى هذه الترجمة بعد قليل .

(٤) راجع الحاشية رقم ٥ ص ١٨٤ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

(٥) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٤ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

(٦) رأس نوبة، وظيفة من وظائف أرباب السيوف فى الدولة الأيوبية وما بعدها، وموضوعها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء : واحد مقدّم ألف، وثلاثة طبلخاناه (عن صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨) .

واحد و يُظْهِرون ما فى أنفسهم منـه . ثم تركوه فى مكانه وآنضموا على الأمير بَيْدَرَا وحلفوا له ، وأخذوه تحت الصناجق و ركبوا سائرين بين يديه طالبين القـاهرة . وقيل فى قتله وجهٌ آخر .

قال القُطْب اليُونِينِيّ : « ومما حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفَّدار : كيف كان قتل السلطان الملك الأشرف خليل ؟ قال : سألت الأمير شهاب الدين أحمد بن الأَشَلّ أمير شِكَار السلطان ، كيف كان قتل السلطان الأشرف ؟ فقال [آبن] الأَشَلّ : بعد رحيل الدِّهليز (يعنى مدورة السلطان والعساكر) جاء إليـه الخبرُ أنّ بتَرُوجة طيرا كثـيرا ، فقال السلطان : اِمشِ بنـا حتى نَسبِقَ الخاصّكيّة[(1)] ، فركبْنا وسِرْنا ، فرأينا طيرًا كثيرا فرماه السلطان بالبُنْدُق ، فأصرع شيئا كثيرا ، ثم إنّه آلتفت إلىّ وقال : أنا جيعان[(2)] ، فهـل معك شيء تُطْعمُنى ؟ فقلت : والله ما معى سـوى فَرُّوجة و رغيف خُبْز ، قد آدّخرته لنفسى فى صَوْلَقى[(3)] ، فقال لى : ناولْنى إيّاه ، فأخذه وأكله جميعَه ، ثم قال لى : أَمسِكْ لى فَرَسى حتّى أنزِلَ وأُرِيقَ المـاء ، فقلت له : ما فيها حيلة ! أنت راكبٌ حِصانًا وأنا راكب حِجْرة[(4)] وما يتفقوا ، فقال لى : انزل أنت وآركب خَلْفِى وأركب أنا الحِجْرة التى لك ، والحِجْرَة مع الحِصان تقف ، قال : فنزلت وناولتُه لجام الحِجْرَة ، ثم إنّى ركبتُ خلفَه ، ثمّ إنّ السلطان نزل وقعَـد يُرِيق المـاء ، وشرع يُولِـغ بذكره ويُمازحنى ، ثم قام وركب حِصانه ومَسَك لى الحجرة ، ثم إنّى ركبتُ . فبينا أنا و إيّاه نتحدّث و إذا بغُبار عظيم قد ثار وهو قاصـدٌ نحوَنا ، فقال لى السلطان : سُق وآكشف لى خَبَر هذا الغُبار ، قال : فسُقتُ ، و إذا الأمير

(1) راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٧٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة .
(2) يريد جوعان ، وصف من الجوع . (3) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٧٨ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (4) يريد بها الأنثى من الخيل . وفى لسان العرب : « الحِجر الفرس الأنثى لم يدخلوا فيه الهاء لأنه آسم لا يشركها فيه المذكر » .

بدر الدين بَيْدَرَا والأمراءُ معه ، فسألتُهم عن سبب مجيئهم فلم يردّوا علىّ جواباً ولا
ٱلتفتوا إلى كلامى ، وساقوا على حالهم حتّى قرُبوا من السلطان ، فكان أوّل من
ٱبتدره بَيْدَرَا بالضَّرْبة قطع بها يدَه وتمّم الباقى قتلَه » . انتهى .

وأمّا أمرُ بَيْــدَرَا فإنّه لمـّا قتَل السلطانَ بايع الأمراءُ بَيْدَرَا بالسلطنــة ولقّبوه
بالملك الأوحد و بات تلك الليلة ، فإنّ قتْل الأشرف كان بين الظّهر والعصر . ٥
وأصبح ثانى يومه سار بَيْدَرَا بالعساكر إلى نحو الديار المصريّة ؛ و بينما بيدَرَا سائر
بعساكره و إذا بغُبار عظيم قــد علا وملأ الجوّ وقرُب منــه ، و إذا بطُلْب عظيم فيه
نحوُ ألف وخمسمائة فارس من الخاصّكيّة الأشرفيّة ، ومعهم الأميرُ زَيْن الدين كَتْبُغَا ،
وهو الذى تسلطن بعد ذلك بمدّة على ما يأتى ذكره . والأمير حُسام الدين الأستادار
طالبين بيــدرا بدم أستاذهم السلطان الملك الأشرف خليل المذكور وأَخْذ الثّأْر منه ١٠
ومن أصحابه . وكان ذلك بالطرّانة فى يوم الأحد أوّل النهار، فما كان غيرُ ساعة
إلا وٱلتقَوْا ، وكان بَيْــدَرَا لمـّا رآهم صَفّ مَنْ معــه من أصحابه للقتال ، فصدموه
الأشرفيّة صَدْمةً صادقة وحملوا عليه حَمْلةً واحدة فرّقوا شمْله ، وهرَب أكثرُ مَنْ كان
معه ؛ فحينئذ أحاطوا بَبْيَدَرَا وقبضوا عليه وحزُّوا رأسه ، وقيل : إنهم قطعوا يده قبل
أن يحُزُّوا رأسه ؛ كما قُطِعت يد أستاذهم الملك الأشرف بضربة السيف ، ولمـّا حزُّوا ١٥
رأســه حملوه على رُمْح وسـيّروه إلى القاهرة ، فطافوا به ثم عادوا نحو القاهرة حتى
وصلوا برّ الجيزة ، فلم يُمكّنهم الأميرُ علم الدين سَنْجَر الشُّجاعىّ من التعديَة إلى برّ مصر ،
لأنّ السلطان الملك الأشرف كان قد تركه فى القلعة عند سـفره نائبَ السلطنة بها ،
فلم يلتفتوا إليه وأرادوا التعديَة ؛ فأمر الشجاعىّ المراكبَ والشوانىَ فعــدّت إلى برّ
القاهرة ، و بقى العســكر والأمراء على جانب البحــر مقيمين حتى مشتْ بينهــم ٢٠
الرُّسُل على أن يُمكّنهم الشجاعىّ من العُبور حتى يُقيموا عِوضَ السلطان أخاه الملك

الناصر محمد بن قلاوون وهو صغير، تسكينًا لمـا وَقَع و إخمادًا للفتنة، فأجلسوه على تخت الملك بقلعة الجبل فى رابع عشر المحرّم من سنة ثلاث وتسعين وستمائة المذكورة، وأن يكون نائبُ السـلطنة الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا، والوزير الأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعىّ، وحُسام الدين أُستاذ الدار أَتابك العساكر .

قلت : وساق الشيخ قُطْب الدين اليُونِينِيّ واقعـةَ الملك الأشرف هذا وقتله وقتلَ بَيْدَرَا بأطولَ من هذا، قال الشيخ قطب الدين :

« وحكَى لى الأمير سيف الدين بن المحفَّدَار أميرُ جانْدار قال: كان السلطـان الملك الأشرف قد أنْفَذَنى فى أوّل النهار إلى الأمير بدر الدين بَيْدَرَا يأمره أن يأخذَ العساكرَ و يسير بهم ، فلمّا جئتُ إليه وقلت له : السلطان يأمرك أن تَسيرَ الساعة تحت الصناجق بالأمراء والعسكر، قال : فنَفَر فىّ بَيْدَرَا ، ثم قال : السمعَ والطاعةَ ؛ قال : ورأيتُ فى وجهه أثَرَ الغَيْظ والحَنَق وقال : وكم يستعجلنى ! فظهر فى وجهه شىءٌ ما كنتُ أعهدُه منه ؛ ثم إنّى تركتُه ومشيتُ حملتُ الزَّرَدْخاناه[1] والثَّقَل الذى لى وسِرتُ ، فبينما أنا سائرٌ أنا ورفيق الأميرُ صارم الدين الفَخْرِىّ وركن الدين أمير جانْدَار عند المَسَاء، و إذا بنجّاب سائرٍ، فسألتُ عن السلطان أين تركتَه ؟ فقال : طوّل الله أعماركم فيه ؛ فبينما نحن متحيّرون فى أمره، و إذا بالسناجق التى للسلطان قد لاحت وقرُبت والأمراءُ تحتها ، والأمير بدر الدين بَيْدَرَا بينهم وهم مُحْدِقون به ؛ قال : فجئنا وسلَّمنا عليه، فقال له الأمير ركن الدين بيبَرْس أمير جانْدار : ياخَوَنْد ، هذا الذى فعلتَه كان بمَشُورة الأمراء ؟ قال : نعم ، إنّما قتلتُه بمَشُورتهم وحضورهم،

(١) الزردخاناه (السلاح خاناه) : ومعناها بيت الزرد لمـا فيها من الدروع الزرد، وتشتمل على أنواع السـلاح من السيوف والقسى العربية والنشاب والرماح والدروع وغيرها (راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ١١).

وها هم كلّهم حاضرون ، وكان من جملة مَنْ هو حاضر الأمير حُسام الدين لاچين المنصورى ، والأمير شمس الدين قَراسُنْقُر المنصورى ، والأمير بدر الدين بَيْسَرى ، وأكثر الأمراء سائقون معه ؛ قال : ثم إنّ بَيْـدَرَا شرع يُعَدِّد سيئات السـلطان وَمخازيه ومناحِسَه وإهمالَه أمورَ المسلمين وآستهزاءَه بالأمراء ومماليك أبيه ووزارته لآبن السَّلْعُوس ؛ قال : ثم إنّه سألنا هل رأيتم الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا ؟ فقلنا له : لا ، فقال بعض الأمراء : ياخَوَنْد ، هل كان عنده علمٌ بالقضيّة ؟ فقال : نعم ، وهو أوّل من أشار بهذا الأمر .

فلمّا كان ثانى يوم وإذا بالأميرين[(١)] : زَيْن الدين كَتْبُغَا وحُسام الدين أستاذ الدار قد جاءوا فى طُلْب كبير فيه مماليك السلطان الملك الأشرف نحوٌ من ألْفَىْ فارس وفيهم جماعةٌ من العسكر والحَلْقة ، فآلتقَوْه بالطّـرّانة يوم الأحد أوّل النهـار . ثم ساق قطب الدين فى أمر الواقعة نحوًا مما ذكرناه من أمر بَيْـدَرَا وغيره ، إلى أن قال : وتفرّق جمع الأمير بَيْـدَرَا . قال آبن المحفَّدار : فلمّا رأينا مالنا بهم طاقة آلتجأنا إلى جبل هناك شمالىّ[(٢)] ، وآختلطنا بذلك الطُّلْب الذى فيه كَتْبُغَا ، ورأينا بعض أصحابنا ، فقال [لنا][(٣)] : شُـدّوا بالعَجَلة مناديلكم فى رقابكم إلى تحت آباطكم ، فهى الإشارة بيننا وإلّا قتلوكم أو شلحوكم ، فعملنا[(٤)] مناديلنا فى رقابنا إلى تحت آباطنا ، وكان ذلك سببَ سلامتنا ، فحصل لنا به نَفْع كثير من جهة الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا ومن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وسَلِمت بذلك أنفُسنا وأثقالُنا [وأهلونا][(٥)] وأموالُنا ؛ ثم ظهر لهم أنّنا لم يكن لنا فى باطن القضيّة عِلْم . قال : وسرنا إلى قلعة

(١) فى الأصلين : « واذا بالأمير » . وتصحيحه عن جواهر السلوك . (٢) فى جواهر السلوك : « الى جبل هناك عال » . (٣) زيادة عن جواهر السلوك وتاريخ الإسـلام .
(٤) فى الأصلين : « فقعلنا » . وما أثبتناه عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك .
(٥) زيادة عن جواهر السلوك .

الجبل . وذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون حسب ما نذكره فى ترجمته إن شاء الله تعالى فيما يأتى .

قال : ولمّا كان يوم خامس عشرين المحرّم[(١)] أُحْضِر إلى قلعة الجبـل أميران وهما سيف الدين بهادُر رأس نَوْبة و جمال الدين آقوش الموصلىّ الحاجب ، فحين حضروا ٱجتمعوا الأشرفيّة عليهم فضربوا رِقابهم وعلّقوا رأس بَهَادُر على باب[(٢)] داره الملاصِقة لمشهد الحسين بالقاهرة[(٣)] . و بَهَادُر هذا هو الذى حطّ السيف فى دُبر الملك الأشرف بعد قتله وأخرجه من حَلْقه . ثم أخذوا جثّته وجثة آقوش وأحرقوهما فى قَمِين جير.

وأمّا الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ ، والأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر فإنّهما ٱختفيا ولم يَظْهر لهما خبرٌ ، ولا وقع لهما على أثَر . ثم أحضر المماليكُ الأشرفيّةُ سبعة أمراء ، وهم : سيف الدين نُوغَيْه ، وسيف الدين أَلِناق ، وعلاء الدين أَلْطُنْبُغَا الجَمَدَار ، وشمس الدين سُنْقُر[(٤)] مملوك لاچين ، وحُسام الدين طُرُنْطاى السّاقى ، ومحمد خَوَاجا[(٥)] ، وسيف الدين أُرُوس فى يوم الاثنين خامس صفر إلى قلعة الجبل ، فلمّا رآهم السلطان الملك الناصر محمد أمر بقطع أيديهم أوّلا ، و بعد ذلك يُسَمَّرُون على الجمال وأن تُعلَّق أيديهم فى حُلوقهم ففعل ذلك ، ورأسُ بَيْدَرَا أيضاً على رُمح يطاف به معهم بمصر[(٦)]

(١) فى جواهر السلوك : « وفى خامس عشر المحرم حضر ... الخ » . (٢) دار سيف الدين بهادر ، بما أن هذه الدار كانت ملاصقة لمشهد الحسين فلا بدّ أنها دخلت ضمن مبانى جامع سيدنا الحسين الحالى ، لأن كل ما كان مجاورا للشهد من الجهات البحرية والغربيـة والقبلية دخل فى المسجد . وأما الجهة الشرقية ففيها الطريق . (٣) راجع الحاشيـة رقم ١ ص ٥٥ من الجزء السادس من هـذه الطبعة . (٤) فى جواهر السلوك وتاريخ ٱبن الوردى : « آق سنقر » .

(٥) فى الأصلين : « محمد جا » . وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك وجواهر السلوك وتاريخ ٱبن الوردى وعقد الجمان . (٦) مصر ، المقصود بها مصر القديمة التى كانت تعرف بالفسطاط ، وهى اليوم أحد الأقسام الإدارية بمحافظة مصر (القاهرة) .

والقاهرة ، وبَقُوا على هذه الحالة إلى أن ماتوا ، وكلّ مَنْ مات منهم سُلِّم إلى أهله والجميع دفنوهم بالقرافة .

قلت : وقريب ممّا وقع لبَيْدَرا هذا وأصحابه أوائلُ ألفاظ المقالة الخامسة عشرة من « كتاب أطباق الذهب » للشيخ الإمام الربّانى شرف الدين عبد المؤمن الأصفهانىّ المعروف بشَوَرْوَة[1] ، وهى قوله :

« من الناس من يَستطيبُ رُكوبَ الأخطار ، ووُرودَ التيّار ، ولُحوق العار والشَّنار ، ويستحِبّ وَقْدَ النار ، وعَقْد الزُّنّار ، لأجل الدينار ، ويَستلِذّ سَفّ الرَّماد ، ونَقْل السِّماد ، وطَىّ البلاد ، لأجل الأولاد ، ويَصبِر على نَسْف الجبال ، ونَتْف السِّبال[2] ، لشهوة المَال ، ويُبَدِّل الإيمانَ بالكفر[3] ، ويَحْفِر الجبال بالظُّفْر ، للدنانير الصُّفْر ، ويَلِج ماضِغَى[4] الأُسُود ، للدراهم السُّود ، لا يكره صُداعا ، [إذا نال كُراعا][5] ، ويلقى النوائب بقلب صابر ، فى هَوَى الشيخ أبى جابر[6] ، ويأبَى العِزّ طبيعة ، ويَرَى الذّلّ شريعة ، وإن رُزِق لَعِيعة[7] ، يراها صنيعة ، يؤمّ راسُه وتُرَضّ أضراسُه ، وإن أُعْطِىَ درهمًا ، يراه مَرْهما .

ومن الناسِ من يختار العَفاف ، ويَعاف الإسفاف ، يَدَعُ الطعام طَاوِيا ، ويَذَرُ الشراب صادِيا ، ويَرَى المال رائحا غادِيا ، يترك الدنيا لطُلّابها ، ويَطْرَح الجيفة لكلابها ، لا يسترزق لئام الناس ، ويقنَع بالخُبْزِ الناس[8] ، يكره المَنّ والأذى ، ويَعاف

(١) فى الأصلين : « المعروف بشفروه » . وراجع الحاشية رقم ١ ص ١٩٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٢) السبال : الشوارب وطرف اللحية . (٣) لعله ويبدل بالإيمان الكفر . (٤) فى الأصلين : « ماضغ » بالإفراد . وما أثبتناه عن أطباق الذهب . (٥) تكملة عن أطباق الذهب . (٦) أبو جابر : كنية الخبز . (٧) اللعيعة : خبز الجاورس (حب معروف يؤكل) عن شرح القاموس . (٨) فى الأصلين : « الخبز الياس » . وما أثبتناه عن أطباق الذهب . والناس من نس اللحم والخبز : يبس .

المـاء على القَـذَى ؛ إن أَثْرَى جعل موجودَه معدوما ، وإن أقوى[1] حَسِب قَفَاره مَأْدُوما ؛ جَوْفٌ خال ، وثوب بال[2] ، ومجدٌ عال ؛ ووجهٌ مُصْفَرّ ، عليه قُرّ ؛ وثوبٌ أسمـال ، ووراءه عِزٌّ [و] جَمَال ؛ وعقِبٌ مشـقوق ، وذَيْلٌ مفتوق ، يجرُّه فتى مغبوق . شعر :

٥

لله تحت قِبابِ العِـزّ طائفــةٌ * أخفاهُـمُ فى رِداء الفَقْر إجلالا

همُ السلاطينُ فى أطمار مَسْكَنَةٍ * اِسْتَعْبَدُوا من ملوك الأرض أقْيالا

غُبْرٌ ملابسهم شُـمٌّ معاطِسُهم * جَرُّوا على فَلَكِ الخَضْراءِ أذْيالا

هذى المناقبُ لا ثوبان من عَدَنٍ[3] * خِيطَا قميصًا فصارا بعـدُ أسمـالا

هـذى المكارمُ لا قَعْبان من لَبَنٍ * شِـيبَا بمـاءٍ فعادا بعــدُ أبوالا

١٠

هم الذين جُبِلوا بَرَآء من التَّكلُّف ، « يَحْسَبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفُّف » . انتهى ما ذكرناه من المقالة الخامسة عشرة وإن كنّا خرجنا عن المقصود من كون غالبها من غير ما نحن فيه ، غير أنّى لم أذكرها بتمامها هنا إلّا لغرابتها . انتهى .

ولمّـا مات الملك الأشرف خليل هـذا ، وتمّ أمرُ أخيـه الملك الناصر محمد فى السلطنة ، آستقرّ الأمـير زَيْن الدين كَتْبُغَا المنصورىّ نائبَ السلطنة ، وسَنْجَر الشُّجاعىّ مدبّرَ المملكة وأتابَك العساكر ، وبقيّـة الأمور تأتى فى أوّل سلطنة الملك

١٥

الناصر محمد بن قلاوون بأوضحَ من هذا

ولمّـا قُتِل الملك الأشرف خليل المذكور بَقِى مُلْقًى إلى أن خَرج وَالِى تَرُوجَة من بعد قتله بيومين ، ومعه أهل تَرُوجة ، وأخذوه وغسّلوه وكفّنوه وجعلوه فى تابوتٍ

(١) أقوى : افتقر . (٢) فى الأصلين : « وقلب بال » . وما أثبتناه عن أطباق الذهب .

٢٠

(٣) يقال : ثياب عدنيات أى كريمة .

فى دار الوالى إلى أن سيّروا من القاهرة الأمير سعد الدين كوجبا الناصرى إلى مصرعه ، فأخذه فى تابوت ووصل به إلى القاهرة سحر يوم الخميس ثانى عشرين صفر ، فدفن فى تربة[1] والدته بجوار أخيه الملك الصالح على بن قلاوون — رحمهما الله تعالى — ورثاه ابن حبيب بقصيدة ، أولها :

تبًّا لأقوامٍ تمالك رقهم * فتكوا وما رقّوا لحالة مُترَف ٥
وافوه غدرًا ثم صالوا جملةً * بالمشرفى على المليك الأشرف
وافى شهيدًا نحو روضات الرضا * يختال بين مُزهّر ومُزخرف
ومضى يقول لقاتليه تربّصوا * بينى و بينكم عراض الموقف

(١) يستفاد مما ذكره المؤلف أن جثة الأشرف بقيت فى تروجة حول أربعين يوما ، وأنه دفن فى تربة والدته بجوار أخيه الملك الصالح على بن قلاوون ، ولكن ابن إياس ذكر فى كتاب تاريخ ١٠ مصر (ص ١٢٧ ج ١) : أن الملك الأشرف خليلا بعد قتله بقى مطروحا فى البرية ثلاثة أيام ، وقد أكلت القتاب جثته إلى أن حمل ما بقى منها أيدمر الفخرى والى تروجة على جمل وأتى به إلى القاهرة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى مدرسته التى بالقاهرة بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها . وذكر المقريزى فى خططه عند الكلام على سلطنة الملك الأشرف خليل (ص ٢٣٩ ج ٢) : أنه بعد قتله حمل إلى القاهرة ودفن بمدرسته الأشرفية . وذكر ابن دقاق (ص ١٢٤ ج ٤) : أن المدرسة الأشرفية والتربة ١٥ بها بالقرب من المشهد النفيسى عمرها الملك الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون ورتب بها دروسا للفقهاء ورتب بها مقرئين وخدابا للتربة . وأما المؤلف فلم يذكر هذه المدرسة ضمن ما ذكر من منشآت الملك الأشرف خليل .

وبالبحث تبين لى (١) أن هذه المدرسة لا يزال موجودا منها القبة وفيها قبر منشئها ، وتعرف اليوم باسم قبة الأشرف أو تربة الأشرف بشارع الأشرف بالقاهرة بالقرب من المشهد النفيسى من الجهة الشمالية ٢٠ منه ، ولانخفاض أرض هذه التربة عن منسوب الأرض المحيطة بها قد أقامت إدارة حفظ الآثار العربية حولها حائطا مرتفعا لمنع تهايل الأتربة عليها . (٢) ظاهر فى الكتابة المنقوشة بأعلى الحائط القبلى أسفل القبة من الخارج أن هذه القبة أمر بانشائها الملك الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون فى شهور سنة ٦٨٧ هـ . ويستفاد من هذا أنه أنشأها وقت أن كان وليا لعهد أبيه ، ثم أتم عمارتها و زخرفها بعد أن صار ملكا ، ولذلك كتب جميع ألقابه الملكية بأعلى حوائطها من الخارج ولم يثبت تاريخ الفراغ من عمارتها ٢٥ بل أثبت تاريخ تأسيسها وهو سنة ٦٨٧ هـ . (٣) أن الملك الأشرف خليلا دفن تحت هذه القبة ، وليس بتربة والدته كما ذكر المؤلف بدليل أن قبره لا يزال موجودا تحت هذه القبة المشهورة إلى اليوم بتربة الأشرف ، ويؤيد ذلك رواية كل من ابن دقاق والمقريزى وابن إياس السابق ذكرها .

وقال النُّوَيْرِىُّ فى تاريخه : كان ملكا مَهِيباً شجاعا مِقْداما جَسُوراً جوَاداً كريماً بالمـال ، أنفق على الجيش فى هذه الثلاث سنين ثلاث نفقات : الأولى فى أوّل جلوسه فى السلطنة من مال طُرُنْطَاى ، والثانية عنـد توجُّهه الى عَكّا ، والثالثة عند توجُّهه الى قلعة الروم . انتهى كلام النُّوَيْرِى باختصار .

٥ وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك الصَّفَدِى فى تاريخه : « وكان قبـل ولاية الملك الأشرف يُؤخذ عنـد باب الجابية[1] بدمَشق عن كلّ حِمْل خمسةُ دراهم مَكْسًا ، فأوّل ما تسلطن ورَدَت إلى دمشق مسامحةٌ بإسقاط هـذا ، وبين سطور المرسوم بقلم العَلَامة بخطـه : لتسقُطْ عن رعايانا هـذه الظُّلامة ، ويُستجلَب لنا الدعاء من الخاصّة والعامّة » . انتهى كلام الصفدى .

١٠ وقال الحافظ أبو عبدالله الذَّهَبِى فى تاريخه ، بعـد أن ساق من أحواله قطعةً جيّدة ، فقال : « ولو طالت أيّامُه أو حياتُه لأخذ العراق وغيرها ، فإنّه كان بطَلا شجاعا مِقْداما مهيبا عالى الهمّة يملأ العين ويَرْجُف القلبَ ، رأيته مرّات ، وكان ضخماً سَمِينا كبير الوجه بديع الجمـال مُستدير اللِّحيـة ، على وجهه رَوْنَقُ الحُسن وهيبةُ السـلطنة ، وكان إلى جوده وبَذْله الأموالَ فى أغراضـه المنتهى . وكان مَخُوف السطوة، شديد الوطأة ، قوى البطش ؛ تخافه الملوك فى أمصارها ، والوحوش

١٥ العاديةُ[2] فى آجامها . أباد جماعةً من كبار الدولة . وكان منهمكا فى[3] اللذات ، لا يعبأ بالتحرّز لنفسه لفرط شجاعته، ولم أحسبْه بلغ ثلاثين سنة ، ولعلّ الله عزّ وجلّ قد

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٢٨٧ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

(٢) فى الأصلين : « والوحوش الفارة » . والتصحيح عن تاريخ الإسلام للذهبى والمنهل الصافى .

٢٠ (٣) فى الأصلين : « منهمكا على » .

عفا عنـه وأوجب له الجنّـة لكثرة جِهاده ، وإنكائِه فى الكُفّار » . انتهى كلام الذهبي بآختصار .

قلت : وكان الأشرف مُفْرِط الشجاعة والإقدام ، وجمهو ر النـاس على أنه أشجع ملوك الترك قديمًا وحديثًا بلا مدافعة ، ثم من بعده الملك الناصر فرج آبن الملك الظاهر برقوق، وشهرتهما فى ذلك تُغْنِي عن الإطناب فى ذكرهما .

وكانت مدّةُ مملكة الأشرف هذا على مصر ثلاثَ سنين وشهرين وخمسة أيام، لأنّ وفاة والده كانت فى يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة . وجلس الأشرف المذكور على تخت الملك فى صَبيحة دَفْن والده فى يوم الآثنين ثامن ذى القعـدة [1] . وقتِل فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم [2] سنة ثلاث وتسعين وستمائة . انتهى .

وقال الشيخ قُطْب الدين البُونِينِيّ : ومات (يعنى الملك الأشرف) شهيدا مظلوما فإنّ جميع مَنْ وافق على قتله كان قد أحسن إليـه ومنّاه وأعطاه وخوّله ، وأعطاهم ضِياعًا بالشام ، ولم تتجدد فى زمانه مَظْلَمة ، ولا آستجدّ ضمانَ مُكس ، وكان يُحبّ الشامَ وأهله ، وكذلك أهلُ الشام كانوا يحبونه — رحمه الله تعالى وعفا عنه — .

*
* *

السنة الأولى من سلطنة الملك الأشرف صلاح الدين خليل على مصر وهى سـنة تسعين وستمائة . على أنه حكم من المـاضية من يوم الآثنين ثامن ذى القعدة إلى آخرها . انتهى .

---

(١) تقـدم فى أول الترجمـة ص ٣ أنه جلس على تخت الملك يوم وفاة أبيه فى يوم الأحد سابع ذى القعدة سنة تسع وثمـانين وستمائة .

(٢) فى الأصلين هنـا «فى يوم السبت تاسع عشر المحرم» وتصحيحه عما تقدم ص ١٧ ، ويوافقه ما فى تاريخ سلاطين المماليك وجواهر السلوك وتاريخ الاسلام .

فيها (أعنى سنة تسعين وستمائة) تُوفّى الشيخ عِزّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن طَرْخان الأنصارىّ السُّوَيْدىّ[(١)] الطبيب المشهور، وهو من ولد سعد بن مُعاذ الأَوْسىّ — رضى الله عنه — كان قد تفرّد فى آخر عمره بمعرفة الطبّ، وكان له مشاركة جيّدة فى العربيّة والتاريخ، واجتمع بأكابر الأطبّاء وأفاضل الحكماء، مثل المُهذّب[(٢)] عبد الرحيم بن علىّ الدَّخْوار وغيره، وقرأ علم الأدب على جماعة من العلماء، وكان له نظمٌ جيّد . من ذلك قوله فى خِضاب اللحية :

لَوَ انّ تغيرَ لَونِ شَيْبِى * يُعيد ما فات من شبابى
لَمَا وَفَى لى بما تُلاقِى * رُوحِى من كُلْفة الخِضابِ

قلت : ويُعجبنى قولُ الشيخ صَفِىّ[(٣)] الدين عبد العزيز الحِلّىّ فى هذا المعنى :

قالوا اخْضِب الشيب فقلت اقْصُرُوا * فإنّ قَصْد الصدق من شيمتى
فكيف أرضى بعد ذا أنّنِى * أوّل ما أكْذِب فى لِحيتى

غيره فى المعنى :

يا خاضب اللحيـة ما تَسْتَحِى * تُعاند الرحمنَ فى خِلقتِهْ
أقبحُ شىءٍ قيل بين الورى * أن يَكْذِبَ الإنسان فى لِحيَتِهْ

ومن شعر عِزّ الدين صاحب الترجمة [مواليا][(٤)] :

البدرُ والسعد ذا شِبهك وذا نجمكْ * والقَدُّ والّلحظ ذا رمحك وذا سهمكْ
والبغض والحُبّ ذا قِسْمى وذا قِسمكْ * والمِسكُ والحُسن ذا خالَك وذا عمّكْ

(١) السويدى نسبه للسويداء قرية بحوران كان أبوه تاجرا بها . (انظر تاريخ الاسلام للذهبى) .
(٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٧٧ من الجزء السابع من هذه الطبعة .
(٣) هو عبد العزيز بن سرايا بن على بن أبى القاسم بن أحمد بن نصر بن أبى العز بن سرايا المعروف بصفى الدين الحلى الناظم الناثر شاعر عصره . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٤٩ هـ . وفى المنهل الصافى وفوات الوفيات لابن شاكر : توفى سنة ٧٥٠ هـ . وفى الدرر الكامنة أنه توفى سنة ٧٥٢ هـ .
(٤) زيادة عن المنهل الصافى وعيون التواريخ .

وفيها تُوُفّى ملك التّتار أَرْغُون بن أَبْغا بن هُولَاكُو عظيم التّتار ومَلِكُهم، قيل: إنه اغتيل بالسمّ، وقيل: إنه مات حَتْفَ أنفه، واتّهم التركُ اليهودَ بقتله فمالوا عليهم بالسيوف فقتلوهم ونهبوا أموالهم، واختلفت كلمة التّتار فيمَن يُقيمونه بعده في المُلك، فمالت طائفةٌ إلى بَيْدُو[1] ولم يُوافقوا [على] كَيْخَتُو[2]، فرحل كَيْخَتُو إلى الروم. وكان أَرْغُون هذا قد عظُم أمرُه عند التّتار بعد قتل عمّه أحمد[3]، ورسخت قدمُه في الملك، وكان شهمًا شجاعا مِقداما، حسنَ الصورة، سفّاكا للدماء، شديدالوطأة.

وفيها تُوُفّى الشيخ عفيف الدين أبو الربيع سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عليّ ابن يَس العابِدى ثم الكوفىّ ثم التِّلِمْسانىّ[4] المعروف بالعفيف التِّلِمسانىّ، الصوفىّ الشاعر المشهور، كان فاضلا ويَدّعى العِرْفان، ويتكلّم في ذلك على اصطلاح القوم.

قال الشيخ قطب الدين: «ورأيت جماعةً يَنْسبُونه إلى رِقّة الدِّين، وتُوُفّى وقد جاوز الثمانين[5] سنة من العمر، وكان حسَن العِشرة كريم الأخلاق له حُرْمة ووجاهة، وخدَم في عدّة جهات.

---

(١) في الأصلين: «بيدرا». وتصحيحه عن جواهر السلوك وعيون التواريخ وتاريخ سلاطين المماليك. (٢) هو كيخنو بن أبغا بن هولاكو ملك التتار قتله ابن أخيه بيدو سنة ٦٩٣ هـ. (عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك). (٣) هو أحمد بن هلاكو قان بن تولى‌قان بن جنكزقان، تقدّمت وفاته سنة ٦٨٣ هـ. (٤) التلمسانى: نسبة إلى تلمسان، قاعدة مملكة المغرب الأوسط في القرون الوسطى، وقد كانت تشمل هذه المملكة الجزائر بحدودها الحالية اليوم ودار ملك بني عبد الواد من زناتة من قبائل البربر. وظلت الى أواخر القرن الثامن من الهجرة. وهى الآن مدينة عظيمة ببلاد الجزائر على بعد ٦٨ ميلا من وهران في الجنوب الغربي منها. وهى محطة عظيمة للقوافل بين الجزائر ومراكش، وعدد سكانها قريب من أربعين ألفا منهم خمسة آلاف أوربيين. (انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ١٤٩، وج ٧ ص ٣٨٥ ومعجم لينكوت الانجليزى للبلدان). (٥) في الأصلين هنا: «وقد جاوز الستين سنة». وتصحيحه عما سيأتى ذكره للؤلف فيمن نقل وفاتهم عن الذهبي في هذه السنة. ونص عبارة الذهبي نقلا عن المترجم له: «مولدى سنة عشر وستمائة». وأيضا ما في جواهر السلوك: «مولد الشيخ عفيف الدين ... في عشر وستمائة».

قلت : وقـد تقدّم ذكر ولده الأديب الظريف[١] شمس الدين محمـد أنّه مات في حياة والده العفيف هذا . انتهى .

وكان العفيف المذكور من الشعراء المُجيدين وله ديوان شعر كبير . ومن شعره :

يشكو إلى أردافه خَصْرُه * لوتسمع الأمواجُ شَكْوَى الغَريقْ

يا رِدْفَه رِقّ على خَصْرِه * فإنّه حُمِّل ما لا يُطيقْ

ولـه :

إن كان قتلي في الهوى يَتعيَّنُ * ياقاتلي فبسيف جَفْنك[٢] أهونُ

حسبي وحسبُك أن تكون مدامعي * غُسْلي وفي ثوب السَّقام أُكَفَّنُ

عجبًا لخدِّك وردة في بانة * والبان[٣] فوق الغُصن ما لا يُمكِنُ

أدنتْه لي سِنَةُ الكَرَى فلثَمْتُه * حتى تبَدَّل بالشَّقيق السَّوْسَنُ

ووردتُ كَوْثَرَ ثغره فحسِبْتُني * في جَنّة من وَجْنتيه أسْكُنُ

ما راعني إلا بلالُ الخال فَوْ * ق الخدّ في صُبْح الجَبين يُؤذِّنُ

قلت : وهذا مأخوذ من قول الحاجري[٤] من قصيدة :

أقام بلالُ الخالِ في صحن خدّه * يُراقب من لألاء غُرّته الفَجْرا

ومنه أيضا أخذ الشيخ جمال الدين[٥] محمد بن نُباتة المصري قوله :

وانظُر إلى الخال فوق الثغر دون لَمًى * تَجِدْ بلالًا يُراعى الصبحَ في السَّحَرِ

---

(١) تقدّمت وفاته سنة ٦٨٨ هـ . (٢) رواية المنهل الصافي :

* ... فبسيف لحظك ... *

(٣) رواية المنهل الصافي وعيون التواريخ وفوات الوفيات :

* والورد فوق البان مالا يمكن *

(٤) هو عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين . تقدّمت وفاته سنة ٦٣٢ هـ .

(٥) هو جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد ابن الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم المعروف بابن نباتة ، سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٧٦٨ هـ .

قلت : وقد سبق إلى هذا المعنى أميرُ المؤمنين عبدالله بن المعتزّ[(١)] بقوله :

أسفر ضوءُ الصبح من وجهِهِ * فقام خال الخدّ فيه بلالْ
كأنّما الخالُ على خدّه * ساعةَ هَجْرٍ فى زمان الوصالْ

قلت وقد آستوعبنا من ذكر العَفِيف هذا فى ترجمته فى تاريخنا « المنهل الصافى والمستوفَى بعد الوافى » نبذةً كبيرة فلينظر هناك .

وفيها تُوفّى الشيخ الإمام العلّامة فقيه الشام تاج الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن سِبَاع بن ضِياء الفَزارِىّ البَدْرِىّ المصرىّ الأصل الدمشقى الشافعىّ المعروف بالفِرْكاح[(٢)] . وُلد فى شهر ربيع الأوّل سنة أربع وعشرين وستّمائه .

قال الصَّفَدِىّ : تفقّه فى صغره على الشيخ عِزّ الدين[(٣)] بن عبد السلام، والشيخ تقىّ الدين بن الصَّلاح[(٤)]، وبرَع فى المذهب وهو شابّ، وجلَس للاشتغال وله بضع وعشرون سنة، ودرّس فى سنة ثمانٍ وأربعين، وكتب فى الفتاوَى وقد أكمل الثلاثين . ولمّا قدم النَّوَوِىّ[(٥)] من بلده أحضروه ليشتغل عليه، فحَمَل همّه وبعَث به إلى مُدرّس الرَّوَاحِيّة[(٦)] لِيَصِحّ له بها بيتٌ ويرتفقَ بمعلومها . وكانت الفتاوَى تأتيه من الأقطار .

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله آبن الخليفة المعتز بالله محمد آبن الخليفة المتوكل على الله جعفر آبن الخليفة المعتصم محمد آبن الخليفة هارون الرشيد . تقدمت وفاته سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) الفركاح لغة من فرك الرجل اذا تباعد ما بين إليتيه .

(٣) هو عز الدين أبو محمد عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السلمى الدمشقى الشافعى . تقدمت وفاته سنة ٦٦٠ هـ .

(٤) هو أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبو النصر الكردى الشهر زورى الشافعى تقى الدين . تقدمت وفاته سنة ٦٤٣ هـ .

(٥) هو محيي الدين يحيى بن شرف آبن مرى بن حسن بن حسين بن محمد النووى . تقدمت وفاته سنة ٦٧٦ هـ .

(٦) الرواحية تقع شرق مسجد ابن عروة بالجامع الأموى ولصيقة جيرون وغربى الدولعية وقبلى السيفية الحنبلية ، بانيها زكى الدين بن رواحة الحموى التاجر الغنى المعدّل المتوفى سنة ٦٢٢ هـ . درّس بها جماعة من علماء الشافعية . قال المؤرخون : إن زكى الدين بن رواحة بنى بحلب مدرسة للشافعية وبدمشق مثلها داخل باب الفراديس ووقف عليها أوقافا حسنة وأصبحت المدرسة الرواحية الآن دارا (عن خطط الشام لحضرة كرد على ج٦ ص٨١) .

وإذا سافر لزيارة القُدْس يترامى أهـل البِرّ على ضِيافته ، وكان أكبر من الشيخ محيي الدين النَّوَوِىّ بسبع سنين، وهو أفقه نفسًا وأذكى وأقوى مناظرةً من الشيخ محيي الدين بكثير ، وقيـل إنه كان يقول : إيش قال النَّووِىّ فى مزبلته ! (يعنى عن الروضة) [١] ، قال : وكان الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام يُسمِّيه « الدُّوَيْك » لحسن بحثه . انتهى كلام الصَّفَدِىّ بآختصار .

ومن شعره ما كتبه لزَيْن [٢] الدين عبد الملك بن العجمى مُلْغِزا فى اسم بَيْدَرا .

يا ســيِّدًا ملأ الآفاق قاطبــةً * بكلّ فنٍّ من الألغـاز مُبْتَكَـرِ
ما آسمٌ مُسمّاه بَدْرٌ وهو مُشْتَمِلٌ * عليه فى اللفظ إن حقّقتَ فى النظرِ
وإن تكن مسقطا ثانيه مُقْتَصِرًا * عليه فى الحذف أضحَى واحدَ البدر

وله [أيضا دو بيت] [٣]

ما أطيبَ ما كنتُ من الوجد لَقِيتْ * إذ أصْـبِح بالحبيب صبًّا وأبِيت
واليـــوم صحا قلبى من سكرته * ما أعرِف فى الغرام [٤] من أين أُتِيتْ

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة ، قال : وفيها تُوفِّى مُسْنِد العالم فخر الدين علىّ بن البُخارىّ المقدسىّ فى ربيع الآخر، وله خمس وتسعون سنة [٥] . والمعمَّر شهاب الدين غازى بن أبى الفضل [بن عبد الوهاب أبو محمـد] [٦] الحَلاوِىّ فى صـفر .

(١) هى روضـة الطالبين وعمـدة المفتين فى فقه الشافعية . تأليف الإمام أبى زكريا محيي الدين النووى ، وهو كتاب جليل فى عدّة أجزاء مخطوطة بأرقام مختلفة موجودة بدار الكتب المصرية .
(٢) هو زين الدين أبو المظفر عبد الملك بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحسن بن عبـد الرحمن بن طاهر الحلبي آبن العجمى . تقدمت وفاته سنة ٦٧٤ هـ . (٣) زيادة عن المنهل الصافى وعيون التواريخ وفوات الوفيات . (٤) رواية عيون التواريخ * ما أعلم فى الغرام من أين دهيت *
(٥) فى تاريخ الذهبى : «وعاش أربعا وتسعين سنة وثلاثة أشهر» . (٦) زيادة عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب .

وفخر الدين عمر بن يحيى الكَرْخى فى شهر ربيع الآخر، وله إحدى وتسعون سنة . والعلّامة تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن سِبَاع الفَزَارى الشافعى فى جُمادَى الآخرة، وله ست وستون سنة (١) . والشيخ العفيف التِّلِمْسَانى الشاعر سليمان بن على فى رجب، وله ثمانون سنة . والمقرئ شهاب الدين محمد بن عبد الخالق بن مُزْهر فى رجب . والقاضى شمس الدين عبد الواسع بن عبد الكافى الأَبْهَرِى (٢) فى شوّال . والمسنِد نجم الدين يوسف بن يعقوب بن محمد [بن على] (٣) بن المجاور فى ذى القعدة . والمسند شمس الدين محمد بن [عبد] (٤) المؤمن بن أبى الفتح الصالحى فى ذى الحجّة، وهو آخر من سمع من الكِنْدِى (٥) . والإمام شمس الدين أحمد بن عبد الله بن الزُّبَيْر الخابورى خطيب حلب فى المحرّم .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم أربع أذرع وثلاث أصابع . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا وسبع أصابع .

* * *

السنة الثانية من ولاية الملك الأشرف خليل على مصر، وهى سنة إحدى وتسعين وستمائة .

فيها فى يوم الجمعة رابع عشرين صفر ظهر بقلعة الجبل حريقٌ عظيم فى بعض خزائن الخاصّ، وأتلف شيئا عظيما من الذخائر والنفائس والكتب وغيرها .

---

(١) فى الأصلين هنا : « وله تسع وستون سنة » . وتصحيحه عما تقدم ذكره للؤلف وتاريخ الإسلام للذهبى .
(٢) الأبهرى : نسبة الى أبهر ، مدينة مشهورة بين قزوين وهمذان وزنجان (عن معجم البلدان لياقوت) .
(٣) تكملة عن تاريخ الإسلام وعيون التواريخ وعقد الجمان .
(٤) تكملة عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب وعقد الجمان .
(٥) هو زيد بن الحسن ابن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير تاج الدين أبو اليمن الكندى . تقدمت وفاته سنة ٦١٣ هـ .

وفيها تُوفّى الصاحب تاج الدين أحمد بن [المولى][1] شرف الدين سـعيد آبن شمس الدين محمـد بن الأثير الحلبى الكاتب المنشئ . وأولاد آبن الأثير هؤلاء غير بنى الأثير الموصليّين . وكان تاج الدين هـذا بارعا فاضلا مُعَظّما فى الدُّوَل باشر الإنشاء بدمشق ثم بمصر للملك الظاهر بيبَرْس، ثم للملك المنصور قلاوون ، وكان له نظم ونثر ولكلامه رَوْنَقٌ وطُلاوة . ومن عجيب ما آتفق أنّ الأمير عز الدين أَيْدَمُر السِّنَانى النَّجِيبِى الدَّوَادار أنشد تاجَ الدين المذكور عند قدومه إلى القاهرة فى الأيام الظاهريّة أوّل آجتماعه به، ولم يكن يعلم آسمه ولا آسم أبيه، قول الشاعر :

كانت مساءلةُ الرُّكبانِ تُخبرنى * عن أحمد بنِ سعيد أحسنَ الخبَرَ
حتّى آلتقينا فلا والله ما سَمِعت * أُذْنى بأحسن ممّا قد رأى بَصَرى

فقال له تاج الدين : يا مولانا، أتعرِف أحمد بن سعيد؟ فقال : لا ، فقال : المملوك أحمد بن سعيد. ولم يزل تاج الدين هذا يترقّى الى أن ولى كتابة السرّ بمصر بعد موت فتح الدين محمد بن عبد الظاهر الآتى ذكره . ولمّا ولى كتابةَ السرّ سافر مع السلطان الى الديار المصريّة فأدركه أجلُه فمات بغَزّة[2] ودُفن هناك ، وولى بعده كتابة السرّ آبنه عماد الدين إسماعيل[3] مدّة إلى أن عُزِل بشرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العُمَرى[4] .

وكان تاج الدين فاضلًا نبيلا ، وله يدٌ فى النظم والنثر . ومن شعره القصيدة التى أوّلها :

أَتَتْنى[5] أياديك التى لو تصوّرتْ * محاسنُها كانت من الأَنْجُم الزُّهْرِ

---

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام . (٢) غزة : مدينة قديمة فى جنوب فلسطين تبعد عن ساحل البحر الأبيض المتوسط ٣ كيلو مترات وبها مساجد كثيرة ، ومن آثارها الجامع العمرى وضريح هاشم بن عبد مناف . وفيها ولد الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وكانت فيما مضى أهم محطـة للقوافل بين مصر والشام (انظر جغرافية فلسطين لحسين روحى ص ١٠٥ وقاموس الأمكنة والبقاع لعلى بك بهجت وقاموس لينكوت الانجليزى الجغرافى) . (٣) سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٦٩٩ هـ .

(٤) هو شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله بن مجلى بن دعجان بن خلف القرشى العمرى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧١٧ هـ . (٥) أورد صاحب جواهر السلوك من هذه القصيدة نحوا من أحد عشر بيتا .

وفيها توفى القاضى فتح الدين محمد ابن القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ابن نَشْوان بن عبد الظاهر الجُذَامِي الرَّوْحِي[1] المصرى المعروف بابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء ومُؤْتَمن المملكة بالديار المصريّة . مولده بالقاهرة فى سنة ثمانٍ وثلاثين وستمائة وسمع الحديث وتفقه ومهَر فى الإنشاء، وساد فى الدولة المنصوريّة قلاوون برأيه وعقله وحُسن سياسته، وتقدّم على والده فكان والده من جملة الجماعة الذين يصرفهم أمرُه ونهيُه . وقد تقدّم ذكره فى ترجمة الملك المنصور قلاوون والتعريف بحاله . ومن شعر فتح الدين المذكور لمّا توجّه إلى دمشق صحبة السلطان وحصل له تَوَعُّك فكتب إلى والده يقول :

إن شئتَ تبصرنى[2] وتُبصر حالتى * قابلْ إذا هبّ النسيمُ قَبُولَا
تلقاه مثلى رِقّةً ونَحافةً * ولأجلِ قلبِك لا أقول عَلِيلا
فهو الرسول اليك منى ليتنى * كنتُ اتّخذتُ مع الرسول سبيلا

وله :

ذُو قَوَامٍ يَجُورُ منه اعتدالٌ * كم طَعِينٍ به من العشّاقِ
سلَب القُضْبَ لِينَها فهى غيظًا * واقفاتٌ تشكوه بالأوراقِ

قلت : وأجاد شمس الدين محمد بن العَفِيف فى هذا المعنى حيث قال :

قَدُّه حاز اعتدالا * فله فَتْكٌ ونُسْكُ
سلَب الأغصان لِينًا * فهى بالأوراق تشكو

---

(١) الروحى نسبة الى روح بن زنباع . قال الحمدانى : ومنهم أى من سعد بطن من جذام بنو عبد الظاهر المعروفون . قال فى مسالك الأبصار : رأيته يعنى محيي الدين بن عبد الظاهر، والد المترجم، ينسب نفسه الى روح بن زنباع وزنباع من جذام . (راجع نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى صاحب صبح الأعشى طبع بغداد سنة ١٣٣٥ هـ ص ٢٣٧) . (٢) رواية تاريخ الإسلام وجواهر السلوك :
* إن شئت تنظرنى وتبصر حالتى *

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهـم فى هـذه السنة، قال : وفيهـا تُوفّى سيف الدين عبد الرحمن بن محفوظ الرَّسْعَنِيّ[(١)] فى المحرّم . وخطيب دِمَشق زَيْن الدين عمر بن مَكّى الوكيل[(٢)] فى ربيع الأوّل . والمقرئ رضىّ الدين جعفر بن القاسم [المعروف[(٣)] بآ] بن دَبُوقا الرَّبَعِىّ فى رجب . والعدل علاء الدين علىّ بن أبى بكر بن أبى الفتح بن محفوظ [بن الحسن[(٤)]] بن صَصُرّى الضرير فى شعبان . والموقّعان : سعد الدين [سعد الله[(٥)]] آبن مَرْوَان الفَارِقىّ، وفتح الدين محمد بن محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر .

§ أمر النيل فى هذه السنة — المـاء القديم سبع أذرع وستّ عشرة إصبعا . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء .

السنة الثالثة من ولاية الملك الأشرف خليل على مصر، وهى سنة آثنتين وتسعين وستمائة .

فيهـا حصل ببلاد غزّة والرّملة[(٦)] وقَاقُون[(٧)] والكَرَك[(٨)] زَلزلةٌ عظيمة، وكان معظـم تأثيرها بالكَرَك بحيث آنهدم ثلاثة أبراج من قلعتها، وبُنيان كثيرٌ من دورها وأماكنها. وكانت الزّلزلة المذكورة فى صفر .

(١) الرسعنى : نسبة إلى رأس عين، قرية بفلسطين . (٢) يريد به وكيل بيت دمشـق . (٣) الزيادة عن عقد الجمان وتاريخ الإسلام . (٤) زيادة عن تاريخ الإسلام . (٥) زيادة عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب وعيون التواريخ . (٦) الرملة : مدينة إسلامية بناها سليمان بن عبد الملك فى خلافة أبيه عبد الملك، وسميت الرملة لغلبة الرمل عليها . وكانت فى العصور الوسطى قصبة فلسطين وهى الآن مركز قضاء باسمها وهى واقعة فى الجنوب الغربى من يافا على خط سكة الحديد على بعد ٢٢ ميلا من القدس . مبانيها من الحجر وطرقها ضيقة ومياهها غير وفيرة . وأشهر حاصلاتها الحبوب والفواكه والزيتون ومسجدها الجامع كان كنيسة بناها الصليبيون ودير اللاتين بها فيه الغرفة التى بات فيها نابليون ليلة مروره بجيشه فى فلسطين، وفى غربيها مقام النبي صالح وبقربه المئذنة التى بناها قلاوون، وفيها معامل الصابون ومعاصر استخراج الزيوت ويزيد سكانها عن ٨ آلاف نسمة منهم ألفان من النصارى . (صبح الأعشى رابع ص ٩٩ وجغرافية فلسطين لحسين روحى ص ١٠٠ والقاموس الجغرافى الانجليزى لبينكوت) . (٧) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٥٧ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٨) راجع الحاشية رقم ٢ ص ١٤ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

وفيها كانت وفاة الأمير الكبير شمس الدين سُنْقُر بن عبد الله العَلَائي، ثم الصالحى النَّجْمِى المعروف بالأشقر، كان من كبار الأمراء ممّن تملّك الشام فى أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون ودعا لنفسه وتلقّب « بالملك الكامل » وخُطب له على منابر الشام، وضُرب الدرهم والدينار بآسمه. وقد أوضحنا من أمره نُبذةً كبيرة فى عدّة مواضع من ترجمة الملك المنصور قلاوون وغيره. ووَقَع له مع الملك المنصور أمورٌ أسفرت بعد سنين على أنّه دخل تحت طاعته، وصار من جملة أكابر أمرائه. وآستمرّ سُنْقُر على ذلك إلى أن مات الملك المنصور قلاوون ومَلَك بعده آبنُه الملك الأشرف خليل صاحب الترجمة؛ قبَض عليه فى هذه السنة وخَنَقه وخنَق معه جماعةً من الأمراء لأمرٍ آقتضاه رأيُه. والأمراء الذين قُتِلوا معه مثل: الأمير ركن الدين طُقْصُو الناصرى، وجَرْمَك الناصرى وبَلَبَان الهارونى؛ وكان معهم الأمير حُسام الدين لاچين المنصورى الذى تسلطن بعد ذلك، فوضع السلطان الوَتَر فى رقبته لخنقه فانقطع الوَتَر؛ فقال لاچين: ياخَوَنْد، إيش ذنبى! مالى ذنب إلّا أنّ طُقْصُو حَمَوِى وأنا أطلِّق بنته، فرقوا له خُشْدَاشِيّتُه لأمرٍ سبَق فى علم الله وقبّلوا الأرض وسألوا السلطان فيه، وضمِنه خُشْداشُه الأمير بدر الدين بَيْدَرَا نائب السلطنة، فأطلقه السلطان وأعاده إلى رتبته، وأُخذ سُنْقُر الأشقر هذا ودُفن بالقرافة. وكان سنقر المذكور أميرًا شجاعًا مِقْداما كريما حسَن السياسة مُهابا جليلًا معظّما فى الدُّوَل، وخُوطب بالسلطنة سنين عديدة إلى أن ضَعُف أمره ونزَل من قلعة صِهْيَوْن بالأمان، وقَدِم على الملك المنصور قلاوون فأكرمه قلاوون، ودام على ذلك إلى أن مات. وكان سُنْقر شجاعًا أشقر عَبْلَ البدَن جَهْوَرِىّ الصوت مَليح الشكل. رحمه الله تعالى.

وفيها تُوُفّى الشيخ الصالح القُدْوة المعتقَد شيخ الشام أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ السيد العارف أبى محمد عبد الله الأُرْمَوِىّ[1] بزاويته بجبل قاسيون بعد الظهر وكانت جنازته مشهودة، رحمه الله.

وفيها تُوفّى الصاحب محيي الدين عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نَشْوَان ٱبن عبد الظاهر السَّعْدِىّ المُوَقِّع كاتب الإنشاء بالديار المصريّة. وقد تقدّم ذكر ولده القاضي فتح الدين فى السنة الماضية. كان محيي الدين هذا من سادات الكتّاب ورؤسائهم وفُضلائهم. ومولده فى سنة عشرين وستمائة بالقاهرة، ومات يوم الأربعاء ثالث شهر رجب ودُفن بالقرافة بتربته[2] التى أنشأها. وهو صاحب النظم الرائق والنثر الفائق. ومن شعره قوله:

يا قاتلى بجُفون[3] * قتيلُها ليس يُقْبَرْ
إنْ صبّروا عنك قلبى * فهو القتيل المُصَبَّرْ

وله وأجاد إلى الغاية:

نَسَب الناس للحمامة حُزْنًا * وأراها فى الشَّجْو ليستْ هنالكْ
خَضَبت كَفَّها وطوّقتِ الجيـ * ـدَ وغنّتْ وما الحزنُ كذلكْ

وله مُضَمِّنًا:

لقد قال كعبُ فى النبىّ قصيدةً * وقلنا عسى فى مَدْحه نتشاركُ
فإن شمِلتْنا بالجوائز رحمةٌ * كرحمةِ كعب فهو كَعْبٌ مباركُ

---

(١) الأرموى: نسبة الى أرمية، وهى مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان. وفى تاريخ الإسلام وتاريخ الدول والملوك: «أبو إسحاق بن الأرمنى ويقال الأرموى».

(٢) تربة ٱبن عبد الظاهر، يستفاد مما ذكره ٱبن الزيات فى كتاب الكواكب السيارة أن هذه التربة كانت بالقرافة الكبرى، وغير ممكن تعيين موقعها الآن لاندثارها من زمن قديم. وأما القرافة الكبرى فمكانها اليوم أرض فضاء لا بناء فيها ولا ترب بين مصر القديمة وجبانة الإمام الليث.

(٣) فى عيون التواريخ: * يا قاتلى بألحاظ *.

ولـــه :

سَلَفَتْنا على العقول السُّلافَهْ * فتقاضت ديونَهـا بلطَـافَهْ

ضيَّفتنا بالنَّشْر والبِشْر واليُسْـ * ـرِ ألا هكذا تكون الضِّيافهْ

وقد سُقنا من ترجمته فى تاريخنا « المنهـل الصافى » عدّةً أُخَر غير هؤلاء المقطَّعـات .

وفيها تُوُفِّى الأمير علم الدين سَنْجَر بن عبدالله الحلبى ، الأمير الكبير أحدُ الموصوفين بالشجاعة والإقدام ، وقـد شَهِد عدّةَ حروب ، وله مواقف مشهورة مع العـدوّ . وكان أبيضَ الرأس واللِّحية من أبناء الثمانين ، وكان ولى نيابة دمشق فى آخر سـنة ثمانٍ وخمسين وستمائة . ولـمّـا تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبَرْس لم يبايعه سَنْجَر هذا ودعا لنفسه وحلّف الأمراء وتسلطن بدمشق ولُقِّب « بالملك المجاهد » ، فلم يتمّ له ذلك حسب ما تقدّم ذكره فى أوّل ترجمة الملك الظاهر بيبرس ، وقبَض الظاهر عليه وحبَسه مدّة سنين إلى أن مات . وتسلطن بعده ولدُه الملك السـعيد أفرَج عنه وأمَّره ، فدام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور قلاوون ، وخرج عليه الأمير سُنْقُر الأشقر المقدّم ذكره وتسلطن بدمشق ، ندَب المنصورُ لحربه علمَ الدين سَنْجَر هذا ، وأضاف إليه العساكر المصريّة ، فخرج إليه وقاتله وكسَره وأخرجه من دمشق ، ثمّ عاد إلى الديار المصريّة ، فأنعم عليـه المنصور قلاوون بأشياء كثيرة ، ثم خانه وقبَض عليه وحبَسه إلى أن مات . فلمّا تسلطن ولده الملك الأشرف خليل أفرج عنه وأكرمه ورفَع منزلته . وكان سبب مسك قلاوون له أنّه لـمّـا كسَر سـنقر الأشقر عظُم فى أعيُن الناس ولهِج بعض الناس بتسميته « بالملك المجاهد » كما كان تلقّب أوّلا لـمّـا ٱدّعى السلطنة ، فبادره قلاوون وقبَض عليه . وكان سَنْجَر هـذا من بقايا الأمراء الصالحيّة النَّجْميّة ، رحمه الله تعالى .

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة، قال : وفيها تُوُفّى الشيخ الزاهد إبراهيم ابن العارف الشيخ عبد الله الأُرْمَوِىّ فى المحرّم . وكمال الدين أحمد بن محمد النَّصِيبىّ الحَلَبىّ فى المحرّم . والمقرئ جمال الدين إبراهيم بن داود الفاضلىّ فى أوّل جُمَادَى الأولى . والإمام القُدوة تَقِىّ الدين إبراهيم بن علىّ بن الواسطى الحنبلىّ فى جُمَادَى الآخرة، وله تسعون سنة . والسيف علىّ بن الرّضِى عبد الرحمن المَقْدِسِىّ فى شوّال . والمحدّث التقى عُبَيْد [بن محمد بن عبّاس](1) الإسْعِرْدِىّ . وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن تَرْجَم المصرىّ راوى التِّرْمِذِىّ(2) .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم ستّ أذرع وعشر أصابع . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا وآثنتا عشرة إصبعا . انتهت ترجمة الملك الأشرف خليل .

---

(١) التكلة عن تاريخ الاسلام، وشذرات الذهب، والمشتبه فى أسماء الرجال .

(٢) هو محمد بن عيسى الترمذى، مصنف الجامع والعلل والشمائل وغيرها تقدّمت وفاته سنة ٢٧٩ هـ .

١٠

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الأولى على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد ٱبن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى النّجْمى الألْفِى سلطان الديار المصريّة وٱبن سلطانها، مولده بالقاهرة فى سنة أربع وثمانين وستّمائة بقلعة الجبل[1]، ووالده الملك المنصور قلاوون يُحاصر حصن المَرْقَب[2]، وجلس على تخت المُلك بعد قتل أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون فى يوم الاثنين رابع عشر المحرّم، وقيل يوم الثلاثاء خامس عشر المحرّم، من سنة ثلاث وتسعين وستّمائة، لأنّ الملك الأشرف قُتل بتَرُوجة[3] فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم وقُتل قاتله الأمير بدر الدين بَيْدَرا فى يوم الأحد ثالث عشر المحرّم، ثم ٱتّفقوا على سلطنة الملك الناصر محمد هذا عِوضًا عن أخيه، فتمّ له ذلك. فتكون سلطنته فى أحد اليومين المذكورين تخمينًا لِمَا وقع فى ذلك من الاختلاف بين المؤرّخين. انتهى.

والملك الناصر هذا هو السلطان التاسع من ملوك التُّرك بالديار المصريّة، ولمّا ٱستقرّ فى السلطنة رتّبوا الأمير زَيْن الدين كَتْبُغا المنصورى نائب السلطنة بالديار المصريّة عِوضًا عن بَيْدَرا، والأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعى وزيرًا ومدبّرًا للمملكة وأتابَك العساكر، ثم قبَضُوا على جماعة من قَتَلَة الملك الأشرف خليل حسب ما تقدّم ذكره، وتمّ ذلك ودام إلى العشرين من صفر. فبلغ الأميرَ زَيْنَ الدين كَتْبُغَا أنّ الأمير علم الدين

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٥٤ من الجزء السادس من هذه الطبعة.
(٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٨٤ من الجزء السابع من هذه الطبعة.
(٣) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٣٠ من الجزء الرابع من هذه الطبعة.

سنجر الشجاعى يريد الوثوب عليه وقبضه وقتله . وكان الذى أخبره بذلك سيف الدين قنقغ[1] التتارى ، وأعلمه بما فى[2] باطن الشجاعى ؛ والسبب فى اطلاعه على ما فى باطن الشجاعى أن هـذا قنقغ هاجر من بلاد التتار فى زمن الملك الظاهر بيبرس ، وأقام بمصر وأقطع فى الحلقة فرزقه الله تعالى اثنى عشر ولدا كلهم ذكور، منهم : ستة أولاد فى خدمة الملك الأشرف ، وخمسة فى خدمة الشجاعى ، وواحد منهم صغير؛ و جميع أولاده شباب ملاح من أجمل الناس صورة . وكان لقنقغ هـذا منزلة عظيمة عند الشجاعى وكلمته مسموعة ، وشفاعته مقبولة ؛ وله اطلاع على أمور الدولة بسبب أولاده ، فعلم بما دبره الشجاعى ، فحملته الجنسية حتى أعلم الأمير كتبغا على ما فى باطن الشجاعى ؛ فاحترز كتبغا على نفسه وأعلم الأمراء بالخبر ، وكان الأمراء كارهين الشجاعى . فلما كان يوم الخميس ثانى عشرين صفر ركب الأمير كتبغا إلى سوق الخيل[3] فنزل إليه من القلعة أمير يقال له البندقدارى[4] وقال له من قبل الشجاعى : أين حسام الدين لاجين المنصورى ؟ أحضره الساعة ؛ فقال له كتبغا : ما هو عندى ، وكان لاجين من يوم قتل الأشرف قد اختفى ، والمماليك الأشرفية قد أعياهم أمره

---

(١) فى الأصلين : « قنق » . وفى تاريخ سلاطين المماليك : « قنفر » . وما أثبتناه عن عيون التواريخ وجواهر السلوك وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات. (٢) فى الأصلين : «على اطلاعه» . وما أثبتناه عن جواهر السلوك . (٣) سوق الخيل ، أشار المقريزى فى خططه الى هذا السوق عند الكلام على القطائع (ص ٣١٣ ج ١) وعلى قصر يلبغا اليحياوى (ص ٧١ ج ٢)، وعلى صفة القلعة (ص ٢٠٤ ج ٢) وأشار اليه أيضا صاحب النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٧٣٢ هـ . عند ما أراد الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يعهد بالسلطنة الى ابنه آنوك . ويستفاد من كل ماورد فى هذه المواضع أن سوق الخيل هذا كان واقعا تحت قلعة الجبل فى الجهة التى كانت تعرف قديما بالرميلة ، والآن بالمنشية بقسم الخليفة بالقاهرة . ومكانه اليوم المنطقة الواقعة بميدان محمد على وصلاح الدين ، و يدخل فيها الجزء الشمالى الغربى من حديقة المنشية ؛ وتحد هـذه المنطقة من الشرق بباقى حديقة المنشية ومن الغرب بديوان قسم الخليفة وما فى امتداد وجهته الشرقية الى الشمال حتى تصل الى الحديقة الصغيرة المستديرة الواقعة شرق جامع السلطان حسن . (٤) هو علم الدين سنجر بن عبد الله التركى البندقدارى أحد الأمراء الأكابر بالديار المصرية (عن عقد الجمان وتاريخ الدول والملوك) .

من كثرة التفتيش عليه، فقال له البُنْدُقدارِىّ : بلى ، لاجين عندك ، ثم مدّ يده إلى سيفه ليضربه به ، فجذب سيف الدين بَلَبَان الأزرق مملوك كَتْبُغَا سيفه وعلا به[1] البُنْدُقَدارِىّ من ورائه وضربه ضربة حلّ بها كتفه ويده ، ثم إنّهم تكاثروا عليه وأنزلوه عن فرسه وذبحوه ، وهم مماليك كَتْبُغَا . وذلك فى وسط سُوق الخيل ، ومال غالب العسكر من الأمراء والمقدّمين وأجنادِ الحلقة والتتارِ والأكرادِ إلى كَتْبُغَا وانضمّوا عليه ، ومالت البُرْجيّة[2] وبعض الخاصّكيّة إلى سَنْجَر الشجاعىّ ، لأنّ الشجاعىّ كان أنفق فيهم فى الباطن فى يوم واحد ثمانين ألف دينار ، واتّفق معهم أيضا أنّ كلّ من جاء برأس أمير كان له إقطاعه ؛ وكان الاتّفاق معهم أنّه فى يوم الخميس وقت المَوْكب لمّا يطلُع الأمير كَتْبُغَا إلى القلعة ويمدّوا السِّماط يُمْسَك هو

---

(١) فى الأصلين : «وعلى البندقدارى» . وتصحيحه عن تاريخ سلاطين المماليك وجواهر السلوك .

(٢) المماليك البرجية : فى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد اكتسح التتار أواسط آسيا واندفعوا إلى الجهة الغربيـة منها فغزوا بلاد العجم والعراق فتشتت قبائل القبشاق عن أوطانها بسبب اجتياح المغول لبلادهم ، ولقد انتهز سلطان مصر الملك الصالح الأيوبى الفرصة واشترى منهم الألوف على سبيل الرّق وقربهم دون الأكراد الذين كانوا دعائم جنده ، فبنى لهم الثكنات فى جزيرة الروضة المواجهة للقاهرة وسماهم : «المماليك البحرية» أو جنود الحلقة لأنهم كانوا دائما يحيطون بالسلطان فى غدواته وروحاته ، ورتب لهم دروسا عن كيفية إدارة البلاد والجنود ، وظن أن فيهم العتاد والقوة لتأييد سلطان أسرته من بعده ، لكن الحوادث جرت على غير ما قدر حيث قتلوا ابنه الملك المعظم توران شاه وانتزعوا الملك من الأسرة الأيوبية جملة . ولما ملك منهم سيف الدين قلاوون سنة ١٢٧٩ م = ٦٧٨ هـ ، عمل كسيده الملك الصالح فى استجلاب اللاظ والروس والجركس وأفرد لهم فى القلعة أبراجا وسماهم «المماليك البرجية» . وبلغت عدتهم على عهده ٣٧٠٠ مملوك وعمل منهم أوشاقية وجمدارية وسلاحدارية وظن كما ظن سيده الصالح أنهم يكونون عدّة لأولاده من بعده ، لكن الأيام كشفت عن خطئه فى هـذا الاجتهاد أيضا فلم ينج من أولاده الثمانية الملكين من القتل أو الخلع إلا قلاوون نفسه . واستولت البرجية على الملك . وكان أوّل من تسلطن منهم الملك الظاهر برقوق سنة ١٣٨٢ م = ٧٨٤ هـ . تغلب على الصغير الملك الصالح زين الدين حاجى أخى الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون . وقد أشفت مصر فى عهد البرجية على الخراب حتى سقطت جملة فى أيدى العثمانيين سنة ١٥١٧ م = ٩٢٣ هـ . فتكون مدة حكمهم ١٣٥ سنة تقريبا . (انظر خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٢ — ٢٤٤ . وانظر خطط على باشا مبارك ج ١ ص ٤٠ وما بعدها . وانظر ولاية بيروت ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها) .

ومن اتفق معه من الأمراء يقبضون عليهم . فآستعجل البُنْدُقْدارِىّ ونزل إلى سوق الخيل وفعل ماذكرناه .

ولمّا وقع ذلك تحقّق الأمراء صحّة ما نقل إليهم الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا عن الشجاعىّ ، فآجتمع فى الحال الأمراء عند كَتْبُغَا بسوق الخيل وركبت التّتار جميعهم وجماعة من الشَّهْرُزُوريّة والأكراد وجماعة من الحَلْقة كراهيةً منهم فى الشجاعىّ ، وخرج الشجاعىّ بمن معه إلى باب القلعة ، فإنّ إقامته كانت بالقلعة وأمر بضرب الكُوسات[(١)] فضُربت ، وبقى يطلب أن يطلُع إليه أحدٌ من الأمراء والمقدّمين فلم يُجبه أحد ، وكان قد أخرج صُحبته الذهب فى الصُّرَر وبقى كلّ من جاء إليه يُعطيه صُرّة ، فلم يجئ إليه إلّا أُناس قليلون مالهم مرتبة . وشرع كَتْبُغَا ومَن معه فى حصار القلعة وقطعوا عنها الماء وبَقُوا ذلك اليوم مُحاصرين . فلمّا كان ثانى يوم نزلت البُرْجيّة من القلعة على حَمِيّة وتلاقَوْا مع كَتْبُغَا وعساكره وصدموه صَدْمةً كسروه فيها كَسْرة شنيعة وهزموه إلى بئر البَيْضاء[(٢)] ، وتوجّه كَتْبُغَا إلى جهة بلبيس[(٣)] ؛ فلمّا سمعوا باقى الأمراء بذلك

---

(١) الكوسات : الطبول الصغار فارسية معربة ، وهى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسى ، وهى من رسوم الملك وآلاته فى العصور الوسطى . قال الظاهرى فى زبدة كشف الممالك : كانت عدّة الطبلخانات التى تدق على باب السلطان تتألف من أربعين حملا من الكوسات وأربعة طبول وهول (فارسية معناها الطبل الكبير) وأربعة زمور (وهى الزمارة) وعشرين نفيرا (البوق) ، وكانت عدّة أمراء الطبلخانات أربعين أميرا ويخدم كلا منهم أربعون مملوكا . وكانت إمرة الطبلخاناه من الرتب العسكرية لضرب الآلات .

(عن صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ و ١٣ ؛ وزبدة كشف الممالك لخليل بن شاهين الظاهرى ص١١٣ ، ١٢٥ وقاموس استنجاس الفارسى الانجليزى وهامش تاريخ بيروت للأب لويس شيخو ص ٦٠) .

(٢) بئر البيضاء : يستفاد مما ورد فى صبح الأعشى عند الكلام على مراكز البريد ، وعلى الطريق بين القاهرة وغزة (ج ١٤ ص ٣٧٦) : أن هذه البئر كانت واقعة بين بلدتى الخانكة وبلبيس . وبالبحث عن موقعها تبين لى أن مكانها اليوم عزبة أبى حبيب الواقعة فى حوض البيضاء بأراضى ناحية الزوامل بمركز بلبيس ، ولا يزال اسم البيضاء المنسوب إليه هذه البئر يطلق على الحوض المذكور. (٣) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٤٧ من الجزء الخامس من هذه الطبعة .

ركب الأمير بدر الدين بيسرى المنصورى والأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح وبقية العساكر المصرية، وتوجهت الجميع إلى نصرة الأمير كتبغا وأصحابه، وقاتلوا المماليك البرجية حتى كسروهم وردّوهم إلى أن أدخلوهم إلى قلعة الجبل؛ ثم جدّوا في حصار القلعة ومن فيها، وعاد الأمير كتبغا وقد قوى عضده بخشداشيته والأمراء؛ ودام الحصار على القلعة إلى أن طلعت الستّ خوند والدة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أعلى السور وكلّمتهم بأن قالت لهم: إيش هو غرضكم حتى إننا نفعله لكم؟ فقالوا: مالنا غرض إلّا مسك الشجاعى وإخماد الفتنة، ونحن لو بقيت بنت عمياء من بنات أستاذنا الملك المنصور قلاوون كنّا مماليكها لا سيما ولده الملك الناصر محمد حاضر وفيه كفاية. فلمّا علمت ذلك رجعت واتّفقت مع الأمير حسام الدين لاچين أستاذ الدار، وغلقوا باب القلّة[1] من القلعة وهى التى عليها المعتمد، وبقى الشجاعى بداره بالقلعة محصورا. فلمّا رآه أصحابه أنه فى أنحس حال شرعوا فى النزول إلى عند الأمير كتبغا، فبقى جمع الشجاعى يقلّ وجمع كتبغا يكثر إلى يوم السبت رابع عشرين صفر ضجر الشجاعى وطلب الأمان فلم يوافقوه الأمراء؛ وطلع وقت صلاة الظهر[2] بعض الأمراء وجماعة من الخاصّكيّة وفيهم آقوش[3] المنصورى إلى عند الشجاعى

(١) يستفاد مما ورد فى كتاب صبح الأعشى عند الكلام على القلعة (ص ٣٧٢ ج ٣): أن باب القلة كان واقعا فى أحد الأسوار الداخلية الواقعة فى القسم الشمالى الشرقى من مبانى قلعة الجبل، وكان السور الذى فيه هذا الباب يفصل بين الساحة التى كانت خلف باب القلعة العمومى وبين الدور السلطانية، وكانت هذه الساحة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول. ويستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على باب القلة (ص ٢١٢ ج ٢) أنه عرف بذلك لأنه كان هناك قلة (برج مرتفع) بناها الملك الظاهر بيبرس ثم هدمها الملك المنصور قلاوون فى سنة ٦٨٥ هـ وبنى مكانها قبة ثم هدمها الملك الناصر محمد ابن قلاوون وجدّد باب القلة على ما هو عليه الآن أى فى زمن المقريزى وعمل له بابا ثانيا.

وبالبحث تبين لى أن هذين البابين قد اندثرا بسبب إزالة السور الذى كان فيه البابان المذكوران.

(٢) فى جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك: «وقت صلاة العصر».

(٣) كذا فى المنهل الصافى وتاريخ سلاطين المماليك وقد ورد كذلك غير مرة فيما تقدم. وفى الأصلين هنا: «الآقوشى المنصورى».

يطلبونه إلى عند السلطان وإلى والدته [في][1] صـورة أنهم يريدون يستشيرونه فيما يعملون ، فمشى معهم قليلا وتكاثروا عليه المماليك وجاء آقوش من ورائه وضربه بالسيف ضَرْبةً قطع بها يده ، ثم بادره بضَرْبة ثانيـة أبرى بها رأسه عن جسده ، وأخذوا رأسـه في الحال ورفعوه على سُور القلعة ، ثم عادوا ونزلوا [به][2] إلى كَتْبُغَا ودقُّوا البشائر وفتحوا باب القُلّة ، وأخذوا رأس الشجاعيّ وجعلوه على رمح وأعطَوْه للشاعليّة فجَبَوْا عليه مصر والقاهرة ، فحصّل المشاعليّة مالاً كثيرا لبُغْض الناس قاطبة في الشجاعيّ ؛ فقيل : إنهـم كانوا يأخذون الرأس من المشاعليّة ويدخلونه بيتهـم فتضربه النسوة بالمداسات لِمَا في نفوسهم منه . وسبب ذلك ما كان آشتمل عليـه من الظلم ومصادراته للعالم وتنوّعه في الظلم والعسف حسب ما يأتي ذكره في الوَفَيات بأوسعَ من هذا . وأغلقت القاهرة خمسة أيام إلى أن طلَع كَتْبُغَا إلى القلعة في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر ودُقّت البشائر وفُتحت الأبواب وجُدِّدت الأيمان[3] والعهود للملك الناصر محمد بن قلاوون وأن يكون الأمير كتبغا نائب السلطنة .

ولمّا تمّ ذلك قَبض كتبغا على جمـاعة من الخاصّكيّة والبُرْجيّـة المتّفقين مع الشجاعيّ ، ثم أفرج عن جماعة من الأمراء كان قُبِض عليهم في المُخَيم ، وهم : الأمير ركن الدين بيبَرْس الجاشْنَكِير الذي تسلطن بعـد ذلك على ما يأتي ذكره ، والأمير سيف الدين بُرْلُغِي ، والأمير القمامي[4] وسيف الدين قَبْجق[5] المنصوري ، والأمير بدر الدين

---

(١) زيادة عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك .

(٢) زيادة عن جواهر السلوك والمنهل الصافي وتاريخ سلاطين المماليك .

(٣) في الأصلين : «وجددت اليمين» . وما أثبتناه عن المنهل الصافي وتاريخ سلاطين المماليك .

(٤) هكذا في الأصلين . وفي جواهر السـلوك : « القباني » بالنون . وقد أطلنا البحث عن هذين الاسمين في المصادر التي تحت أيدينا فلم نعثر على شيء يقربنا إلى الصواب فيهما .

(٥) هو الأمير سيف الدين قبجق بن عبد الله المنصوري . سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٧١٠ هـ .

عبد الله ؛ والأمير سيف الدين بُورى[1] [السلاح دار] والأمير زين الدين عمر[2] ، والأمير سيف الدين قُرمشى[3] ، والأمير علاء الدين مُغلطاى المسعودىّ وغيرهم . وأَخذ الأمير زَيْن الدين كَتُبغَا وأعطى فى الملك وآنفرد بتدبير الأمر ومشى مع الملك الناصر محمد مَشْىَ المملوك مع أستاذه .

ثمّ بعث بتقليد نائب الشام على عادته ، وهو الأمير أَيْبَك الحَمَوِىّ . ثم بعد ذلك نزل السلطان الملك الناصر محمد من قلعة الجبل فى مَوْكب هائل بأُبّهة السلطنة ، وتوجّه إلى ظاهر القاهرة ثم عاد وشقّ القاهرة ، ودخل من باب النصر[4] وخرج من باب زُوَيْلة[5] عائدًا إلى القلعة ، والأمراء مُشَاةٌ بين يديه حتّى الأمير كَتُبغَا ، وكان ذلك فى يوم الأحد رابع عشرين[6] شهر رجب . ولمّا كان سابع عشرين شهر رمضان ظهر الأمير حُسام الدين لاچين المنصورىّ من آختفائه وآجتمع بالأمير كَتُبغَا خفية ،

(١) فى الأصلين : « برى » والتصحيح والزيادة عن تاريخ الدول والملوك وابن إياس .

(٢) فى تاريخ الدول والملوك : «والأمير ركن الدين» . (٣) فى الأصلين : «ترشى» . وما أثبتناه عن تاريخ الدول والملوك وجواهر السلوك وابن إياس . (٤) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٣٨ من الجزء الرابع من هذه الطبعة . (٥) يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على باب زويلة (ج ١ ص ٣٨٠) : أن باب زويلة القديم عند ما وضع القائد جوهر مدينة القاهرة كان عبارة عن بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح ، يعرفان بباب القوس وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر . ولما أراد أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى توسيع مدينة القاهرة القديمة نقل سورها القبلى الى جهة الجنوب وبنى باب زويلة الحالى سنة ٤٨٤ هـ = سنة ١٠٩٩ م ، ورفع أبراجه . وبالبحث تبين لى أن باب القوس المذكور مكانه اليوم يقع فى عرض شارع المعز لدين الله (شارع المناخلية سابقا) تجاه زاوية سام بن نوح ، وفى عرض شارع المنجدين تجاه هذه الزاوية ، وفى شمال باب زويلة الحالى وعلى بعد ١٣٥ مترا من عتبته . ولما أنشأ الملك المؤيد شيخ المحمودى جامعه الحالى داخل باب زويلة فى سنة ٨١٩ هـ . هدم الجزء العلوى من بدنتى الباب المذكور (أبراجه) ، وأقام منارتى الجامع فوقهما . ولا يزال باب زويلة موجودا الى اليوم على رأس شارع المعز لدين الله الذى يوصل بين هذا الباب وبين باب الفتوح . والعامة يسمون باب زويلة بوابة المتولى ، لأن متولى حسبة القاهرة فى الزمن الماضى كان يجلس بهذا الباب لتحصيل العوائد والرسوم من أصحاب الأملاك ومن التجار ، وللنظر فيما يعرض عليه يوميا من قضايا المخالفات والفصل فيها . (٦) فى الأصلين : «رابع عشر» وتصحيحه عن جواهر السلوك والتوفيقات الإلهامية .

فتكلّم كَتْبُغَا فى أمره مع الأمراء، فاتّفقوا على إظهار أمره لمّا رأوا فى ذلك من إصلاح الحال، فطيّب كَتْبُغَا خاطر الأمير حسام الدين لاچين و وعده أن يتكلّم فى أمره مع السلطان والمماليك الأشرفيّة. ولا زال كَتْبُغَا بالسلطان والحاشية حتى رضّاهم عليه وطيّب قلوبهم إلى أن كان يوم عيد الفطر، ظهر حُسام الدين لاچين من دار كَتْبُغَا، وحضر السّماط وقبّل الأرض بين يدى السلطان الملك الناصر محمد، فخلَع عليه السلطان وطيب قلبه، ولم يعاتبه بما فعل مع أخيه الملك الأشرف خليل مراعاة لخاطر كَتْبُغَا. ثم خلع عليه الأمير كَتْبُغَا أيضا، وحُملت إليه الهدايا والتُّحَف من الأمراء وغيرهم؛ كلّ ذلك لأجل خاطر كَتْبُغَا. وآصطلحت أيضا معه المماليك الأشرفيّة على ما فى نفوسهم منه من قتل أستاذهم بأمر كَتْبُغَا لهم و إلحاحه عليهم فى ذلك حتى قَبِلوا كلامه. وكانت مكافأة لاچين لكَتْبُغَا بعد هذا الإحسان كله بأن دبّر عليه حتّى أخذ المُلْك منه وتَسلطن عِوضه على ما يأتى ذكره و بيانه إن شاء الله تعالى.

ثمّ خلَع السلطان على الصاحب تاج الدين محمد[1] آبن الصاحب فخر الدين محمد[2] آبن الصاحب بهاء الدين علىّ بن حِنّا[3] بآستقراره فى الوزارة بالديار المصريّة.

ثمّ آستهلت سنة أربع وتسعين وستّمائة والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العبّاس أحمد. وسلطان مصر والشام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومدبّر مملكته الأمير كَتْبُغَا المنصورىّ. ولمّا كان عاشر المحرّم ثار جماعة من المماليك الأشرفيّة خليل فى الليل بمصر والقاهرة وعَمِلوا عملًا قبيحا وفتحوا أسواق السلاح بالقاهرة بعد حريق باب السعادة[4]، وأخذوا خيل السلطان وخرقُوا ناموس الملك، وذلك كلّه بسبب

(١) سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٠٧ هـ. (٢) هو محمد بن على بن سليم الوزير الصاحب فخر الدين أبو عبد الله. توفى سنة ٦٦٨ هـ. (عن المنهل الصافى). (٣) تقدمت وفاته سنة ٦٧٧ هـ. (٤) هو بذاته باب سعادة أحد أبواب القاهرة القديمة وكان فى سورها الغربى. و راجع الحاشية رقم ٥ ص ٢٨٠ من الجزء السابع من هذه الطبعة.

ظهور الأمير حسام الدين لاچين وعدم قتله ؛ فإنّه كان ممّن باشر قتل أستاذهم الملك
الأشرف خليل ، لحماه الأمير كَتْبُغَا ورعاه ، وأيضا قد بلغهم خَلْعُ أخى أستاذهم الملك
الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة وسلطنة كَتْبُغَا فتزايدت وحشتُهم وترادفت
عليهم الأمور، فآتّفقوا ووثبوا فلم يُنتج أمرهم . فلمّا أصبح الصباح قبَض عليهم الأمير
كَتْبُغَا وقطَع أيدى بعضهم وأرجلَهم وكَحّل البعض وقطَع أَلْسِنة آخرين وصلب ٥
جماعةً منهم على باب زويلة؛ ثم فرّق بقيّة المماليك على الأمراء والمقدّمين ، وكانوا
فوق الثلثمائة نفر وهرَب الباقون ؛ فطلب الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا الخليفة والقضاة
والأمراء وتكلّم معهم فى عدم أهليّة الملك الناصر محمد للسلطنة لصغر سنّه ، وأنّ
الأمور لا بدّ لها من رجل كامل تخافه الجند والرعيّة وتقِف عند أوامره ونواهيه .
كلّ ذلك كان بتدبير لاچين فإنّه لمّا خرج من إخفائه علم أنّ المماليك الأشرفيّة ١٠
لا بدّ لهم من أخذ ثار أستاذهم منه . وأيضا أنّه علِم أنّ الملك الناصر محمد متى ترعرع
وكَبِر لا يُبقيه لكونه كان ممّن قتل أخاه الملك الأشرف خليلا ، فلمّا تحقق ذلك أخذ
يُحَسِّنُ للأمير كَتْبُغَا السلطنة وخَلْعَ آبن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون وسلطنتَه ،
وكَتْبُغَا يمتنع من ذلك فلا زال به لاچين حتّى حذّره وأخافه عاقبة ذلك ، وقال له :
متى كَبِر الملك الناصر لا يُبقيك البتّة ، ولا يُبقى أحدًا ممّن تَعامل على قتل أخيه الملك ١٥
الأشرف ، وأنّ هؤلاء الأشرفيّة ما دام الملك الناصر محمد فى المُلك شوكتُهم قائمةٌ ،
والمصلحة خَلْعُه وسلطنتك . فمال كَتْبُغَا إلى كلامه ، غير أنّه أهمل الأمر وأخذ فى تدبير
ذلك على مَهَل . فلمّا وقَع من الأشرفيّة ما وقع وثَب وطَلب الخليفةَ والقضاة حسب
ما ذكرناه . ولمّا حضر الخليفة والقضاة وآتّفق رأى الأمراء والجند على خَلْع
السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من الملك وسلطنة كَتْبُغَا هذا عِوَضه ؛ فوقع ٢٠
ذلك وخُلِع الملك الناصر محمد من السلطنة وتسلطن كتبغا وجلس على تخت المُلك

فى يوم خلع الملك الناصر، وهو يوم الخميس ثانى عشر المحرّم سنة أربع وتسعين وستمائة
بعد واقعة المماليك الأشرفيّة بيومين، وأُدْخِل الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الدور
بالقلعة، وأَمَرَه كَتْبُغا بالّا يركب ولا يظهر. وكان عمرُه يوم خُلع نحو العشر سنين.
وكانت مدّة سلطنته فى هذه المرّة الأولى سنة واحدة إلا ثلاثة أيام أو أقلّ. ويأتى
٥ بقية ترجمته فى سلطنته الثانية والثالثة إن شاء الله تعالى.

*
* *

السنة[1] الأولى من سلطنة الملك الناصر محمد الأولى على مصر على أنّه لم يكن
له من السلطنة فيهـا إلّا مجرّد الاسم فقط، وإنّمـا كان الأمر أوّلًا للأمير علم الدين
سَنْجَر الشجاعى ثم للأمير كَتْبُغَا المنصورى، وهى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، على
١٠ أنّ الأشرف قُتِل فى أوائلها فى المحرّم حسب ما تقدّم ذكره.

فيهـا تُوُفّى الصاحب فخر الدين أبو العبّاس إبراهيم بن لُقْمان بن أحمـد بن محمد
الشَّيْبانِىّ الإِسْعِرْدِىّ ثم المصرىّ، رئيس المُوَقّعين بالديار المصريّة، ثم الوزير بها ولى
الوزارة مرّتين، وكان مشكورَ السِّيرة قليل الظُّلم كثير العدل والإحسان للرعيّة.
وفى أيام وزارته سَعَى فى إبطال مظالم كثيرة، وكان يتولّى الوزارة بجامَكيّة[2] الإنشاء،
١٥ وعنـد ما يعزلونه من الوزارة يُصبح يأخذ غلامُه الحِرْمِدان[3] خلْفَه، ويروح يقعـد
فى ديوان الإنشاء وكأنّه ما تغـيّر عليه شىء، وكان أصله من العدن[4] من بلاد إسعرد
وتدرّب فى الإنشاء بالصاحب بهاء الدين زُهَيْر[5] حتى برَع فى الإنشاء وغيره.

---

(١) يريد المؤلف السنة التى حكم فيها، فانه لم يحكم فى هـذه السلطنة إلا هذه السنة.
(٢) الجامكية: كلمة فارسية، معناها الراتب المربوط لشهر أو أكثر (عن القاموس الانجليزى الفارسى
٢٠ لاستنجاس). (٣) الحرمدان: كلمة فارسية، مركبة من كلمتين: الحرم ودان، ومعناها
حقيبة السفر أو شنطة السفر (عن استنجاس). (٤) فى المنهل الصافى وتاريخ الدول والملوك:
«من المعدن». (٥) هو أبو الفضل وأبو العلاء بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى بن
الحسن ابن جعفر المهلبى. تقدمت وفاته سنة ٦٥٦ هـ.

قال الذهبى : رأيته شيخا بعمامة صغيرة وقد حدّث عن ابن رواح[١] وكتب عنه البرزالى[٢] والطلبة . انتهى . وكان ابن لقمان المذكور فاضلا ناظما ناثرا مترسّلا ، ومات بالقاهرة فى جمادى الآخرة ودفن بالقرافة . ومن شعره :

كن كيف شئت فإننى بك مغرم * راض بما فعل الهوى المتحكّم

ولئن كتمت عن الوشاة صبابتى * بك فالجوانح بالهوى تتكلّم ٥

أشتاق من أهوى وأعجب أننى * أشتاق من هو فى الفؤاد مخيّم

يا من يصدّ عن المحبّ تدلّلا * وإذا بكى وجدا غدا يتبسّم

أسكنتك القلب الذى أحرقته * فحذار من نار به تتضرّم

وفيها قتل الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى ، كان من مماليك الملك المنصور قلاوون ، وترقّى حتى ولى شدّ الدواوين ، ثم الوزارة بالديار ١٠ المصرية فى أوائل دولة الناصر ، وساءت سيرته وكثر ظلمه ، ثم ولى نيابة دمشق فتلطّف بأهلها وقلّ شرّه ، ودام بها سنين إلى أن عزل بالأمير عز الدين أيبك الحموى ، وقدم إلى القاهرة . وكان موكبه يضاهى موكب السلطان من التجمّل ، ومع ظلمه كان له ميل لأهل العلم وتعظيم الإسلام ، وهو الذى كان مشدّ عمارة البيمارستان[٣] المنصورى بين القصرين[٤] فتمّمه فى مدّة يسيرة ، ونهض بهذا العمل العظيم وفرغ منه ١٥ فى أيام قليلة ، وكان يستعمل فيه الصنّاع والفعول بالبندق حتى لا يفوته من هو بعيد عنه فى أعلى سقالة كان . ويقال إنه يوما وقع بعض الفعول من أعلى السقالة بجنبه فمات ، فما اكترث سنجر هذا ولا تغيّر من مكانه وأمر بدفنه . ثم عمل الوزارة أيضا

(١) هو أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن على بن فتوح بن رواح رشيد الدين الاسكندرانى المالكى تقدّمت وفاته سنة ٦٤٨ هـ فيمن ذكر الذهبى وفاتهم . (٢) البرزالى ، هو علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن ٢٠ يوسف بن محمد الإشبيلى الأصل الدمشقى الشافعى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٣٩ هـ .

(٣) راجع الحاشية رقم ٥ ص ٣٢٥ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٤) المسمى الآن شارع المعز لدين الله .

فى أوائل دولة الناصر محمد بن قلاوون أكثر من شهر حسب ما تقدّم ذكره، وحدّثته نفسه بما فوق الوزارة ، فكان فى ذلك حَتْفُه وقتلُه حسب ما ذكرناه فى أوّل ترجمة الملك الناصر هذا، وفَرِح أهل مصر بقتله فرحًا زائدًا حتّى إنّه لمّا طافت المشاعليّة برأسه على بيوت الكُتّاب القِبْط بلغتْ اللَّطْمة على وجهه بالمداس نصفًا ، والبَوْلة عليه درهما ، وحصّلوا المشاعليّة جُمَلا من ذلك .

قلت : وهذا غلط فاحش من المشاعليّة، قاتلهم الله ! لو كان من الظلم ما كان هو خير من الأقباط النصارَى . ولمّا كان على نيابة دِمَشق وسّع مَيْدانها أيّام الملك الأشرف، فقال الأديب علاء الدين الوَدَاعِيّ (1) فى ذلك :

عَلِم الأمـير بأنّ سلطان الورَى * يأتى دِمشَق ويُطْلِق الأمـوالا

فلأجل ذا قد زاد فى مَيْدَانِها * لتكون أوسعَ للجواد مجـالا

قال الصلاح الصَّفَدِيّ (2) : أخبرنى من لفظه شهاب الدين بن فضل الله قال أخبرنى والدى عن قاضى القضاة نجم الدين آبن الشيخ شمس الدين شيخ الجبل قال : كنت ليلة نائما فآستيقظتُ وكأن مَن أنبهنى وأنا أحفَظ كأنّما قد أُنشدت ذلك :

عنـد الشجاعىّ أنواعٌ منوّعةٌ * من العذاب فلا ترحمْه بالله

لم تُغنِ عنـه ذنوبٌ قـد تحمّلها * من العباد ولا مالٌ ولا جاهْ

قال : ثم جاءنا الخبر بقتله بعد أيام قلائل فكانت قِتلته فى تلك الليلة التى أُنشدتُ فيها الشعر . انتهى .

قلت : وهذا من الغرائب . وقد ذكرنا من أحوال سَنْجَر هذا فى تاريخنا المنهل الصافى نبذةً كبيرة كونه كتاب تراجم وليس للإطناب لهؤلاء هنا محلّ . انتهى .

(1) هو علاء الدين على بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد الوداعى الأديب البارع أبو الحسن الكندى المعروف بكاتب آبن وداعة . سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧١٦ هـ.

(2) هو القاضى الإمام البارع الكاتب المؤرخ المفتى شهاب الدين أبو العباس أحمد آبن القاضى محيى الدين يحيى بن فضل الله بن المجلى ابن دعجان القرشى العدوى العمرى الدمشقى الشافعى . سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٤٩ هـ .

وفيها تُوفِّى قتيلا الملك كَيْخَتُو ملك التّتار قتله ابن أخيه بَيْدُو[1] .

قلت : وهنا نكتة غريبـة لم يَفْطن إليها أحد من مؤرّخى تلك الأيام ، وهى أنّ سـلطان الديار المصرية الملك الأشرف خليل بن قلاوون قتله نائبه الأمير بَيْدَرَا ، وملك التتار كَيْخَتُو هذا أيضا قتله ابن أخيه بَيْدَرَا[2] ، وكلاهما فى سنة واحدة ، وذاك فى الشرق وهذا فى الغرب . انتهى .

وملك بعد كيختو بيدو المذكور الذى قتله .

قلت : وكذلك وقع للأشرف خليل ، فإن بيدرا ملَك بعده يوما واحدا وتلقّب بالملك الأوحد . وعلى كلّ حال فإنّهما تشابها أيضا . انتهى . وكان بَيْدُو الذى ولِى أمر التّتار يَميل إلى دين النّصرانيّة ، وقيـل إنه تنصّر ، لعنه الله ، ووقع له مع الملك غازان أمورٌ يطول شرحها .

وفيهـا قُتِل الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن أبى الرجاء التّنُوخىّ الدمشقىّ التاجر المعروف بآبن السَّلْعُوس . قال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدى : كان فى شَبِيبته يسافر بالتجارة ، وكان أشقر سمينًا أبيضَ معتدل القامة فصيح العبارة حُلْوَ المنطق وافر الهيبة كامل الأدوات خليقا للوزارة تامّ الخبرة زائد الإعجاب عظيم التِّيه ، وكان جارا للصاحب تقىّ الدين البَيِّع[3] ، فصاحبه ورأى فيه الكفاءة فأخذ له حِسْبَة دمشق ، ثم توجّه إلى مصر وتوكّل للملك الأشرف خليل فى دولة أبيه ، فجرى عليه نكبةٌ من السلطان فشفَع فيه مخدومُه الأشرف خليل ، وأطلقه من الآعتقال ، وحج فتملّك الأشرفُ فى غَيْبته . وكان محبّا له فكتَب إليه بين الأسطر : ياشُقَيْر ، يا وجه الخَيْر ، قدِّم السَّيْر . فلمّا قدِم وزره . وكان إذا ركب تمشى الأمراء الكبار فى خدمته . انتهى .

(١) راجع ما كتبناه عن هذا الاسم فى الحاشية رقم ١ ص ٢٩ من هذا الجزء . (٢) ذكر المؤلف هـذه النكتة على روايته لا على ما أثبتناه . (٣) فى الأصلين : «ابن المنبع» . وتصحيحه عن تاريخ الاسلام وعيون التواريخ وشذرات الذهب والوافى بالوفيات للصفدى . وهو تقى الدين البيع الصاحب الكبير أبو البقاء توبة بن على بن مهاجر التكريتى عرف بالبيع . سيذكره المؤلف سنة ٦٩٨ هـ .

قال : وكان فى أيام وزارته يقف الشجاعىّ المقدّم ذكره فى خدمتـه ، فلمّا قُتِل مخدومه الملك الأشرف وهو بالإسكندريّة قدِم القاهرة فطُلِب إلى القلعة فأنزله الشجاعىّ من القلعة ماشياً ، ثم سلّمه من الغد إلى عدوّه الأمير بهـاء الدين قَراقُوش [الظاهرىّ][(1)] مشدّ الصُّحبة[(2)]، قيل : إنّه ضربه ألفا ومائة مِقْرَعة ، ثم تداوله المسعودىّ وغيره وأخذ منه أموالا كثيرة ، ولا زال تحت العقوبة حتى مات فى صفر . ولمـا تولّى الوزارة كتب إليه بعض أحبّائه من الشام يُحذّره من الشجاعىّ :

تنبّـهْ يا وزيرَ الأرض واعلم * بأنّك قد وطِئتَ على الأفاعِى
وكن بـالله معتصما فإنّى * أخاف عليك من نَهْش الشجاعى

فبَلَغ الشجاعىّ ، فلمـا جرى ما جرى طلب أقاربَه وأصحابَه وصادرهم ، فقيل له : عن الناظم ، فقال : لا أوذيه فإنّه نصحه فىّ وما انتصح . وقد أوضحنا أمره فى المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى بأطول من هذا . انتهى .

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة ، قال : وفيها تُوُفّى المقرئ شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدِّمْياطىّ بدمَشق فى صفر . وقاضى القضاه شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خليل الخُوَيىّ[(3)] . والسلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن قلاوون ، فتكوا به فى المحزم . ونائبه بَيْدَرا قُتِل من الغد . ووزيره الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن السَّلْعُوس هَلَك تحت العذاب .

§ أمر النيل فى هذه السنة — المـاء القديم أربع أذرع . مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا وسبع أصابع . وثبت إلى سادس عشر توت .

(١) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك . (٢) هو الأمير بهاء الدين المسعودى مشدّ مصر (عن المنهل الصافى) فى ترجمة ابن السلعوس المذكور . (٣) نسبة الى خوى ، مدينة بأذربيجان (عن لب اللباب ومعجم البلدان لياقوت وصبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥٩) .

ذكر سلطنة الملك العادل زَيْن الدّين كَتْبُغَا على مصر

هو السلطان الملك العادل زَيْن الدين كَتْبُغَا بن عبد الله المنصوريّ التركيّ المُغْليّ سلطان الديار المصريّة؛ جلَس على تخت المُلك بعد أن خلع آبن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى يوم الخميس ثانى عشر المحرّم سنة أربع وتسعين وستّمائة بآتّفاق الأمراء على سلطنته. وهو السلطان العاشر من ملوك التُّرك بالديار المصريّة، وأصله من التّتار من سَبْى وقعة حِمْص[1] الأولى التى كانت فى سنة تسع وخمسين وستمائة؛ فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدّبه ثم أعتقه؛ وجعله من جُملة مماليكه، ورقّاه حتّى صار من أكابر أمرائه، وآستمرّ على ذلك فى الدولة الأشرفيّة خليل بن قلاوون إلى أن قُتِل، وتسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثلاث وتسعين وأقام الناصر فى المُلك إلى سنة أربع وتسعين[2] ووَقَع الاتفاق على خلعه وسلطنة كَتْبُغَا هذا، فتسلطن وتلقّب بالملك العادل، وسِنُّه يوم ذاك نحو الأربعين سنة، وقيل خمسين سنة. وقد تقدّم سبب خلع الملك الناصر محمد وسلطنة كَتْبُغَا هذا فى آخر ترجمة الملك الناصر محمد فلا حاجة فى الإعادة.

وقال الشيخ شمس الدين بن الجَزَرىّ قال: حَكَى لى الشيخ أبو الكرم النَّصْرانىّ الكاتب، قال: لمّا فتح هُولاكو حلب بالسيف ودِمَشْق بالأمان طلَب هولاكو نصير الدين الطُّوسىّ[3] وكان فى صحبته، وقال له: أُكتب أسماء مقدّمى عسكرى، وأَبْصِر أيّهم يمِلك مصر، ويقعُد على تخت المُلك بها حتّى أُقَدّمه؟ قال: فحسَب

(١) راجع ص ١٠٦ — ١٠٧ من الجزء السابع من هذه الطبعة.
(٢) فى يوم الخميس الثانى عشر من المحرم من هذه السنة كما تقدّم فى صفحة ٥٠ من هذا الجزء.
(٣) هو نصير الدين الطوسى خواجا محمد بن الحسن أبو عبد الله. تقدمت وفاته فيمن نقل المؤلف وفاتهم عن الذهبي سنة ٦٧٢ هـ.

نصير الدين [أسماء][(١)] المقدمين، فما ظهر له من الأسماء اسمُ مَنْ يملك الديار المصرية غيرَ اسم كَتْبُغَا . وكان كتبغا صِهْر هولاكو[(٢)]، فقدّمه على العساكر فتوجّه بهم كتبغا فانكسر على عين[(٣)] جالوت[(٤)]، فتعجّب هولاكو من هذه الواقعة وظنّ أنّ نصير الدين قد غَلِط فى حسابه . وكان كَتْبُغَا هـذا من جملة مَن كان فى عسكر هُولاكو من التّتار ممّن لا يُؤْبَه إليه من الأصاغر، وكَسَبه قلاوون فى الواقعة؛ فكان بين المدّة نحوٌ من خمس وثلاثين سنة ، حتّى قدّر الله تعالى بما قدّر من سلطنة كتبغا هذا . انتهى .

ولمّا تمّ أمر كتبغا فى الملك وتسلطن مَدَّ سِماطاً عظيماً وأحضر جميعَ الأمراء والمقدّمين والعسكر وأكلوا السِّماط، ثم تقدّموا وقبّلوا الأرض ثم قبّلوا يدَه وهنّئوه بالسلطنة، وخَلَع على الأمير حُسام الدين لاچين وولّاه نيابة السلطنة بالديار المصرية، وولّى عِز الدين الأَفْرم أمير جَانْدار، والأمير سيف الدين بَهَادُر حاجب الحُجّاب؛ ثم خلع على جميع الأمراء والمقدّمين ومَن له عادة بلُبْس الخِلَع [عند[(٥)] تولية الملك كما جرت العادة] . وفى يوم الخميس تاسع عشر المحرّم ركب جميع الأمراء والمقدّمين

---

(١) زيادة عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك . (٢) تقدمت وفاة كتبغا هذا سنة ٦٥٨ هـ . (٣) عين جالوت : قرية صغيرة بين نابلس و بيسان، استولى عليها الروم مدّة ثم استنقذها منهم صلاح الدين فى سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م . ثم اشتهرت بالموقعة الفاصلة بين التتار والمصريين؛ وقد كانت الهزيمة فيها على التتار الذين أزمعوا اكتساح مصر والشام بعد أن دكوا صرح الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م . فقد شتت المظفر قطز فيها شملهم فى سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م كما تقدم ذكر ذلك فى ترجمة المظفر قطز ص ٧٥ — ٨٠ من الجزء السابع من هذه الطبعة، ولا تزال لهذه القرية بقية الى اليوم باسم جالود وهى قرية صغيرة من قضاء نابلس لا يتجاوز سكانها مائة وخمسين نفسا . (انظر ياقوت وجغرافية فلسطين) . (٤) ورد فى جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك بعد كلمة « عين جالوت » العبارة الآتية : « وفاتهم أنهم ما حسبوا فى أى وقت يملك هـذا الاسم ولا المدّة، فلله الحمد والمنة الذى كان هذا الاسم من ملوك الإسلام، فكان بين المدة نحو من خمس وثلاثين سنة » . (٥) زيادة عن جواهر السلوك .

وجميع مَن خُلع عليه وأتَوْا إلى سوق الخيل(١) وترجّلوا وقبّلوا الأرض، ثم كُتِب بسلطنة الملك العادل إلى البلاد الشاميّة وغيرها . وزُيِّنت مصر والقاهرة لسلطنته .

ولمّا كان يوم الأربعاء مستهلّ شهر ربيع الأوّل(٢) ركب السلطان الملك العادل كَتْبُغا بأبّهة السلطنة وشِعارِ المُلك من قلعة الجبل ونزَل وسار إلى ظاهر القاهرة نحوُ قبّة النصر(٣)، وعاد من باب النصر(٤) وشقّ القاهرة حتّى خرج من باب زُوَيلة عائدًا إلى قلعة الجبل، كما جرَت العادة بركوب الملوك . ولم تطُل مدّة سلطنته حتى وقع الغلاء والفَنَاء بالديار المصرية وأعمالها، ثم آنتشر ذلك بالبلاد الشاميّة جميعها في شوّال من هذه السنة ، وآرتفع سِعْر القمح حتّى بيع كلُّ إردبّ بمائة وعشرين درهما بعد أن كان بخمسة وعشرين درهما الإردبّ، وهذا في هذه السنة ، وأما في السنة الآتية التي هي سنة خمس وتسعين وستمائة فوصل سِعْر القمح إلى مائة وستين(٥) درهما الإردبّ . وأمّا الموت فإنّه فشا بالقاهرة وكثُر ، فأحصى مَن مات بها وثبَت آسمه في ديوان [المواريث](٦) في ذي الحجّة فبلغوا سبعة عشر ألفًا وخمسمائة . وهذا سوى مَن لم يرد آسمُه في ديوان المواريث من الغرباء والفقراء ومن لم يُطلق من الديوان . ورحَل جماعة كثيرة من أهل مصر عنها إلى الأقطار من عِظَم الغلاء وتخلخل(٧) أمر الديار المصريّة . وفي هذه السنة حجّ الأمير أنس بن الملك العادل كَتْبُغا صاحب الترجمة، وحجّت معه والدته وأكثر حرم السلطان ، وحجّ بسببهم خَلْقٌ كثير من نساء الأمراء

(١) راجع الحاشية ١ ص ٤٢ من هذا الجزء . (٢) في الأصلين : «ربيع الآخر» . وتصحيحه عن جواهر السلوك والتوفيقات الإلهامية . (٣) راجع الحاشية رقم ١ ص ٤١ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٤) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٣٨ من الجزء الرابع من هذه الطبعة.

(٥) في تاريخ سلاطين المماليك : «فوصل سعر القمح الى مائة وثمانين درهما الإردب» .

(٦) الزيادة عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك وما سيأتي ذكره في السطر التالي .

(٧) في الأصلين : «وتخلل» .

بتجمّل زائد، وحصل بهم رِفق كُبير لأهل مكّة والمدينة والمجاورين، وشُكِرت سِيرة ولد السلطان أنس المذكور وبَذَل شيئا كثيرا لصاحب مكّة .

ثم آستهلّت سـنة خمس وتسـعين وستمائة وخليفـةُ المسلمين الحاكم بأمر الله أبوالعبّاس أحمد الهاشمىّ البغدادىّ العباسىّ . وسلطانُ الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والشماليّة والفُراتيّة والساحليّة المَلِكُ العادل زَيْن الدين كَتْبُغَا المنصورىّ . ووزيرُه الصاحب فخر الدين عمر آبن الشيخ مجد الدين بن الخليلىّ . ونائبُ السلطنة بالديار المصريّة الأميرُ حسام الدين لاچين المنصورىّ . وصاحبُ مكّة، شرّفها الله تعـالى، الشريفُ نجم الدين أبو نُمَىّ محمـد[1] الحَسَنِىّ المكّى . وصاحب المدينـة النبويّة، على ساكنها أفضـلُ الصلاة والسـلام، عِزّ الدين جَمّـاز بن شِيحة الحُسَيْنىّ . وصاحب اليمن مُمَهِّـد الدين عمر آبن الملك المظفّـر شمس الدين يوسف آبن الملك المنصور عمر [بن علىّ][2] بن رَسُول . وصاحبُ حَمَـاة بالبلاد الشاميّة الملك المظفّر تَقِىّ الدين محمود آبن الملك المنصور ناصر الدين محمد آبن الملك المظفّر تقِىّ الدين محمود [آبن الملك المنصور محمـد بن تقى الدين عمر][3] بن شَاهِنْشَاه[4] بن أيّوب . وصاحبُ مارِدِين [الملك السعيد شمس الدين داود آبن][5] الملك المظفّر فخر الدين أَلْبِى[6] أَرْسلان آبن الملك السعيد شمس الدين قَرَا أَرْسـلان بن أُرْتُق الأَرْتُقِىّ . وصاحب الروم السلطان غِياث الدين مسعود آبن السلطان عِز الدين [كَيْكَاوُس][7] ابن السلطان

---

(١) فى الأصلين : « أبو نمى سعد » . وما أثبتناه عن جواهر السلوك وعيون التواريخ .
(٢) تكملة عن المصدرين المتقدمين .
(٣) التكملة عما تقدّم ذكره للؤلف سنة ٦٨٣ هـ .
(٤) فى الأصلين : «ابن شاوى» . وتصحيحه عن الحاشـية رقم ٢ ص ١٠ من الجزء السادس من هذه الطبعة وما تقدّم للؤلف فى غير موضع .
(٥) التكملة عن جواهر السلوك وعيون التواريخ وتاريخ سلاطين المماليك .
(٦) فى الأصلين : «مجير الدين» . والتصحيح عن المصادر المتقدّمة .
(٧) الزيادة عما تقدّم ذكره فى الحاشية رقم ٦ ص ١٦ وص ٢٠٠ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

غياث الدين كَيْخُسْرُو بن سَلْجُوق السَّلْجُوقى . وملكُ التتــار غازان و يقال قازان، وكلاهما يصحّ معناه ، وآسمه الحقيقى محمود بن أَرْغُون بن أَبْغَا بن هُولا كو، وهو مُظْهِر الإسلام وشعائر الإيمان . ونائب دِمَشق الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِى المنصورى . وكان الموافق لأوّل هــذه السنة عاشر بابه [(١)] أحد شهـور القِبْط المسمّى بالرومى تشرين الأوّل .

وقال الشيخ قُطْب الدين اليُونِينِى : وفى العَشر الأوّل من المحــرّم حَكَى جماعة كثيرة من أهل دِمَشق وآستفاض ذلك فى دمشق وكثُر الحديث فيه عن قاضى جُبة [(٢)] أعسال ، وهى قرية من قُرى دِمَشق ، أنّه تكلّم ثَوْر بقرية من قرى جُبّــة أعسال، وملخّصها : أنّ الثور خرج مع صبىّ يشرب ماء من هناك فلمّا فرَغ حَمِد الله تعالى فتعجّب الصبى ! وحَكَى لسيّده مالك الثور فشكّ فى قوله ، وحضر فى اليوم الثانى بنفسه ، فلمّا شرب الثورُ حَمِــد الله تعالى؛ ثم فى اليوم الثالث حضَر جماعةٌ وسمعوه يحْمَد الله تعــالى ؛ فكلّمه بعضهــم فقال الثور : « إنّ الله كان كَتَب على الأمّة ســبع سنين جَدْبًا ، ولكن بشفاعة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أبدلهــا بالخِصْب ، وذكر أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أمَره بتبليغ ذلك، وقال الثور : يا رسول الله ما علامة صدقى عنــدهم ؟ قال : أن يموت عَقِب الإخبار . قال الحــاكى لذلك : ثم تقدّم الثور على مكان عالٍ فسقط ميتا، فأخَذ الناس من شَعْره للتبرّك، وكفّن ودُفِن . انتهى .

قلت : وهذه الحكاية غريبة الوقوع والحاكى لها ثقة حجّــة ، وقد قال : إنّه استفاض ذلك بدِمَشق . انتهى .

---

(١) فى التوفيقات الإلهامية أن أول سنة ٦٩٥ ﻫ يوافق ١٣ هاتور سنة ١٠١٢ قبطية .

(٢) وافق المؤلف على هذه التسمية صاحب جواهر السلوك وصاحب تاريخ الدول والملوك . وسماها ياقوت « جبة عسيل » بالتصغير وقال : إنها ناحية بين دمشق و بعلبك تشتمل على عدّة قرى .

وأمّا أمر الديار المصريّة فإنه عظُم أمر الغلاء بهـا حتّى أكل بعضهم الميتات والكلاب، ومات خَلْقٌ كثير بالجُوع . والحكايات فى ذلك كثيرة، وآنتشر الغلاء شرقًا وغربًا . وبينما السلطان الملك العادل كَتْبُغا فيما هو فيــه من أمر الغلاء ورَد عليه الخبر فى صفر بأنّه قــد وصل إلى الرَّحْبَــة (١) عسكر كثير نحوُ عشرة آلاف بيت من عسكر بَيْدُو ملك التّتار طالبين الدخول فى الإسلام خوفاً من السلطان غازان، ومقــدّمهم أمير آسمــه طَرْغاى (٢) ، وهو زوج بنت هولاكو ؛ فرسَم الملك العــادل إلى الأمير علم الدين سَنْجَر [الدواداري] (٣) بأن يُسافر من دِمَشق إلى الرَّحْبة حتّى يتلقاهم، فخرج إليهم، ثم خرج بعده الأمير سُنْقُر (٤) الأعسر شادّ دواوين دمشق ، ثم ندَب الملكُ العادل أيضا الأمير قرا سُنْقُر (٥) المنصورى بالخروج من القاهرة، فخرج حتّى وصل إلى دمشق لتاقى المذكورين ، ورسَم له أن يُحضِر معه فى عوده إلى مصر جماعةً من أعيانهم ، فوصل قرا سُنْقُر إلى دِمَشق وخرج لتلقّيهم، ثم عاد إلى دمشق فى يوم الآثنين ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل، ومعه من أعيانهم مائةُ فارس وثلاثة عشر فارسا ؛ وفرِح الناس بهم وبإسلامهم وأنزلوهم بالقصر الأبلق من المَيْدان .

وأمّا الأمير علم الدين سَنْجَر الدّوادارى فبقى مع الباقين، وهم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير وكهل وصغير وآمرأة ومعهم ماشية كثيرة ورَخْت (٦) عظيم ، وأقام قَرَا سُنْقُر بهم أيّاما، ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية، وقَدِموا القاهرة فى آخر شهر ربيع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كَتْبُغَا ورتّب لهم الرواتب .

---

(١) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٣٢٨ من الجزء السادس من هذه الطبعة . (٢) فى الأصلين : «قرطاى» . وما أثبتناه عن تاريخ الدول والملوك وتاريخ سلاطين المماليك . (٣) زيادة عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك وتاريخ الدول والملوك وما سيأتى بعد قليل . (٤) هو شمس الدين سنقر بن عبد الله الأعسر الوزير . سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٠٩ هـ . (٥) هو سيف الدين قرا سنقر بن عبد الله المنصورى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٢٧ هـ . (٦) الرخت : كلمة فارسية تفيد جملة معان : منها البضائع والماشية والخيل والعدة والرياش (عن قاموس استنجاس) .

ثمّ بدا للملك العادل كتبغا السفر إلى البلاد الشاميّة لأمرٍ مقدّر آقتضاه رأيُه، وأخذ فى تجهيز عساكره وتهيّأ للسفر، وخرج بجميع عساكره وأمرائه وخاصّكيته فى يوم السبت سابع عشر شوّال وسار حتّى دخَل دمشق، فى يوم السبت خامس عشر ذى القعدة وخامس ساعة من النهار المذكور ودخل دمشق والأمير بدر الدين بَيْسَرى حامل الجَتْر[1] على رأسه، ونائب سلطنته الأمير حسام الدين لاچين المنصورى ماشياً بين يديه، ووزيرُه الصاحب فخر الدين بن الخليلى[2]، وآحتَفل أهلُ دمشق لقدومه وزُيِّنت المدينة وفرِح الناس به .

ولمّا دخل الملك العادل إلى دمشق وأقام بها أيّاما عَزَل عنها نائبها الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الحموى، وولّى عِوَضه فى نيابة دمشق مملوكَه الأمير سيف الدين أغزلوا[3] العادلى وعمره نحو من آثنتين وثلاثين سنة، وأنعم على الأمير عزّ الدين أَيْبَك الحموى بخُبز أغزلو بمصر، وخرجا من عند السلطان وعليهما الخِلَع، هذا متولٍّ وهذا منفصلٌ . ثم سافر السلطان الملك العادل من دمشق فى ثانى عشر ذى الحجّة بأكثر العسكر المصرى وبقيّة جيش الشام إلى جهة قرية جُوسِيَة[4]، وهى ضَيْعة آشتراها له الصاحب شهاب الدين الحنفى فتوجّه إليها، ثم سافر منها فى تاسع عشر ذى الحجّة إلى حِمْص ونَزَل عند البَحْرَة بالمَرج[5] بعد ما أقام فى البرّيّة أيّاما لأجل الصيد، وحضر

(١) الجتر: المظلة وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس الملك فى العيدين، وهى من بقايا الدولة الفاطمية، فارسية معربة . وضبطت بالعبارة فى صبح الأعشى (بكسر الجيم) . وفى الألفاظ الفارسية المعربة ضبط بالقلم بفتح الجيم (راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ و ٨) . (٢) هو الصاحب الوزير فخر الدين عمر آبن الشيخ مجد الدين عبد العزيز آبن الحسن بن الحسين الخليلى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧١١ هـ . (٣) هكذا ورد فى الأصلين هنا وفيما سيذكره المؤلف عند وفاته سنة ٧١٩ هـ ، والمنهل الصافى . وفى جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك وعيون التواريخ : « غرلو » بالغين والراء . وهو أغزلو بن عبد الله العادلى نائب الشام . (٤) جوسية : قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق، فيها عيون تسقى أكثر ضياعها . (عن معجم البلدان لياقوت) . (٥) يراد به المرج الذى تحت حصن الأكراد، وراجع ص ١٤٢ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

إليه نوابُ البلاد الحلبيّة جميعها؛ ثم عاد إلى دمشق ودخلها بمن معـه من العساكر ضُحًا نهار الأربعاء ثانى المحرّم من سنة ست وتسعين وستمائة . وأقام بدِمَشق إلى يوم الجمعة رابع المحرّم ركب السلطان الملك العادل المذكور بخواصّه وأمرائه إلى الجامع لصلاة الجمعــة لخضر وصـلّى بالمقصورة؛ وأخذ من الناس قصَصهم حتى إنّه رأى شخصا بيده قصّة فتقدّم إليه بنفسه خُطُوات وأخذها منه؛ ولمـّا جلس الملك العادل للصلاة بالمقصورة جلَس عن يمينه الملك المظفّر تقىّ الدين محمود صاحب حَمَاة، وتحته بدرُ الدّين[(١)] أمير سلاح، ثم من تحته نائب دمشق أغزلو العادلىّ؛ وعن يَسار السلطان الشيخ حسن[(٢)] بن الحـريرى وأخواه، ثم نائب السلطنة لاچين المنصورىّ، ثم تحته نائب دمشق الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الحموىّ (أعنى الذى عُزِل عن نيابة دمشق)، ثم من تحته الأمير بدر الدين بَيْسَرى، ثم قرا سُنْقُر المنصورى، ثم الحاج بَهادُر[(٣)] حاجب الحُجّاب؛ ثم الأمراء على مراتبهم ميمنةً ومَيْسَرةً .

فلمّا آنقضت الصلاة خرج من الجامع والأمراءُ بين يديه والناس يبتهلون بالدعاء له، وأحبّه أهل دِمَشق وشُكِرت سِـيرتُه، وحُمِدت طريقته . ثم فى يوم الخميس سابع عشر المحرّم أمسك السلطان الأميرَ أَسَنْدَمُر[(٤)] وقيّده وحبسه بالقلعة . وفى يوم الآثنين حادى عشرين المحرّم عزَل السلطانُ الأميرَ شمس الدين سُـنْقُر الأعسر عن شـدّ دواوين دمشق ورسَم له بالسـفر صحبةَ السلطان إلى مصر، وولّى عوضَـه فتح الدين[(٥)] آبن صبرة .

(١) هو بدر الدين بكتاش بن عبد الله الفخرى النجمى أمير سـلاح مقدم العساكر المصرية فى غزو سيس . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٠٦ هـ . (٢) هو الشيخ حسن بن على بن منصور الحريرى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٦٩٧ هـ . (٣) هو الحاج بهادر بن عبد الله المنصورى سيف الدين الحلبى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧١٠ هـ . (٤) هو أسندمر بن عبد الله الكرجى سيف الدين . توفى سنة ٧٢١ هـ كما فى الدرر الكامنة . وفى هامشها والمنهل الصافى أنه توفى سنة ٧١١ هـ . (٥) فى المنهل الصافى فى ترجمة سنقر الأعسر : « وعزله بفتح الدين بن صورة » ولم نقف عليه فى مصدر آخر .

ولمّا كان بكرة يوم الاثنين المذكور خرج السلطان الملك العادل من دمشق بعساكره وجيوشه نحوَ الديار المصريّة ، وسار حتى نزل باللَّجُّون[(١)] بالقرب من وادى فَحْمة[(٢)] فى بكرة يوم الاثنين ثامن عشرين المحرّم من سنة ست وتسعين ، وكان الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ نائب السلطنة قد اتّفق مع الأمراء على الوثوب على السلطان الملك العادل كَتْبُغَا هذا والفَتْك به ، فلم يقدر عليه لعِظَم شَوْكته ؛ فدبَّر أمرًا آخر وهو أنّه ابتدأ أوّلاً بالقبض على الأميرين : بَتْخاص و بَكْتُوت الأزرق العادليين ، وكانا شهمين شجاعين عزيزين عند أستاذهما الملك العادل المذكور ، فركب لاچين بمن وافقه من الأمراء على حين غفلة وقبَض على الأميرين المذكورين وقتلهما فى الحال ، وقصد مخيَّم السلطان فمنعه بعض مماليك السلطان قليلا وعوّقوه عن الوصول إلى الملك العادل . وكان العادل لمّا بلغه هذا الأمرُ علم أنّه لا قِبَلَ[(٣)] له على قتال لاچين لعلمه بمن وافقه من الأمراء وغيرهم وخاف على نفسه ، وركب من خيل النَّوْبة فرسًا تُسَمَّى حمامة وساق لقلّة سعده ولزوال مُلكه راجعا إلى الشام ، ولو أقام بمخيَّمه لم يقدر لاچين على قتاله وأخذه ، فما شاء الله كان ! وساق حتى وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرّم قُرْبَ العصر ، ومعه أربعة أوخمسة من

(١) اللجون : قرية فلسطينية فى قضاء جينين ، يبلغ عدد سكانها ٤٠٠ نفس . قال ياقوت فى معجمه : بين اللجون وطبرية عشرون ميلا و إلى الرملة أربعون ميلا . وفى اللجون الصخرة المدورة فى وسط المدينة وعليها قبة زعموا أنها مسجد إبراهيم عليه السلام وتحت الصخرة عين غزيرة الماء ، وذكروا أن ابراهيم دخل المدينة فى وقت مسيره الى مصر ومعه غنم له ، وكانت المدينة قليلة الماء ، فسألوا إبراهيم أن يرتحل عنهم لقلة الماء فيقال إنه ضرب بعصاه هذه الصخرة فخرج منها ماء كثير فاتسع على أهل المدينة ، فيقال إن بساتينهم وقراهم تسق من هذا الماء ، والصخرة قائمة الى اليوم (أى يوم وفاة ياقوت سنة ٦٢٦ هـ). (انظر معجمه ج ٤ ص ٣٥١ وجغرافية فلسطين لحسين روحى).

(٢) فحمة : قرية من أعمال جينين ، ورد ذكرها فى التعريف لابن فضل الله العمرى ص ١٩٢ . وفى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٩ أنها مركز من مراكز البريد بين قاقون وجينين ، ولا تزال القرية موجودة الى اليوم فى قضاء جينين على مرحلة منها فى الجنوب الغربى . يقارب سكانها المائتين . ووادى فحمة المضاف اليها معروف الى اليوم يقع ما بين اللجون وفحمة غربى جينين . (انظر خريطة قضاء جينين فى جغرافية فلسطين لحسين روحى ص ٧٤).

(٣) فى الأصلين : «لا قبل له به على ... ...» بزيادة "به" .

٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥

خواصّه . وكان وصــل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرّم أوّل النهــار أمير شِكار السلطان، وأخبَر نائبَ الشام بصورة الحال وهو مجـروح، فتهيأ نائب الشام الأمير أغزلو العادلى وآستعدّ وأحضر أمراء الشام عنـد السـلطان و رسَم بالآحتياط على نوّاب الأمير حسام الدين لاچين وعلى حواصله بدمشــق ، وندِم الملك العادل على ما فعله مع لاچين هــذا من الخير والمدافعة عنه ، من كونه كان أحد من أعانه على قتـل الأشرف ، وعلى أنّه ولّاه نيابة السلطنة ، وفى الجملة أنّه ندم حيث لا ينفعه الندم ! وعلى رأى من قال : " أشبعتهم سبّاً وفازوا بالإبل" ومثله أيضا قول القائل :

مَنْ راقب الناس مات غمّاً * وفاز باللّـــذة الجَسُــورُ

ثم إنّ الملك العادل طلب قاضى قضاة دمشق بدر الدين[1] بن جَمَاعة لحضر بين يدى السلطان هو وقاضى القضاة حُسام الدين الحنفى[2]، وحضرا عنـد الملك العادل تحليفَ الأمراء والمقدّمين وتجديد المواثيق منهم ، ووعدهم وطيّب قلوبهم .

وأمّا الأمير حسام الديــن لاچين فإنّه آستولى على دهليز السـلطان والخزائن والحُرّاس والعساكر من غير ممانع ، وتسلطن فى الطريق ولقّب بالملك المنصور حسام الدين لاچين، وتوجّه إلى نحو الديار المصريّة وملَكها وتمّ أمره ، وخُطِب له بمصر وأعمالها والقُدْس والساحل جميعه .

وأمّا الملك العادل فإنّه أقام بقلعة دِمَشق هذه الأيّام كلّها لا يخرج منها ، وأمَر جماعةً بدمشق، وأطلق بعض المُكوس بها ، وقُرِئ بذلك توقيعٌ يوم الجمعة سادس عشر صفر بعد صلاة الجمعة بالجامع . و بينما هو فى ذلك ورَد الخبرُ على أهـل دِمَشق بأنّ

---

(١) هو بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة الحموى الكنانى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٣٣ هـ . (٢) هو حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنو شروان قاضى القضاة الحنفى . سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٦٩٩ هـ .

مدينة صَــفَد زُيِّنت لسلطنة لاچين ودُقّ بهـا البشائر، وكذلك نابُلُس والكَرَك .
فلمّـا بلغ الملكَ العـادلَ ذلك جهّز جماعة من عسكر دِمَشق مقدّمهم الأمير طُقْصُبا
الناصرىّ بكشف هذا الأمر وتحقيق الخبر، فتوجّهوا يوم الخميس ثانى عشرين صفر
فعلموا بعــد خروجهم فى النهار المذكور بدخول الملك المنصــور لاچين إلى مصر
وســلطنته ، فرجعوا وعلِموا عدم الفائدة فى توجّههم . ثم فى الغــد من يوم الجمعة ٥
ثالث عشرين صفر ظهَر الأمر بدمشق وآنكشف الحال وجُوهر الملك العادل كَتْبُغا
بذلك، و بلغه أنّه لمّـا وصل العسكر إلى غزّة ركب الأمير حسام الدين لاچين فى دَسْت
السلطنة ، وحَمل البَيْسرى على رأســه الجَتْر وحلَفوا له ، ونُعِت بالملك المنصــور .
ثم فى يوم السبت رابع عشرين صفر وصــل إلى دمشق الأمير بُكْتُكُن[1] ومعــه جماعة
من الأمراء كانوا مجرّدين إلى الرَّحْبة، فلم يدخلوا دمشق بل توجّهوا إلى جهة مَيْدان ١٠
الحصا، وأعلن الأمير بُكْتُكُن أمرَ الملك المنصور لاچين، وعَلِم جيش دِمَشق بذلك،
فخرج إليــه طائفة بعد طائفة، وكان قبل ذلك قــد توجّه أميران من أكابر أمراء
دمشق إلى جهة الديار المصريّة . فلمّا تحقّق الملك العادل كَتْبُغَا بذلك وعَلِم آنحلال
أمره و زوال دولته بالكلّية أذعن بالطاعة لأمراء دِمَشق، وقال لهم : الملك المنصور
لاچين خُشْداشِى وأنا فى خدمته وطاعته، وحضر الأمير سيف الدين جاغان الحُسامىّ ١٥
إلى قلعة دمشق إلى عنــد الملك العادل كتبغا ، فقال له كَتْبُغَا : أنا أجلس فى مكانٍ
بالقلعة حتّى نُكاتب السلطان ونعتمد على ما يرسُم به . فلمّــا رأى الأمراء منه ذلك
تفرّقوا وتوجّهوا إلى باب المَيْدان وحلَفوا للملك المنصور لاچين وأرسلوا البريد إلى
القاهرة بذلك ، ثم آحتفظوا بالقلعة و بالملك العادل كَتْبُغَا، ولبِس عسكرُ دمشق آلةَ
الحرب وسُيِّروا عامّة نهــار السبت بظاهر دمشق وحول القلعة ؛ والناسُ فى هَرْج ٢٠

(١) هو سيف الدين بكتكن بن عبد الله المنصورى توفى سنة ٧٣٩ هـ كما فى المنهل الصافى .

وآختباط وأقوال مختلفة، وأبوابُ دمشق مغلّقة سوى باب النصر(١)، وبابُ القلعــة مغلّق فُتِــح منه خَوْختُه ، وآجتمع العامّة والنــاس من باب القلعة إلى باب النصر وظاهر البلد حتّى سقَط منهم جماعة كثيرة فى الخَنْدَق فسَلِم جماعة وهلَك دون العشرة، وأمسى النــاس يوم السبت وقد أُعلن بآسم الملك المنصــور لاچين لا يُخْفِى أحد ذلك ، وشُرِع [وقت العصر فى](٢) دقّ البشائر بالقلعة . ثم فى سَحَر يوم الأحد ذَكَره المؤذِّنون بجامع دِمَشق، وتَلَوْا قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ ...﴾ إلى آخرها . وأظهروا آسم المنصــور والدعاء له ، ثم ذكره قارئ المصحف بعد صــلاة الصبح بمقصورة جامع دمشق ، ودَقّت البشائر على أبواب جميع أمراء دمشق دَقًّا مُزعِجًا ، وأظهروا الفرح والسرور وأُمِر بتزين أسواق البلد جميعها فزُيِّنت مدينــةُ دمشق، وفُتحت دكاكين دمشق وأسواقُها وآشتغلوا بمعايشهم، وتعجّب النــاس من تسليم الملك العادل كَتْبُغَا الأمرَ إلى الملك المنصور لاچين على هذا الوجه الهيِّن من غير قتال ولا حرْب مع ما كان معه من الأمراء والجنــد ، ولو لم يكن معه إلّا مملوكه الأمير أغزْلُو العادلىّ نائبُ الشام لكفاه ذلك . على أنّ الملك المنصور لاچين كان أرسل فى البــاطن عدّة مطــالعاتٍ لأمراء دمشق وأهلها وآستمال غالب أهــل دمشق ، فما أحوجه الملك العادل كتبغا لشىء من ذلك بل سَلّم له الأمرَ على هذا الوجه الذى ذكرناه . خذْلانٌ من الله تعالى .

وأمّا الأمير سيف الدين أغزلو العادلىّ مملوك الملك العادل كَتْبُغَا نائب الشام لمّا رأى ما وقع من أستاذه لم يسعه إلا الإذعان للملك المنصــور وأظهر الفرح به

(١) راجع الحاشية رقم ٥ ص ٣٠٦ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

(٢) زيادة عن جواهر السلوك .

وحلّف له . وقال : الملك المنصور لاچين — نصره الله — هو الذى كان عيّننى لنيابة دمشق ، وأستاذى الملك العادل كتبغا آستصغرنى فأنا نائبه . ثم سافر هو والأمير جاغان الحُسامى إلى نحو الديار المصريّة .

وأمّا لاچين فإنّه تسلطن يوم الجمعة عاشر صفر وركب يوم الخميس سادس عشر صفر وشقّ القاهرة وتمّ أمره . وأمّا الملك العادل كَتْبُغَا هذا فإنّه آستمرّ بقلعة دمشق إلى أن عاد الأميرُ جاغان المنصوري الحُسامى إلى دمشق فى يوم الآثنين حادى عشر شهر ربيع الأول ، وطلَع من الغد إلى قلعة دمشق ومعه الأمير الكبير حُسام الدين الظاهرى أستاذ الدار فى الدولة المنصوريّة والأشرفيّة ، والأمير سيف الدين كُكُن ، وحضر قاضى القضاة بدر الدين بن جَماعة قاضى دِمَشق ودخلوا الجميع إلى الملك العادل كَتْبُغا ، فتكلّم معهم كلامًا كثيرًا بحيث إنّه طال المجلس كالعاتب عليهم ، ثم إنّه حلَف يمينا طويلةً يقول فى أوّلها : أقول وأنا كَتْبُغَا المنصورى ، ويكرّر آسم الله تعالى فى الحَلِف مرّةً بعد مرّة ، أنّه يَرْضَى بالمكان الذى عيّنه له السلطان الملك المنصور حُسام الدين لاچين ولا يُكاتب ولا يُسارر ، وأنّه تحت الطاعة ، وأنه خلَع نفسه من المُلْك وأشياء كثيرة من هذا النُّمُوذج ، ثم خرجوا من عنده . وكان المكان الذى عيّنه له الملك المنصور لاچين قلعة صَرْخَد ، ولم يعيّن المكان المذكور فى اليمين . ثم وَلّى الملك المنصور نيابة الشام للأمير قَبْجَق المنصورى وعَزَل أغزْلُوا العادلى ، فدخل قبجق إلى دمشق فى يوم السبت[1] سادس عشر شهر ربيع الأول ، وتجهّز الملك العادل كتبغا وخرج من قلعة دمشق بأولاده وعياله ومماليكه

(١) فى أحد الأصلين : « يوم الآثنين » . والتصحيح عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك والتوفيقات الإلهامية . ولم يعين اليوم فى الأصل الآخر .

وتوجّه إلى صَرْخد فى ليلة الثلاثاء تاسع عشر(١) شهر ربيع الأوّل المذكور، وجرّدوا معه حماعةً من الجيش نحو مائتى فارس إلى أن أوصلوه إلى صَرْخد . فكانت مدّة سلطنة الملك العادل كَتْبُغَا هـذا على مصر سنتين وثمانية وعشرين يوما ، وقيل سبعة عشر يوما ، وتسلطن من بعده الملك المنصور حُسام الدين لاچين حسب ما تقدّم ذكره .

٥ ثم كتب له الملك المنصور حُسام الدين لاچين تقليدًا بنيابة صَرْخد ، فقَبِل الملك العادل ذلك و باشر نيابة صرخد سنين إلى أن نقله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية من نيابة صَرْخَد إلى نيابة حَماة . وصار من جملة نوّاب السلطنة ، وكُتِب له عن السلطان كما يُكتب لأمثاله من النوّاب ، وسافر فى التجاريد فى خدمة نوّاب دمشق وحضر الجهاد ؛ ولم يزل على نيابة حَماة حتى مات بها فى ليلة

١٠ الجمعة يوم(٢) عيد الأضحى وهو فى سنّ الكهوليّة . ودُفِن بحَماة ، ثم نُقِل منها ودُفِن بتربته التى أنشأها بسَفْح جبل قاسيون دمشق غربىّ الرِّباط الناصرى ، وله عليها أوقاف . وكان مَلِكا خيِّرا ديِّنا عاقلا عادلا سليمَ الباطن شجاعًا متواضعًا ، وكان يُحِبّ الفقهاء والعلماء والصلحاء ويُكرمهم إكراما زائدًا ، وكان أسمر اللون قصيرا دقيقَ الصَّدْر قصيرَ العُنُق ، وكان له لحيةٌ صغيرة فى حَنَكه ، أُسِر صغيراً من عسكر

١٥ هولاكو . وكان لمّا ولِى سلطنة مصر والشام تشاءم الناس به ، وهو أنّ النيل قد بلغ فى تلك السنة ست عشرة ذراعا ثم هَبَط من ليلته فشَرِقَت البلاد وأعقبه غلاءٌ عظيم حتى أكل الناسُ الميتة . وقد تقدّم ذكر ذلك فى أوّل ترجمته . ومات الملك العادل

---

(١) فى الأصلين : « سابع عشر » . والتصحيح عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك والتوفيقات الإلهامية . (٢) كانت وفاته ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى سنة ٧٠٢ هـ فى مدة ولاية

٢٠ الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية كما سيذكره المؤلف فى السنة المذكورة .

كَتْبُغا المذكور بعد أن طال مرضُه وآسترخى حتى لم يبق له حركة . وترك عِدّة أولاد .
وتولّى نيابة حَماة بعده الأمير بَتخاص المنصوري نُقل إليها من نيابة الشَّوبَك . وقد
تقدّم التعريف بأحوال كَتْبُغا هذا في أوائل ترجمته وفي غيرها فيما مرّ ذكره . وأمرُ
كتبغا هذا هو خَرْق العادة من كونه كان ولِي سلطنة مصر أكثر من سنتين وصار له
شوكةٌ ومماليك وحاشية ، ثم يُخلع و يصير من جملة نوّاب السلطان بالبلاد الشاميّة ؛ ٥
فهذا شيءٌ لم يقع لغيره من الملوك . وأعجب من هذا أنّه لما قُتل الملك المنصور لاچين
وتحيّر أمراء مصر فيمن يُوَلُّونه السلطنة من بعده لم يتعرّض أحد لذكره ولا رُشّح
للعود البتّة حتى آحتاجوا الأمراء و بعثوا خلف الملك الناصر محمد بن قلاوون من
الكرك، وأتوا به وسلطنوه .

قلتُ : وما أظنّ أنّ القلوب نَفَرت منه إلا لِمَا رَأَوْه من دَنِيء همّته عندما خلع ١٠
من السلطنة وتسليمه للامر من غير قتال ولا ممانعة، وكان يُمكنه أن يدافع بكلّ ما تصل
القُدْرة إليه ولو ذهبت رُوحه عزيزةً غيرَ ذليلة ، وما أحسنَ قولَ عبد المطّلب جَدّ
نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم وآسْمه شَيْبة الحمد :

لنا نفوسٌ لنَيْل المجد عاشقةٌ * وإن تسلّت أَسَلْناها على الأَسَلِ
لا ينزلُ المجدُ إلّا في منازلنا * كالنّوم ليس له مأْوًى سوى المُقَلِ ١٥

وقولَ عَنْتَرة أيضًا :

أرومُ من المَعَالي منتهاها * ولا أَرْضَى بمنزلة دنيّه
فإمّا أن أُشَال على العوالي * وإمّا أن تَوَسّدني المنيّه

ويُعجبني المقالة الثامنةَ عشرةَ من تأليف العلّامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله
الأصفهاني المعروف بِشَوَرْوَة فإنّ أوائلها تُقارب ما نحن فيه ، وهي : ٢٠

رُتبة الشرف، لا تُنال بالترّف[(١)]؛ والسعادة أمرٌ لا يُدرك، إلا بعيش يُفرك[(٢)]، وطيب يُترك؛ ونوم يُطرد، وصوم يُسرد[(٣)]؛ وسُرور عازب[(٤)]، وهمّ لازب[(٥)]؛ ومَنْ عَشِقَ المعالى أَلِف الغمّ، ومَن طلب اللآلئ رَكِب اليمّ؛ ومَنْ قَنَص الحيتان وَرَد النهر، ومن خطب الحَصَان[(٦)] نقد المَهْر[(٧)]؛ كلّا أين أنت من المعـالى! إنّ السَّحوق[(٨)] جبّار وأنت

٥ قاعد، والفَيْلَق جَرّار[(٩)] وأنت واحد؛ العقلُ يُناديك وأنت أصلخ[(١٠)]، ويُدنيك ويحول بينكما البَرْزَخ؛ لقد أَزِف الرحيل فاستنفد جَهْدَك، وأَكْثَب[(١١)] الصيدُ فضمّر فَهْدَك؛ فالحَذِر يترصّد الانتهاز، والحازم يُهيِّئ أسـباب الجهاز؛ تجرّعْ مَرارة النوائب فى أيّام معدوده، لحَلاوة معهودة غير محدوده؛ وإنما هى مِحْنةٌ بائده، تتلوها فائده؛ وكُرْبةٌ نافده، بعدها نعمة خالده، [وغنيمة بارده][(١٢)]؛ فلا تكْرَهَنّ صَبِرًا أو صابا[(١٣)]، يَغْسل عنك أوصابا[(١٤)]؛

١٠ ولا تَشْرَبنّ وِرْدًا يُعقبك سقَاما، ولا تَشُمّنّ وَرْدا يُورثك زُكاما؛ [ما ألين الرَّيْحان لولا وَخْز البُهْمى[(١٦)]، وما أطيبَ المـاذىّ لولا حُمَة[(١٧)] الحمى][(١٥)]! فلا تَهُولَنّك مرارات ذاقها عُصْبه، إنما يريد الله ليهديهم بها؛ ولا تروقنّك حلاوات نالها فرقه، إنمـا يريد الله ليعذّبهم بها. انتهى.

(١) فى الأصلين: «لا تنال إلا بالسرف». وفى إحدى النسخ المخطوطة من أطباق الذهب:

١٥ «لا تنال بالسرف». وما أثبتناه عن كثير من النسخ المخطوطة والمطبوعة. (٢) يفرك: يبغض ويزهد فيه، والمراد أن الشرف لا ينـال إلا بعد جهد وبعد الزهد فى الدعة وخفض العيش.

(٣) يسرد: يتابع. (٤) عازب: بعيد. (٥) هم لازب: مقيم لا يبرح.

(٦) فى الأصلين: «الحصان». وتصحيحه عن أطباق الذهب المطبوع والمخطوط.

(٧) كذا فى الأصـلين وإحدى النسخ المخطوطة. وفى باقى النسخ المخطوطة والمطبوعة: «ومن

٢٠ خطب الحسان» بالسين. (٨) السحوق: النخلة الطويلة، والجبار من النخل ما طال وفات اليد. (٩) يقال: فيلق جرار أى جيش ثقيل السير لكثرته. (١٠) الأصلخ: الأصم.

(١١) أكثب الصـيد: دنا منه. (١٢) التكلة عن سائر النسخ المطبوعة والمخطوطة من أطباق الذهب. (١٣) الصاب: عصارة شجر مر. (١٤) أوصابا: جمع وصب، وهو التعب. (١٥) تكلة عن النسخ المطبوعة والمخطوطة من أطباق الذهب. (١٦) البهمى:

٢٥ اسم نبات. (١٧) الحمة (بالتخفيف): اسم كل شىء يلسع أو يلدغ.

* * *

السـنة الأولى من سلطنة الملك العادل كَتْبُغَا المنصورىّ على مصر، وهى سنة أربع وتسعين وستمائة .

كان فيها الغلاء العظيم بسائر البلاد ولا سيّما مصر والشام، وكان بمصر مع الغلاء وباء عظيم أيضا وقاسى الناسُ شدائدَ فى هذه السنة واستسقى الناسُ بمصر من عِظَم الغلاء والفناء .

وفيها أسلَم مَلِك التّتار غازان وأسلم غالب جُنده وعساكره، على ما حكَى الشيخ علم الدين البِرْزالىّ[1] .

وفيها تُوُفّى السلطان الملك المظفّر شمس الدين أبو المحاسن يوسف ابن السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علىّ بن رَسُول التُّرْكُمَانِىّ الأصل الغَسّانِىّ صاحب بلاد اليَمَن، مات فى شهر رجب بقلعة تَعِزّ[2] من بلاد اليمن، وقيل : اسم رَسُول محمد ابن هارون بن أبى الفتح بن نوحى بن رُسْتَم بن ذرّيّة جَبَلة بن الأَيْهَم ، قيل : إنّ رَسُولًا جَدّ هؤلاء ملوك اليمن كان انضم لبعض الخلفاء العباسيّة، فاختصه بالرسالة إلى الشام وغيرها فعرف برَسُول، وغَلَب عليه ذلك . ثم انتقل من العراق إلى الشام ثم إلى مصر، وخَدَم هو وأولاده بعض بنى أَيُّوب، وهو مع ذلك له حاشية وخَدَم . ولمّا أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك المعظّم توران شاه

---

(١) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٥١ من هذا الجزء .

(٢) تعز : مصيف صاحب اليمن (يعنى من أولاد رسول هذا)، وهى حصن فى الجبال مطل على التهائم وأراضى زبيد . وفوقها متنزه يقال له مهلة، قد ساق له صاحب اليمن المياه من الجبال التى فوقها، و بنى فيها أبنية عظيمة فى غاية الحسن فى وسط بستان هناك (عن صبح الأعشى ج ٥ ص ٨) . ضبطت فى معجم البلدان (بفتح التاء وكسر العين) . وفى صبح الأعشى عن تقويم البلدان (بكسر التاء والعين) . وفى دائرة المعارف الإسلامية أن سكانها نحو ٢٢ ألف نسمة .

إلى اليمن أرســل الملك المنصور عمر[1] والد صاحب الترجمة معه كالوزير له وآستحلفه على المناصحة، فسار معه إلى اليمن . فلمّا ملَك الملك المسعود أَقْسيس آبن الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أَيُّوب اليمن بعــد تُوران شاه قرّب عمر المذكور و زاد فى تعظيمه وولّاه الحصون، ثم ولّاه مكة المشرفة و رتّب معه ثلثمائة فارس، وحصَل بينه و بين صاحب مكة حسن بن قَتَادة وقعةٌ آنكسر فيها حسن ودخل المنصور مكة وآستولى عليها، وعمّر بها المسجد[2] الذى آعتمرتْ منه عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها فى سنة تسع عشرة وستمائة، ثم عَمّر فى ولايته لمكة أيضا دار[3] أبى بكر الصـدّيق، رضى الله عنه فى زقاق الحَجَر[4] فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ثم آستنابه الملك المسعود على اليَمَن لمّــا توجّه إلى الديار المصرية، وآستناب على صَنْعاء[5] أخاه بدر الدين حسن بن علىّ

(١) فى الأصلين : «أرسل حفيده الملك المنصور عمر» فكلمة : «حفيده» مقحمة . وما أثبتناه عن المنهل الصافى فى ترجمة عمر بن على بن رسول . (٢) مسجد عائشة ، بنى هــذا المسجد بالتنعيم الذى هو بعيد عن أميال حدّ الحرم ، وكان يسمى مسجد الهليلجة لشجرة كانت هناك قديما . وهو المكان الذى أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة مع أخيها رضى الله عنهما لتعتمر منه . وقد كان آخر من جدّد هذا المسجد هو السلطان محمود سنة ١٠١١ هجرية . (عن معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٧٩ . وراجع كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للنهروالى (ص ٤٥٤) . وكتاب فى منزل الوحى لحضرة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف (ص ٢٦٥) . (٣) دار أبى بكر الصديق ، فى كتاب أخبار مكة للأزرقى أن هذه الدار تقع فى خط بنى جمح ، وفيها بيت أبى بكر رضى الله عنه الذى دخله عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على ذلك البناء إلى اليوم ومنه خرج النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى ثور مهاجرا ، وفى منزل الوحى (ص ٢١٩) : أن هذه الدار تقع بجوار البازان المجرور من عين زبيدة بالمسفلة ، وهى مقفلة اليوم لا يدخلها أحد ولست أدرى مبلغ ما فى نسبة هذه الدار إلى الصديق من صحة . (٤) زقاق الحجر ، هو أحد أزقة مكة ، به رباطان أحدهمــا رباط ابرهيم بن محمد الأصبهانى ، والثانى رباط السيدة أم الحســين بنت قاضى مكة شهاب الدين الطبرى (راجع كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى ص ١١٢) وراجع كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام فيما كتب عن الحجر (ص ٤٤٦) . (٥) صنعاء : قصبة اليمن وأكبر مدينة عربية فى جنوب جزيرة العرب ، ميناؤه الحديدة على بعد ١٠٠ ميل منها فى الشمال الشرقى ، وهى مسورة بسور عال وغنية بالمساجد المنيفة والحمامات العامة وخانات المسافرين ، وأهم تجارتها فى البن وقشره وصناعتها المحليــة يدوية أشهرها صناعة السلاح والمصاغ والعبى والحرير ، وسكانها نحو ٥٠ ألف نسمة . جاء فى معجم ياقوت وتقويم البلدان أن صنعاء أعظم مدينــة باليمن وأجلها تشبه دمشق لكثرة فواكهها وتدفق مياهها ، ولهــا قصص وأخبار وقد نسب اليها جماعة كثيرة من أهل العلم . وانظر قاموس لبينكوت الجغرافى .

ابن رَسُول . ولمّا عاد الملك المسعود إلى اليمن قبَض على نور الدين هذا وعلى أخيه بدر الدين حسن المذكور وعلى أخيه فخر الدين وعلى شرف الدين موسى تَخَوُّفًا منهم لمّا ظهَر من نجابتهم فى غَيْبته، وأرسلهم إلى الديار المصريّة محتفظا بهم خلا نور الدين عمر (أعنى الملك المنصور) فإنّه أطلقه من يومه لأنه كان يأنس إليه، ثم آستحلفه وجعله أتَابَك عسكره؛ ثم آستنابه الملك المسعود ثانيًا لمّا توجّه إلى مصر، وقال له : إن متّ فأنت أولى بالمُلك من إخوتى لخدمتك لى، وإن عشتُ فأنت على حالك، وإياك أن تترك أحدا من أهلى يدخل اليمن، ولو جاءك الملك الكامل . ثم سار الملك المسعود إلى مكة فمات بها . فلما بلغ الملكَ المنصورَ ذلك آستولى على ممالك اليَمَن بعد أمور وخطوب، وآستوسق له الأمرُ، فكانت مدّة مملكته باليمن نيِّفًا على عشرين سنة . ومات بها فى ليلة السبت تاسع ذى القعدة سنة سبع[1] وأربعين وستمائة، وملَكَ بعده آبنه الملك المظفَّر يوسف هذا، وهو ثانى سلطان من بنى رَسول باليمن؛ وأقام الملك المظفَّر هذا فى الملك نحوًا من ستّ وأربعين سنة . وكان مَلِكًا عادلا عفيفًا عن أموال الرعيّة، حسن السِّيرة كثير العدل، وملَكَ بعده ولده الأكبر الملك الأشرف ممهِّد[2] الدِّين عمر فلم يمكُث الأشرف بعد أبيه إلا سنة[3] ومات، وملَك أخوه الملك المؤيّد هِزَبْر الدِّين داود[4] . ومات الملك المظفّر هذا مسمومًا سمّته بعضُ جواريه . ومات وقد جاوز الثمانين . وخلّف من الأولاد الملك الأشرف الذى ولى بعده، والمؤيّد داود والواثق [إبراهيم[5]] والمسعود [تاج الدين حسن[5]] والمنصور [أيوب[5]] . انتهى .

(١) هذه رواية الأصلين والمنهل الصافى . وفى جواهر السلوك أنه مات مقتولا سنة ٦٥١ هـ .

(٢) فى الأصلين هنا : « نجم الدين » . وتصحيحه عما سيذكره المؤلف سنة وفاته ٦٩٦ هـ، وجواهر السلوك وتاريخ الدول والملوك . (٣) كذا فى الأصلين هنا . وذكر المؤلف فى سنة وفاته ٦٩٦هـ : أنه مكث فى الملك دون السنتين . وفى جواهر السلوك : « وبقى الأشرف فى المملكة سنة وخمسة أشهر » .

(٤) سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٢١ هـ . (٥) التكملة عن جواهر السلوك .

وفيها تُوُفّى العلّامة جمال الدين أبو غانم محمد ابن الصاحب كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أحمد بن أبى جَرَادة الحَلَبِىّ الحنفىّ المعروف بابن العَدِيم . مات بمدينة حَمَاة ، وكان إمامًا فاضلا بارعا من بيت عِلْم ورياسة .

وفيها قُتِل الأمير عساف (١) ابن الأمير أحمد بن حَجِّى أمير العرب من آل مِرَى ، وكان أبوه أكبرَ عُربان آل بَرْمك ، وكان يدّعى أنه من نسل البرامكة من العبّاسة أخت هارون الرشيد . وقد ذكرنا ذلك فى وفاة أبيه الأمير شهاب الدين أحمد .

وفيها تُوُفّى الأمير بدر الدين بَكْتُوت بن عبد الله الفارِسىّ الأَتابكىّ ، كان من خِيار الأمراء وأكابرهم وأحسنهم سِيرةً .

وفيها تُوُفّى شيخ الحجاز وعالمُه الشيخ مُحِبّ الدين أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن إبراهيم الطَّبَرِىّ المكىّ الشافعىّ فقيه الحرم بمكة — شرفها الله تعالى — ومفتيه ، ومولده فى سنة أربع عشرة وستمائة بمكّة . وكانت وفاته فى ذى القعدة (٢) . وقال البِرْزالىّ (٣) : وُلد بمكّة فى يوم الخميس السابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة .

قلت : ونشأ بمكّة وطلَب العلم وسمِع الكثير ورَحَل البلاد .

وقال جمال الدين الإسنائىّ (٤) : إنه تفقّه بقُوص (٥) على الشيخ مجد الدين (٦) القُشَيْرِىّ . انتهى .

(١) فى الأصلين : « الأمير غسان » . وتصحيحه عن تاريخ الإسلام وعيون التواريخ وجواهر السلوك . (٢) فى تاريخ الإسلام : «وتوفى فى جمادى الآخرة» . (٣) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٥١ من هذا الجزء . (٤) هو جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن بن على بن عمر بن على بن إبراهيم القرشى الأموى الأسنوى المصرى الشافعى . سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٧٢ هـ . (٥) راجع الحاشية رقم ١ ص ٢٩٢ من الجزء الخامس من هذه الطبعة .

(٦) هو مجد الدين على بن وهب بن مطيع بن دقيق العيد القشيرى . تقدمت وفاته سنة ٦٦٨ هـ فيمن نقل المؤلف وفاتهم عن الذهبى .

وذكر نحوَ ذلك القُطب الحلبيّ[1] فى تاريخ مصر، وحدّث وخرّج لنفسه أحاديث عوالى.

قال أبو حيّان[2]: إنّه وقع له وَهَمٌ فاحشٌ فى القسم الأول وهو التُّساعِىّ، وهو إسقاط رجل من الإسناد حتى صارله الحديث تُساعِيًا فى ظنّه. انتهى.

قلت: وقد استوعبنا سماعاته ومصنّفاته ومشايخه فى ترجمته من تاريخنا المنهل الصافى، والمُسْتَوفَى بعد الوافى مستوفاةً فى الكتاب المذكور. وكان له يدٌ فى النظم، فمن ذلك قصيدته الحائيّة:

ما لِطَرْفى عن الجَمَال بَرَاحُ * ولقلبى به غدا ورَوَاحُ
كلُّ معنًى يلوح فى كلّ حُسْنٍ * لى إليه تقلُّبٌ وآرتياحُ

ومنها:

فيهمُ يُعْشق الجمال ويُهْوَى * ويشوق الحِمَى وتُهْوَى المِلاحُ
وبهم يَعْذُبُ الغَرام ويحلُو * ويَطيب الثناءُ والإمتداحُ
لا تَلُمْ ياخَلِىُّ قلبِىَ فيهمْ * ما على مَنْ هَوَى المِلاحَ جُناحُ
وَيْحَ قلبِى ووَيْحَ طَرْفِى إلى كم * يَكْتُمُ الحُبَّ والهَوَى فضَاحُ
صاحِ عرِّج على العقيق وبلّغ * وقِبابٍ فيها الوجوه الصباحُ

والقصيدة طويلة كلّها على هذا المِنْوال.

وفيها تُوفّى سلطان إفريقيّة وآبن سلطانها وأخو سلطانها عُمَر بن أبى زكريّا يحيى ابن عبد الواحد بن عمر الهِنْتَاتِىّ[3] الملقّب بالمستنصر بالله والمؤيّد به، وولى سلطنة

(١) هو قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبى الحافظ المقرئ المجيد ثم المصرى مفيد الديار المصرية. سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٣٥ هـ. (٢) هو أثير الدين محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان النفرى الجيانى الأندلسى أبو حيان. سيذكره المؤلف سنة ٧٤٥ هـ.
(٣) الهنتاتى: نسبة الى هنتانة قبيلة من البربر بالمغرب.

تونس[1] بعد وفاة أخيه إبراهيم فيما أظنّ ، وقتل الدعىّ[2] الذى كان غلب عليها ، وملك البلاد ودام فى المُلك إلى أن مات فى ذى الحجّة . وكان عهد لولده عبد الله بالمُلك ، فلمّا احتضر أشار عليه الشيخ أبو محمد المَرْجانى[3] بأن يَخلعه لصغر سنّه فخلعه ، وولّى ولدَ الواثق محمد بن يحيى بن محمد الملقب بأبى عصيدة الآتى ذكر وفاته فى سنة تسع وسبعمائة . وكان المستنصر هذا مَلِكا عادلا حسن السيرة وفيه خِبرة ونهضة وكفاية ودِين وشجاعة و إقدام . رحمه الله تعالى .

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هــذه السنة ، قال : وفيها تُوُفّى الزاهد القُــدْوة أبو الرجال بن مِرِى بمنين[4] فى المحرّم . وعزّ الدين أبو بكر محفوظ بن معتوق التــاجر ابن البُزُورِىّ[5] فى صفر . والإمام عزّ الدين أحمد بن إبراهيم بن الفاروثىّ[6] فى ذى الحجة .

---

(١) تونس ، قال ياقوت : مدينــة كبيرة محدثة بافريقية على ساحل البحر ، عمرت من أنقاض قرطاجنة ، وهى على ميلين منها ولها ميناء على البحر فى شرقيها ، وهى الآن قصبة بلاد افريقية (ص٧٩٧ ومابعدها ج١) . وذكر ابن حوقل فى المسالك والممالك (ص ٤٩ ــ ٥٠) : أنها مدينة أزلية ، كان اسمها فى قديم الزمان : « ترشيش » . فلمــا أحدث فيها المسلمون البنيان واستحدثوا البساتين والحيطان سميت تونس . ونقلت دائرة المعارف للبستانى فى (ص ٢٧٢ ج ٦) عن ابن دينار : أن مدينة تونس أحدثت بعد الثمانين للهجرة ، وكان يطلق عليها اسم القيروان تعظيما لها ، وكانت قاعدة إفريقيّة وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين ، ومهاجرى أهل الأقطار من الأندلس والمغرب وغيرهما ، و يقال لها تونس الخضراء لكثرة زيتونها ولم يكن لها ذكر مع القيروان . وانما ابتدأت فى الزيادة لمــا سكن فيهــا الأغلب . وذكر المرحوم على بك بهجت فى قاموس الأمكنة والبقاع : أنها الآن قصبة بلاد تونس . واقعة على خليج صغير (فى البحر الأبيض المتوسط) ولها ميناء تسمى لا جوليت . (٢) هو أحمد بن مرزوق الدعى متملك تونس الذى قدم من طرابلس و زعم أنه ابن الواثق أبى زكريا يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن عمر الهنتاتى ، وقتل ابراهيم أخا صاحب الترجمة . توفى ســنة ٦٨٣ هـ (عن المنهل الصافى وتاريخ الإسلام والسلوك للقريزى) . (٣) فى الأصلين : «الريحانى» . وتصحيحه عن تاريخ الاسلام للذهبى وجواهر الســلوك والمنهل الصافى . وهو عبدالله بن محمــد أبو محمد القرشى التونسى المعروف بالمرجانى . توفى سنة ٦٩٩هـ . (عن المنهل الصافى وشذرات الذهب وتاريخ الإسلام) . (٤) منين : قرية فى جبل سنير من أعمال الشام (عن معجم البلدان الياقوت) . وفى لب اللباب : قرية بدمشق .

(٥) البزورى : نسبة إلى بيع البزور (عن لب اللباب) . (٦) فى الأصلين : «الفاروق» وهو تحريف . وتصحيحه عن المشتبه فى أسمــاء الرجال للذهبى وتاريخ الإسلام وشــذرات الذهب . والفاروثى : نسبة إلى فاروث من قرى واسط .

وصاحب اليمن الملك المظفّر يوسف بن عمر فى رجب ؛ وكانت دولته بضعا وأربعين سنة . وشيخ الحجاز مُحِبّ الدين الطَّبَرىّ . وأبو الفهم أحمد(١) بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحُسَيْنِيّ(٢) النقيب فى المحرّم . والعلّامة تاج الدين أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن المطهّر(٣) بن أبى عَصْرُون التميمى مدرّس الشاميّة(٤) الصغرى فى ربيع الأوّل . ومحيى الدين عبد الرحيم بن عبد المنعم [بن خلف(٥) بن عبد المنعم]بن الدَّميرى(٦) فى المحرّم، وله تسعون سنة . والزاهد القُدْوة شرف الدين محمد بن عبد الملك اليُونِينِيّ المعروف بالأرزونى(٧) . والزاهد المقرئ شرف الدين محمود بن محمد التّاذِفىّ(٨) بقاسيون فى رجب . والعلّامة زين الدين [أبو البركات(٩)] المُنَجَّا بن عثمان بن أسعد

(١) لم يرد هذا الاسم فى وفيات الذهبي فى هذه السنة والذى ورد فيه اسم يقرب منه وهو : « أبو الفهم بن أحمد بن أبى الفهم بن يحيى بن إبراهيم السلمى » . ومثله فى شذرات الذهب .
(٢) فى الأصلين : «نجم الدين» . وتصحيحه عن تاريخ الإسلام وجواهر السلوك وشذرات الذهب . وقد ذكرت هذه المصادر أنه توفى سنة ٦٩٥ هـ . (٣) فى الأصلين : «ابن المطهر» . والتصحيح عن المصادر المتقدمة . (٤) الشامية الصغرى هى الجوانية وتقع : قبلى البيمارستان النورى من إنشاء ست الشام ، وقد درس بها من علماء الشافعية ابن الصلاح . قال ابن خلكان فى ترجمته : إن الملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب لما بنى دار الحديث بدمشق فوّض تدريسها إليه ، ثم تولى تدريس مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب ، وهى شقيقة شمس الدولة توران شاه بن أيوب وقد بنت هذه المدرسة كما بنت المدرسة الأخرى بظاهر دمشق ، وبها قبرها وقبر أخيها المذكور ، وزوجها ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث ... وقد خربت هذه المدرسة ولم يبق فيها سوى بابها وواجهتها الجرية واتخذت دارا « عن خطط الشام لكرد على ج ٦ ص٨١ — ٨٢» . (٥) التكملة عن تاريخ الإسلام . (٦) فى الأصلين : «ابن عبد الله» : وهو خطأ والتصحيح عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب وجواهر السلوك ، وقد ذكرته هذه المصادر فى وفيات سنة ٦٩٥ هـ الآتية . (٧) فى الأصلين : «الأرزوى» . وفى شذرات الذهب : « الأزرونى » . وما أثبتناه عن تاريخ الإسلام وجواهر السلوك . (٨) فى أحد الأصلين : «البادخى» بالدال والخاء . وفى الأصل الآخر : «البادنى» بالدال والنون وكلاهما تحريف . والتصحيح عن شذرات الذهب وتاريخ الإسلام . والتاذفى : نسبة الى تاذف ، وهى قرية قرب حلب (عن معجم البلدان لياقوت وشذرات الذهب ولب اللباب) . (٩) فى الأصلين : «زين الدين بن المنجا» . والزيادة والتصحيح عن شذرات الذهب والسلوك وتاريخ الإسلام .

آبن المنجا الحنبلىّ فى شعبان، وله خمس وستون سنة . وقاضى القضاة شرف الدين الحسن بن عبد الله آبن الشيخ أبى عمر المَقْدِسىّ الحنبلىّ . وناصر الدين نصر الله بن محمد بن عيّاش الحدّاد فى شوّال . والعدل كمال الدين عبد الله بن محمد [بن نصر] (١) آبن قوام فى ذى القعدة . وأبو الغنائم بن مَحاسن الكفرابى . والمقرئ موفّق الدين محمد بن أبى العَلَاء [محمد بن علىّ] (٢) ببعلبَكّ (٣) فى ذى الحجة . والمقرئ أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الحليم سُحْنُون (٤) المالكىّ فى شوّال بالإسكندريّة . والعلّامة الصاحب محيى الدين محمد بن يعقوب [بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق بن سالم] (٥) بن النحّاس الحَلَبىّ الحنفى فى آخر السنة .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم ذراع وأصابع . مبلغ الزيادة ستّ عشرةَ ذراعا وسبع عشرة إصبعا . وكان الوفاء فى سادس أيام النَّسِىء .

* * *

السنة الثانية من ولاية الملك العادل كَتْبُغا المنصورىّ على مصر، وهى سنة خمس وتسعين وستمائة .

---

(١) التكملة عن تاريخ الإسلام وجواهر السلوك . (٢) زيادة عن تاريخ الإسلام وغاية النهاية . (٣) بعلبك : مدينة سورية تقع على أكمة منخفضة فى السفح الشرقى لجبل لبنان على بعد ٦٥ كيلومترا فى الشمال الغربى من مدينة دمشق . وقد اشتهرت بعلبك بهياكلها العظيمة المشيدة بالحجارة الهائلة والعمد الشامخة . فتحها العرب فى عهد الخليفة عمر بقيادة أبى عبيدة سنة ١٦ هـ = ٦٣٧ م، ولها شهرة عظيمة فى التاريخ الإسلامى . قال ياقوت : بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وبها أبنية عجيبة وآثار عظيمة على أساطين رخام لا نظير لها فى الدنيا وهى ذات أسوار، ولها قلعة حصينة عظيمة البناء بها أشجار وأنهار وأعين كثيرة الخير . وهى على طرف وادى بردى والبساتين متصلة من هناك إلى دمشق وهى بلد حسن كثير المنازه والخصب . وقال صاحب تاريخ سوريا : والقرية الحالية ذات مائة بيت مجتمعة باحدى زوايا المدينة القديمة وهى قائمة للآن تقصدها السياح لمشاهدة هياكلها ولا يكاد يزيد سكانها على ألفى نسمة (انظر قاموس الأمكنة والبقاع ومعجم البلدان لياقوت) . (٤) ضبط فى شرح القاموس بضم السين، قال : ونقل فتح سينه . (٥) تكملة عن تاريخ الإسلام وعقد الجمان .

فيها كان الغلاء العظيم بسائر البلاد، ولاسيّما مصر والشام؛ وكان بمصر مع الغلاء وباءُ عظيم أيضا، وقاسى الناسُ شدائدَ فى هذه السنة والمـاضية .

وفيها ولى قضاء الديار المصريّة الشيخ تقيّ الدين[1] أبو الفتح محمد بن عليّ بن وهب ابن دقيق العيد بعد وفاة قاضى القضاة تقيّ الدين عبد الرحمن بن بنت الأعزّ .

٥ وفيها تُوفّى الملك السعيد شمس الدين[2] إيلغازى ابن الملك المظفّر [فخر الدين قرا أرسلان[3]] ابن الملك السعيد صاحب ماردين الأُرْتُقيّ ، ودُفن بتربة جدّه أُرْتُق ، وتولّى بعده سلطنة ماردين أخوه الملك المنصور نجم الدين غازى . وكان مدّة مملكة الملك السعيد هـذا على ماردين دون الثلاث سنين . وكان جَوَادًا عادلا حسن السِّيرة ، رحمه الله تعـالى .

١٠ وفيهـا تُوُفّى الأمير بدر الدين بيليك بن عبـد الله المُحْسِنيّ المعروف بأبى شامة بالقاهرة، وكان من أعيان الأمراء وأكابرهم ، رحمه الله .

وفيها تُوفى الأسعد بن السّديد القِبْطيّ الأسلميّ الكاتب مُسْتَوْفِي الديار المصريّة والبلاد الشامية والجيوش جميعها المعروف بالمـاعز الديوانى[4] المشهور، وكان معروفا بالأمانة والخـير، وكان نصرانيّا ثم أسـلم فى دولة السلطـان الملك الأشرف خليل

١٥ ابن قلاوون .

قال الشيخ صـلاح الدين الصفدى — رحمـه الله — : حَكَى لى القـاضى شهاب الدين محمود رحمه الله قال : لمّـا مَرِض المذكور توجّهنا إليه نعوده فوجدناه ضعيفًا إلى الغاية، وقـد وضعوا عنده أنواعًا من الحُليّ والمصاغ المجوهر والعقود

---

(١) سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٠٢هـ.
(٢) فى المنهل الصافى : «نجم الدين» .
٢٠ ولم تتعرّض باقى المصادر التى تحت يدنا لذكر لقبه .
(٣) زيادة عن عيون التواريخ وجواهر السلوك وعقد الجمان والمنهل الصافى وتاريخ الدول والملوك .
(٤) فى الأصلين : «الديوان» .

وفيها العنبر الفائق وأنواعٌ من الطِّيب . ثم إنّه قال : ارفعوا هذا عنّى، وأسَرّ إلى خادم كلامًا؛ فمضى وأتى بحُقّ ففتحه وأقبل يَشُمّه وقُمنا من عنده ثم إنه مات، فسألنا ذلك الخادم فيما بعد : ما كان فى ذلك الحُقّ ؟ قال : شَعْرة من آست الراهب الفلانىّ الذى كان له كذا كذا سنة ما لَمَس المـاء ولا قربه . قال فأنشدت :

ما يَقبِضُ الموتُ نفسًا من نفوسهمُ * إلّا وفى يده من نَتْنِهـا عُودُ

وفيها تُوفّى الأمير عزّ الدين أَيْبَك بن عبد الله الأَفْرَم الكبير أمير جانْدار الملك الظاهر والملك السعيد والملك المنصور قلاوون . فلمّا تسلطن الملك الأشرف خليل ابن قلاوون حَبَسه ، و بعـد قتل الأشرف خليل أخرجه أخوه الملك الناصر محمـد ابن قلاوون وأعاده إلى مكانته؛ ثم آستقرّ فى أيام الملك العادل كَتْبُغَا على حاله إلى أن مات بالقاهرة فى يوم السبت[1] سابع شهر ربيع الأوّل .

قال القطب اليُونِينىّ : حَكَى لى الأمير سيف الدين بن المحفَّدار قال : أوصى الأفرمُ عند موته أنه إذا تُوفّى يأخذون خيله يُلْبسونها أُخر مالها من العُدّة، وكذلك جميع مماليكه وغِلمانه يُلبِسونهم عُدّة الحرب، وأن تَضْرِب نَوْبة الطبلخاناه خَلْفَ جنازته ، كما كان يطلُع إلى الغَزَاة، وألّا يُقلبَ له سنجق ولا يُكْسَر له رمحٌ، ففعلوا أولاده ما أمر به ما خلا الطبلخاناه، فإنّ نائب السلطنة حُسام الدين لاجين منعهم من ذلك، وكانت جنازته حَفِـلةً حضرها السلطان ومنْ دونه . وكان دَيِّنًـا من وسائط الأخيار وأرباب المعـروف . وكان يقال : إنه يدخل عليـه من أملاكه وضماناته و إقطاعاته كلّ يوم ألفُ دينار خارج عن الغلال .

(١) فى تاريخ الدول والملوك وجواهر السلوك : « توفى فى يوم الأربعاء سادس عشرين صـفر سنة ٦٩٥ هـ » . وفى تاريخ الإسلام للذهبى : « صلينا عليه فى ثالث عشر ربيع الآخر بدمشق صلاة الغائب يوم الجمعة ومات بالقـاهرة » .

قلت : وهذا مستفاض بين الناس . وقصّة أولاده لمّا آحتاجوا مع كثرة هذا المال إلى السؤال مشهورة . يقال إنه كان له ثُمُنُ الديار المصرية ، وهو صاحب الرِّباط(١) والجسر(٢) على بركة الحبش(٣) خارج القاهرة .

قال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِىّ : « كنت بالقاهرة وقد وقف أولاده وشكا عليهم أرباب الديون إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فقال السلطان : يا بَشْتَك(٤) ، هؤلاء أولاد الأفرم الكبير صاحب الأملاك والأموال ، أبصر كيف حالهم ! وما سببه إلا أنّ أباهم وَكَلَهم(٥) على أملاكهم فما بَقِيَت ، وأنا لأجل ذلك لا أذخر لأولادى مِلْكًا ولا مالا » . انتهى كلام الصَّفَدِى .

قلت : والعجيب أنه كان قليلَ الظلم كثير الخير ، وغالب ما حصله من نوع المتاجر والمزروعات والمستأجرات ، ومع هذا آحتاج أولاده وذريته إلى السؤال .

---

(١) رباط الأفرم : ذكر المقريزى (ص ٤٣٠ ج ٢) : أن هذا الرباط بسفح الجرف الذى عليه الرصد ، وهو يشرف على بركة الحبش ، وكان من أحسن منتزهات أهل مصر . أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، ورتب فيه صوفية وشيخا و إماما ، وجعل فيه منبرا يخطب عليه وقت صلاة الجمعة والعيدين وقرر لهم معاليم من أوقاف أرصدها لهم ، وذلك فى سنة ٦٦٣ هـ .

وبالبحث عن مكان هذا الرباط تبين لى أنه قد اندثر . ومكانه اليوم أرض فضاء بالجهة الشرقية من محطة الساحل القبلى بسكة حديد حلوان الواقعة تجاه سكن ناحية أثر النبى من الجهة الشرقية بسفح جبل الرصد الذى يعرف اليوم باسم جبل إصطبل عنتر بالقاهرة .

(٢) جسر الأفرم ، ذكر المقريزى (ص ١٦٥ ج ٢) : أن هذا الجسر بظاهر مدينة مصر (مصر القديمة) فيما بين المدرسة المعزية وبين رباط الآثار النبوية . وأقول : إن المدرسة المعزية هى التى تعرف اليوم بجامع عابدى بك الشهير بجامع الشيخ رويش ، و إن رباط الآثار هو الذى يعرف اليوم بجامع أثر النبى بناحية أثر النبى جنوبى مصر القديمة ، فيكون الجسر الذى أنشأه الأفرم هو جسر النيل الحالى فى المسافة بين جامع عابدى بك بمصر القديمة وبين ناحية أثر النبى . (٣) راجع الاستدراكات ص ٣٨١ من الجزء السادس من هذه الطبعة . (٤) هو الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصرى أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد ضبطه المؤلف فى المنهل الصافى بالعبارة فقال : (بفتح الباء الموحدة من تحت وترقيقها وسكون الشين المعجمة وبعد تاء مثناة من فوق مفتوحة) . ومعناه باللغة التركية خمسة لا غير . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٤٢ هـ . (٥) فى الأصلين : « أتكلهم » .

وفيهـا تُوفّى قاضى القضاة بالديار المصريّة ورئيسها تقىّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن آبن قاضى القضاه تاج الدين أبى محمد عبد الوهاب آبن القاضى الأعز أبى القاسم خلف [بن محمود](١) بن بدر العَلَامِىّ(٢) الشافعى المصرىّ المعروف بآبن بنت الأعز . مات يوم الخميس سادس عشر جُمـادَى الأُولى ودُفن عند والده بالقرافة فى تربتهم وهو فى الكهولية . وكان فقيهـا بارعا شاعرا خيّرا ديّنا متواضعا كريما ، تفقّه على والده وعلى آبن عبد السـلام ، وتولّى الوزارة والقضاء ومشيخة الشيوخ ، وأُضيف اليه تدريس الصلاحيّة(٣) والشريفيـة(٤) بالقاهرة والمشهد الحسينى(٥) وخطابة الجامع الأزهر ، وآمتُحن محنةً شـديدةً فى أوّل الدولة الأشرفية وعُمِـل على إتلافه بالكليّة ، وذلك بسـعاية الوزير آبن السَّـلْعُوس الدمشقىّ . وقد آسـتوعبنا أمره فى المنهل الصافى ، ثم أُعيد إلى القضاء بعد وفاة الأشرف ، فلم تطل أيامه ومات .

(١) تكملة عما تقدم ذكره للؤلف فى حوادث سنة ٦٦٥ ﻫ وجواهر السلوك . (٢) العلامى (بتخفيف اللام) : نسبة الى قبيلة من لخم (عن المنهل الصافى وتاريخ الإسلام). (٣) هى المدرسة الصلاحية التى كانت بجوار قبة الإمام الشافعى ، وراجع الحاشية رقم ٥ ص ٥٤ من الجزء السادس من هذه الطبعة . وفى المنهل الصافى : « وأضيف اليه تدريس الصالحية » وقد تقدّم الكلام عليها أيضا فى الحاشية رقم ١ ص ٣٤١ من الجـزء السادس المذكور . (٤) الشريفية بالقـاهرة ، ذكر المقريزى (ص٣٧٣ ج ٢) : أن المدرسة الشريفية بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة ، أنشأها الأمير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن جعفر الجعفرى الزينى أمير الحاج وأحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية ، وتم بناء هذه المدرسة فى سنة ٦١٢ ﻫ وهى من مدارس الفقهاء الشافعية .
وبالبحث الدقيق عن مكان هذه المدرسة تبين لى أنها هى التى تعرف اليوم بجامع بيبرس الخياط بأول شارع الجودرية بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة ، وعرفت باسم بيبرس المذكور لأنه عمرها فى سنة ٩٢١ ﻫ (عن كتاب تاريخ مصر لابن إياس ص ٤٧٧ ج ٤) . وذكر على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية : أن هذه المدرسة أنشأها بيبرس الخياط فى سنة ٦٦٢ ﻫ أى فى القرن السابع الهجرى ، وهذا خطأ لأن بيبرس الذى عمر هذه المدرسة كان من أهل القرن العاشر ، وكان من أقارب السلطان قنصوه الغورى وكان خياطا خاصا به ؛ وقتل معه فى واقعة مرج دابق فى سنة ٩٢٢ ﻫ (عن كتاب تاريخ مصر لابن إياس ص ٥١ ج ٣) .
(٥) يقصد المؤلف مدرسـة صلاح الدين التى كانت بجوار المشهد الحسينى . وراجع الحاشية رقم ١ ص ٥٥ من الجزء السادس من هذه الطبعة . وفى المنهل الصافى : « والمشهد النفيسى » وقد سبق الكلام عليه أيضا فى الحاشية رقم ٢ ص ٣٧٨ من الجزء المذكور .

ولمّا حجّ القاضى تقىّ الدين هذا وزار قبر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنشد عند الحُجْرة [النبويّة] (١) قصيدته التى مطلعها :

الناس بين مُرَجِّز ومُقَصِّد * ومطوِّل فى مدحه ومُجَوِّد
ومُخَبِّر عمّن روى ومعبِّر * عمّا رآه من العلا والسُّودَد

وفيها تُوُفِّى الشيخ الإمام الأديب البارع المُفْتَنّ سِراج الدين أبو حفص عمر بن محمد ابن الحسين (٢) المصرىّ المعروف بالسِّراج الورّاق الشاعر المشهور . مولده فى العشر الأخير من شوّال سنة خمس عشرة وستمائة ، ومات فى جُمادَى الأولى من هذه السنة ودُفن بالقرافة . وكان إمامًا فاضلا أديبا مُكْثِرًا متصرِّفا فى فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر فى زمانه بلا مُدافعة . ومن شعره :

فى خدّه ضلّ علم الناس واختلفوا * أللشقائق أم للوَرْد نسبتُهُ
فذاك بالخال يقضى للشقيق وذا * دليلُه أنّ ماء الورد رِيقتُهُ

وله :

كم قَطَع الجُودُ من لسانٍ * قلّد من نَظْمه النُّحورَا
فهأنا شاعرٌ سِراجٌ * فاقْطَعْ لسانى أَزِدْك نُورَا

وله :

لا تَحْجُبِ الطَّيْفَ إنّى عنه محجوبُ * لم يَبْقَ منى لفَرْط السَّقَم مطلوبُ
ولا تثِقْ بأنِّى إنّ مَوْعِده * بأن أعيش لُلقيا الطَّيْف مكذوبُ
هذا وخَدُّك مخضوبٌ يُشاكلُهُ * دَمْعٌ يفيض على خدىّ مخضوبُ
وليس للوَرْد فى التشبيه رُتبتُهُ * وإنّما ذاك من معناه تَقْريبُ

(١) زيادة عن المنهل الصافى . (٢) فى المنهل الصافى وفوات الوفيات والوافى بالوفيات للصفدى . « عمر بن محمد بن حسن » .

وما عِـذَارُكَ رَيْحَانًا كما زَعمُـوا * فاتَ الرياحينَ[1] ذاكَ الحسنُ والطِّيبُ
تأوّد الغُصنِ مُهـتزًّا فأنبَـأَنَا * أنّ الذى فيك خُلْقٌ فيه مكسوبُ
يا قاسيَ القلبِ لـو أعداه رِقَّتَـهُ * جسمٌ من المـاء بالألحاظ مشروبُ
أرحتَ سمعِي وفى حُبِّيك من عَذَلِي * إذ أنت حِب إلى العُـذَّال محبوبُ

٥ وكان السِّراج أشقرَ أزرق العين . وفى ذلك يقول عن نفسه :

ومَنْ رآنى والحِمـارُ مَرْكَبِي * وزُرقَتِي للروم عِرْقٌ قـد ضَرَبْ
قال وقــد أبصر وجهى مُقْبـلاً * لا فارسَ الخيـل ولا وجهَ العَرَبْ

§ أمر النيـل فى هـذه السنة — المـاء القديم خمس أذرع وأربع أصابع . مبلغ الزيادة ثمـانى عشرة دراعا و إصبع . وكان الوفاء فى رابع عشرين[2] توت .

(١) فى المنهل الصافى : « فاق » بالقاف .

١٠ (٢) فى الأصل الآخر : « فى رابع عشرين مسرى » . وقد رجعنا الى درر التيجان وكنز الدرر فوجدنا أنهما لم يذكرا وفاء النيل فى هذه السنة .

ذكر سلطنة الملك المنصور لاچين على مصر

هو السلطان الملك المنصور حُسام الدين لاچين بن عبد الله المنصوري سلطان الديار المصرية ، تسلطن بعد خَلْع الملك العادل كَتْبُغَا المنصوري كما تقدّم ذكره في يوم الجمعة عاشر صفر من سنة ست وتسعين وستمائة . وأصل لاچين هذا مملوك للملك المنصور قلاوون آشتراه وربّاه وأعتقه ورقّاه إلى أن جعله من جملة مماليكه ، ٥ فلمّا تسلطن أمّره وجعله نائبًا بقلعة دمشق . فلما خرَج الأمير سيف الدين سنقر الأشقر عن طاعة الملك المنصور قلاوون وتسلطن بدمشق وتلقّب بالملك الكامل وملَك قلعة دمشق قَبَض على لاچين هذا وحبَسه مدّةً إلى أن آنكسر سنقر الأشقر وملَك الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبي دمشق أخرجه من محْبِسه ، ودام لاچين بدمشق إلى أن ورد مرسومُ الملك المنصور قلاوون بآستقرار لاچين هذا في نيابة دمشق دَفْعة ١٠ واحدةً ؛ فوليها ودام بها إحدى عَشْرة سنة إلى أن عَزَله الملك الأشرف خليل بن قلاوون بالشُّجاعي . ثم قَبَض عليه ثم أطلقه بعد أشهر، ثم قَبَض عليه ثانياً مع جماعة أمراء ، وهم : الأمير سُنْقُر الأشقر المقدّم ذكره الذي كان تسلطن بدمَشق وتلقب بالملك الكامل . والأمير ركن الدين طُقُصُو الناصري حمو لاچين هذا . والأمير سيف الدين جَرْمَك الناصري . والأمير بَلَبان الهاروني وغيرهم ، فخَنَقوا الجميع وما بقي ١٥ غير لاچين هذا ، فقدّموه ووضَعوا الوَتَر في حَلْقه وجُذِب الوتر فآنقطع ، وكان الملك الأشرف حاضرا ؛ فقال لاچين : ياخَوَنْد، إيش لي ذنب ! ما لي ذنب إلا أنّ صِهْري طُقُصُو ها هو قد هلَك، وأنا أُطَلّق آبنته ، فرقّ له خُشْداشِيَّتُه وقبّلوا الأرض وسألوا السلطان فيه ، وضَمِنوه فأطلقه وخَلَع عليه وأعطاه إمْرة مائة فارس بالديار المصرية وجعله سِلاَحْدَار . ٢٠

قلت : (يعنى جعله أمير ســلاح) فإنّ أمير سلاح هو الذى يناول السلطان السلاح وغيره . قلت : لله درّ المتنبّى حيث يقول :

لا تخدعنك من عدوك دمعة * وآرحم شبابك من عــدو ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى * حــتى يراق على جوانبـه الدم

٥ وذلك أنّ لاچين لمّا خرج من الحبس وصار من جملة الأمراء خاف على نفسه، وآتفق مع الأمير بيدرا نائب السلطنة وغيره على قتل الأشرف حتى تمّ لهم ذلك حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة الملك الأشرف . ثم آختفى لاچين أشهرا إلى أن أصلح أمره الأمير كتبغا وأخرجه وخلع عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون كما تقدّم وجعله على عادته . كلّ ذلك بسفارة[(١)] الأمير كتبغا . ثم لمّا تسلطن كتبغا جعله نائب سلطنته

١٠ بل قسيم مملكته ، وآستمرّ لاچين على ذلك حتى سافر الملك العادل كتبغا إلى البلاد الشاميّة وأصلح أمورها وعاد إلى نحو الديار المصريّة، وسار حتى نزل بمنزلة اللجّون[(٢)] ، اتّفق لاچين هذا مع جماعة من أكابر الأمراء على قتل الملك العادل كتبغا ووثبوا عليه بالمنزلة المذكورة ، وقتلوا الأميرين : [سيف الدين][(٣)] بتخاص وبكتوت الأزرق العادليين، وكانا من أكابر مماليك الملك العادل كتبغا وأمرائه ، وآختبط العسكر وبلغ الملك

١٥ العادل كتبغا ذلك ففاز بنفسه، وركب فى خمسة من خواصّه وتوجّه إلى دمشق . وقد حكينا ذلك كلّه فى ترجمة كتبغا . فآستولى عند ذلك لاچين على الخزائن

(١) فى الأصل الآخر : « باشفاق الأمير كتبغا » .

(٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ٦٣ من هذا الجزء .

(٣) زيادة عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك .

والدهليز وبَرْك[1] السلطنة ، وساق الجميع أمامه إلى مدينة غزة[2] . وبايعوه الأمراء بالسلطنة بعد شروط آشترطوها الأمراء عليه حسب ما يأتى ذكرها فى محلّه . وسار الجميع إلى نحو الديار المصريّة حتى دخلوها وملكوا القلعة بغير مُدافع ، وجلس لاچين هذا على كرسىّ المملكة فى يوم الجمعة المقدّم ذكره . وتم أمره وخَلَع على الأمراء بعدّة وظائف ، وهم : الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصورىّ بنيابة السلطنة بالديار المصريّة عِوضًا عن نفسه . وخلع على الأمير قَبْجَق المنصورىّ بنيابة الشام عوضا عن الأمير أغزلوا[3] العادلى . وعلى عدّة أمراء أُخَر . ثم ركب الملك المنصور لاچين بعد ذلك من قلعة الجبل فى يوم الآثنين العشرين من صفر بأُبّهة السلطنة وعليه الخِلْعة الخليفتيّة ، وخرج إلى ظاهر القاهرة إلى جهة قُبّة[4] النصر ، ثم عاد من باب النصر وشقّ القاهرة إلى أن خرج من باب زُوَيْلة ، والأمراء والعساكر بين يديه ؛ وحَمَل الأمير بدر الدين بَيْسَرى الجَتْر على رأسه وطلع إلى القلعة . وخَلَع أيضا على الأمراء وأرباب الوظائف على العادة . وآستمرّ فى السلطنة وحسُنت سِيرتُه ، وباشر الأمور بنفسه وأحبّه الناس لولا مملوكه مَنْكُوتَمُر ، فإنّه كان صبيا مذموم السيرة . ولمّا

---

(١) البرك : لفظ فارسى معناه الثوب المصنوع من وبر الجمال ثم أصبح فى كتب المؤرخين المسلمين لفظا اصطلاحيا يطلق على أمتعة المسافر أو مهمات الجيش . قال ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ﻫ فى الكامل : « أخذ ما تخلف من مال ودواب وبرك » . وقال فى موضع آخر : « بيع ماله وبركه » . وقال الفخرى فى الآداب السلطانية : « كتب السلطان سنجر سنة ٥١٢ ﻫ الى قائده مسعود بعد قتاله المسترشد العباسى وهزيمته إياه : «أن يتلافى الحال معه وان يرد عليه أمواله وان يجعل له من الحشم والبرك والأسباب أعظم وأجمل مما ذهب منه ويعيده الى بغداد على أتم حال» انظر ص ٣٥٠ طبع أوربا . وفى المنهل الصافى : « كان له ثروة زائدة ومال جزيل وسلاح عظيم وبرك هائل » . وفى ابن إياس : «مانهب من برك العسكر والسلاح» . انظر القاموس الفارسى الانجليزى لاستينجاس وانظر قاموس دوزى وانظر كترمير أول ص ٢٥٣

(٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٤ من هذا الجزء . (٣) ضبط فى المنهل الصافى (بألف مهموزة وبعدها غين معجمة مكسورة وزاى ساكنة ولام مضمومة وواو ساكنة ، وقال إن معنى أغزلو باللغة التركية : له فم) . (٤) راجع الحاشية رقم ١ ص ٤١ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

كان يوم الثلاثاء منتصف ذى القعدة من سنة ست وتسعين وستمائة قبَض السلطان الملك المنصور لاچين على الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصورىّ نائب السلطنة وحبَسه، وولّى مملوكه مَنْكُوتَمُر المذكور نيابة السلطنة عِوضَه، فعظُم ذلك على أكابر الأمراء فى الباطن . ثم بعد أيام ركب السلطان الملك المنصور لاچين ولَعِب الكرة بالمَيْدان[(1)] فتقنطر به الفَرَس فوقع من عليه وتهشّم جميعُ بَدَنه وآنكسرت يدُه وبعض أضلاعه ووهَن عظمُه وضعُفت حركته ، وبقى يُعلِّم عنه مملوكُه ونائبه سيف الدين مَنْكُوتَمُر وأيِس من نفسه . كلُّ ذلك والأمراء راضون بما يفعله مَنْكُوتَمُر لأجل خاطره إلى أن منّ الله تعالى عليه بالعافية وركب ، ولمّا ركب زُيِّنت له القاهرة ومصر والبلاد الشاميّة لعافيته، وفَرِح الناس بعافيته فَرَحا شديدًا خصوصا الحرافيش[(2)] .
فإنه لمّا ركب بعد عافيته قال له واحد من الحرافشة: ياقضيب الذهب، بالله أرنى يدك، فرفع إليه يده وهو ماسك المِقْرعة وضرب بها رقبة الحِصان الذى تحته . وكان ركوبُه فى حادى عشرين صفر من سنة سبع وتسعين وستمائة . ولمّا كان لَعِبَ الكرة وكَبَا به فرسه ووقَع وآنكسرت يده قال فيه الأديب شمس الدين محمد [المعروف بآبن البيّاعة[(3)]] :

حَوَيتَ بَطْشًا وإحسانا ومعرفةً * وليس يحمِل هذا كلَّه الفَرَسُ

ولمّا تعافَى الملك المنصور لاچين قال فيه شمس الدين المذكور نَثْرًا وهو: أسفر ثَغْرُ صباحه عن مُحيّا القمر الزاهر، وبَطْش الأسد الكاسر، وجُود البحر الزاخر، فياله يوما

(1) الميدان : المقصود به الميدان الظاهرى بالقاهرة، لأنه هو الذى كان معدّا للعب الكرة والسباق فى ذلك الوقت. راجع ما كتب عليه فى الحاشية رقم ٣ ص ١٦٥ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٢) يظهر أن المراد بهم هنا سفلة الناس وقد كانوا يطلقون على فئة خاصة وقد تردد اسمهم كثيرا فى المؤلفات العربية مثل السلوك للمقريزى وخططه وابن قاضى شهبة فى الاعلام بتاريخ أهل الاسلام وغيرهما. وقد استظهر على مبارك باشا ان قرية الحرافشة إحدى قرى مديرية جرجا انما سميت بهذا الاسم لذلك . راجع كترميرج ٢ ص ١٩٥ — ١٩٧، والخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٧٢ (٣) الزيادة عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك .

نال به الإسلام على شرفه شرفا ، وأخذ كلّ مسلم من السرور العامّ طَرَفا ، فملئت كلّ النفوس سرورا ، و زِيدت قلوبُ المؤمنين وأبصارُهم ثباتًا ونُورا . ثم أنشد أبياتا منها :

فمصرُ والشام كلُّ الخير عَمَّهما * وكُلُّ قُطْرٍ عَلَت فيه التَّباشيرُ
فالكون مبتهِجٌ والخَلْقُ مُبْتَسِمٌ * والخيرُ متّصلٌ والدِّين مجبورُ

ومنها :

وكيف لا وعدُوُّ الدِّين مُنْكسِرُ * باللهِ والملكُ المنصورُ منصورُ
والشركُ قد ماتَ رُعبًا حيث صاحَ به التوحيدُ هذا حسام الدين مشهورُ

ثم بعد ذلك بمدّة قَبض السلطان على الأمير بدر الدين بَيْسَرِى ، وآحتاط على جميع موجوده فى سادس شهر ربيع الآخر . ثم جهّز السلطان الملك المنصور العساكرَ إلى البلاد الشاميّة لغزو سِيس[1] وغيرها ، وعليهم الأمير علم الدين سَنْجَر الدُّوَادَارى وغيره من الأمراء ، وسارت العساكر من الديار المصرية إلى البلاد الشامية ، وفتحت تَلّ حَمْدون[2] وتَلّ باشِر[3] وقلعة مَرْعَش[4] ؛ وجاء الأمير علم الدين سنجر الدُّوَادَارى حَجَرٌ فى رجله عطّله عن الركوب فى أيّام الحِصار . وآستُشْهِد الأميرُ علم الدين سَنْجَر المعروف بطُقْصُبا ، وجُرِح جماعة كثيرة من العسكر والأمراء . ثم إنّ الملك المنصور قَبض على الأمير عِزّ الدين أَيْبَكَ الحَمَوِىّ المعزول عن نيابة دمشق قبل تاريخه بمدّة

(١) راجع الحاشية رقم ٣ ص ١٣٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٢) راجع الحاشية رقم ٥ ص ١٤ من هذا الجزء . (٣) تل باشر : حصن فى شمال سوريا على نهر الساجور بقرب عينتاب على بعد يومين من حلب . قال ياقوت فى معجم البلدان : وأهلها نصارى أرمن ولها ربض وأسواق وقال ابن الشحنة : وشرب أهلها جميعا من نهر الساجور وهو نهر أصله من عينتاب و يجتمع إليه عيون أخر من بلاد تل باشر ثم ينتهى إلى الفرات و يصب فيه . انظر مراصد الاطلاع لصفى الدين ص ٢١٠ وانظر صبح الأعشى رابع ص ١٢٧ وانظر أبا الفدا ص ٢٣٢ وانظر الدر المنتخب لابن الشحنة ص ١٦٩
(٤) راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٤ من هذا الجزء .

سـنين وعلى الأمير سُنْقُر شاه الظاهرى لأمر بلَغه عنهما . ثم فى أواخر صفر أَخْرَج السلطان الملك المنصور لاچين الملكَ الناصرَ محمد بن قلاون من الديار المصريّة إلى الكَرَك ليُقيم بها ، وفى خدمته الأمير جمال الدين آقوش أُسـتاذ دار الملك المنصور، فنزَل الملك الناصر محمد بحواشيه من قلعة الجبل، وسافر حتى وصل إلى الكَرَك .

ثم بدا للسلطان الملك المنصور هذا أن يعمل الرُّوك (١) بالديار المصريّة وهو الروك الحُسامىّ . فلمّا كان يوم سادس جُمادى الأولى من سنة سبع وتسعين وستمائة (٢) ابتدأ عمل الروك والشروع فيــه فى إقطاعات (٣) الأمراء وأخباز الحَلْقــة والأجناد وجميع

---

(١) الروك ، يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على الروك الناصرى (٨٧ ج ١) : أن الروك كلمة قبطية قد اصطلح على اسـتعمالها للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها أى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقـدير الخراج عليها . و يقولون : راك البلاد و يروكها . و يقابل الروك فى الوقت الحاضر عمليتا فك الزمام وتعـديل الضرائب . (٢) فى الأصلين : « من سـنة ست وتسعين » . وتصحيحه عما سيذكره المؤلف بعدقليل وعن السلوك للقريزى والمنهل الصافى . وفى جواهر السلوك : « وفى سادس عشر جمادى الأولى يوم السبت كان ابتداء الروك من سنة سبع وتسعين وستمائة » .

(٣) الإقطاعات ، يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عنـد الكلام على ذكر ديوان العساكر والجيوش (ص ٩١ ج ١) ، وعلى ذكر القطائع والإقطاعات (ص ٩٥ ج ١) : أن الإقطاعات هى ما تقطع أى ما يعطى من الأراضى الزراعيــة الخراجية للأمراء والجند وغيرهم لاسـتغلالها ودفع الخراج عنها ، و يقال لمن تعطى لهم الإقطاعات « المقطعون » .

وفى عهـد الحكم العثمانى فى مصر عرفت الإقطاعات باسم : « الالتزامات » ، و يقال لمن تعطى لهم « الملتزمون » . وقد أبطلت طريقة الالتزام فى عهد محمدعلى باشا والى مصر وأعيدت الأطيان إلى الحكومة فأمرت باعطائها للزارعين الواضعى اليد عليها لأجل فلاحتها واستغلالها ودفع الضريبة الخراجية عنها .

وكانت جميع الأراضى الخراجية ملكا للحكومة بحكم الشريعة وليس لأحد حق الملكية فى شىء منها وكان المقطعون أو الملتزمون أو الفلاحون يضعون يدهم عليها لمجرد فلاحتها والانتفاع بغلاتها ودفع الخراج عنها .

وفى سنة ١٢٨٨ هـ = ١٨٧١ م صدرت لائحة المقابلة ، وهى تصرح بأن من يدفع المقابلة (وهى مال الأرض عن مدة ست سـنوات مقدما) على الأطيان الخراجيــة يجوز له تملكها والتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات العقارية .

وفى سنة ١٣٠٩هـ = ١٨٩١ م صدر أمر عال بتخويل حق الملكية الصريحة فى الأطيان الخراجية التى لم تدفع عنها المقابلة أسوة بأرباب الأطيان التى دفعت عنها المقابلة بتمامها أو جزء منها .

و بناء على هـذا الأمر أصبحت جميع الأطيان الخراجية ملكا صريحا لأربابها ، وليست كما كانت من قبل ملكا للحكومة . وواضعو اليد عليها لا يملكون فيها إلا منفعتها .

عساكر الديار المصريّة ، واستمرّوا فى عمله إلى يوم الاثنين ثامن شهر رجب من سنة سبع وتسعين وستمائة[1] ، وفرّقت المثالات[2] على الأمراء والمقدّمين . وفى اليوم العاشر شرع نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكوتمر فى تفرقة المثالات على الحلقة والبحريّة ومماليك السلطان وغير ذلك ، فكان كلّ من وقع له مثال لا سبيل له إلى المراجعة فيه ، فمن الجند من سعد ومنهم من شقى ، وأفرد للخاصّ[3] أعمال الجيزيّة[4] بتمامها وكمالها ، ونواحى الصّفقة الإتفيحيّة[5] وثغر دمياط[6] والإسكندريّة[7] ونواحى معيّنة من البلاد القبليّة والبحريّة ، وعيّن لمنكوتمر من النّواحى ما اختاره لنفسه وأصحابه؛ وكان الحكم فى التعيين لدواوين منكوتمر، والاختيار لهم فى التفرقة. وكان الذى باشر هذا الرّوك وعمله من الأمراء الأمير بدر الدين بيليك[8] الفارسىّ الحاجب والأمير بهاء الدين قراقوش[9] الطواشىّ الظّاهرىّ .

(١) يظهر من هذا أن مدّة عمل الروك ثمانية وخمسون يوما ، وقد وافق المؤلف فى روايته هذه صاحب جواهر السلوك وعيون التواريخ والسلوك وابن إياس . وسيذكر المؤلف بعد أسطر رواية نقلها عن الصفدى وهى أن مدة عمل الروك كانت ثمانية أشهر . وقد ذكر هذه الرواية أيضا فى كتابه المنهل الصافى .

(٢) المثالات، يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على الروك الناصرى (ص ٨٧ ج ١): أن المثالات جمع مفرده مثال ، وهو عبارة عن ورقة أى وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندى أو مملوك مبينا بها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الإقليم والقرية والقبالة أى الحوض الكائن فيها الأرض التى خصصت له .

(٣) يريد خاص السلطان وستكرر هذه العبارة فى ص ٩٣ .

(٤) هى التى تعرف اليوم بمديرية الجيزة بمصر.

(٥) الصفقة الإتفيحية : هى بلاد القسم الواقع شرق النيل من بلاد مديرية الجيزة ، وكانت تعرف بالأعمال الإطفيحية ، نسبة إلى بلدة إطفيح التى كانت قاعدة لها ، ثم عرفت باسم مركز إطفيح . ومن سنة ١٨٩٨ عرفت باسم مركز الصف أحد مراكز مديرية الجيزة بمصر.

(٦) راجع الحاشية رقم ١ ص ٣١٢ من الجزء الخامس من هذه الطبعة.

(٧) الإسكندرية ، هى من أقدم الثغور المصرية ، أنشأها اسكندر الأكبر المقدونى سنة ٣٣١ ق م . وهى اليوم من أكبر وأشهر موانى البحر الأبيض المتوسط ، والمدينة الكبرى الثانية فى مصر بعد القاهرة وتاريخها طويل ليس هنا موضعه ، وشهرتها تغنى عن وصفها .

(٨) فى الأصلين : « البك » . وفى ابن إياس : « إيلبك » بالباء الموحدة بعد اللام . وفى تاريخ سلاطين المماليك : « إيلبك » وما أثبتناه عن السلوك وما سيأتى للمؤلف بعد قليل .

(٩) هكذا فى الأصلين وتاريخ سلاطين المماليك . وفى السلوك للمقريزى : « بهاء الدين آقوش الظاهرى المعروف بالبريدى » .

وقال الشيخ صلاح الدين الصفـدى : وكان مدّة عَمَل الرُّوك ثمـانية أشهر إلا أيّاما قلائل. ثم تقنطر السلطان الملك المنصور لاچين عن فرسه فى لعب الكُرة . انتهى كلام الصَّفَدِى .

وقال القطب اليونينى : حَكَى بعض كُتّاب الجيش بالديار المصرية فى سـنة سبعمائة قال لى: أخدُم فى ديوان الجيش بالديار المصرية أربعين سنة ، قال: والديار المصرية أربعــة وعشرون قيراطا ، منهـا : أربعة قراريط للسلطان ولِمـا يُطْلِقه وللكُلَف والرواتب وغير ذلك ، ومنهـا عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات ، ومنها عشرة قراريط للحَلْقة. قال: وذكروا للسلطان ولمَنْكُوتَمُر أنّهم يَكْفُون الأمراء والجنـد بأحدَ عَشر قيراطا [1] ، يستخدم عليها حَلْقة بمقدار الجيش ، فشرَعوا فى ذلك وطلبونا وطلَبوا الكُتّاب الجِيادَ فى هـذه الصِّناعة ، فكَفَيْنا الأمراءَ والجنـدَ بعشرة قراريط ، و زِدْنا الذين تَضَرَّرُوا قيراطًا فبقى تسعةٌ ، فاتّفق قتلُ السلطان ومَنْكُوتَمُر . وكان فى قلوب الأمراء من ذلك همٌّ عظيم ، فأنْعَمَ على كلّ أمير ببلد و بلدَين من تلك التسعة قراريط ، و بقى الجيش ضعيفا ليس له قوّة . وكانت التســعة قراريط التى بَقِيت خيرًا من الأحَدَ عَشر قيراطا المُقْطَعة .

قلت : يعنى أنّ هـذا خارج عن الأربعة قراريط التى هى بِرَسْم السلطان خاصّة . انتهى .

وقيـل فى الرُّوك وجهٌ آخر، قال : لمّـا كان فى ذى الحِجّة سـنة سبع وتسعين وستّمائة قصَـد السلطان الملك المنصـور حُسام الدين لاچين المنصورى أن يَرُوك البلاد المصرية و ينظُرَ فى أمور عساكر مصر، فتقـدّم التاج الطويل [2] مُسْتَوْفِى الدولة

(١) فى الأصلين : « بعشرة قراريط » . وما أثبتناه عن جواهر السلوك وخطط المقريزى والسلوك له .   (٢) هو تاج الدين عبد الرحمن الطويل مستوفى الدولة (عن السلوك للقريزى) .

بجمع الدواوين لعَمَل أوراق بعبرة[1] إقطاع الأمراء والجند وقانون البلاد، ونَدَب الأمير بهاء الدين قراقوش الظّاهِرِىّ والأمير بدر الدين بيليك الفَارِسىّ الحاجب، بجمع سائر الكُتّاب لذلك، وأخَذوا فى عَمَله فلم يُحكِمُوا العَمَل، وذَلك أنهم عَمَدوا إلى الإقطاعات الثقيلة المتحصّلة من إقطاعات الأمراء والجند، وأبدلوها بإقطاعات دونها فى العبرة والمتحصّل، وأصلَحوا ما كان من الإقطاعات ضعيفا، وأفْرِد للعسكر بأجمعه أربعةَ عشَر قيراطا، وللسلطان أربعةُ قراريط، وأُرْصِد لمَنْ عساه يتضرّر من الأمراء والجند ويشكو قِلّة المتحصّل قيراطان، فتمّ بذلك عشرون قيراطًا. وقُتِـل الملك المنصور لاچين ولم يَستخدم أحدًا وأُوقف برسم عسكر آخر يستجدّ أربعة قراريط. وأُفْرِد لخاصّ السلطان الجيزيّةُ والإتفيحيّة ومَنْفَلُوط[2] وهُو[3] والكوم الأحمر[4] ومَرج[5]

(١) العبرة، يستفاد مما ورد فى الخطط المقريزية عند الكلام على قبالات أراضى مصر (ص ٨١ ج ١)، وعلى الروك الناصرى (ص ٨٧ ج ١): أن العبرة كلمة أصطلاحية معناها «مقدار المساحة» وقد تطلق على مقدار ما يكون فى حيازة كل شخص من الأرض، كما تطلق على مقدار مساحة أطيان كل ناحية أو إقليم. ويقابل ذلك فى وقتنا الحاضر عبارة مساحة أو زمام ناحية كذا أو مديرية كذا.

(٢) منفلوط، هى من البلاد المصرية القديمة، واقعة على الشاطئ الغربى للنيل، وهى اليوم من المدن الشهيرة بالوجه القبلى، وقاعدة مركز منفلوط أحد مراكز مديرية أسيوط، ولها محطة بأسمها على السكة الحديدية.

(٣) هو، هى من البلاد المصرية القديمة، ذكرها ياقوت فى معجمه (بضم أولها) ويقال لها هو الحمراء: بليدة أزلية بالصعيد بالجانب الغربى للنيل دون قوص، يضاف إليها كورة. وآسمها الرومى «ديوسبوليس آنو» وآنو أى العليا. وهى اليوم إحدى قرى مركز نجع حمادى بمديرية قنا وأقرب محطة بالسكة الحديدية اليها محطة نجع حمادى.

(٤) الكوم الأحمر، هى من البلاد المصرية القديمة واقعة غربى النيل، وهى اليوم إحدى قرى مركز نجع حمادى مديرية قنا وأقرب محطة بالسكة الحديدية إليها محطة فرشوط حيث تقع فى جنوبها.

(٥) مرج بنى هميم، ورد فى معجم البلدان لياقوت أن هذا المرج شرق النيل بصعيد مصر. وفى الطالع السعيد للادفوى بأن أرض أفيو، وهى مرج بنى هميم، تقع بين جبل طوخ من الشمال وقرية الخيام فى الجنوب. وبالبحث تبين لى أن موقع هذا المرج المنطقة التى تشمل بلاد أولاد يحيى بحرى بمركز جرجا، وأولاد يحيى قبلى، ومزاتة شرقا، وأولاد طوق وأولاد سالم والكشح والنغاميش وأولاد خلف والخيام من بلاد مركز البلينا، وكلها شرق النيل بمديرية جرجا.

بنى هُمَيْم وحَرَجة سَمَطـا[١] ، واتفو (أدفو)[٢] بأعمال قُوص[٣] و إسكندرية ودِمْياط ، وأُفرِد لمَنْكُوتَمُر مملوكه نائب السلطنة من الجهات ما لم يكن لنائب قبله ، وهو عِبرة نيِّف عن مائة ألف دينار[٤] . فلمّا فَرَغت الأوراق على ماذكرنا جلَس السطان الملك المنصور لاچين لتفرقة المِثالات على الأمراء والمقدَّمين فأخذوها وهم غير راضين بذلك ، وتبيّن للسلطان من وجوه الأمراء الكراهة ، فأراد زيادةَ العبرة فى الإقطاعات فمنعه[٥] نائبُه مَنْكُوتَمُر من ذلك وحذّره فتح هذا الباب ، فإنّه يخشى أن يعجز السلطان عن سدّه ، وتكفّل له مَنْكُوتَمُر بإتمام العَرْض فيما قد عُمِل برسم السلطان . [و][٦] لمن كان له تعلّق فى هذا العمل من الأمراء وغيرهم أن يرفعوا شِكايتهم إلى النائب ، وتصدّى مَنْكُوتَمُر لتفرقة إقطاعات أجناد الحَلْقة ، فجلَس فى شُبّاك النيابة بالقلعة ووقفَ الحجّاب بين يديه ، وأَعْطى لكلّ تَقْدِمة مِثالاتها فتناولوها على كُرْه منهم ، وخافوا أن يكلّموا منكوتَمُر لسوء خُلُقه وسُرعة بَطْشه ، وتمادَى الحال على ذلك عِدّة أيام . وكانت أجناد الحَلْقة قد تناقصت أحوالهم عن أيّام الملك المنصور قلاوون ، فإنّهم كانوا على أنّ أقل عبرة الإقطاعات وأضعفَ متحصّلاتها عشرة آلاف درهم وما فوق ذلك إلى ثلاثين ألف درهم وهى أعلاها ، فرجع الأمر فى هذا الرُّوك إلى أن آستقرّ أكثرُ الإقطاعات عشرين ألفًا إلى ما دونها ؛ فقلّ لذلك رِزْق الأجناد ؛ فإنّه صار مَن كان متحصّله

---

(١) حرجة سمطا ، هذه الحرجة تشمل المنطقة الواقعة غربى النيل من بلاد مركز البلينا بمديرية جرجا بصعيد مصر ، وهى التى تقابل بلاد مرج بنى هميم والنيل بينهما ، وبها نحو أربع عشرة قرية منها نواحى الحرجة بحرى ، والحرجة قبلى ، والحرجة بالقرعان والعرابة المدفونة . والسمطا : المنسوب اليها هذه الحرجة .

(٢) اتفو هى ادفو بلدة بصعيد مصر الأعلى مشهورة بمعبدها الأثرى الكبير .

(٣) أعمال قوص ، هى التى تعرف اليوم بمديرية قنا ومركزى ادفو وأسوان من صعيد مصر الأعلى .

(٤) فى السلوك للقريزى : « وكان متحصلها ينيف على مائة ألف إردب وعشرة آلاف إردب من الغلة خارجا عن المال العين » .

(٥) فى الأصلين : «نخيله نائبه» . وما أثبتناه عن السلوك .

(٦) زيادة يقتضيها السياق .

عشرين ألفًا رجَع إلى عشرة آلاف ، ومن كان عبرة إقطاعه عشرة آلاف بَقِيت خمسة آلاف ، فشقّ ذلك على الجند ولم يَرْضوه إلّا أنهم خَشُوا التنكيل من مَنْكُوتَمُر ، وكانت فيهم بقيّة من أهل القوّة والشجاعة ، فتقدّموا إلى النائب منكوتمر وألقَوْا مِثالاتهم ، وقالوا : إنّا لا نَعْتَد قطّ بمثل هذه الإقطاعات ، ونحن إمّا أن نَخْدُم الأمراء و إلّا بطّلنا ، فعظُم قولهم على النائب وأغضبه ، وأمر الحجّاب بضربهم وساقهم الى السجن ؛ فشفَع فيهم الأمراء فلم يقبل شفاعتهم ، وأقبل منكوتَمُر على مَنْ حَضَر من الأمراء والمقدّمين وغيرهم فأوسعهم سَبًّا وملأهم تقريعًا وتعنيفًا حتّى وغّر صدورهم وغيّر نيّاتِهم فانصرفوا ، وقد عوّلوا على عمل الفتنة ؛ و بلَغ السلطانَ ذلك فعنّف منكوتَمُر ولامه وأخرج الأجناد من السجن بعد أيام . وكان عَمَل هذا الرُّوك وتفرقتُه من أكبر الأسباب وأعظمهما فى فَتْك الأمراء بالسلطان الملك المنصور لاچين وقتله وقتل نائبه منكُوتَمُر المذكور . على ما سيأتى ذكره .

وكان هذا الرُّوك أيضًا سببًا كبيرًا فى إضعاف الجند بديار مصر و إتلافهم ، فإنه لم يُعمَل فيه عمل طائل ولا حَصَل لأحد منهم زيادة يرضاها ، و إنما توفّر من البلاد جزء كبير . فلمّا قُتِل الملك المنصور لاچين تقسّمها الأمراء زيادةً على ما كان بيدهم . إنتهى .

ثم إنّ السلطان الملك المنصور لاچين جهّز الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير والأمير سيف الدين حَمْدان [بن صُلُغْيه](1) إلى البلاد الشاميّة ، وعلى أيديهم مراسيمُ شريفة بخروج العساكر الشامية ، وخروج نائب الشام الأمير قَبْجَق المنصوري بجميع أمراء دِمَشق حتى حواشى الأمير أَرْجُوَاش نائب قلعة دمشق ،

(١) الزيادة عن تاريخ سلاطين المماليك . وفى السلوك للمقريزى وجواهر السلوك : «صلغاى» .

فوصلوا إلى دِمشق وأَلحّوا[1] فى خروج العسكر وتوهوا بأنّ التتّار قاصدون البلاد، فخرج نائبُ الشام بعساكر دمشق فى ليلة الخميس رابع عشر المحرّم من سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة. ووقع لقَبْجَق نائب الشام المذكور فى هذه السَّفْرة أمورٌ أوجبتْ عِصْيانَه وخروجَه من البلاد الحلبيّة بمَنْ معه من الأمراء ومماليكه إلى غازان ملك التتّار. وكان الذى توجّه معه من أكابر الأمراء: بَكْتَمُر[2] السّلاح دار وأَلْبَكِى[3] وبيغار[4] وغيرهم فى جَمْع كثير، وكان خروجهم فى ليلة الثلاثاء ثامن شهر ربيع الآخر. وسبب خروج قَبْجَق عن الطاعة وتوجُّهِه أنه كان وَرَد عليه[5] مرسومُ السلطان بالقَبْض على هؤلاء الأمراء المذكورين وغيرِهم، ففطِن الأمراء بذلك فهرَب منهم مَن هرَب وبقِى هؤلاء، فجاءوا إلى قَبْجَق وهو نازل على حمص، فطلَبوا منه أمانا فأمّنهم وحَلَف لهم، وبعث قَبْجَق إلى السلطان يطلب منه أمانا لهم فأبطأ عليه الأمان، ثم خشّن عليه بعضُ أكابر أمراء دمشق فى القول بسببهم فعلِم قبجق أنّ ذلك الكلام من قِبَل السلطان فغضب، وخرج على حَمِيّة وتبِعه الأمير عزالدين بن صَبْرَا، والملك الأوحد [ابن الزاهر][6] وجماعة من مشايخ الأمراء يسترضونه فلم يرجع، ورَكِب هو ومَن معه من حواشيه ومن الأمراء

---

(١) فى جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك: «ولزوا الناس فى خروجهم».

(٢) هو سيف الدين بكتمر بن عبد الله السلاح دار الأمير الظاهرى ثم المنصورى أحد الأمراء الكبار. توفى سنة ٧٠٣ هـ كما فى الدرر الكامنة والمنهل الصافى. (٣) هو ألبكى بن عبد الله الظاهرى الأمير فارس الدين. سيذكر المؤلف وفاته فى حوادث سنة ٧٠٢ هـ. (٤) فى تاريخ سلاطين المماليك: «وبنغار» بالنون بدل الياء. (٥) أجمل المؤلف خبر فرار الأمير قبجق ومن معه والتجائهم إلى قازان، وتفصيله كما فى تاريخ سلاطين المماليك والسلوك وجواهر السلوك وعيون التواريخ: أن بكتمر ومن معه من الأمراء كانوا مجردين بحلب، وجاء مرسوم السلطان على بكتمر بتوجهه هو وطلبه إلى طرابلس. وكان قد ورد مرسوم آخر فى الباطن من السلطان إلى سيف الدين الطباخى نائب حلب بمسك بكتمر هذا والأمراء الذين معه فعلم به بكتمر وأصحابه ففروا إلى حمص حيث يقيم قبجق واستحلفوه وطلبوا منه أمانا فحلف لهم وأمنهم، وطلب لهم أمانا من السلطان فأبطأ عليه الرد كما سيذكره المؤلف فى هذا الخبر. (٦) زيادة عن جواهر السلوك

المذكورين وسار حتى وصل ماردين[(١)]، والتقى مع مقدم التتار فخدمهم مقدّم التتار، وأخذهم وتوجّه بأطلاب التتار وعساكره إلى أن وصلوا إلى غازان ملك التتار وهو نازل بأرض السِّيب[(٢)] من أعمال واسط[(٣)]. فلمّا قدم قبجق ومن معه على غازان سُرّ بهم وأكرمهم ووعدهم ومنّاهم وأعطى لكلّ أمير عشرة آلاف دينار، ولكل مملوك مائة دينار، وللماليك الصّغار مع التركبدارية[(٤)] خمسين دينارا، وكلّ دينار من هذه الدنانير ٥

(١) ماردين، قال ابن حوقل في المسالك ص ١٥٢ عن ماردين: إنها حصن منيع مبنى على قلة جبل شاهق فيه من العدة والأسلحة مالا يمكن حصره (لعهد المؤلف ٣٦٧ هـ = ٩٧٨ م). وقال ياقوت: إنها قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة (الفراتية) مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة. قال: ودورها كالدرج، كل دار فوق الأخرى، وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدروب ليس دون سطوحهم مانع، والماء عندهم قليل. وأكثر شربهم من صهاريج معدّة في بيوتهم ١٠ (لعهد المؤلف ٦٢٦ هـ). وذكرها ابن بطوطة في رحلته اليها سنة ٧٢٨ هـ ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٣ فقال: هي مدينة عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا؛ وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز، ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع كانت تسمى بالشهباء على عهده. وذكرها المرحوم على بك بهجت في قاموس الأمكنة والبقاع فقال: لاتزال مدينة ماردين قائمة في جهة الشرق من الرها (أورفة) على رأس جبل مسمى باسمها يصعد اليها بدرج منقور في الصخر. ١٥ وقد حدد موقعها أطلس فيلبس الجغرافي طبع لندن سنة ١٩٢١ في ديار بكر (تركيا)، وقال: إن عدد سكانها يربو على ٢٦ ألف نفس.

(٢) السيب: أصله مجرى الماء، وهو كورة من سواد الكوفة (معجم البلدان لياقوت). وهو هنا كورة من سواد واسط كما في الأصل، قال أبو الفدا: السيب نهر بالبصرة من جهة واسط عليه قرى عدّة (صفحة ٢٩٦).

(٣) واسط: قال أبو الفدا في تقويم البلدان ص ٣٠٦ إنها سميت واسط لأن منها إلى البصرة خمسين فرسخا ومنها إلى الكوفة خمسين فرسخا ٢٠ ومنها إلى الأهواز خمسين فرسخا ومنها إلى بغداد خمسين فرسخا. اختطها الحجاج في سنة ٨٤ هـ وفرغ منها سنة ٨٦ هـ. وذكر صاحب مراصد الاطلاع أن هناك موضعا قبل عمارتها كان يسمى واسط القصب فلما عمر الحجاج مدينته سماها باسمه (ج ٣ ص ٢٦٩). وذكر القزويني في آثار البلاد (ص ٣٢٠). أن الحجاج سكنها إلى سنة ٩٥ هـ وتوفى في تلك السنة. وذكر ياقوت: أنه رآها مرارا، بلدة عظيمة ذات رساتيق ونخيل يفوت الحصر، وكان الرخص موجودا بها من جميع الأشياء (معجم البلدان لياقوت). ٢٥ وصارت واسط الآن قرية صغيرة ذات أطلال تقع ما بين كوت العمارة على دجلة وكوت الحى على نهر الفرات المتشعب من دجلة ويسمى شط الحى وهو بعينه نهر السيب المذكور في الحاشية السابقة (رحلة عبد الرازق الحسنى في العراق ص ٢٩، ٦٨. وأطلس فيلبس الجغرافي طبع لندن سنة ١٩٢١).

(٤) الركبدارية: لفظ فارسي معناه الفرسان.

صرفه بآثنى عشر درهما ؛ ثم أقطع الأمير قَبْجَق المذكور مدينـة هَمَذَان[1] وأعمالها، فلم يقبل قَبْجَق وآعتذر أن ليس له قصـد إلّا أن يكون فى صحبـة السلطان الملك غازان ليرَى وجهـه فى كلّ وقت ! فأجابه غازان إلى ما سأله وأعجبه ذلك منـه . وكان لمّـا خرج قَبْجَق من حمص إلى جهة التتار ، وبلَغ أمراءَ دمشق ذلك خرج فى طَلَبه الأمير جُكُكُن والأمير أَيْدُغْدِى شُقَيْر بمماليكهم ومعهم أيضا جماعةٌ من عسكر الشام ، فوجدوه قد قطع الفُرات ولَحِقوا بعض ثَقَله . وعنـد وصول قَبْجَق ومن معه إلى غازان بلغه قتلُ السلطان الملك المنصور لاچين بالديار المصرية وكان خبر قتل السلطان أيضـا بلغ الأميرَ جُكُكُن والأمـير أَيْدُغْدِى لمـّا خرجوا فى أثر قَبْجَق فآنحلّت عزائمهم عن اللحوق بقَبْجَق ورجعوا عنه وإلا كانوا لحقوه وقاتلوه .

وأمّا أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين صاحب الترجمة فإنه لمّـا أخذَ فى قَبْض من آسـتوحش منهم من الأمراء وغيرهم ، وزاد فى ذلك بإشارة مملوكه مَنْكُوتَمُر ، استوحش النـاس منه ونفرتْ قلوبُهم وأجمعوا على عمَل فتنة . ثم فوّض لمملوكه مَنْكُوتَمُر جميعَ أمور المملكة فاستبدّ مَنْكُوتَمُر بوظائف الملك ومهمّاته . وآنتهى حال أستاذه الملك المنصور معه إلى أن صار إذا رسم الملك المنصور لاچين مرسومًا أو كَتب لأحد توقيعا وليس هو بإشـارة منكُوتَمُر يأخذه منكُوتمر من يد المُعْطَى له ويمزّقه فى الملأ ، ويردّه ويمنع أسـتاذه منه ؛ فعند ذلك آستثقل الأمراء وطْأَةَ منكوتَمُر وعلموا أن أسـتاذه الملك المنصور لا يسمع فيه كلامَ متكلّمٍ ، فعملوا على قتل أستاذه الملك المنصور لاچين .

(١) همذان : عاصمة إقليم باسمها فى العراق العجمى من بلاد فارس على سفح جبال الوند . يبلغ عدد سكانها ٣٥ ألف نسمة . ولوقوع هذه المدينة فيما بين بلاد العجم وأرض الجزيرة (العراق) بقى لهـا بعض أهميتها التجارية والصناعية (القديمة) إذ تكثر بها صناعة البسط والأقمشة المتخذة من الصـوف والقطن ثم صناعة الجلود . وفى ضواحيها تكثر الكروم . (قاموس الأمكنة والبقاع لعلى بك بهجت وأطلس فيلبس الجغرافى طبع لندن سنة ١٩٢١) .

قلت : الولد الخبيث يكون سببا لاستجلاب اللّعنة لوالده ! انتهى :

وقال الأمير بيبرس الدّوادار فى تاريخه : وكان سبب قتل لاچين أمور ، منها : أنه لمّا أراد أن يتسلطن جاءه جماعةٌ من الأمراء واشترطوا عليه شروطا فالتزمها لاچين ، منها أنه يكون كأحدهم ولا ينفرد برأى عنهم، ولا يسلّط يد أحد من مماليكه فيهم . وكان الأعيان الحاضرون فى هذه المَشُورة، والمتفقون على هذه الصورة : الأمير بدر الدين بَيْسَرى الشمسىّ . والأمير قَرَاسُنْقُر المنصورىّ . والأمير سيف الدين قَبْجَق . والأمير الحاج بَهادُر أمير حاجب الحُجّاب . والأمير كُرْت[1] . والأمير حسام الدين لاچين السّلاح دار الرومى الأستادار . والأمير بدر الدين بَكْتَاش الفخرىّ أمير سلاح . والأمير عز الدين أَيْبك الخازندار . والأمير جمال الدين آقوش الموصلى . والأمير مُبارز الدين أمير شِكار . والأمير بَكْتَمُر السِّلاح دار . والأمير سيف الدين سَلّار[2] . والأمير طُغْجى . والأمير كُرْجى . والأمير طُقْطاى . والأمير برلطاى وغيرهم . ولمّا حلَف لهم الملك المنصور لاچين على ما شرَطوا قال الأمير سيف الدين قَبْجَق : نخشى أنّك إذا جلست فى المَنْصب تَنْسَى هذا التقرير وتُقَدِّم الصغير من مماليكك على الكبير، وتُفَوِّض لمملوكك مَنْكُوتَمُر فى التحكم والتدبير، فتنصّل لاچين من ذلك، وكرّر لاچين الحَلِف أنّه لا يفعل ، فعند ذلك حَلَفوا له . ورحلوا نحو الديار المصريّة (يعنى أنّ ذلك كان بعد هروب الملك العادل كَتْبُغَا وعند دخول لاچين إلى غزّة) فوقع هذه الشروطَ كلّها بمدينة غزّة . انتهى .

(١) فى الأصلين : « كرد » بالدال . وما أثبتناه عن المنهل الصافى وتاريخ سلاطين المماليك .

(٢) فى الأصلين : « السلارى » . وما أثبتناه عن ابن إياس والمنهل الصافى وتاريخ سلاطين المماليك .

قال بيبرْس : فلمّا تسلطن رتّب الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوري نائبًا . والأميرَ الحاجّ بَهادُر حاجبًا على عادته . والأمير سَـلّار أستادارًا . والأمير بَكْتَمُر السِّـلَاحْ دار أمير آخور . وٱستقرّ بالصـاحب فخر الدين بن الخليلي في الوزارة ؛ ورتّب الأمير قَبْجَق نائب الشام ، ثم بعد مدّة أفرج عن الأمير بُرْلُغِي فأعطاه إقطاعا ٥ بدمشق . ثم أفرج عن الأمير بيبَرْس الجاشْنَكِير وجماعةٍ من الأمراء ، وأعطى بيبَرْس الجاشْنَكِير إمرة بالقاهرة .

قلت : وبيبَرْس هذا هو الذي تسلطن فيما بعد حسب ما يأتي ذكره .

ثم برَز مرسومُه بٱستقرار الملك العادل كَتْبُغَا في نيابة صَرْخَد، وكتَب له بها منشـورًا . ٱنتهى كلام بيبرْس بٱختصـار ، لأنه خرج في سـياق الكلام إلى غير ١٠ ما نحن بصدده .

وقال غيره : ولـمّـا تسلطن لاچين وثبتت قدمُه ورسَخت نَسِيَ الشروط وقَبَض على أكابر خُشْـداشِيّته من أعيان أمراء مصر وأماثلهم ، مثلَ : الأمير قَرَاسُـنْقُر والبَيْسَرِي وبَكْتَمُر السِّلاح دار وغيرهم ، ووَلّى مملوكَه مَنْكُوتَمُر نيابة السلطنة بل صار مَنْكُوتَمُر هو المتصرِّف في الممالك . فعند ذلك نفرَت قلوب الأمراء والجند من الملك ١٥ المنصور لاچين ودبّروا عليه ، وٱستوحش هو أيضا منهـم وٱحترز على نفسه ، وقلّل[(1)] من الركوب ولزِم القُعاد بقلعة الجبل متخوِّفا ؛ وكان كُرْجي خصيصًا به وهو أحد مَن كان أعانه على السلطنة ، فقدّمه لاچين لـمّـا تسلطن على المماليك السلطانية ، فكان يتحدّث في أشغالهم ويُدْخِل للسـلطان مَن أراد ، لا يحجبه عنه حاجب ؛ فحسَـده مَنْكُوتَمُر مع ما هو فيه من الحَلّ والعَقْد في المملكة ، وسعى في إبعاد كُرْجي عن السلطان ٢٠ الملك المنصور لاچين . فلمّا ورد البريد يُخـبر بأمر القِلاع التي فتحها عسكر السلطان

(١) في الأصلين : « وقل » .

ببلاد الأرمن حسّن منكوتمر إلى السلطان أن يرسل كُرْجى المذكور إليها نائبًا ليقيم فيها، فوافقه السلطان على ذلك، وكلّم كُرْجى فاستعفى كُرْجى من ذلك فأعفاه السلطان بعد أمور فكمَن كُرْجى فى نفسه. ثم أخذ مع هذا منكوتمر يغلظ على المماليك السلطانية وعلى الأمراء الكبار فى الكلام، فعظُم ذلك عليهم وتشاكوا فيما بينهم من منكوتمر، وقالوا: هذا متى طالت مدّته أخذنا واحدًا بعد واحد، وأستاذه مرتبطٌ به، ولا يمكن الوثوب عليه أيّام أستاذه، فلم يجدوا بُدًّا من قتل أستاذه الملك المنصور لاجين قبله، ثم يقتلونه بعده، وآتفقوا على ذلك.

قال الشيخ مجد الدين الحرمىّ وكيل بيت المال: كان الملك المنصور لاجين متزوّجا ببنت الملك الظاهر بيبرس، وكانت ديّنة عفيفة، فحكَتْ أنها رأت فى المنام، ليلة الخميس قبل قتْل السلطان بليلة واحدة، كأنّ السلطان جالسٌ فى المكان الذى قُتل فيه، وكأنّ عِدّة غِربان سُودٍ على أعلى المكان، وقد نزل منهم غُراب فضرب عِمامة السلطان فرماها عن رأسه، وهو يقول: كرج كرج؛ فلمّا ذكرت ذلك للسلطان، قالت له: أقم الليلة عندنا؛ فقال السلطان: ما ثَمّ إلّا ما قدّره الله! وخرج من عندها إلى القصر بعد أن ركب فى أوّل النهار على العادة، وكان صائمًا وهو يوم الخميس عاشر شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة، فأفطر بالقصر. ثم دخل إلى القصر الجُوّانى بعد العشاء الآخرة وأخذ فى لعب الشِّطْرَنْج وعنده خواصّه وهم: قاضى القضاة[1] حسام الدين الحنفى، والأمير عبد الله، وبُرَيْد البدوى، وإمامه محب الدين بن العسال[2]؛ فأوّل من دخل عليه كُرْجى، وكان نُوغَيْه السِّلاح دار من

(١) راجع الحاشية رقم ٦ ص ١٢٨ من الجزء السابع من هذه الطبعة. (٢) فى تاريخ الاسلام: «مجير الدين بن العسال». وفى السلوك للمقريزى: «نجم الدين». وفى المنهل الصافى: «محب الدين ابن الغسال» بالغين.

جملة المتّفقين ، وهو فى نَوْبته عند السلطان . وكان كُرْجِى مقدّم البُرْجِيّة والسلطان مُكِبٌّ على لعب الشِّطْرَنْج ، فأوهم كُرْجِى أنّه يُصلح الشمعة فرمَى الفوطة على النِّيمجاة ثم قال السلطان لكُرْجِى : رحتَ بَيَّتَّ البُرْجِيّة وغلّقت عليهـم؟ والبُرْجِيّة هم الآن مماليك الأطباق[1] ، فقال كُرْجِى : نعم يا خَوَنْد . وقد كان أوقف كُرْجِى أكثرهم

٥ فى دِهليز القصر، فشكره السلطان وأثنى عليه مَن حضر، فقال السلطان : اولا الأمير سيف الدين كُرْجِى ما وصلت أنا إلى السلطنة . فقبّـل كُرْجِى الأرض ، وقال : يا خَوَنْد ، ما تُصَلِّ العشاء؟ فقال السلطان : نعم وقام حتّى يصلّى فضربه كُرْجِى بالسيف على كَتِفه ، فطلَب السلطان النِّيمجاة فلم يَجدها ، فقام من هـول الضربة ومَسَك كُرْجِى ورماه تحته ، وأخذ نُوغَيْه السِّلاح دار النِّيمجاة وضرب بها رِجْل السلطان

١٠ فقطعها ، فانقلب السلطان على قفاه يخور فى دمه . انتهى ماذكره وكيل بيت المـال .

وقال القاضى حُسام الدين الحَنَفِىّ : كنت عند السلطان فما شَعَرتُ إلّا وستة أو سبعة أسياف نازلةٌ على السلطان ، وهو مكِبٌّ على لَعب الشِّطْرَنْج ، فقتلوه ثم تركوه وأنا عنده ، وغلّقوا علينـا الباب ، وكان سيف الدين طُغْجِى قد قصَد بقيّة البُرْجِيّة المتّفقين معه ومع كُرْجِى فى الدَّرْكاه ، فقال لهم : قضيتُم الشغل ؟ فقالوا : نعم . ثم

١٥ إنهم توجّهوا جميعًا إلى دار سيف الدين مَنْكُوتَمُر وهو بدار النِّيابة من قلعة الجبل ، فدقُّوا عليه الباب وقالوا له : السلطان يطلُبك ، فأنكر حالهم وقال لهم : قتلتم السلطان؟ فقال له كُرْجِى : نعم يا مأبون وقد جئناك نقتلك ، فقال : أنا ما أُسَـلم نفسى إليكم إنمـا أنا فى جيرة الأمير سيف الدين طُغْجِى ، فأجاره طُغْجِى وحلَف له أنه لا يؤذيه ولا يُمكّن أحدًا من أذيّتـه ، ففتح داره فتسلّموه و راحوا به إلى الجُبّ[2] فأنزلوه إلى

٢٠ (١) يريد بالاطباق : مساكن المماليك التى أنشئت لهم خصيصا بقلعة الجبل بالقاهرة .

(٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٠ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

عند الأمراء المحبوسين. فلمّا دخل إلى الجُبّ قام إليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر[1] وتلقاه متهكّماً عليه، ثم قام إليه الأمير عز الدين أَيْبَك الحَمَوى وشتمه، وأراد قتله، لأنّ مَنْكُوتَمُر هذا كان هو السبب فى مسك هؤلاء الأمراء، وإقلاب الدولة من حرصه على أنّ الأمر يُفْضى إليه ويتسلطن بعد أستاذه. فأقام منكوتمر نحو ساعة فى الجُبّ وراح الأمير طُغْجِى إلى داره حتى يقضى شُغْلا له، فآغتنم كُرْجِى غَيْبَته وأخذ معه جماعةً وتوجّه إلى باب الحبس وأطلع منكوتمر صورةَ أنهم يُريدون تقييده كما جرت العادة فى أمر المُحْتَبَسِين، فآمتنع من الطلوع فألحّوا عليه وأطلعوه وذبحوه على باب الجُبّ، ونهبوا داره وأمواله. ثم آتّفقوا كما هم فى الليل على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون وعَوْده إلى مُلكه كونه آبن أستاذهم، وأن يكون سيف الدين طُغْجِى نائب السلطنة، ومهما عملوه يكون باتّفاق الأمراء، وحلفوا على هذا الأمر. كلّ ذلك فى تلك الليلة قبل أن يطلعُ الفجر وأصبح نهار الجمعة حلّفوا الأمراء والمقدّمين والعسكر جميعه للملك الناصر محمد بن قلاوون ونائب السلطنة طُغْجِى. وسيّروا فى الحال خَلْف الملك الناصر محمد يطلبونه من الكَرَك، وركب الأمير طُغْجِى يوم السبت فى المَوْكب وآلتفّ عليه العسكر وطلَع إلى قلعة الجبل، وحضر الأمراء الموكب ومُدّ السِّماط كما جرَت العادة به من غير هَرْج ولا غَوْغاء وكأنّه لم يجْرِ شىء، وسكنت الفتنة، وفَرِح غالب الناس بزوال الدولة لأجل مَنْكُوتَمُر. ودام ذلك إلى أن كان يوم الآثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر من سنة ثمانٍ وتسعين المذكورة، وصل الأمير بدر الدين بَكْتاش أمير سلاح عائداً من الشام من فتوح سِيس، وصحبته العساكر المتوجّهة معه، وكان قد راح إليه جماعةٌ من أمراء مصر لتلقيه إلى بِلْبِيس

(١) فى الأصلين: «سنقر الأشقر». وتصحيحه عن جواهر السلوك وتاريخ الإسلام والسلوك وتاريخ سلاطين المماليك.

وأعلموه بصورة الحال، وقالوا له : الذى وَقع من قتل الملك المنصور ليس هو عن رضاهم ولا عَلموا به، وأغْرَوْه على قتل طُغْجِى وآتَّفقوا معه على ذلك، وكانوا الأمراء المذكورون قد أشاروا قبل خروجهم على طُغْجِى أن يخرج يلتقى الأمير بَكْتاش أمير سِلاح، فركب طُغْجِى بُكرة يوم الآثنين وتوجّه نحوه حتى آلتقاه وتعانقا وتكارشا . ثم قال أمير سلاح لطُغْجِى : كان لنا عادة من السلطان إذا قَدِمْنا من السفر يتلقانا، وما أعلم ذنبى الآن ما هو، كونه ما يلقانى اليوم! فقال له طُغْجِى: وما علمت بما جرى على السلطان؟ السلطان قُتِل . فقال أمير سلاح : ومَن قتله ؟ قال له : بعض الأمراء[وهو الأمير سيف الدين كُرْت أمير حاجب : قتله][1] سيف الدين طُغْجِى وكُرْجِى، فأنكر عليه وقال: كلّما قام للسلمين مَلِك تقتلونه! تقدّم عنى لا تلتِصق بى، وساق عنه أمير سلاح؛ فتيقّن طُغْجِى أنّه مقتول، فحرّك فرسَه وساق فآنقضّ عليه بعض الأمراء وقَبض عليه بِشَعْر دَبُوقته[2]، ثم علاه بالسيف وساعده على قتله جماعة من الأمراء، فقُتِل وقُتِل معه ثلاثة نَفَرٍ، ومرّوا سائقين إلى تحت القلعة . وكان كُرْجِى قد قَعَد فى القلعة لأجل حفظها، فبلغه قتلُ رفيقه طُغْجِى، فألبس البُرْجِيّة السلاح وركب فى مقـدار ألفَىْ فارس حتى يدفَع عن نفسه، فركبت جميع أجنـاد الحَلْقة والأمراء والمقدَّمين فى خدمة أمير سلاح إلى الرابعة من النهار؛ ثم حَملوا العساكر على جماعة كُرْجِى فهزموهم، وساق كرجى وحده، وآعتقـد أنّ أصحـابه يتوجّهون حيث توجّه، فلم يتبعـه غيرُ تبعه ونُوغَيْه الكرمونى أمير سلاح دار الذى كان أعانه على قَتْل الملك المنصور لاچين . فلمّا أبعدوا والقوم فى أثرهم لحقه بعض خُشْدَاشِيَته وضربه بالسيف حلّ كَتِفَه، ثم ساعده بعض الأمراء حتى قتِل، وقُتِل

---

(١) زيادة عن جواهر السلوك . (٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ٣٣١ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

معه نُوغَيه الكرمونيّ السِّلاح دار الذى كان أعانه على قَتْل لاچين المقـدّم ذكره ، واثنا عشر نَفَرًا من مماليكهما وأصحابهما ، و بطَلَت الغَوْغاء وسكَنت الفتنة فى الحال؛ واستقرّ الأمر أيضا على تولية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كما كان دبّره طُغْجِى وكُرْجِى . وسيّروا بطلبـه وحثّوا الطلب فى قدومه من الكَرَك[1] إلى الديار المصريّة ، و بقِى يُدبّر الأمور و يُعلِّم على الكتب المُسَيَّرة إلى البلاد ثمانُ أمراء إلى أن حضَر السلطـان ، وهم : الأمير سيف الدين سَلّار ، والأمير سيف الدين كُرْت ، والأمير ركن الدين بِيبَرْس الجَاشْنَكِير ، والأمير عِزّ الدين أَيْبك الخازِندار ، والأمير جمـال الدين آقوش الأفـرم الصغير ؛ والأمير حسام الدين لاچين أسـتاذ الدار ، والأمير سيف الدين بَكْتَمُر أمير جانْدار ، والأمير جمال الدين عبد الله [السِّلاح دار][2] وجميعهم منصوريّة قلاوونيّة . وغالبهم قد أُخرِج من السجن بعد قتل لاچين . يأتى ذلك كلّه فى ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية عند عوده إلى السلطنة إن شاء الله تعـالى .

وأمّا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين فإنّه أُخذ بعـد قتله وغُسِّل وكُفِّن ودُفِن بتربته[3] بالقرافـة الصغرى بالقُرْب من سَفْح المقطّم ، ودُفِن مملوكه مَنْكُوتَمُر تحت رجليه . وقُتِل الملك المنصور لاچين وهو فى عشر الخمسين أو جاوزها بقليل . وقد تقدّم التعريف به فى عدّة تراجم ممّا تقدّم؛ ونذكر هنا أيضا من أحواله ما يتّضح التعريف به ثانيًا :

كان لاچين مَلِكا شجاعًا مِقدامًا عارفا عاقلا حَشِيمًا وَقُورًا معظَّما فى الدُّوَل ، طالت أيّامه فى نيابة دمشق أيّام أستاذه فى السـعادة ، وهو الذى أبطل الثّلج الذى كان

(١) فى الأصلين : « الى الكرك » . (٢) زيادة عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك . (٣) تربة الملك المنصور لاچين ، قد بحثت عن موقع هذه التربة فتبين لى أنها اندثرت ، ولا أثر لها اليوم . وأما القرافة الصغرى فهى التى تعرف اليوم باسم جبانة الإمام الشافعى رضى الله عنه .

يُنقَل فى البحر من الشام إلى مِصر ؛ وقال : أنا كنت نائب الشـام وأعلم ما يُقاسى الناسُ فى وَسْقه من المشقّة . وكان — رحمه الله — تامّ القامة أشقَرَ فى لحيته طولٌ يسيرٌ وخفّةٌ ، ووجه رقيق مُعَرَّق ، وعليه هيبة ووقار ، وفى قَدّه رَشاقةٌ . وكان ذكيًّا نبيهًا شجاعا حَذُورًا .

٥ ولمّا قُتِل الملك الأشرف خليل بن قلاوون هرَب هو وقَرَاسُنْقُر ، فإنهما كانا أعانا الأمير بَيْدَرًا على قتله حسب ما ذكرناه فى ترجمة الملك الأشرف المذكور، بل كان لاچين هذا هو الذى تمّم قتله ، ولمّا هرب جاء هو وقَرَاسُنْقُر إلى جامع أحمد بن طُولُون[(١)] وطلعا إلى المئذَنة وآستترا فيها . وقال لاچين : لئن نجّانا الله من هذه الشدّة وصرتُ شيئا عَمَّرْت هذا الجامع .

١٠ (١) جامع آبن طولون ، و يقال له الجامع الطولونى ، هو ثالث مسجد بين المساجد الجامعة التى تقام فيها صلاة الجمعة فى مصر بعد الفتح العربى ، أنشأه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون والى مصر على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة بقسم السيدة زينب . قال المقريزى : بدأ آبن طولون فى بنائه سنة ٢٦٣ هـ = ٨٧٧ م ، وأتم بناءه فى رمضان سنة ٢٦٥ هـ = ٨٧٩ م . وهذا التاريخ منقوش على لوح من الرخام مثبت فى الإيوان القبلى من الجامع ، و بناؤه الحالى أقدم بناء بين المساجد التى فى مصر ، وهو

١٥ مبنى بالآجر ، وسقفه العالى محمول على دعائم ضخمة من الآجر أيضا (الطوب الأحمر) بدل الأعمدة ومكسوة هى وحوائط الجامع بطبقة سميكة من الجص ، و يتوسطه صحن مربع مكشوف تحيط به أروقة من جوانبه الأربعة ، أكبرها رواق القبلة ؛ و بالجامع ست محاريب كلها بالإيوان الشرقى ، وأجلها المحراب الكبير المجاور للنبر . وكان لهذا الجامع ثلاث منارات هدم منها منارتان لتصدعهما وكانتا قائمتين على طرفى الحائط الجنوبى الذى فيه المحراب ، والموجود منها هو المنارة الكبرى وهى تقع خارج السور الشمالى

٢٠ الغربى وتلفت النظر لأنها مبنية على شكل ليس له مثيل فى المنارات المصرية ؛ وهى تتكون من ثلاث طبقات : الأولى قاعدة من الحجر النحيت يعلوها الطبقة الثانية وهى أسطوانية ثم يعلوها الطبقة الثالثة وهى مثمنة فوقها خودة مضلعة و يبلغ ارتفاع المنارة ٢٩ مترا عن أرض الجامع ومراقيها مكشوفة من الخارج تدور حول المنارة على شكل درج حلزونى .

ومساحة الجامع ١٧٢٤٤ مترا مربعا ، وحوله من الخارج فى ثلاث جهات منه ما عدا الجهة التى فيها

٢٥ المحراب ثلاثة أروقة خارجية مكشوفة على شكل طريق حول الجامع ، وتعرف بالزيادات ، بجموع مساحتها ٩٠٣٧ مترا مربعا ، و باضافتها الى مساحة الجامع يكون المجموع ٢٦٢٨١ مترا مربعا تعادل ستة أفدنة وربع فدان ، و بهذا يكون هذا الجامع أكبر مسجد للصلاة فى مصر .

قلت : وكذا فعل رحمه الله تعالى ، فإنه لما تسلطن أمر بتجديد جامع أحمد ابن طولون المذكور ورتب في شذ عمارته وعمارة أوقافه الأمير علم الدين أبا موسى سنجر بن عبد الله الصالحي النجمي الدواداري المعروف بالبرنلي، وكان من أكابر أمراء الألوف بالديار المصرية ، وفوض السلطان الملك المنصور لاجين أمر الجامع المذكور وأوقافه إليه فعمره وعمر وقفه وأوقف عليه عدة قرى ، وقرر فيه دروس الفقه والحديث والتفسير والطب وغير ذلك ، وجعل من جملة ذلك وقفاً يختص بالديكة التي تكون في سطح الجامع المذكور في مكان مخصوص بها، وزعم أن الديكة تعين الموقتين وتوقظ المؤذنين في السحر ، وضمن ذلك كتاب الوقف؛ فلما قرئ كتاب الوقف على السلطان وما شرطه أعجبه جميعه . فلما انتهى إلى ذكر الديكة أنكر السلطان ذلك ، وقال : أبطلوا هذا لئلا يضحك الناس علينا، وأمضى ما عدا ذلك من الشروط . والجامع المذكور عامر بالأوقاف المذكورة إلى يومنا هذا ، ولولاه لكان دثر وخرب، فإن غالب ما كان أوقفه صاحبه أحمد بن طولون خرب وذهب أثره ، فجدده لاجين هذا وأوقف عليه هذه الأوقاف الجمة، فعمر وبقي إلى الآن . انتهى .

= ولسعة هذا الجامع وتعذر الصرف عليه أهملت الصلاة فيه واستعمل في غير ما خصص له ، ففي عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب نزل به طائفة من المغاربة الوافدين على مصر ، اتخذوه مسكنا لهم أكثر من مائة سنة ، ثم جعل شونة للغلال في زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، ثم عمره السلطان حسام الدين لاجين في سنة ٦٩٦ هـ وأقام فيه الشعائر الدينية ، ثم عاد الى الخراب ، وفي أيام الحكم العثماني جعل مصنعا لعمل الأحزمة الصوفية . وفي سنة ١٢٦٣ هـ = ١٨٤٦ م تحول الى ملجأ للعجزة ، وظل كذلك الى سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م حيث تألفت لجنة حفظ الآثار العربية فعقدت العزم على انتشاله من الخراب ، وفعلا قامت اللجنة بعمل إصلاحات كثيرة فيه ، وصرف عليه مبالغ جسيمة في سبيل إصلاحه إصلاحا كاملا يعيد اليه الكثير من سابق بهجته ورونقه مع إزالة ما يحيط به من الأبنية ، وأنشىء بجواره من الجهة الشرقية متنزه يفصل بينه وبين المساكن ، ولا زالت أعمال الإصلاح جارية بهذا الجامع الى أن تتم قريبا بعون الله .

وكان المنصور لاچين فَهِمًا كريمَ الأخلاق متواضعًا . يُحْكَى أن القاضى شهاب الدين محمود كان يكتب بين يديه فوقع من الحِبْر على ثيابه، فأعلمه السلطان بذلك ؛ فنظم فى الحال بيتين وهما :

ثيابُ مملوكك يا سيِّدى * قد بيّضتْ حالى بتسويدها
مَا وَقع الحِبْر عليها بَلَى * وُقِّع لى منك بتجديدها

فأمر له المنصور بتفصيلتين وخمسمائة درهم . فقال الشهاب محمود : ياخَوَنْد، مماليكك الجماعة رِفاقى يبقَ ذلك فى قلوبهم ، فأمر لكلٍّ منهم بمثل ذلك ، وصارت راتبًا لهم فى كلّ سنة .

وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك الصَّفَدى فى تاريخه : حَكَى لى الشيخ فتح الدين[1] بن سَيِّد الناس : لمّا دخل عليه لم يَدَعْه يبوُس الأرض، وقال : أهل العلم منزّهون عن هذا وأجلسه عنده، وأظنّه قال : على المقعد، ورتّبه مُوَقِّعًا فباشر ذلك أيّاما ، وآستعفى فأعفاه وجعل المعلوم له راتبًا فتناوله إلى أن مات . ولمّا تسلطن مدحه القاضى شهاب الدين محمود بقصيدة أوّلها :

أطاعك الدهرُ فَأْمُر فهو ممتثِلُ * وآحكُم فأنت الذى تُزْهَى بك الدُّوَلُ

ولمّا تسلطن الملك المنصور لاچين تفاءل الناس وآستبشروا بسلطنته ، وجاء فى تلك السنة غَيْثُ عظيم بعد ماكان تأخّر ؛ فقال فى ذلك الشيخ علاء الدين الوَدَاعِىّ :

يأيُّها العالَم بُشْراكُمُ * بدولة المنصور ربّ الفَخَارْ
فالله قد بارك فيها [لكم][2] * فأمطر الليلُ وأضحى النهارْ

وكانت مدّة سلطنة المنصور لاچين على الديار المصرية سنتين وثلاثة شهور .

(١) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٣٧٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة .
(٢) تكلة عن المنهل الصافى .

قال الأديب صلاح الدين الصَّفَدِىّ : وكان دِيِّنا متقشِّفًا كثير الصوم قليل الأذى، قطع أكثر المكوس ، وقال : إن عشتُ ما تركت مكْسًا واحدا .

قلت : كان فيه كلُّ الخِصال الحسنة ، لولا توليته مملوكه منكُوتَمُر الأمور ومحبته له، وهو السبب فى هلاكه حسب ما تقدّم . وتسلطن من بعده آبن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون طُلِب من الكَرَك وأُعِيد إلى السلطنة . انتهت ترجمة الملك المنصور لاچين . رحمه الله تعالى .

***

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور لاچين على مصر، وهى سنة ستّ وتسعين وستمائة . على أنّ الملك العادل كَتْبُغَا حكَم منها المحرّم وأياماً من صفر .

فيها كان خلعُ الملك العادل كَتْبُغَا المنصورىّ من السلطنة وتوليتُه نيابة صَرْخَد، وسلطنة الملك المنصور لاچين هذا من بعده حسب ما تقدّم ذكره .

وفيها فى ذى القعدة مسَك الملك المنصورُ لاچين الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصورىّ نائب السلطنة بديار مصر وحبَسه، وولّى عِوضَه مملوكه مَنْكُوتَمُر .

وفيها ولِى قضاء دمشق قاضى القضاة إمام الدين القَزْوِينِىّ (١) عوضًا عن القاضى بدر الدين بن جَمَاعة ، وآستمرّ آبن جماعة المذكور على خطابة جامع دمشق .

وفيها تولّى سلطنة اليمن الملك المؤيّد هِزَبْر الدين داود آبن الملك المظفّر شمس الدين يوسف آبن الملك المنصور نور الدين عمر بن علىّ (٢) بن رسول، بعد موت أخيه الأشرف .

---

(١) هو إمام الدين عمر بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن أحمد القزوينى الشافعى . سيذكر المؤلف وفاته فيمن نقل وفاتهم عن الذهبى سنة ٦٩٩ هـ (٢) فى الأصلين : «نور الدين على بن عمر» . وتصحيحه عن جواهر السلوك والدرر الكامنة والمنهل الصافى وشذرات الذهب وما سيذكره المؤلف فى وفاته سنة ٧٢١ هـ

وفيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة مفتى المسلمين محيي الدين أبو عبد الله محمد بن يعقوب ابن إبراهيم بن هبة الله بن طارق بن سالم بن النّحاس الحلَبى الأسدىّ الحنفىّ فى ليلة سلخ المحرّم [(١)] ببستانه بالمِزّة ودُفن بتربته بالمِزّة [(٢)]، وحضَر جنازته نائبُ الشام ومَن دونه، وكان إمامًا مُفْتيًا فى عاوم، وتولّى عدة تداريس ووظائف دينيّة ، ووزَر بالشام للملك المنصور قلاوون، وحسُنت سيرتُه ثم عُزل ولازم الاشتغال والإقراء وانتفع به عامّة أهل دمشق. ومات ولم يُخَلّف بعده مثلُه .

وفيها تُوفّى الملك الأشرف ممهّد الدين عمر ابن الملك المظفر يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمر بن علىّ [(٣)] بن رَسُول ملك اليمن، وتولّى بعده أخوه هِزَبْر الدين داود المقدّم ذكره، وكانت مدّة مُلكه دون السنتين .

وفيها تُوفّى القاضى تاج الدين عبد القادر ابن القاضى عزّ الدين محمد السِّنْجارىّ الحنفى قاضى قضاة الحنفيّة بحلب فى يوم الخميس ثامن عشرين شعبان، كان إماما فقيهًا عالما مُفْتيًا ولِى القضاء بعدّة بلاد وحُمِدت سيرتُه .

وفيها تُوُفّى الأمير عزّ الدين أَزْدَمُر بن عبد الله العَلَائىّ فى ذى القعدة بدمشق، وكان أميرًا كبيرا معظّما إلا أنه شَرِسُ الأخلاق قليلُ الفَهْم رَسَم له الملك الظاهر بِيبَرْس أنّه لا يركب بسيف [فبقى أكثر من عشرين سنة لا يركب بسيف] [(٤)]، وهو أخو الأمير علاء الدين طَيْبَرْس الوَزِيرىّ .

---

(١) فى جواهر السلوك وشذرات الذهب : « فى سلخ ذى الحجة » . (٢) المزة : قرية كبيرة غناء فى أعلى الغوطة فى سفح الجبل من أعلى دمشق و بينهما نصف فرسخ (عن مراصد الاطلاع ومعجم البلدان لياقوت) . (٣) فى الأصلين هنا أيضا : « نور الدين على بن عمر » . وراجع الحاشية رقم ٢ فى الصفحة السابقة . (٤) زيادة عن جواهر السلوك .

وفيها تُوُفّى شيخ الحَرَم وفقيه الحجاز رضيّ الدين محمد بن أبى بكر عبد الله[1] بن خليل بن إبراهيم القَسْطَلّانِىّ المكىّ المعروف بآبن خليل . مولده سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكان فقيها عالمــا مُفْتنًا مُفْتيًا، وله عبادة وصلاح وحسن أخلاق . مات بمكّة بعد خروج الحــاج بشهر، ودُفن بالمَعْلاة بالقرب من سُفْيان الثّوْرىّ . ومن شعره رحمه الله :

أيّها النــازح المقــيم بقلبى * فى أمانٍ أنَّى حَلَلْتَ ورَحْب
جمـع اللهُ بيننا عن قــريبٍ * فهوأقصَى مناىَ منك وحَسْبِى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال : وفيها تُوُفّى القاضى تاج الدين عبد الخالق بن عبد السلام بن سعيد ببعلبكّ فى المحرّم، وله ثلاث وتسعون سنة . وقاضى القضــاة عِزّ الدين عمر بن عبــد الله بن عمر بن عَوَض الحنبلىّ بالقاهرة . والحافظ الزاهد جمال الدين أحمــد بن محمد بن عبد الله الظاهرىّ بمصر . والمحدث ضياء الدين عيسى بن يحيى السَّبْتىّ بالقــاهرة فى رجب . والزاهد شمس الدين محمد [بن حازم][2] بن حامد المَقْــدِسىّ فى ذى الحجّة . وأبو العباس أحمد بن عبد الكريم فى صــــفر .

§ أمر النيل فى هــذه السنة — المــاء القديم كان قليــلًا جدّا . مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا وثمانى عشرة إصبعا . ثم نقص ولم يُوَفِّ فى تلك السنة .

***

السنة الثانية من ولاية الملك المنصور لاجين على مصر، وهى ســنة سبع وتسعين وستمائة .

(١) فى جواهر السلوك : « ابن أبى بكر بن عبد الله بن خليل » .
(٢) التكملة عن تاريخ الإسلام وشرح القصيدة اللامية فى التاريخ .

فيهـا مسك الملك المنصور لاچين الأمـير بدر الدين بَيْسَرى الشمسىّ وحبسه واَحتاط على موجوده .

وفيها أخذت العساكر المصرية تلّ حَمْدون وقلعتها بعدحصار، ومَرْعَش وغيرهما ، ودقّت البشائر بمصر أياما بسبب ذلك .

وفيها قَدِم الملك المسعود نجم الدين خَضِر[1] آبن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبَرْس البُنْدُقْـدَارِى من بلاد الأَشْكُرِى[2] إلى مصر ، فتلقّـاه السلطان الملك المنصور لاچين فى الموكب وأكرمه . وطلب الملك المسعود الحج فأُذن له بذلك . وكان الملك الأشرف خليل بن قلاوون أرسله إلى هنـاك . وسكن الملك المسعود بالقاهرة إلى أن مات بهـا حسب ما يأتى ذكره . وكان خَضِر هذا من أحسن الناس شكلًا ، ولمـا خَتنه أبوه قال فيه القاضى محى الدين عبد الله بن عبد الظاهر يُهَنِّئ والده الملك الظاهر ركن الدين بيبَرْس :

هنأتُ بالعيـد وما * على الهنـاء أقتصر
بـل إنّها بشـارةٌ * لهـا الوجودُ مفتقرْ
بلوْحِةٍ قـد جمَعت * مابين مُوسى والخَضِرْ
قـد هيّأت لورْدِكم * ماءَ الحيـاة المُنْهمِـرْ

قلت : وأحسن من هذا قولُ من قال فى مَليح حَلِيق :

مَرّتِ المُوسَى على عارضـه * فكأنّ المـاءَ بالآس غُمِـرْ
مَجْمَـعَ البحرين أضحى خَدُّهُ * إذ تلاقى فيه موسى والخَضِرْ

---

(١) كانت وفاته سنة ٧٠٨ ﻫ (عن المنهل الصافى والدرر الكامنة) . (٢) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٥٥ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

وفيها تُوُفّى الشيخ الصالح الزاهد بقيّة المشايخ بدر الدين حسن ٱبن الشيخ الكبير القدوة العارف نور الدين أبى الحسن على بن منصور الحريرى فى يوم السبت عاشر شهر ربيع الآخر بزاويته بقرية بُسْر[1] من أعمال زُرْع ، وكان هو المتعيّن بعد أبيه فى الزاوية وعلى الطائفة الحريرية المنسوبين الى والده ؛ ومات وقد جاوز الثمانين[2] .

وفيها توفّى قاضى القضاة صدر الدين إبراهيم بن أحمد بن عُقْبة البُصْرَاوى الفقيه الحنفى المدرّس ، أحد أعيان فقهاء الحنفية ، ولى قضاء حلب ثم عُزِل ثم أُعيد فمات قبل دخوله حلب ، وكان عالما مُفْتِنًا وله اليد الطُّولَى فى الجبر والمقابلة والفرائض وغير ذلك .

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال : وفيها تُوُفّى الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر الفارسىّ الأَبْجِىّ[3] فى رمضان . وعائشة ٱبنة المجد عيسى بن [الإمام][4] الموفّق [عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة][4] المَقْـدسىّ فى [تاسع عشر][5] شعبان ولها ست وثمانون سنة . وقاضى حماة جمال الدين محمد بن سالم [بن نصر الله بن سالم][6] ابن واصل فى شوّال . وشهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن [بن عبد المنعم بن نِعْمة

---

(١) بسر : قرية من أعمال حوران من أراضى دمشق بموضع يقال له اللجا وهو صعب المسلك الى جنب ذرة التى تسميها العامة زرع وبها مشهد يقال له قبر اليسع ، وبها قبر الشيخ الحريرى وزاويته (عن ياقوت) . (٢) فى تاريخ الإسلام للذهبى والمنهل الصافى : أنه ولد سنة ٦٢١ هـ .

(٣) فى الأصلين : «الأيكى» ولم نجد هذه النسبة . والتصحيح عن تاريخ الاسلام . والأبجى : نسبة الى الأبج من بلاد العجم . (٤) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبى (٥) فى الأصلين : « فى شوال » . والزيادة والتصحيح عن تاريخ الإسلام وجواهر السلوك . (٦) التكلة عن تاريخ الإسلام والمنهل الصافى .

ابن سلطان بن سرور[1]] النابلسىّ الحنبلىّ العابر[2] . والشيخ كمال الدين عبد الرحمن بن عبد اللطيف البغدادىّ بن المكبّر[3] فى ذى الحجة، وله ثمان وتسعون سنة .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم أربع أذرع وأربع أصابع . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا وعشر أصابع . وكان الوفاء آخر أيام النسىء .

---

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام والسلوك وجواهر السلوك .

(٢) يريد بالعابر الذى يعبر الرؤيا ، كما صرح بذلك فى المصادر التى ترجمت له .

(٣) فى شذرات الذهب : «ابن المكثر» .

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالى محمد آبن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، تقدّم ذكر مولده فى ترجمته الأولى من هذا الكتاب . أُعيد إلى السلطنة بعد قتل الملك المنصور لاچين ، فإنه كان لمّا خُلِع من المُلْك بالملك العادل كَتْبُغَا المنصورىّ أقام عند والدته بالدُّور من قلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المنصور لاچين لمّا تسلطن إلى الكَرَك ، فأقام الملك الناصر بالكَرَك إلى أن قُتِل الملك المنصور لاچين حسب ما ذكرناه . أجمع رأىُ الأمراء على سلطنته ثانياً، وخرج إليه الطلب من الديار المصرية صَبيحةِ يوم الجمعة الحادى عشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة ، وهو ثانى يوم قُتِل لاچين وسار الطلب إليه ؛ فلمّا قتِل طُغْجِي وكُرْجِى فى يوم الاثنين رابع عشره آستحثوا الأمراء فى طلبه، وتكرّر سفر القُصّاد له من الديار المصرية إلى الكرك، حتى إذا حضر إلى الديار المصرية فى ليلة السبت رابع جُمادَى الأولى من السنة ، وبات تلك الليلة بالإسطبل السلطانىّ، ودام به إلى أن طَلَع إلى القلعة فى بُكْرة يوم الاثنين سادس جُمادَى الأولى المذكور . وحضر الخليفةُ الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد والقضاةُ ، وأُعيد إلى السلطنة وجلس على تخت المُلك . وكان الذى توجّه من القاهرة بطَلَبه الأميرُ الحاجّ آل ملك [1]، والأمير سَنْجَر الجاوِلى [2]. فلمّا قدِما إلى الكَرَك كان للملك الناصر بالغَوْر [3] يتصيّد

(١) هو سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار ثم نائب السلطنة بالديار المصرية . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٤٧ هـ . (٢) هو علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولى أبو سعيد من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون . توفى سنة ٧٤٥ (عن المنهل الصافى وشذرات الذهب) .

(٣) يراد بالغور هنا غور الكرك كما هو ظاهر .

فتوجّها إليه ودخل آقوش[1] نائب الكَرَك إلى أمّ السلطان و بَشَّرها، فخافت أن تكون مَكيدةً من لاجين فتوقّفت فى المسير، فما زال بها حتى أجابت .

ووصل الأميران إلى الملك الناصر بالغَوْر وقبّلا الأرض بين يديه وأعلماه بالخبر، فرحّب بهما وعاد إلى البلد وتهيّأ، وأخذ فى تجهيز أمره، والبريدُ يترادف بآستحثاثه إلى أن قَدِم القاهرة ، فخرج الأمراءُ وجميعُ الناس قاطبةً للقائه، وكادت القاهرة ومصر ألّا يتأخر بهما أحدٌ فرحًا بقدومه . وكان خروجهم فى يوم السبت، وأظهر الناس لعَوْده إلى المُلك من السرور ما لا يُوصف ولا يُحدّ، وزُيّنت القاهرة ومصر بأفخر زينة، وأبطل الناس معايشَهم وضجّوا له بالدعاء والشكر لله على عَوْده إلى المُلك ، وأسمعوا حواشيَ الملك العادل كَتْبُغَا والملك المنصور لاجين من المكروه والآستهزاء مالا مَزِيد عليه، وآستمروا فى الفرَح والسرور إلى يوم الآثنين، وهو يوم جلوسه على تخت المُلك . وجلس على تخت الملك فى هذه المرّة الثانية وعمرُه يومئذ نحوُ أربع عشرة سنة . ثم جُدّد للملك الناصر العهدُ، وخَلَع على الأمير سيف الدين سَلّار بنيابة السلطنة ، وعلى الأمير حسام الدين لاجين بالأستادارية على عادته، وآستقر الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة دمشق على عادته ، وخُلِع عليه وسُفِّر بعد أيام .

وفى معنى سلطنة الملك الناصر محمد يقول الشيخ علاء الدين الوَدَاعيّ[2] الدِّمشقيّ :

الملك الناصرُ قد أقبلتْ * دولتُه مشرقةَ الشمسِ
عاد إلى كرسيِّه مثلما * عاد سليمانُ إلى الكرسي

وفى تاسع جُمادَى الأولى فُرّقت الخِلَع على جميع مَنْ له عادة بالخِلَع من أعيان الدولة . وفى ثانى عشره لَبِس الناس الخِلَع وركب السلطان الملك الناصر بالخلْعة

(١) هو جمال الدين آقوش بن عبد الله الأشرفى المعروف بنائب الكرك . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٣٦ هـ . (٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ٥٢ من هذا الجزء .

الخليفتيّة وأبّهة السلطنة وشعار المُلك ، ونزل من قلعة الجبل إلى سُوق الخيل[1] ثم عاد إلى القلعة ، وترجّل في خدمته جميع الأمراء والأكابر[2] وقبّلوا الأرض بين يديه . وآستقرّت سلطنته وتمّ أمره ، وكُتبت البشائر بذلك إلى الأقطار ، وسُرّ الناس بعوده إلى المُلك سرورا زائدا بسائر الممالك .

وبعد أيام ورد الخبر عن غازان ملك التتار أنه قد عَزَم على قصد البلاد الشامية لمّا قدم عليه الأمير قَبْجق المنصوري نائب الشام ورفقتُه . ثم رأى غازان أن يجهّز سلامش بن أباجو[3] في خمسة وعشرين ألفا من الفُرْسان إلى بلاد الروم، على أنه يأخذ بلاد الروم، ويتوجّه بعد ذلك بسائر عساكره إلى الشام من جهة بلاد سيس[4] ويجيء غازان من ديار بكر[5]، وينزلون على الفُرات[6] ويُغيرون على البِيرة[7] والرَّحبة[8] وقلعة الروم ، ويكون آجتماعهم على مدينة حلب ، فإن آلتقاهم أحدٌ من العساكر المصرية والشامية

---

(١) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٢٤ من هذا الجزء . (٢) في أحد الأصلين : «جميع الأمراء والعساكر» . (٣) في جواهر السلوك : «سلامش بن باجو» . وفي السلوك للقريزي : «سلامش ابن آفال بن منجو بن هولاكو» . (٤) راجع الحاشية رقم ٣ ص ١٣٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

(٥) ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قسط بن هنب . وحدها ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين الى دجلة . وهي ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق ، قصبتها الموصل وحرّان ، وبها دجلة والفرات . من عجائبها عين الهرماس وهي بقرب نصيبين على مرحلة منها ، وهي مسدودة بالحجارة والرصاص لئلا يخرج منها ماء كثير فتغرق المدينة (عن معجم البلدان لياقوت ومراصد الاطلاع وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني) . (٦) البيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة مرتفعة على حافة الفرات في البر الشرقي الشمالي ، ولها واد يعرف بوادي الزيتون ، به أشجار وأعين . (عن تقويم البلدان لأبي الفدا اسماعيل ومعجم البلدان لياقوت)

(٧) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٣٢٨ من الجزء السادس من هذه الطبعة . (٨) قلعة الروم ، واقعة في البر الغربي الجنوبي من الفرات في جهة الغرب الشمالي عن حلب على نحو خمس مراحل منها ، وفي الغرب عن البيرة على نحو مرحلة ، والفرات بذيلها . وهي من القلاع الحصينة التي لا ترام ولا تدرك ، ولها ربض وبساتين ، ويمر بها نهر يعرف بمرزبان يصب في الفرات ، قصدها الملك الأشرف خليل آبن المنصور قلاوون فنزل عليها ولم يزل بها حتى فتحها وسماها قلعة المسلمين . (عن صبح الأعشى ج ٤ ص ١١٩ — ١٢٠) .

ٱلتَقوه وإلّا دخـلوا بلاد الشام ، فٱتّفق أنّ سـلامش لمـا توجّه من عنـد قازان ودخل إلى الروم أطمَعَتْه نفسه بالُملك ، ومَلَك الروم وخَلَع طاعة غازان ، وٱستخدم الجُنـدَ ، وأنفق عليهم وخَلَع على أكابر الأمراء ببـلاد الروم ، وكانوا أولاد قَرَمان[1] قد أطاعوه ، ونزلوا إلى خدمته ، وهم فوق عشرة آلاف فارس . وهذا الخبر أرسله سـلامش المذكور إلى مصر ، وأرسـل فى ضمن ذلك يطلب من المصريين النَّجدة والمساعدة على غازان .

قلت : غازان وقازان كلاهما ٱسم لملك التتار . انتهى . وكان وصول رسول سلامش بهذا الخبر إلى مصر فى شعبان من السنة .

وأما قازان فإنه وصل إلى بغـداد ، وكانوا متولّين بغـداد من قبله شكَوْا إليه من أهل السِّيب[2] والعُرْبان أنّهم يَنْهَبُون التّجار القادمين من البحر ، وأنّهم قد قطعوا السابلةَ فسار قازان بنفسه إليهم ونهبهم ، وأقام بأرض دَقُوقا[3] مُشَتّيا . ولمـّا بلغه خبرُ سلامش ٱنثنى عزمُه عن قصـد الشام وشرع فى تجهيز العساكر مع ثلاثة مقدّمين ، ومعهم خمسـةُ وثلاثون ألفَ فارسٍ : منها خمسـة عشر مع الأمير سُوتاى[4] وعشرة مع هندوجاغان[5] وعشرة مع بُولاى[6] وهو المشار إليه من المقدّمين مع العساكر وسفَّرهم

---

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٢٩٨ من الجزء السادس من هذه الطبعة . (٢) راجع الحاشية رقم ٢ ٩ من هـذا الجزء . (٣) راجع الحاشـية رقم ٨ ص ١٨٥ من الجزء السادس من هذه الطبعة . (٤) فى الأصلين هنا : « سلتاى » . والتصحيح عما سيذكره المؤلف فى هذه الترجمـة وعن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك والدرر الكامنة . وقـد ضبطه صاحب الدرر بالعبارة فقال : (بضم أوله وسكون الواو وبعـدها مثناة) . توفى سـنة ٧٣٢ هـ . راجع ترجمته فى الدرر . (٥) كذا فى الأصلين . وفى تاريخ سلاطين المماليك : «هندوغاق» . وفى جواهر السلوك : « هندوغان » . (٦) فى الأصلين : « بولاهم» . والتصحيح عن السلوك وجواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك .

إلى الروم لقتال سلامش . ثم رحل قازان إلى جهة تبريز[1] ومعه الأمير قبجق المنصوري نائب الشام وبكتمر السلاح دار والألبكي ، وهؤلاء هم الذين خرجوا من دمشق مغاضبين للملك المنصور لاچين ، وسار التتار الذين أرسلهم غازان حتى وصلوا إلى الروم في أواخر شهر رجب والتقوا مع سلامش، وكان سلامش قد عصى عليه أهل سيواس[2] وهو يحاصرهم ، فتركهم سلامش وتجهز، وجهز عساكره لملتقى التتار ؛ وكان قد جمع فوق ستين ألف فارس . فلما قارب التتار فر من عسكر سلامش التتار والروم ولحقوا بولاى مقدم عساكر غازان .

وأما التركمان فإنهم تركوه وصعدوا إلى الجبال على عادتهم و بقي سلامش في جمع قليل دون خمسمائة فارس ، فتوجه بهم من سيواس إلى جهة سيس، وسار منها فوصل إلى بهسنا[3] في أواخر شهر رجب. وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد برز مرسومه إلى نائب الشام بأن يجرد خمسة أمراء من حمص وخمسة من حماة وخمسة من حلب لتكملة خمسة عشر أميرا ويبعثهم نجدة إلى سلامش .

فلما وصل الخبر بقدوم سلامش إلى بهسنا منهزما توقف العسكر عن المسير ، ثم وصل سلامش إلى دمشق . وسلامش هذا هو من أولاد عم غازان ، وهو سلامش بن أباجو بن هولاكو . وكان وصوله إلى دمشق في يوم الخميس ثاني عشر شعبان ، فتلقاه نائب الشام واحتفل لملاقاته احتفالا عظيما وأكرمه ، وقدم

---

(١) تبريز : أشهر بلدة بأذربيجان ، ولها غوطة رائعة . وكان بها كرسي بيت هولاكو من التتار ، وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة ، وهي اليوم (القرن التاسع الهجري) : أم إيران جميعا لتوجه المقاصد من كل جهة إليها ، وبها محط رحال التجار والسفار ، وبها دور وأكثر الأمراء الكبراء المصاحبين لسلطانها لقربها من أرجان محل مشتاهم . (راجع صبح الأعشى رابع ص ٣٥٧ ومعجم البلدان وتقويم البلدان) . (٢) راجع الحاشية رقم ١٠ ص ١٦٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٣) راجع الحاشية رقم ٣ ص ١٤ من هذا الجزء .

فى خدمتــه نائب بهسْنا الأمير بدر الدين بَكْتَاش الزَّردكاش، ثم سار سلامش من دمشق إلى جهة الديار المصرية إلى أن وصــلها، فأكرمه الســلطان غاية الإكرام، وأقام بمصر أياما قليلة ثم عاد إلى حلب، بعد أن آتفق معه أكابر دولة الملك الناصر محمد على أمرٍ يفعلونه إذا قَدِم غازان إلى البلاد الشامية، ثم بعد خروجه جهز السلطان خلفه أربعة آلاف فارس من العسكر المصرى نجدةً له لقتال التتار، وأيضا كالمقدّمة الســلطان، وعلى كلّ ألف فارس أميرُ مائة ومقــدّم ألف فارس، وهم : الأمير جمال الدين آقوش قتّال السَّبُع . والمبارِز أميرشِكار . والأمير جمال الدين عبد الله . والأمير سيف الدين [بلبان](١) الحبَشِىّ، وهو المقــدّم على الجميع ؛ وساروا الجميــع إلى بلاد حلب، وتهيّأ السلطان للسفر، وتجهّزت أمراؤه وعساكره. وخرج من الديار المصرية بأمرائه وعساكره فى يوم الخميس سادس عشرين ذى الحِجّة الموافق لسادس عشرين توت أحد شهور القِبْط .

هذا والعساكر الشامية فى التهيُّؤ لقتال التتار، وقد دخلهم من الرعب والخوف أمرٌ لامَزِيد عليه ، وسار السلطان بعساكره إلى البلاد الشامية بعد أن تقدّمه أيضا جماعةٌ من أكابر أمراء الديار المصرية غير أولئــك ، كالجاليش(٢) على العادة، وهم : الأمير قُطْلُوبَك والأمير سيف الدين نُكَيْه(٣) وهو من كبار الأمراء، كان حما المَلِكين الصالح والأشرف أولاد قلاوون ، و جماعة أمراء أُخَر، ودخلوا هؤلاء الأمراء قبل الســلطان إلى الشام بأيام، فآطمأنّ خواطرُ أهل دِمَشــق بهم، وسافر الســلطان

(١) فى الأصلين : « سيف الدين حبش » . والتكلة والتصحيح عن السلوك للمقريزى .

(٢) راجع الحاشية رقم ٣ ص ١٠١ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

(٣) فى الأصلين : « نكيه » . وما أثبتناه عن جواهر السلوك وتاريخ سلاطين المماليك .

بالعساكر على مَهَل ، وأقام بغزّة[(١)] وعَسْقَلان[(٢)] أياما كثيرة ؛ ثم دخل إلى دمشق يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأوّل سنة تسع وتسعين وستمائة ، وآحتفَلَ أهلُ دمشق لدخوله آحتفالًا عظيمًا ، ودخل السلطان بتجمّل عظيم زائدٍ عن الوصف حتى لعلّه زاد على الملوك الذين كانوا قبله ، ونزل بقلعة دمشق بعد أن أقام بغزّة وغيرها نحو الشهرين فى الطريق إلى أن ترادفت عليه الأخبار بقرب التتار إلى البلاد الشامية ، قَدِم دمشق وتعين حضوره إليها ليجتمع بعساكره السابقة له ، وأقام السلطانُ بدمشق وجهّز عساكرها إلى جهة البلاد الحلبيّة أمامه ، ثم خَرَج هو بأمرائه وعساكره بعدهم فى يوم الأحد السابع عشر من شهر ربيع الأوّل من سنة تسع وتسعين المذكورة فى وَسَط النهار ، وسار من دِمَشق إلى حِمْص ، وآبتهلَ الناسُ له بالدعاء ، وعظُم خوفُ الناس وصِياحُهم وبكاؤهم على الإسلام وأهله . ووصل السلطان إلى حِمْص وأقام لابسَ السلاح[(٣)] ثلاثة أيام بلياليها إلى أن حصل المَلَل والضَّجَر ، وغلت الأسعار بالعسكر وقلّت العلوفات . وبلغ السلطانَ أنّ التتار قد نزلوا بالقُرْب من سَلَمْيَة[(٤)] وأنّهم يريدون الرجوعَ إلى بلادهم لِمَا بَلَغهم من كثرة الجيوش وآجتماعهم على قتالهم . وكان هذا الخبر مكيدةً من التتار ، فركب السلطان بعساكره من حِمْص بُكْرةَ يوم الأربعاء وقت الصبح السابع والعشرين من شهر ربيع الأوّل ، وساقُوا الخيل إلى أن وصلوا إليهم ، وهم بالقرب من سلمية بمكان يسمى وادى الخازندار ؛ فركب التتار للقائهم وكانوا تهيّئوا لذلك ، وكان الملتقى فى ذلك المكان فى الساعة

---

(١) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٤ من هذا الجزء . (٢) عسقلان : بلدة بها آثار قديمة على جانب البحر ، بينها وبين غزة اثنا عشر ميلا . فتحها معاوية بن أبى سفيان صلحا سنة ثمانى عشرة من الهجرة ، وهى من جملة ثغور الإسلام الشامية ، ومن أجل مدن الساحل . (٣) فى الأصلين : « وأقام ملبسا بعساكره » . وما أثبتناه عن السلوك . (٤) راجع الحاشية رقم ٢ ص ١١٩ من الجزء الثانى من هذه الطبعة .

الخامسة من نهار الأربعاء المذكور وتصادما، وقد كَلّت خيول السلطان وعساكرُه من السَّوْق، وآلتحم القتال بين الفريقين، وحَملت ميسرةُ المسلمين عليهم فكسَرَتْهم أقبحَ كسرة، وقتلوا منهم جماعة كثيرةً نحو خمسة آلاف أو أكثر؛ ولم يُقتل من المسلمين إلّا اليسيرُ .

٥ ثم حَمَلَت القَلْبُ أيضًا حملةً هائلةً وصدمت العدوَ أعظمَ صدمة، وثَبَت كل من الفريقين ثباتا عظيما، ثم حصل تخاذلٌ فى عسكر الإسلام بعضهم فى بعض . بلاء من الله تعالى . فآنهزمت مَيْمنةُ السلطان بعد أن كان لاح لهم النصر ! فلا قوّة إلا بالله . ولمّا آنهزمت الميمنةُ آنهزم أيضًا مَنْ كان وراء السناجق السلطانيّة من غير قتال، وألقى الله تعالى الهزيمةَ عليهم فآنهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر،

١٠ وساق السلطان فى طائفة يسيرة من أمرائه ومدبّرى مملكته إلى نحو بَعْلَبَكّ[1] وتركوا جميع الأثقال، ملقاةً[2]، فبقيت العُدَدُ والسلاح والغنائم والأثقال ملات تلك الأراضى حتى بَقِيت الرماح فى الطرق كأنها القَصَب لا ينظر اليها أحد ، وَرَمى الجند خُوَذَهم عن رءوسهم وجواشِنَهم وسلاحهم تخفيفًا عن الخيل لتُنجيهم بأنفسهم، وقصدوا الجميع دمشق . وكان أكثر من وصل إلى دمشق من المنهزمين من طريق بعلبك .

١٥ ولمّا بلغ أهلَ دمشق وغيرها كسرةُ السلطان عَظُم الضجيجُ والبكاء، وخرجت المخدّرات حاسراتٍ لا يعرِفْنَ أين يذهبْنَ والأطفالُ بأيديهنّ ، وصار كلّ واحد فى شغل عن صاحبه إلى أن ورد عليهم الخبرُ أنّ ملك التتار قازان مُسْلِمٌ وأن غالب جيشه على ملّة الإسلام، وأنّهم لم يتبعوا المنهزمين، و بعد آنفصال الوقعة لم يقتلوا أحدًا ممّن وجدوه؛ وإنما يأخذون سلاحه ومركوبه و يُطلقونه، فسَكَن بذلك رَوْعُ أهل دِمَشْق قليلا ،

٢٠ (١) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٧٨ من هذا الجزء .

(٢) فى الأصلين : «ملقى ملاْت تلك الأراضى» . وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك

ثم صار من وصل إلى دمشق أخذ أهله وحواصله بحيث الإمكان وتوجه إلى جهة مصر، و بقى من بقى بدمشق فى خمدة وحيرة لا يدرون ماعاقبة أمرهم ؛ فطائفة تغلب عليهم الخوف وطائفة يترجون حقن الدماء وطائفة يترجون أكثر من ذلك من عدل وحسن سيرة، وآجتمعوا فى يوم الأحد بمشهد على، وآشتوروا فى أمر الخروج إلى ملك التتار غازان وأخذهم أمانا لأهل البلد فحضر من الفقهاء قاضى القضاة بدر الدين [محمد بن إبراهيم] (١) بن جماعة، وهو يومئذ خطيب جامع أهل دمشق. والشيخ زين الدين الفارقى. والشيخ تقى الدين بن تيمية (٢) وقاضى قضاة دمشق نجم الدين [آبن] (٣) صصرى . والصاحب فخر الدين بن الشيرجى (٤) . والقاضى عز الدين بن الزكى (٥) . والشيخ وجيه الدين بن المنجا . والشيخ [الصدر الرئيس] (٦) عز الدين [عمر] (٦) بن القلانسى . وآبن عمه شرف الدين . وأمين الدين بن شقير الحرانى . والشريف زين الدين بن عدنان (٧) والصاحب شهاب الدين الحنفى . والقاضى شمس الدين بن الحريرى . والشيخ محمد بن قوام النابلسى . وجلال الدين أخو القاضى إمام الدين القزوينى . وقد خرج أخوه إمام الدين قبل ذلك مع جماعة جافلا إلى مصر . وجلال الدين آبن القاضى حسام الدين الحنفى . و جماعة كثيرة من العدول والفقهاء والقراء.

---

(١) تكملة عن السلوك للقريزى وما سيذكره المؤلف فى سنة ٧٣٣ هـ . وهى سنة وفاته .

(٢) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن تيمية شيخ الإسلام . توفى سنة ٧٢٨ هـ . (عن شذرات الذهب) . (٣) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك . (٤) هو سليمان بن محمد بن عبد الوهاب الصاحب فخر الدين أبو الفضل بن الشيرجى توفى سنة ٦٩٩ هـ . (عن المنهل الصافى وشذرات الذهب) . (٥) عبدالعزيز بن محيى الدين يحيى بن محمد بن على بن الزكى قاضى القضاة . سيذكر المؤلف وفاته فى سنة ٦٩٩ هـ . (٦) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك وعقد الجمان .

(٧) فى الأصلين : «زين الدين ابن عدلان» . والتصحيح عن عقد الجمان وتاريخ سلاطين المماليك .

وأمّا السلطان الملك الناصر وعساكره فإنه سار هو بخواصّه بعد الوقعة إلى جهة الكُسْوة[١] . وأمّا العساكر المصرية والشامية فلا يمكن أن يُعبَّر عن حالهم، فإنه كان أكبر الأمراء يُرى وهو وحدَه وقد عَجَز عن الهَرَب ليس معه مَنْ يقوم بخدمته وهو مُسْرِعٌ فى السَّيْر خائفٌ متوجِّه إلى جهة الكُسْوة لا يَلْوِى على أحد، قد دخل قلوبهم الرُّعب والخوفُ، تشتُمهم العامة وتُوَبِّخهم بسبب الهزيمة من التتار، وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون فى النـاس ويتعاظمون عليهم، وقد صار أحدُهم الآن أضعفَ من الهزيل، وأمعنوا العـامّة فى ذلك وهم لايلتفتون إلى قولهم، ولاينتقمون من أحد منهم .

قلتُ : وكذا وقع فى زماننا هـذا فى وقعة تيمورلنك وأعظم، فإنّ هؤلاء قاتلوا وكَسَروا مَيْمَنَة التّتار، إلّا أصحابنا فإنّهم سَـلَّموا البلاد والعِباد من غير قتال ! حسب ما يأتى ذكره فى محلّه من ترجمة السـلطان الملك الناصر فَرَج بن بَرْقُوق . انتهى . قال : وعجز أكثر الأمراء والجند عن التوجّه إلى جهـة مصر خلف السـلطان بسبب ضَعف فرسه، فصار الجندىّ يُغَيِّر زِيَّه[٢] حتى يُقيم بدمشق خِيفةً من توبيخ العامّة له، حتى بعضهم حَلَق شعره وصار بغير دَبُوقة[٣] .

قال الشيخ قطب الدين اليُونِينِى : مع أنّ الله تعـالى لَطَف بهم لطفا عظيما إذ لم يَسُقْ عَدوّهم خَلفهم ولا تبعهم إلا حول المعركة وما قاربها، وكان ذلك لُطْفًا من الله تعالى بهم، وبَقِى الأمر على ذلك إلى آخر يوم الخميس سادس شهر ربيع الآخر، فوصل أربعة من التتار ومعهم الشريف القُمّى[٤] وتكلّموا مع أهل دمشق، فلم يَنْبَرِم

(١) الكسوة : ضيعة ومنزل يمر بها نهر الأعرج، بينها وبين دمشق اثنا عشر ميلا (عن تقويم البلدان لابى الفداء) . وقال ياقوت فى معجمه : «قرية هى أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق الى مصر» .
(٢) عبارة سلاطين المماليك «لسبب وقوف خيلهم» . (٣) راجع الحاشية رقم ١ ص ٣٣١ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٤) فى تاريخ سلاطين المماليك : «ومعهم الشريف القتمى» .

أمر . ثم قَدِم من الغد آخَرُ ومعه فرَمان (يعنى مرسوما من غازان بالأمان) وقُرِئَ بالمدرسة البَادَرائية[(١)] ، ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها من أن قازان أرسل إلى أهل دمشق وعرّفهم أنه يحب العدل والإحسان للرّعية و إنصاف المظلوم من الظالم ، وأشياء من هـذا النمط ، فحصل للناس بذلك سكونٌ وطُمَأْنِينة . ثم دخل الأمير قَبْجَق المنصوري الذى كان نائب دمشق قبل تاريخه ، وهَرَب من الملك المنصور لاچين إلى غازان ، ومعه رفقته الأمير بَكْتَمُر السِّلاحدار وغيره إلى دمشق ، وكلّموا الأمير أَرْجَوَاش المنصوري خُشْدَاشَهم نائب قلعة دمشق فى تسليمها إلى غازان ؛ وقالوا له : دَمُ المسلمين فى عنقك إن لم تُسلِّمها ؛ فأجابهم : دم المسلمين فى أعناقكم أنتم الذين خرجتُم من دمشق وتوجّهتم إلى غازان وحسّنتم له المجىء إلى دمشق وغيرها ، ثم وبّخهم ولم يُسَلِّمْ قلعة دمشق ، وتهيّأ للقتال والحصار ، وآستمّر على حفظ القلعة . ثم ترادفت قصّاد غازان إلى أَرْجواش هـذا ، وطال الكلام بينهم فى تسليم القلعة ؛ فثبّته الله تعالى ومنَعَ ذلك بالكلّية . وملّك قازان دِمَشق وخُطِب له بها فى يوم الجمعه رابع عشر شهر ربيع الآخر . وصورة الدعاء لغازان أن قال الخطيب : «مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفّر الدنيا والدين محمود غازان» . وصلّى الأمير قَبْجَق المنصوري و جماعةٌ من المُغْل بالمقصورة من جامع دِمَشق ، ثم أخذ التّتار فى نَهْب قُرَى[(٢)] دمشق والفساد بها ، ثم بجبل الصالحية وغيرها ،

(١) المدرسة البادرائية : جاء فى كتاب مختصر تنبيه الطالب و إرشاد الدارس فى أخبار المدارس : أنها داخل باب الفراديس والسلامة شمالى جيرون ، وشرق الناصرية الجوّانية . وفى المختصر أنها على باب الجامع الأموى الشرقى المؤدى إلى العمارة ، وكانت قبل ذلك دارا تعرف (بأسامة وهو أسامة الجبلى أحد كبار الأمراء المتوفى سنة ٦٠٩ هـ أنشأها نجم الدين أبو محمد عبد الله البادرائى البغدادى المتوفى سنة ٦٥٥هـ قال الذهبى : البادرائى قاضى القضاة سفير الخلافة نجم الدين عبد الله بن الحسن البادرائى الشافعى صاحب المدرسة التى بخط جيرون (عن خطط الشام جـ ٦ ص ٧٨) . (٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

وفعلوا تلك الأفعال القبيحة، ثم قرّروا على البلد تقارير تضاعفت غير مرّة، وحصل على أهل دمشق الذُّلّ والهَوَانُ وطال ذلك عليهم، وكان متولّى الطلب من أهل دمشق الصفىّ السّنجارىّ، وعلاءُ الدين أستادار قَبْجَق، وآبنا الشيخ الحَرِيرىّ[1] الحنّ والبن؛ وعَمِل الشيخ كمال الدين الزّمْلِكَانِىّ[2] فى ذلك قوله :

لهفى على جِلّقٍ يا شرّ ما لَقِيَتْ * من كلّ عِلْجٍ له فى كُفْره فَنّ
بالطّمّ والرّمّ[3] جاءوا لا عَدِيدَ لهم * فالجنّ بعضهم والحنّ والبنّ

وللشيخ عز الدين عبد الغنى الجَوْزِىّ[4] فى المعنى :

بُلِينَا بقومٍ كالكلاب أخسّةٍ * علينا بغَارَاتِ المخاوف قد شنّوا
هُمُ الجنّ حقًّا ليس فى ذاك ريبةٌ * ومع ذا فقد والاهُمُ الحنّ والبنّ

ولآبن قاضى شُهْبة[5] :

رمَتْنا صروفُ الدهر حقًّا بسبعةٍ * فما أحدٌ منا من السبع سالمُ
غَلاءٌ وغازانٌ وغَزْوٌ وغارةٌ * وغَدْرٌ و إغْبانٌ وغمّ ملازمُ

وفى المعنى يقول أيضا الشيخ علاء الدين الوَدَاعىّ وأجاد :

أتى الشام مع غازان شَيْخٌ مُسَلِّكٌ * على يده تاب الوَرَى وتزهّدوا
تخلّوا عن الأموال والأهل جُملةً * فما منهمُ إلا فقيرٌ مُجَرّدُ

ودامت هذه الشدّة على أهل دمشق والحصار عمّال فى كلّ يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرْجَواش المذكور .

---

(١) الحريرىّ هو الشيخ على الحريرى الذى تقدّمت وفاته سنة ٦٤٥ هـ . وهذان هما ابنا ابنه الشيخ محمد على الحريرى . (٢) هو محمد بن على بن عبد الواحد بن عبد الكريم كمال الدين أبو المعالى الزملكانى الأنصارى الشافعى . سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٢٧ هـ . (٣) يريد بذلك كثرة العدد (٤) فى تاريخ سلاطين المماليك : «عبد الغنى الحريرى» . (٥) هو عبد الوهاب بن محمد ابن عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدى كمال الدين بن قاضى شهبة . مولده سنة ٦٥٣ هـ . وتوفى سنة ٧٢٦ هـ . (عن المنهل الصافى والدرر الكامنة) .

قلت : على أنّ أرجواش كان عنده سلامة باطن إلى الغاية . يأتى ذكر بعض أحواله فى الوفيات من سنين الملك الناصر محمد بن قلاوون . انتهى .

قال : وتمّ جبى المال، وأخذه غازان وسافر من دمشق فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى بعد أن ولّى الأمير قبجق المنصورى نيابة الشام على عادته أوّلًا، وقرّر بدمشق جماعةً أخر يطول الشرح فى ذكرهم . وأقام الأمير قطلوشاه مقدّم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخذ ما بقى من الأموال ولحصار قلعة دمشق، ودام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقيّة التتار فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى ، وخرج الأمير قبجق نائب الشام لتوديعه ، ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه ، وانقطع أمر المغل من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد وذهبت أموالهم .

قال ابن المنجّا : إنّ الذى حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثةُ آلاف ألف وستمائة ألف[(١)] سوى ما حُق[(٢)] عليهم من التراسيم والبراطيل، والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء وغير ذلك، بحيث إن الصّفىّ السّنجارىّ استخرج[(٣)] لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم، وللأمير إسماعيل مائتى ألف درهم ، وللوزير نحو أربعمائة ألف وقس على هذا . واستمرّ بدمشق ورسم أن ينادى فى دمشق : بأنّ أهل القرى والحواضر يخرجون إلى أماكنهم، رسم بذلك سلطان الشام حاجّ الحرمين سيفُ الدين قبجق، وصار قبجق يركب بالعصابة ، والشاويشية[(٤)] بين يديه، واجتمع الناس عليه . كلّ

(١) فى كتاب السلوك : «ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم» . وفى تاريخ سلاطين المماليك : «ثلاثة آلاف ألف دينار وستمائة ألف دينار» . (٢) فى تاريخ سلاطين المماليك والنهج السديد : «سوى ما لحق من التراسيم والبراطيل» . ورواية السلوك وما يفهم من عبارة عقد الجمان : «سوى السلاح والثياب والدواب والغلال وسوى مانهبته التتار» . (٣) فى عقد الجمان : «واستخرج لنفسه مائة ألف درهم» . (٤) راجع الحاشية رقم ١ ص ١١ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

ذلك والقتالُ والمباينةُ واقعــةٌ بين الأمير أُرْجَوَاش نائب قلعــة دمشق و بين قَبْجَق المذكور ونوّاب قازان ، والرســل تمشى بينهم فى الصلح ، وأُرْجَوَاش يَأْبَى تسـليم القلعة له ، فلله درّ هــذا الرجل ! ما كان أثبتَ جَنــانه مع تَغَفُّل كان فيــه حسب ما يأتى ذكره .

هــذا وقبجق غير مُسْتَبِدٍّ بأمر الشام بل غالب الأمر بهــا لنوّاب قازان مثل بُولاى وغيره . ثم سافر بُولاى من دمشق بمن كان بقى معه من التتار فى عشية يوم السبت[1] الرابع من شهر رجب ، ومعه قَبْجَق وقد أشـيع أن قَبْجَق يريد الآنفصال عن التتار . و بعد خروجهما آستبــد أُرْجَوَاش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد . وفى يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أُعيــدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وللخليفة الحاكم بأمر الله على العادة ، ففرح الناس بذلك . وكان أُسقط آسمُ الملك الناصر محمد من الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر ، فالمدة مائة يوم . ثم نَادَى أُرْجَوَاش بُكْرَةَ يوم السبت بالزينة فى البلد فزُيِّنت .

وأما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ عوده إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ثانى عشر شهر ربيع الآخر وتبعته العساكر المصرية والشاميــة متفرّقين ، وأكثرُهم عراةٌ مشاةٌ ضعفاء ، وذلك الذى أوجب تأخُّرهم عن الدخول مع السلطان إلى مصر ، وأقاموا بعد ذلك أشهرًا حتى آستقام أمرهم ، ولولا حصولُ البَرَكَة بالديار المصرية وعِظَمُها ما وَسِعتْ مثلَ هذه الخلائق والجيوش التى دخلوها فى جَفْلة التتار و بعدها[2] ، فمنّ الله تعالى بالخيل والعُدَد والرزق ، إلا أنّ جميع الأســعار غَلَت لا سيّما السِّلاح وآلات الجنديّة من القُماش والبَرَك[3] وحوائج الخيــل وغير ذلك حتى زادت

(١) فى الأصلين : « فى يوم الأربعاء خامس شهر رجب » . وتصحيحه عن عقد الجمان والنهج السديد وتاريخ سلاطين المماليك . (٢) فى الأصلين : « و بعده » . (٣) راجع الحاشية رقم ٤ ص ١١ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

عن الحدّ . ومما زاد سعرُ العمائم ، فإنّ الجند كان على رءوسهم فى المصافّ الخُوَذُ ، فلمّا آنكسروا رَمَوا الخُوَذَ تخفيفًا ووضعوا على رءوسهم المناديل، فآحتاجوا لمّا حضروا إلى مصر إلى شراء العمائم، مع أن الملك الناصر أنفق فى الجيش بعد عوده، وآستخدم جَمْعًا كثيرا من الجند خوفًا من قدوم غازان إلى الديار المصرية ، وتهيأ السلطان إلى لقاء غازان ثانيًا. وجهّز العساكر وقام بكُلَفهم أتمّ قيام على صغر سِنّه. ٥

فلمّا ورد عليه الخبر بعدم مجىء قازان إلى الديار المصرية تجهّز وخرج بعساكره وأمرائه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية إلى ملتقى غازان ثانياً ، بعد أن خَلَع على الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة الشام على عادته، وعلى الأمير قَرَاسُنْقُر المنصورىّ بنيابة حماة وحلب، وكان خروج السلطان من مصر بعساكره فى تاسع شهر رجب من سنة تسع وتسعين وستمائة، وسار حتى نزل بمنزلة الصالحية[1] بلغه ١٠ عودُ قازان بعساكره إلى بلاده، فكلّم الأمراءُ السلطان فى عدم سفره ورجوعه إلى مصر فأبى عن رجوع العسكر، وسمع لهم فى عدم سفره، وأقام بمنزلة الصالحية . وسافر الأمير سَلّار المنصورىّ نائب السلطنة بالديار المصرية ، والأمير ركن الدين بيبَرْس الجاشْنَكِير بالعساكر إلى الشام . ولما سار سلار وبيبَرْس الجاشْنَكِير إلى جهة الشام تلاقَوْا فى الطريق مع الأمير سيف الدين قَبْجَق والأمير بَكْتَمُر السلاح ١٥ دار والألْبَكِى وهم قاصدون السلطان ، فعَتَب الأمراءُ قَبْجَق ورفقته عَتْبًا هَيِّنا على عبور قازان إلى البلاد الشامية، فآعتذروا أن ذلك كان خوفا من الملك المنصور لاجين وحَنَقًا من مملوكه مَنْكُوتَمُر، وأنّهم لمّا بلغهم قتلُ الملك المنصور لاجين كانوا قد تكلّموا مع قازان فى دخول الشام، ولا بقى يُمكنهم الرجوعُ عمّا قالوه، ولا سبيل إلى الهروب من عنده ، فقَبِلوا عذرهم و بعثوهم إلى الملك الناصر، فقدِمُوا عليه ٢٠

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٥ من الجزء الخامس من هذه الطبعة .

بالصالحية وقبّلوا الأرض بين يديه، فعتَبهم أيضا على ما وقع منهم، فذكروا له العُذْر السابق ذكرُه، فقَبِله منهم وخَلَع عليهم؛ وعاد السلطان إلى القاهرة وصحبتُه خواصّه والأمير قَبْجَق ورفقته ، فطلع القلعــة فى يوم الخميس رابع عشر شـعبان . ودخل الأمراءُ إلى دمشق ومعهــم الأمير آقوش الأفرم الصغير نائب الشام وغالب أمراء دمشــق، وفى العسكر أيضا الأمير قَرَاسُنْقُر المنصورىّ متولّى نيابة حماة وحلب ، ودخل الجميع دمشق بتجمُّل زائد، ودخلوها على دَفَعات كلّ أمير بِطُلْبــه على حِدَة، وسُرّ الناس بهم غايةَ السرور، وعلموا أن فى عسكر الإسلام القوة والمَنَعَةَ ولله الحمد . وكان آخر مَنْ دخل إلى الشام الأميرَ سَـلّار نائبَ السلطنة ، وغالبُ الأمراء فى خدمته، حتى الملك العادل زَيْنِ الدين كَتْبُغَا المنصورىّ نائب صرْخد، ونزل جميع الجيش بالمَرْج وخَلَع على الأمير أَرْجَوَاش المنصــورىّ نائب قلعــة دمشق باستمراره على عادته، وشكروا له الأمراءُ مافعله من حفظ القلعة، ودخلوا الأمراء إلى دمشق وقلعةُ دمشق مُغلقة وعليها الستائر والطّوارِف[1]، فكلّموه الأمراء فى ترك ذلك .

فلمــا كان يوم السبت مستهلّ شهر رمضان أزال أَرْجواش الطوارف والستائر من على القلعة؛ فأقام العسكر بدمشق أياما حتى أصلحوا أمرها، ثم عاد الأمير سلّار إلى نحــو الديار المصرية بجميــع أمراء مصر وعساكره فى يوم السبت ثامن شهر رمضان، وتفرّق باقى الجيش كلّ واحد إلى محلّ ولايته؛ ودخل ســلّار إلى مصر بمَنْ معه فى ثالث شوّال بعد أن ٱحتَفل الناس لمــلاقاتهم، وخرج أمراء مصر إلى بلبيس[2] ، وخَلَع السلطان على جميــع مَنْ قَدِم من الأمراء رفقةَ سَــلّار، وكانت خلْعةُ سلّار أعظمَ من الجميع . ودام السلطان بقيّة سنته بالديار المصرية .

(١) أصل الطوارف من الخباء : مارفعت من نواحيه لتنظر الى خارج . وقيل هى حلق مركبة فى الرفوف وفيها حبال تشــد بها الى الأوتاد (عن اللسان) . (٢) راجع الحاشــية رقم ٢ ص ٣٤٧ من الجزء الخامس من هذه الطبعة .

فلمّا آستهلّت سنة سبعمائة كثُرت الأراجيف بالشام ومصر بحركة قازان وكان قازان قد تسمى محمودًا، وصار يقال له السلطان محمود غازان . ثم وصلتْ فى أول المحرّم من سنة سبعمائة الأخبار والقُصّاد من الشرق وأخبروا أنّ قازان قد جَمَع جموعًا كثيرة وقد نَادى فى جميع بلاده الغَزَاة إلى مصر، وأنه قاصدٌ الشام؛ فجَفَل أهلُ الشام من دمشق وتفرّقوا فى السواحل وقصدوا الحصون وتشتّتَ غالب أهل الشام إلى البلاد من الفُرات إلى غَزّة؛ فعند ذلك تجهز الملك الناصر وجهّز عساكره وتهيّأ وخرج بجميع عساكره وأمرائه من القاهرة إلى مسجد التِّبْن[1] فى يوم السبت ثالث عشر صفر، وسافر حتى قارب دمشق أقام بمنزلته[2] إلى سَلخ شهر ربيع الآخر، وتوجّه هو وعساكره عائدين إلى جهة الديار المصرية، بعد أن لاقوا شدّة ومشقّة عظيمةً من كثرة الأمطار والثلوج والأوحال وعدم المأكول، بحيث إنه آنقطعت الطريق من البرد والمطر وعدم جَلْب المأكول لهم ولدوابّهم، حتى إنهم لم يقدروا على الوصول إلى دِمَشق؛ وكان طلوع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قلعة الجبل يوم الآثنين حادى عشر جُمادَى الأولى . وقبل عَوْد السلطان إلى مصر كان جهّز السلطانُ الأميرَ بَكْتَمُر السلاح دار والأميرَ بهاء الدين يَعْقُوبا[3] إلى دمشق أمامه، فدخلوا دمشق . ثم أُشيع بدمشق عَوْدُ السلطان إلى القاهرة، فجَفَل غالب

(١) مسجد التبن : هذا المسجد هو الذى يعرف اليوم بزاوية الشيخ محمد التبرى جنوبى سراى القبة بضواحى القاهرة، بالقرب من محطة حمامات القبة . وراجع الحاشية رقم ٣ ص ١٩٦ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٢) لعله يريد بها منزلة الناصر محمد بن قلاوون التى كان ينزل بها إذا ما أراد السفر من القاهرة إلى دمشق أو أراد العودة منها وهى المسماة «بدعرش» إذ قد ورد فى تاريخ سلاطين المماليك : « ورحيله من على مسجد التبن يوم السبت ثالث عشره فوصل بالجيش إلى بدعرش وأقام عليها إلى سلخ ربيع الآخر وتوجه عائدا بالجيش إلى جهة الديار المصرية » وقد تكررت هذه العبارة فى غير موضع فى كتاب تاريخ سلاطين المماليك . (٣) فى الأصلين : « يعقوب » . وما أثبتناه عن السلوك وتاريخ سلاطين المماليك وما سيذكره المؤلف بعد ذلك فى مواضع كثيرة .

أهل دمشق منها، ونائب الشام لم يمنعهم بل يُحَسِّن لهم ذلك . وقيــل : إنّ والى دمشق بقى يُحَفِّل الناس بنفسه، وصار يمرّ بالأســواق، ويقول : فى أىّ شىء أنتم قعود ! ولمــا كان يوم السبت تاسع جُمادَى الأولى نادت المناداة بدمَشق مَنْ قعد فدمُه فى رقبته ، ومن لم يقــدر على السفر فليطْلَع إلى القلعة، فسافر فى ذلك اليوم معظمُ الناس .

وَأمّا قازان فإنه وصــل إلى حلب ووصل عساكره إلى قُرُون حماة وإلى بلاد سرْمين[1]، وســيّر معظمَ جيشه إلى بلاد أنطاكيَة وغيرها ، فنهبوا من الدوابّ والأغنام والأبقار ما جاوز حَدّ الكثرة ، وسَبَوْا عالمًــا كثيرا من الرجال والنســاء والصبيان . ثم أرسل الله تعــالى على غازان وعساكره الأمطار والثــلوج بحيث إنه أمطر عليهم واحدًا وأربعــين يومًا ، وقت مطر ووقت ثلج ، فهَلَك منهــم عالَمٌ كثير؛ ورجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبحَ من المكسورين، وقد تَلِفَتْ خيولهم وهَلَك أكثرُها، وعجّزهم الله تعــالى وخَذَلهم ، وردّهم خائبــين عما كانوا عزموا عليــه . ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ . ووصل الخــبر برجوعهم فى جُمادَى الآخرة، وقد خلت دمشق وجميعُ بلاد الشام من سُكّانها .

ثم فى شهر رجب من السنة وصل إلى القاهرة وزيرُ ملك الغرب بسبب الحج، وآجتمــع بالسلطان وبالأمير ســلار نائب السلطنــة وبالأمير ركن الدين بيبَرْس الجاشْنَكِير فقابلوه بالإكرام وأنعموا عليه وآحترموه، فلمّا كان فى بعض الأيام جلس

---

(١) سرمــين : بلدة فى جنوب حلب على مسيرة يوم منها ، واقعــة فى منتصف الطريق بين المعرّة وحلب . وهى مدينة غير مسوّرة، بها أسواق ومسجد جامع . وشرب أهلها من المــاء المجتمع فى الصهاريج من الأمطار، وهى كثيرة الخصب، وبها الكثير من شجر الزيتون والتين . وقال ياقوت : سرمين بليــدة مشهورة من أعمال حلب أهلها إسماعيليــة (عن تقويم البــلدان وصبح الأعشى ج ٤ ص ١٢٦ وقاموس البقاع والأمكنة) .

الوزير المغربيُّ المذكورُ بباب القلعة عند بيبرس الجاشْنَكير وسلّار . فحضر بعض كُتّاب النصارى ، فقام إليه المغربيّ يتوهّم أنه مسلم ثم ظهر له أنه نَصْرانيّ فقامت قيامته ، وقام من وقته ودخل إلى السلطان بحضرة الأمير سلّار و بيبرس مُدَبِّرَى مملكة الناصر محمد ، وتحدّث معهم في أمر النصارى واليهود ، وأنهم عندهم في بلادهم في غاية الذُّل والهَوان ، وأنهم لا يُمكنونهم من ركوب الخيل ، ولا من آستخدامهم في الجهات السلطانية والديوانيـة ، وأنكر على نصارى ديار مصر ويهودها كونهـم يَلْبَسُون أفخر الثياب ويركبون البغال والخيل ، وأنهم يستخدمونهم في أجلّ الجهات ويُحَكِّمونهم في رقاب المسلمين ، ثم إنه ذكر عهد ذمّتهم قد آنقضت من سنة ستّمائة من الهجرة النبويّة ، وذكر كلاماً كثيراً من هـذا النوع ، فأثّر كلامُه عنـد القلوب النَّيِّرة من أهل الدولة ، وحَصَـل له قَبُولٌ من الخاصّ والعام بسبب هذا الكلام ، وقام بنُصرته الأميرُ ركن الدين بيبرس الجَاشْنَكير وجماعةٌ كثيرة من الأمراء وافقوه على ذلك ، ورأوا أنّ في هذا الأمر مصلحةً كبيرةً لاظهار شعائر الاسلام . فلمّا كان [يوم الخميس العشرون من][(1)] شهر رجب جمعوا النصارى واليهود ورسموا لهم ألّا يُستَخدَمُوا في الجهات السلطانيّة ولا عند الأمراء ، وأن يُغَيِّروا عمائمهم فيَلْبَس النصارى عمائمَ زرقًا وزنانيرُهم مشدودةٌ في أوساطهم ، وأنّ اليهود يَلْبَسُون عمائمَ صُفْرًا ، فسَعُوا المِلّتان عنـد جميع أمراء الدولة وأعيانها ، وساعدهم أعيانُ القِبْط وبذلوا الأموال الكثيرة الخارجة عن الحدّ للسلطان والأمراء على أن يُعْفَوْا من ذلك ، فلم يَقْبَل منهم شيئًا . وشـدّد عليهم الأميرُ بيبَرْس الجَاشْنَكير الأستادار — رحمه الله — غاية التشديد ، فإنه هو الذى كان القائم في هذا الأمر ، عفا الله تعالى عنه وأسكنه الجنة بما فعله ، فإنه رفع الاسلام بهذه الفَعْلة وخَفَض أهل المِلّتَين بعد أن وُعِد بأموال جَمّة فلم يفعل .

(1) تكملة من تاريخ سلاطين المماليك .

قلت : رَحِم الله ذلك الزمانَ وأهله ما كان أعلى هممهم، وأشبع نفوسهم ! وما أحسن قول المتنبىّ :

أنى الزمان بَنُوه فى شبيبته * فسرّهم وأتيناه على الهَـرَم

ثم رسم السلطان الملك الناصر محمد بغَلْق الكنائس بمصر والقاهرة، فضُرب على كل باب منها دُفوفٌ ومساميرُ[(١)]، وأصبح يوم الثانى والعشرين[(٢)] من شهر رجب المبارك من سنة سبعمائة، وقدلبِسوا اليهود عمائمَ صُفْراً، والنصارى عمائم زُرْقاً، و إذا ركب أحد منهم بهيمة يَكُفُّ إحدى رجليه، و بُطلوا من الخِدَم السلطانية وكذلك من عند الأمراء؛ وأسلم لذلك جماعةٌ كثيرة من النصارى، منهم : أمين الملك مُسْتَوْفِى الصُّحْبة[(٣)] وغيره. ثم رسم السلطان أن يُكْتَب بذلك فى جميع بلاده من دُنْقلة[(٤)] إلى الفُرات .

فأمّا أهل الإسكندرية لمـا وصل إليهم المرسوم سارعوا إلى خَرَاب كنيستين عنـدهم ، وذكروا أنهما مستجدّتان فى عهد الإسـلام ، ثم داروا إلى دُورهم فمـا وجدوه أعْلَى على مَنْ جاوَرَها من دُور المسلمين هدموه، وكلّ مَنْ كان جاوَر مسلماً فى حانوت أنزلوا مصطبة حانوته بحيث يكون المسلم أرفع منه، وفعلوا أشـياء كثيرة

(١) فى تاريخ سلاطين المماليك : «وضرب على أبوابهم دفوف وسمروهم» .

(٢) فى الأصلين : «يوم الأثنين العشرين» . وتصحيحه عن تاريخ سلاطين المماليك .

(٣) استيفاء الصحبة هى وظيفة جليلة رفيعة القدر، وصاحبها يتحدث فى جميع المملكة مصرا وشاما، و يكتب مراسيم يعلم عليها السلطان، تارة تكون بما يعمل فى البلاد، وتارة باطلاقات، وتارة باستخدامات بار فى صغار الأعمال، وما يجرى مجراه (عن صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩) .

(٤) دنقلة، المقصود بها القرية التى تعرف اليوم فى السودان المصرى باسم دنقلة العجوز، وهى واقعة على شاطئ النيل الشرقى ، وقد كانت قديمـا قاعدة مملكة النوبة السفلى فى زمن النصرانية إلى أن استقرّ بهـا المسلمون من سنة ٦٨٦ هـ وهى الآن قرية صغيرة من قرى مديرية دنقلة .

وتوجد بلدة أخرى باسم دنقلة الجديدة تميزا لها من دنقلة العجوز، ويقال لهـا أيضا دنقلة الأوردى حيث كان بهـا فرق من الجيش المصرى، وهى واقعـة على شاطئ النيل الغربى فى شمال دنقـلة العجوز ، وعلى بعد ٨٨ ميلا منها ، و بينها و بين حلفا ٢٥٩ ميلا . وهى الآن قاعدة مديرية دنقلة إحدى مديريات السودان المصرى .

من هذا، وأقاموا شعار الإسلام كما ينبغى على العادة القديمة؛ ووقع ذلك بسائر الأقطار لا سيّما أهل دمشق، فإنهم أيضا أمعنوا فى ذلك . وعملت الشعراء فى هـذا المعنى عدّة مقاطيع شعر، وممـا قاله الشيخ شمس الدين الطيبى :

تعجّبـوا للنصارى واليهود معًا * والسامريّين لمّـا عُمّموا الخِـرَقا
كأنّمـا بات بالأصـباغ منْسَهِلًا * نَسْرُ السماء فأضحى فوقهـم ذَرَقا

وممـا قاله الشيخ علاء الدين كاتب ابن وَدَاعة المعروف بالوَداعى[(١)] فى المعنى وأجاد :

لقد الزموا الكفّار شاشاتِ ذِلّةٍ * تزيدُهُم من لعنـة الله تَشْويشا
فقلت لهم ما ألبسـوكم عمائمـا * ولكنّهم قد ألبسـوكم بَرَاطيشا

وفيها فى تاسـع ذى القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير أَنَس يُخـبِر بحركة التتار، وأنّ التتار قد أرسلوا أمامهم رُسُلا، وأنّ رسلهم قد قاربت الفُرات، ثم وصلت الرسـل المذكورة بعد ذلك بمدة إلى الديار المصرية فى ليـلة الأثنين خامس عشر ذى الحجّة، وأعيانُ القُصّاد ثلاثةُ نَفَر : قاضى[(٢)] الموصل وخطيبها كمال الدين بن بهاء[(٣)] الدين بن كمال الدين بن يونس الشافعى، وآخرُ عَجَمِىّ وآخرُ تركىّ . ولمـا كان عصرُ يوم الثـلاثاء جمعوا الأمراء والمقدّمين إلى القلعة وعُمِلت الخدمة ولَبِسوا المماليك أفخر الثياب والملابس، وبعد العِشاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحوًا من ألف شمعة، ثم أظهروا زينـةً عظيمة بالقصر، ثم أحضروا الرسل، وحضر القاضى بجملتهم وعلى رأسه طَرْحَة، فقام وخَطب خطبةً بليغةً وجيزةً وذكر آياتٍ كثيرةً فى معنى الصلح واتّفاق الكلمة ورغّب فيـه، ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمـد بن قلاوون،

---

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٥٢ من هـذا الجزء . (٢) هو موسى بن محمد بن موسى بن يونس الإربلى القاضى كمال الدين الرضى بن يونس قاضى الموصل . توفى سنة ٧١٥ هـ (عن الدرر الكامنة) .
(٣) فى الأصلين : « ضياء الدين » . وما أثبتناه عن السلوك وعقد الجمان والدرر الكامنة .

ومِنْ بعـده للسلطان محمود غازان ، ودعا للمسلمين والأمراء وأدّى الرسالة .
ومضمونها : إنّما قصدهم الصلح ودفعوا إليهم كتابا مختوما من السلطان غازان ،
فأُخِذَ منهم الكتابُ ولم يَقْرءُوه تلك الليلة ، وأُعيد الرسل إلى مكانهم . فلمّا كان
ليلة الخميس فُتِح الكتاب وقُرِئ على السلطان وهو مكتوب بالمغلى[1] وكُتِم الأمر . فلما
٥ كان يومُ الخميس ثامن عشر ذى الحجّة حضر جميعُ الأمراء والمقدّمين وأكثرُ
العسكر وأُخرِج إليهم الكتابُ وقُرِئ عليهم ، وهو مكتوب بخطّ غليظ فى نصف قطْع
البغدادىّ ، ومضمونه :

« بسم الله الرحمن الرحيم[2] ، ونُنْهِى[3] بعد السلام إليه أنّ الله عزّ وجلّ جعلَنا
و إياكم أهلَ مِلّة واحدة ، وشرفنا بدينِ الإسلام وأيّدنا ، وندَبنا لإقامة مناره وسدّدنا ؛
١٠ وكان بيننا و بينكم ما كان بقضاء الله وقدَره ، وما كان ذلك إلّا بما كسَبَت أيديكم ،
وما الله بظلّام للعبيد ! وسببُ ذلك أنّ بعض عساكركم أغاروا على مارِدِين[4] وبلادها
فى شهر رمضَان المعظّم قدْرُه ، الذى لم تزل الأمم يُعظِّمونه فى سائر الأقطار ، وفيه
تُغَلّ[5] الشياطينُ وتُغلق أبواب النيران ، فطَرَقُوا البلاد على حين غفلةٍ من أهلها ، وقتلوا
وسبوْا وفَسَقُوا وهتَكُوا محارمَ الله بسُرعةٍ من غير مُهْلة ؛ وأكلوا الحرام وآرتكبوا الآثام ،
١٥ وفعلوا ما لم تَفعله عُبّاد الأصنام ؛ فأتَونا أهلُ مارِدِين صارخين مُسارِعين ملهوفين
مستغيثين بالأطفال والحريم ، وقد آستولى عليهم الشّقاءُ بعد النعيم ؛ فلاذُوا بجنابنا[6] وتعلّقوا
بأسبابنا ، ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا ؛ فهزّتنا نَخْوةُ الكِرام ، وحرّكتْنا حمية

(١) فى الأصلين : « وهو مكتوب بالتركى » . وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك والسلوك .
(٢) لهذا الكتاب صورة أخرى متحدة فى صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٩ — ٧١ وعقد الجمان ، تختلف عما
٢٠ هنا كثيرا . (٣) فى تاريخ سلاطين المماليك وعيون التواريخ : « وننهى بعد إهداء السلام إليكم » .
(٤) راجع الحاشية رقم ١ ص ٩٧ من هذا الجزء . (٥) فى الأصلين : « تغلغل » .
وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك . (٦) كذا فى تاريخ سلاطين المماليك . وفى الأصلين :
« بجانبنا » .

الإسلام ، فركبنا على الفور بمن كان معنا ولم يَسَعنا بعد هذا المُقام، ودخلنا البلاد وقدّمنا النّية ، وعاهدنا الله تعالى على ما يُرضيه عند بلوغ الأمنية ؛ وعلمنا أنّ الله تعالى لا يَرْضَى لعباده الكفر بأن يَسْعَوا فى الأرض فسادا [والله لا يُحِبّ الفَسَاد](١) ، وأنه يَغضَب لِهَتْك الحريم وسَبْي الأولاد ؛ فما كان إلا أن لقيناكم بنيّة صادقة ، وقلوب على الحَمِيّة للدين موافقة ؛ فمزّقناكم كلَّ ممزّق ، والذى ساقَنا إليكم ، هو الذى نصرنا عليكم ؛ وما كان مَثَلكم إلا كَمَثَل قرية كانت آمنة مطمئنة الاية . فولّيتُم الأدبار ، واَعتصمتم من سيوفنا بالفِرار ، فعَفَوْنا عنكم بعد اَقتدار ، ورَفَعنا عنكم حُكْمَ السيف البتّار ، وتقدمنا إلى جيوشنا ألّا يَسْعَوْا فى الأرض كما سَعَيْتم ، وأن يَنْشُروا من العفو والعفاف ما طَوَيْتُم ، ولو قدرتُم ما عَفَوْتم ولا عففتم(٢) ، ولم نُقَلّدكم مِنّةً بذلك ، بل حُكْم الإسلام فى قتال البُغَاة كذلك ، وكان جميع ما جَرَى فى سالف القِدَم ، ومن قَبْل كونه جَرَى به فى اللّوح القلم ؛ ثم لمّا رأينا الرعيّة تضرّروا(٣) بمُقامنا فى الشام ، لمشاركتنا لهم(٤) فى الشراب والطعام ؛ وما حصل فى قلوب الرعيّة من الرُّعب ، عند معاينة جيوشنا التى هى كمُطْبِقات السُّحْب ؛ فأردنا أن نُسكّن تَخَوُّفهم بعَوْدتنا من أرضهم بالنصر والتأييد ، والعلوّ والمزيد ؛ فتركنا عندهم بعضَ جيوشنا بحيث تتونّس بهم ، وتعود فى أمرها(٥) إليهم ؛ ويحرسونهم من تَعَدّى بعضهم على بعض ، بحيث إنكم ضاقت بكم الأرض ؛ إلى أن يستقرّ جأشكم ، وتبصروا رُشْدكم ؛ وتُسيِّروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين ، وأكرادكم(٦)

---

(١) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك . (٢) فى الأصلين : «عفيتم» وهو تحريف .
(٣) فى تاريخ سلاطين المماليك «تضوّروا» . (٤) فى الأصلين : «لمشاركتهم لهم فى الشراب والطعام» . وما أثبتناه عن عيون التواريخ . وعبارة تاريخ سلاطين المماليك : «بمقامنا فى الشام لكثرة جيوشنا بمشاركتهم ... الخ» . (٥) فى الأصلين : «فى أمرها» وهو تحريف . وعبارة تاريخ سلاطين المماليك : «فتركنا عندهم من جيشنا من يتونس بهم ويعود فى أمرهم إليهم» .
(٦) كذا تاريخ سلاطين المماليك . وفى الأصلين «من أعدائكم المقدمين وأكرادهم المثيرين» وهو تحريف .

المتمرّدين ؛ وتقدّمنا إلى مُقَدَّمى طوامين[(١)] جيوشنا أنّهم متى سمعوا بقدوم أحدٍ منكم[(٢)] إلى الشام، أن يعودوا إلينا بسلام؛ فعادوا إلينا بالنصر المبين، والحمد لله رب العالمين .

والان فإنّا و إيّاكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين ، وما بيننا ما يُفَرِّق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل مارِدِين ؛ وقد أخذنا منكم القِصَاص، وهو جزاءُ كلّ عاص ؛ فنرجع الآن فى إصلاح الرعايا ، ونجتهد نحنُ و إيّاكم على العدل فى سائر القضايا فقد آنضرّت بيننا و بينكم حال البلاد وسكانها ، ومنعها[(٣)] الخوف من القَرَار فى أوطانها؛ وتعذّر سفرُ التجار، وتوقّف حال المعايش لأنقطاع البضائع والأسفار؛ ونحن نعلم أنّنا نُسأل عن ذلك ونُحاسَب عليه ، وأنّ الله عزّ وجلّ لا يَخْفَى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وأنّ جميع ما كان وما يكون فى كتاب لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا . وأنت تعلم أيّها الملك الجليل، أنّى وأنت مُطالَبون بالحقير والجليل؛ وأننا مسئولون عمّا جناه، أقل مَن ولّيناه، وأنّ مصيرنا إلى الله؛ وأنّا معتقدون الإسلام قولًا وعملًا [ونيّة ، عاملون بفُرُوضه فى كلّ وصيّة[(٤)]] . وقد حمّلنا قاضى القضاة علامة الوقت حجّة الإسلام بقيّة السلف كمال[(٥)] الدين موسى بن محمد أبا عبد الله، أعزّه الله تعالى، مشافهةً يُعيدها على سَمْع الملك والعمدة عليها، فإذا عاد من الملك[(٦)] الجواب فليسيّر لنا هديّة الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أنْ قد حصل

(١) طوامين ، جمع طومان ، وهو مقدم عشرة آلاف جندى، عن القاموس الفارسى الانكليزى لجامعه استينجاس . (٢) فى الأصلين : «منهم» . وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك .

(٣) فى الأصلين : «ومنع الخوف» . وما أثبتناه عن عيون التواريخ . (٤) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك . (٥) فى الأصلين هنا أيضا : «ضياء الدين محمدا أبا عبد الله» . وتصحيحه عما تقدم ذكره فى الحاشية رقم ٣ ص ١٣٥ من هذا الجزء. (٦) كذا فى تاريخ سلاطين المماليك . وفى الأصلين : «فاذا عاد بالجواب» .

منكم فى إجابتنا للصلح صدق النيّة ؛ ونُهدى إليكم من بلادنا ما يليق أنْ نُهديه إليكم ، والسلام الطّيب منا عليكم . إن شاء الله تعالى » .

فلمّا سمع الملك الناصر الكتاب آستشار الأمراءَ فى ذلك ، وبعد أيام طلبوا قاضى المَوْصِل (أعنى الرسول) المقدّم ذكره من عند قازان ، وقالوا له : أنت من أكابر العلماء وخِيار المسلمين ، وتعلم مايجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدِّين ؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدِّين ؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حِيلةً ودهاء فنحن نَحلِف لك أنّ ما يطّلع على هذا القول أحدٌ من خَلْق الله تعالى ، ورغّبوه غاية الرغبة ؛ فحلَف لهم بما يعتقده أنّه ما يعلم من قازان وخواصّه غيرَ الصلح وحَقْن الدماء ورواج التجّار ومجيئهم و إصلاح الرعية . ثم إنّه قال لهم : والمصلحة أنّكم تتفقون وتَبْقَوْن على ما أنتم عليه من الآهتمام بعدوّكم ، وأنتم فلكم عادة فى كلّ سنة تَخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حِفْظها فتخرجون على عادتكم ؛ فإنْ كان هذا الأمر خديعةً فيظهر لكم فتكونون مستيقظين ؛ و إن كان الأمر صحيحا فتكونون قريبين منهم[1] فينتظم الصلح وتُحقن الدماءُ فيما بينكم . فلمّا سمعوا كلامه رأَوْه ما فيه غرض وهو مصلحة ، فشرعوا لعيّنوا مَن يروح فى الرسالة ، فعيّنوا جماعةً ، منهم الأمير شمس الدين [محمد][2] بن التِّيتى ، والخطيب شمس الدين الجَوْزى[3] خطيب جامع آبن طولون ، فتشفّع آبن الجوزى[4] حتى تركوه ، وعيّنوا القاضى عماد الدين[5] بن السُّكّرى

(١) فى الأصلين : « منه » . وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك . (٢) تكملة عن السلوك . (٣) فى أحد الأصلين : «شمس الدين بن الجزرى» . (٤) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٠٦ من هذا الجزء . (٥) هو عماد الدين على بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد العلى المعروف بابن السكرى . كان خطيب جامع الحاكم ومدرس مشهد الحسين . توفى سنة ٧١٣ هـ . (عن الدرر الكامنة وشذرات الذهب) .

خطيب جامع الحاكم[١]، وهو ناظر دار العدل[٢] بالديار المصرية، وشخصا أمير آخور من البرجيّة . ثم إنّ السلطان أخذ فى تجهيز أمرهم إلى ما يأتى ذكره .

ثم آستقرّ السلطان فى سنة إحدى وسبعمائة بالأمير عزّ الدين أيبك البغدادىّ المنصورىّ، أحد الأمراء البرجية فى الوزاره عوضًا عن شمس الدين سُنقر الأعسر، وجلس فى قلعة الجبل بخلعة الوزارة، وطلع إليه جميع أرباب الدولة وأعيان الناس .

(١) جامع الحاكم، يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على هذا الجامع (ص ٢٧٧ ج ٢) : أن الذى أسسه هو الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز الفاطمى فى سنة ٣٨٠ هـ وفى شهر رمضان سنة ٣٨١ هـ صلى به الجمعة قبل أن يكمل بناؤه . ولما خلفه ولده الخليفة الحاكم بأمر الله أمر فى سنة ٣٩٣ هـ بإتمام بنائه . وفى سنة ٤٠٣ هـ كمل بناء الجامع وفرش وأقيمت به صلاة الجمعة يوم ٥ رمضان من السنة المذكورة . وهو مبنى بالآجر ماعدا منارتيه والباب العام فهى من الحجر المنحوت . وقد أبطل السلطان صلاح الدين خطبة الجمعة من الجامع الأزهر وأقرها بهذا الجامع فتعطلت إقامة الشعائر بالأزهر بسبب ذلك نحو مائة سنة . وفى سنة ٧٠٢ هـ وقع زلزال فتهدمت العقود والأكتاف الحاملة لسقف الجامع وسقط السقف كما سقطت قمتا المئذنتين . وفى سنة ٧٠٣ هـ أصلح ماسقط وأثبت تاريخ هذا الإصلاح على لوح مثبت بأعلى الباب العام، وكان ذلك فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم أصلح مرة ثانية فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وحصلت به تجديدات أخرى أهمها الاصلاحات التى قام بها السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى سنة ١٢٢٣ هـ .

أقول : إن الباب العام الكبير لهذا الجامع يقع داخل عطفة الجامع من شارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقا) ، و إن أمير الجيوش بدرا الجمالى لما أنشأ سور القاهرة البحرى فى سنة ٤٨٠ هـ جعله ملاصقا للحائط البحرى للجامع فى المسافة بين باب الفتوح وباب النصر، وبذلك أصبح جامع الحاكم داخل سور القاهرة بعد أن كان خارجا عن السور القديم .

وبسبب سعة هـذا الجامع الذى يبلغ مسطحه ١٤٠٠٠ متر مربع تعذر الصرف عليه فتخرب ولم يبق منه إلا بوابته ومنارتاه وبعض عقود بالإيوان الشرقى و بقايا عقود بإيواناته الأخرى . ولأنه معطل قد جعلته وزارة الأوقاف مخزنا عاما لحفظ أدوات المساجد والعمارات ، وبنى فى صحنه أول متحف للآثار العربية فى سنة ١٣٠١ هـ = سنة ١٨٨٣ م إلى أن أنشئت دارها الحالية بميدان باب الخلق فنقلت إليها الآثار وحلت مدرسة السلاح دار الابتدائية فى مكان المتحف القديم .

ومما يلفت النظر فى هـذا الجامع الزخارف المنقوشة على جانبى الباب العام ومنارتاه العاليتان ذواتا الشكل الهرمى الناقص والقسم المستدير الذى بداخلهما الحافل بالزخارف والكتابات الكوفية، ثم الشبابيك الجصية بالايوان الشرقى المشتملة على آيات قرآنية بالخط الكوفى فى دائرها .

(٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٣٦ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

وأيبك هذا هو الرابع من الوزراء الأمراء الأتراك بالديار المصرية، الذين كان تُضرب على أبوابهم الطبلخاناه على قاعدة الوزراء بالعراق زمن الخلفاء؛ فأولهم الأمير علم الدين سَنْجر الشُّجاعيّ المنصوريّ. ثم ولي بعده الأمير بدر الدين بَيْدرا، ولمّا ولي بيدرا نيابة السلطنة أُعيد الشجاعيّ، وبعده آبن السَّلْعُوس وليس هما من العدد، ثم الخليليّ وليس هو من العدد. ثم بعد الخليلي، ولي الأمير سُنْقر الأعسر الوزر، وهو الثالث. ثم بعده أيبك هذا وهو الرابع. وكان الوزير يوم ذاك في رتبة النيابة بالديار المصرية، ونيابة السلطنة كانت يوم ذاك دون السلطنة. انتهى.

وفي يوم الأحد تاسع عشر المحرّم من سنة إحدى وسبعمائة، رسم السلطان لجميع الأمراء والمقدّمين بمصر والقاهرة أن يخرجوا صُحبة السلطان إلى الصيد نحو العبّاسة[1]، وأن يستصحبوا معهم عليق عشرة أيام، وسافر السلطان بأكثر العسكر والجميع بعُدّتهم في بُكْرة يوم الآثنين في العشرين من المحرّم. ونزل إلى بركة الحجّاج[2] وتبعه جميع الأمراء

(١) يستفاد مما ورد عن هذه القرية في معجم البلدان لياقوت وفي الخطط المقريزية (ص ٢٣٢ ج ١) أنه لما خطبت قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون إلى الخليفة المعتضد بالله أحمد آبن الموفق طلحة العباسي خرجت العباسة بنت أحمد بن طولون مع قطر الندى بنت أخيها لوداعها عند سفرها من مصر إلى بغداد في أواخر سنة ٢٨١ هـ وقد أقيم في المكان الذي وقع فيه الوداع فساطيط (خيام) نزلت بها العباسة ومن معها. وهذا المكان كان في ذاك الوقت في نهاية الأراضي الزراعية بأرض مصر من الجهة الشرقية، وفي أوّل حدود الصحراء الفاصلة بين مصر والشام، فلما نزلت هناك العباسة أعجبها موقع هذا المكان وأمرت ببناء قرية فيه فبنيت في سنة ٢٨٢ هـ وسميت العباسة نسبة إليها. وكانت العباسة في ذلك الوقت أوّل قرية يلقاها القادم من الشام إلى مصر بوادي السدير الذي يعرف اليوم بوادي الطميلات نسبة إلى جماعة من العرب يعرفون بالطميلات.

والعباسة هذه لا تزال موجودة إلى اليوم وهي إحدى قرى مركز الزقازيق بمديرية الشرقية، وعندها يتفرع طريق الإسماعيلية العسكري إلى طريقين: إحدهما يتجه إلى الاسكندرية عن طريق الزقازيق وطنطا وكفر الزيات، والثاني يتجه إلى القاهرة عن طريق بلبيس، ثم يسير بجوار الترعة الإسماعيلية إلى أبي زعبل وسرياقوس، وعند مسطرد ينعطف الطريق إلى الشرق فيمر على المطرية وينتهي عند مصر الجديدة.

(٢) في الأصلين هنا: «بركة الحاج». وراجع الحاشية رقم ١ ص ٨١ من الجزء الخامس من هذه الطبعة.

والمقدّمين والعساكر، وبعد سفره سيّروا طلبوا القضاة الأربعة فتوجّهوا إليه، واجتمعوا بالسلطان فى بركة الحجاج وعادوا إلى القاهرة، ثم شَرعوا فى تجهيز رُسل قازان، وتقدّم دِهليز السلطان إلى الصالحية، ودخَل السلطان والأمراء إلى البريّة[2] بسبب الصيد. فلمّا كان يوم الاثنين عشيّة النهار وصل السلطان والأمراء إلى الصالحية[1]، فخلَع على جميع الأمراء والمقدّمين، وكان عدّة ما خُلِع أربعمائة وعشرين خِلعة، وكان الرسل قد سفّروهم من القاهرة وأنزلوهم بالصالحية، حتى إنهم يجتمعون بالسلطان عند حضوره من الصيد. فلما حضر الأمراء قدّام السلطان بالخلع السنيه وتلك الهيئة الجميلة الحسنة أذْهل عقولَ الرسل ممـا رأوْا من حسن زِىّ عسكر الديار المصرية بخلاف زِىّ التتار، وأحضروا الرسلَ فى الليل إلى الدهليز إلى بين يدَى السلطان، وقد أوقدوا شموعا كثيرة ومشاعلَ عديدة وفوانيسَ وأشياء كثيرة من ذلك تتجاوز عن الحد بحيث إنّ البريّة بقيت حمراء تتلهّب نورا ونارا، فتحدّثوا معهم ساعة، ثم أعطَوْهم جواب الكتاب، وخلعوا عليهم خِلَع السفر وأعطَوْا لكلّ واحد من الرسل عشرة آلاف درهم وقماشا وغير ذلك. ونسخة الكتاب المسيّر إليهم صورته:

« بسم الله الرحمن الرحيم: عَلِمنا[3] ما أشار الملك إليه، وعوّل فى قوله [وفعـله][4] عليـه؛ فأمّا قول الملك: قـد جمعتنا وإياكم كلمةُ الإسلام! وإنه لم يَطْرُق بلادنا ولا قصدها إلا لِمـا سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول [بل] هو عندنا

---

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٥ من الجزء الخامس من هـذه الطبعة. (٢) البرية، المقصود بها هنا أرض الصحراء الشرقية وما يجاورها من البرك فى المنطقة المتاخمة لبـلاد مركزى الزقازيق وفاقوس بمديرية الشرقية بمصر، حيث توجد مناطق صيد الوحوش والحيوانات البرية والطيور.

(٣) وردت صـيغة جواب الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قازان فى عقـد الجمان فى حوادث سـنة ٧٠١ هـ وفى صبح الأعشى (ج ٧ ص ٢٢٠ — ٢٤٣) وهو فيهما بأسـلوب واحد ويخالف ما فى الأصلين وتاريخ سلاطين المماليك كل المخالفة. (٤) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك.

معلوم ؛ و إنّ السبب فى ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين ، وإنهم قتّلوا وسبوا وهتكوا الحريم وفعلوا فِعل من لاله دين ؛ فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت فى بلادكم، مستمرّةً من عَهْد آبائكم وأجدادكم ؛ وأنّ مَنْ فعلَ ما فُعِل من الفساد(١)، لم يكن برأينا ولاً من أمرائنا ولا الأجناد؛ بل من الأطراف الطامعة ممّن لا يُؤْبَه إليه ، ولا يُعوّل فى فِعْل ولا قَوْل عليــه ؛ وأنّ(٢) معظم جيشنا كان فى تلك الغــارة إذا لم يجدُوا ما يشترُونه للقوت صاموا لئلّا يأكلوا ما فيه شُبْهة أو حرام، وأنهم أكثر ليلهم سجّدٌ ونهارهم صيام .

وأمّا قَوْل الملك آبن الملك(٣) الذى هو من أعظم القان فيقول قولاً يقع عليه الردّ من قريب، ويزعمُ أنّ جميع ماهو عليه من عِلْمنا ساعةً واحدة يَغيب ؛ ولو يعلَم أنّه لو تقلّب فى مضجَعه من جانِب إلى جانِب ، أو خرج من منزله راجِلا أو راكِبا ؛ كان عندنا عِلْمٌ من ذلك فى الوقت القريب ؛[ويتحقق أنّ أقرب بطائنه إليه ، هو العين لنا عليــه ، وإنْ كثُر ذلك لديه(٤)] . ونحن تحققنــا أنّ الملك بقِي عامين(٤) يجمع الجموع ،ويتنصر بالتابع والمتبوع ؛ وحشَد وجمَع من كلّ بلد وآعتضَد بالنصارى والكُرْج والأرمن ، وآستنجد بكلّ مَن ركِب فرسا من فصيح وألكَنْ ؛ وطلب من المسوّمات خيولا وركاب ، وكثر سوادا وعدّد أطلاب ؛ ثم إنّه لمــّا رأى أنه ليس له بجيشنــا قِبَل فى المجال، عاد إلى قول الزُّور والمحال ، والخديعــة والآحتيال؛ وتظاهر بدين الإسلام، وآشتهر به فى الخاص والعام؛ والباطنُ بخلاف ذلك ، حتّى ظنّ جيوشُنا

(١) كذا فى تاريخ سلاطين المماليك . وفى الأصلين : « وأن من فعــل مافعل من العساكر » وهو تحريف .
(٢) فى الأصلين : «ولقد بلغ أن معظم جيشنا الخ» . وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك .
(٣) كذا فى تاريخ سلاطين المماليك . وفى الأصلين : « وأما قول الملك أنا الملك الذى هو من أعظم القان يقول قولا ... الخ» .
(٤) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك .

وأبطالُنا أنّ الأمر كذلك؛ فلمّـا [ٱلتقينا معه][1] كان معظم جيشنا يمتنِـع من قتاله، ويبعد عن نِزاله؛ ويقول : لا يجوز لنا قتال المسلمين، ولا يَحِلّ قتل من يتظاهر بهذا الدين! ؛ فلهذا حصَل منهم الفَشَل، وبتأخّرهم عن قتالكم حصَل ما حصَل؛ وأنت تعلَمُ أنّ الدائرة كانت عليك. وليس يُرى من أصحابك الّا من هو نادمٌ أو باكٍ،[2] أو فاقدٌ عزيزٍ عنده أو شاكٍ؛ والحرب سِجال يوم لك، ويوم عليك؛ وليس ذلك ممّـا تُعاب به الجيوش ولا تُقهَر، وهذا بقضاء الله وقَدَره المقدّر .

وأمّا قول الملك إنّه لمـا ٱلتقى بجيشنا مزّقهم كلّ مُمزّق، فمثلُ هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلّمَ به، وهو يعلَم وإنْ كان ما رأى بل يسأل كبراء دولتـه وأمراء عساكره عن وقائع جيوشـنا ومراتع سـيوفنا من رقاب آبائه وأجداده، وهى إلى الآن تقطُر من دمائهم؛ وإن كنتَ نُصِرتَ مرّة فقد كُسِرتْ آباؤك مِرار، وإنْ كان جيشك قد داس أرضنا مرةً فبلادكم لغارتنا مُقام ولجيوشنا قرار؛ وكما تَدِين تُدان .

وأمّا قول الملك : إنّه ومن معه ٱعتقدوا الإسلام قَوْلا وفِعلا وعملا ونِيّة،[3] فهذا الذى فعلته ما فَعَله من هو متوجِّه الى هـذه البَنِيّة، أعنى الكعبـة المضّية فإنّ الذى جرى بظاهر دِمَشق وجبل الصالحية ليس بخفيٍّ عنك ولا مكتوم،[4] وليس هذا هو فعل المسلمين، ولا مَن هو متمسّك بهذا الدين؛ فأين وكيف وما الحُجّـة ! وحَرَمُ البيت المقدس تُشرب فيه الخمور، وتُهتك الستور، وتُفتضّ البكور؛ ويُقتل فيه المجاورون،

---

(١) التكلمة عن تاريخ سلاطين المماليك . (٢) فى الأصلين : «ورأيت كيف كانت ليس إلا نادما .. الخ» وهو تحريف» . وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك . (٣) لم ترد هذه الكلمة فى تاريخ سلاطين المماليك» . (٤) عبارة الأصلين : «وليس يخفى عنه ولا مكتوم» . وفى تاريخ سلاطين المماليك : « ليس يخاف عنَ الملك ولا مكتوم » .

ويُستأسر خطباؤه [والمؤذّنون][1]؛ ثم على رأس خليل الرحمن، تُعلّق الصُّلبان، وتُهتك النسوان، ويدخُل فيه الكافر سكران؛ فإن كان هذا عن علمك ورضاك، فواخيبتَك في دنياك وأُخراك، ويا ويلك في مبدئك ومَعادك، وعن قليل يُؤذن بخراب عمرك وبلادك، وهلاك جيشك وأجنادك؛ وإن كنتَ لم تعلم بذلك فقد أعلمناك، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك؛ وإن كنتَ كما زعمتَ أنك على دين الإسلام، وأنتَ في قولك صادقُ في الكلام، وفي عِقْدك صحيح النظام؛ فاقتُل الطَّوَامين الذين فعلوا هذه الفعال، وأوقع بهم أعظم النَّكَال؛ لنعلم أنك على بيضاء المحجّة، وكان فعلك وقولك أبلغَ حجّة؛ ولمّا وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة وتحقّقوا أنكم تظاهرتم بكلمة الإخلاص وخَدَعتم باليمين والإيمان، وانتصرتم على قتالهم بعبَدَة الصُّلبان؛ اجتمعوا وتأهّبوا وخرجوا بعَزَمات محمّديّة، وقلوب بدريّة، وهمم عليّة، عند الله مرضيّة؛ وحدّوا السير في البلاد، ليَتَشفَّوْا منكم غليل الصدور والأكباد؛ فما وَسِع جيشكم إلا الفِرار، وما كان لهم على اللقاء صبر ولا قرار؛ فاندفعتْ عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزخّار إلى الشام، يقصدون دخول بلادكم ليظفَروا بنَيْل المرام؛ فخشينا على رعيتكم تهلك، وأنتم تهربون ولا تجدون إلى النجاة مَسلك؛ فأمرناهم بالمُقام، ولزوم الأُهبة والاهتمام؛ ليقضى الله أمرًا كان مفعولا.

وأمّا ما تحمّله قاضي القضاة من المشافهة، فإنّا سمعناه ووعيناه وتحقّقنا تضمّنته مشافهة؛ ونحن نعلم علمه ونُسُكه ودينَه وفضله المشهور، وزُهده في دار الغرور؛ ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم، لم يطّلع على بواطن قضاياكم وأموركم، ولا يكاد يظهَر له خفيّ مستوركم؛ فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح، وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح؛ وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، وليس

(١) تكملة عن تاريخ سلاطين المماليك .

فى قولك مَيْن ولا يشوبه تميق؛ فنحن نقلّدك [سيف][1] البغى، ومن سَلّ سيف البغى قُتِل به، ولا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله؛ فيُرسَل إلينا من خواص دولتك رجلٌ يكون منكم ممّن إذا قطع بأمرٍ وقفتُم عنده، أو فصل حكما ٱنتهيتم إليه، أو جزَم أمرا عوّلتم عليه؛ يكون له فى أوّل دولتكم حُكمٌ وتمكين، وهو فيما يُعوّل عليه ثقةٌ أمين؛ لنتكلّم معه فيما فيه الصلاح لذات البَيْن، و إن لم يكن كذلك عاد بخُفّى حُنَين .

وأمّا ما طلّبه الملك من الهديّة من الديار المصريّة فليس نبخل عليـه، ومقداره عندنا أجلّ مقدار وجميع ما يُهدَى إليه دون قدره، و إنّمـا الواجب أن يُهدِى أوّلا مَن آستهدَى؛ لُتقابَل هديتُه بأضعافها، و تتحقّق صـدق نيّته، و إخلاص سريرته؛ ونفعلَ ما يكون فيه رضا الله عزّ وجلّ ورضا رسوله فى الدنيا والآخرة. لعلّ صَفْقَتَنا رابحة فى معادنا غير خاسرة . والله تعالى الموفّق للصواب » . انتهى .

ثم سافر القصّاد المذكورون، وعاد السلطان من الصّيد فى ثالث صفر إلى بركة الحجّاج وآلتقى أميرَ الحاج وهو الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الجُوكَنْدار أمير جاندار، وصحبته رَكْب الحاجّ والمحمل السلطانىّ، فنزَل عنده السلطان وخلَع عليـه؛ ثم ركب وتوجّه حتى صـعِد قلعة الجبل عصر النهار، ودخل عَقِيبَ دخوله المحملُ والحجاج، وشكر الحاجّ من حسن سـيرة بَكْتَمُر المذكور مع سرعة مجيئه بخلاف العادة؛ فإن العادة كانت يوم ذاك دخول المحمل فى سابع صفر، وقبل ذلك و بعد ذلك . وعمل بَكْتَمُر فى هذه السَّفْرة من الخيرات والبرّ والخِلَع على أمراء الحجاز وغيرهم شيئا كثيرا؛ قيل : إنّ جملة ما أنفقه فى هذه السفرة خمسةٌ وثمـانون ألف دينار مصرية، تقبل الله تعـالى منه . ثمّ فى صفر هذا وصـلَ الخبر إلى السلطان بأنّ قازان على عَزْم الركوب وقَصْد الشـام، وأنّ مقدّم عسـاكره الأمير بُولَاى قـد قارب

(١) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك .

الفُرات ، وأنّ الذى أرسله من الرسل خديعة . فعند ذلك شرَع السلطان فى تجهيز العساكر ، وتهيّأ للخروج إلى البلاد الشامية ، ثم فى أثناء ذلك ورَد على السلطان قاصدُ الأمير كَتْبُغا المنصورىّ نائب صَرْخَد ، وكَتْبُغا هـذا هو الملك العادل المخلوع بالملك المنصور لاچين المقدّم ذكرهما ، وأخبر أنه وقَع بين حَماة وحِمْص وحصن الأكراد بَرَدٌ وفيه شىء على صـورة بنى آدم من الذكور والإناث ، وصُوَر قرود وغير ذلك ، فتعجب السلطان وغيره من ذلك . ثمّ فى ليلة الجمعة ثامن عشر جُمادى الأولى فى وقت السحر تُوُفّى الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن علىّ[1] الهاشمىّ العباسىّ بمسكنه بالكَبْش[2] ظاهر القاهرة ومصر المُطلّ على بِركة الفيل[3] ، وخُطِب له فى ذلك اليوم بجوامـع القاهرة ومصر ، فإنهم أخفَوْا موته إلى بعد صلاة الجمعـة ، فلمّـا انقضت الصلاة سُيِّر الأمير سـلّار نائب السلطنة خَلْف جماعة الصوفيـة ومشايخ الزوايا[4] والرُّبُط[5] والقضـاة والعلمـاء والأعيـان من الأمراء وغيرهم للصلاة عليـه ، وتولّى غُسله وتكفينه الشـيخ كَرِيم[6] الدين شـيخ الشيوخ بخانقاه

(١) فى الأصلين : « أحمـد بن محمد » . وتصحيحه عما تقدم ذكره للمؤلف (ج ٧ ص ١١٨) والدرر الكامنة . (٢) راجع الحاشـية رقم ٢ ص ٧٢ من الجزء السابع من هـذه الطبعة . (٣) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٣٦٥ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٤) الزوايا مفردها زاوية ، وكان هـذا الاسم يطلق قديما على كل مسجد صغير ، فيه أحد الرجال المشهورين بالتقوى والصلاح ، يقوم بوظيفة الوعظ والإرشاد لمن يتردّد على زاويته من الناس . وأما الآن فيطلق اسم زاوية على كل مسجد صغير ليس له مئذنة وليس فيه منبر يخطب عليه فى صلاة الجمعة . وكل مسجد فيه منبر يسمى جامعا حيث يجتمع الناس فيه ويخطب على منبره فى صلاة الجمعة . (٥) الربط مفردها رباط ، وقد شرح المقريزى فى خططه (ص ٤٢٧ ج ٢) معنى كلمة رباط فى جميع أوضاعها ، والذى يقصده المؤلف منها هى الربط أى الدور التى يسكنها جماعة من الصوفية أهل طريق الله الزاهدين فى الدنيا والمقيمين فى الربط على طاعة الله ، يدفعون بدعائهم البلاء عن البلاد والعباد . (٦) هو عبد الكريم بن الحسين بن عبد الله الآملى الطبرى كريم الدين أبو القاسم شيخ الخانقاه السعيدية بالقاهرة . توفى سنة ٧١٠ هـ (عن المنهل الصافى والدرر الكامنة) .

سعيد السعداء[1]، ورئيس المغسّلين بين يديه، وهو عمر بن عبد العزيز الطوخىّ، وحُمِل من الكبش إلى جامع أحمد بن طولون، ونزّل نائب السلطنة الأمير سلّار، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشْنَكِير الأستادار، وجميع الأمراء من القلعة إلى الكَبْش، وحضروا تغسيله ومشَــوْا أمام جنازته إلى الجامع المذكور، وتقدّم للصلاة عليــه الشيخ كريم الدين المذكور، وحُمِل إلى تربتــه[2] بجوار السيدة نفيسة ودُفِن بها، بعد أن أوصَى بولاية العهد إلى ولده أبى الربيع سليمان، وتقديرُ عمره فوق العشرين سنة . وكان السلطان طلَبه فى أوّل نهار الجمعة قبل الإشاعة بموت والده، وأشهد عليه أنه ولّى الملك الناصر محمد بن قلاوون جميعَ ما ولّاه والده وفوّضه إليه، ثم عاد إلى الكَبش . فلمّا فرغَت الصلاةُ على الخليفة رُدّ ولدُه المذكور وأولاد أخيه من جامع ٱبن طُولُون إلى دورهم، ونزّل من القلعة خمسة خدّام من خدّام السلطان، وقعدوا على باب الكَبْش صفة الترسيم عليهم، وسيّر السلطان يستشير قاضى القضــاة تقىّ الدين ٱبنَ دقيق العيد الشافعىّ فى أمر سليمان المذكور، هل يصلُح للخلافة أم لا؟ فقال : نعم يصلُح وأثنى

(١) خانقاه سعيد السعداء، علاوة على ما سبق ذكره فى التعليق عليها (ج ٤ الحاشية رقم ٤ ص ٥٠ من هذه الطبعة) أذكر أن هذه الخانقاه ويقال لها الخانكاه : معناها هنا الدار التى يختلى فيها الصــوفية لعبادة الله تعالى . وذكر المقريزى فى خططه (ص ٤١٥ ج ٢) : أن هذه الخانقاه كانت فى أوّل عهدها دارا تعرف بدار سعيد السعداء، وهو الأستاذ قنبر ويقال له عنبر، وذكر ابن ميسر أن اسمه بيان ولقبه سعيد السعداء أحد الأستاذين المحنكين خدّام القصر وعتيق الخليفة المستنصر الفاطمى، قتل يوم ٧ شعبان سنة ٥٤٤ هـ، ثم سكنها من بعده الوزير العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، ثم ســكنها بعده الوزير شاور بن مجير السعدى، ثم ابنه الكامل . ولما ٱستقل الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بملك مصر عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الخارجة عن مصر ووقفها عليهم فى سنة ٥٦٩ هـ، وقد عمل فى هذه الدار بعد ذلك تغييرات فى مبانيها فصارت بشكلها الحالى مسجدا يعرف الآن بجامع سعيد السعداء بشارع الجمالية بالقاهرة . (٢) تربة الخليفة الحاكم، هذه التربة لا تزال موجودة إلى اليوم داخل قبة أثرية يرجح أنها أنشئت فى عصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، لأنه هو الذى مهد الإقامة فى مصر للخلفاء العباسيين، ثم دفن أحد أولاده بها، وهذه القبة تشبه فى عمارتها قبة الملكة شجرة الدر القريبة العهد منها . وتعرف بقبة أو تربة الخلفاء العباسيين الذين ٱستوطنوا مصر فى عهد الملك الظاهر بيبرس إلى الفتح العثمانى، وهذه القبة مجاورة لمقام السيدة نفيسة رضى الله عنها خارج جامعها من الجهة الشرقية .

عليه ، وبَقِي الأمر موقوفًا إلى يوم الخميس رابع عشرين جُمادى الأولى المذكور . فلمّا كان بُكْرة النهار المذكور طلَب سليمان إلى القلعة فطلَع هو وأولاد أخيه بسبب المُبَايعة فأمضى السلطانُ ماعَهِد اليه والدُه المذكور بعد فُصولٍ وأمور يطُول شرحها بينه و بين أولاد أخيــه ، وجلَس السلطان وخلَع على أبى الربيع ســليمان هذا خِلعة الخلافة ، ونُعِت بالمستكفى ، وهى جُبّة ســوداء وطرحة سوداء ، وخلَع على أولاد أخيــه خِلَع الأمراء الأكابر خِلعـا ملوّنة . و بعد ذلك بايعــه السلطان والأمراء والقضــاة والمقدّمون وأعيانـــ الدولة ، ومدّوا السِّماط على العــادة ؛ ثم رسَم له السلطان بنزوله إلى الكَبْش وأَجْرَى راتبَــه الذى كان مقررا لوالده وزيادة ، ونزلوا إلى الكَبش وأقاموا به إلى يوم الخميس مُسْتهل جمادى الآخرة حضَر من عند السلطان المَهْمنْدار[1] ومعــه جماعة وصحبتَهم جِمالٌ كثيرة ، فنَقَلُوا الخليفة وأولاد أخيه ونساءهم وجميعَ من يَلُوذ بهم إلى قلعة الجبل ، وأنزلوهم بالقلعة فى دَارَيْن : الواحدة تســمّى بالصالحية ، والأخرى بالظاهريّة ، وأجْرَوا عليهم الرواتب المقرّرة لهم ، وكان فى يوم الجمعة ثانى يوم المُبَايعة خُطِب بمصر والقاهرة للمستكفى هذا ، ورُسِم بضرب ٱسمه على سكّة الدينار والدرهم . انتهى .

وكان الســلطان قبل ذلك أمَر بخروج تجريدة إلى الوجه القبلى لكثرة فســاد العُرْبان وتعدّى شرّهم فى قطْع الطريق إلى أن فَرضُــوا على التجّار وأرباب المعايش بأُسْيُوط[2] ومَنفلوط[3] فرائض جبَوْها شِــبه الجالِيَة[4] ، وٱستخَفُّوا بالوُلَاة ومنَعوا الخراجَ

(١) المهمندار ، هو الذى يتصدى لتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان و ينزلهم دار الضيافة ، و يتحدث فى القيام بأمرهم . وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما مهمن (بفتح الميم الأولى) ومعناه الضيف . والثانى ممسك و يكون معناه ممسك الضيف ، والمراد المتصدى لأمره (عن صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥٩) .

(٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ٣١٣ من الجزء الخامس من هذه الطبعة . (٣) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٩٣ من هذا الجزء . (٤) الجالية مفرد الجوالى ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة (صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ونهاية الأرب ج ٨ ص ٢٣٦) .

وتسمّوا بأسماء الأمراء، وجعلوا لهم كَبيرَيْن: أحدهما سمّوه سلّار، والآخر بيبرس، ولبسوا الأسلحة وأخرَجُوا أهل السجون بأيديهم؛ فأحضر السلطان الأمراءَ والقضاة [والفقهاء][1] واستفتَوْهم فى قتالهم، فأفتَوْهم بجواز ذلك؛ فاتّفق الأمراء على الخروج لقتالهم، وأُخِذَت الطُّـرقُ عليهم لئلا يمتنعُوا بالجبال والمنافذ، فيفوت الغَرَض فيهم، ٥ واستدعَوُا الأميرَ ناصر الدين محمد بن الشيخى متولّى الجيزة وندبُوه لمنع الناس بأسرهم من السفر إلى الصعيد فى البر والبحر، ومَنْ ظهَر أنه سافر كانت أرواحُ الوُلَاة قباله وما ملَك، وأشاع الأمراء أنهم يريدون السفر إلى الشام وتجهّزوا، وكُتِبت أوراق الأمراء المسافرين وهم عشرون مقدّما بمُضَاقِيهم، وعُينوا أربعة أقسام: قسم يتوجّه فى البرّ الغربىّ. وقسم يتوجه فى البر الشرقىّ. وقسم يركب النيل. وقسم يَمْضى فى الطريق السالكة. ١٠ وتوجه الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعسر، وكان قد قَدِم من الشام، إلى الواح[2] فى خمسة أمراء، وقرّروا أن يتأخّر مع السلطان أربعةُ أمراء من المقدّمين، ورسَم

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الواح، ويقال لها الواحات، هى عبارة عن قطع متفرقة من الأراضى الزراعية فى الصحراء الغربية الممتدة غربى وادى النيل بمصر، وتروى أراضيها من ماء يخرج طافيا من عيون تتفجر من باطن الأرض. وأشهر محصولاتها الأرز والبلح والعجوة والفواكه. والواحات الشهيرة ١٥ التابعة لمصر أربع واحات وهى:

١ — الواحات البحرية وتعرف بواح البهنسا واقعــة غربى مديرية المنيا والمسافة بينها وبين بلدة البهنسا التى على بحر يوسف بمديرية المنيـا ٢٠٠ كيلو متر. وهــذه الواحات هى الآن قسم تابع لمحافظة الصحراء الغربية ومركزه قرية الباويطى ويتبع هــذا القسم واحة أخرى صغيرة تسمى واحة الفرافرة واقعة جنوبى الواحات البحرية إلى الغرب والمسافة بينهما ١٩٠ كيلو مترا ومقرها قصر الفرافرة.

٢٠ ٢ — واحة سيوة وهى التى كانت تسمى قديمـا سنتريه، واقعــة غربى الواحات البحرية إلى الشمال قليــلا والمسافة بينهما ٣٤٠ كيلو مترا وبينها وبين مرسى مطروح ٢٩٠ كيلو مترا وهذه الواحة هى الآن قسم تابع لمحافظة الصحراء الغربية ومركزه سيوة.

٣ — الواحات الخارجة واقعة غربى مديرية قنا وتتصل بوادى النيل بواسطة سكة حديدية طولها ١٩٨ كيلو مترا تخرج من محطة مواصلة الواحات الواقعة فى شمال محطة فرشوط بمركز نجع حمادى بمديرية ٢٥ قنا. وهذه الواحة هى الآن مركز تابع لمحافظة الصحراء الغربية الجنوبيــة يشتمل على أربع قرى وقاعدته بلدة الخارجة.

إلى كلّ مَنْ تعيّن من الأمراء لجهةٍ أن يَضع السيف فى الكبير والصغير والجليل والحقير، ولا يُبقُوا شيخا ولا صبيًّا ويحتاطُوا على سائر الأموال، وسار الأمير سلّار نائب السلطنة فى رابع جُمادَى الآخرة ومعه جماعة من الأمراء فى البر الغربىّ، وسار الأمير بيبرس الجاشنَكير بمَنْ معه من الحاجر(١) فى البرّ الغربىّ أيضا من طريق الواحات وسار الأمير بَكْتَاش أمير سلاح بمن(٢) معه فى البرّ الشرقىّ وسار الأمير قتّال السبع وبيبرس الدوادار وبَلَبان الغلمشى(٣) وغيره من الشرقية إلى السُّوَيس(٤)

= ٤ — الواحات الداخلة واقعة غربى الواحات الخارجة والمسافة بينهما ١٨٠ كيلو مترا والمسافة بينها وبين وادى النيل ٣٨٠ كيلو مترا، وعرفت بالداخلة لأنها متوغلة فى الصحراء، وهى أكبر الواحات وأكثرها محصولا وهى الآن مركز تابع لمحافظة الصحراء الغربية الجنوبية يشتمل على اثنتى عشرة قرية وقاعدته بلدة موط .

ويفهم من سياق كلام المؤلف أنه يقصد الواح الخارجة والداخلة لأنهما كانتا تابعتين للأعمال الأسيوطية فى ذلك الوقت .

وكان السفر من مصر إلى الواحات على ظهور الجمال، وكان طويلا ومتعبا لبعدها فى الصحراء . وأما الآن فأصبح السفر ونقل التجارات من الواحات إلى مصر وبالعكس سهلا وميسورا بواسطة السيارات على الطرق الممهدة .

(١) الحاجر، المقصود به هنا الطريق الواقعة على الجانب الغربى لوادى النيل، فى الحد الفاصل بين الأراضى الزراعية والصحراء بالوجه القبلى والفيوم وإقليم البحيرة . (٢) كذا فى أحد الأصلين والسلوك . وفى الأصل الآخر: «القلمشى» بالقاف . (٣) فى السلوك : «وعرب الشرقية» .

(٤) السويس : ورد فى كتاب أحسن التقاسيم للقدسى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ عند الكلام على القلزم أنه بلد قديم على طرف بحر الصين (يقصد الموصل إلى الصين) وقال إنه بلد يابس لا ماء ولا كلأ ولازرع فيه وقال: إن الماء يحمل إلى أهله فى المراكب من موضع على بعد بريد يسمى «سويس» . ويستفاد مما ذكره ياقوت فى معجم البلدان عند الكلام على القلزم أنها كانت فى زمنه خرابا يبابا لذلك صارت الفرضة أى الميناء موضعا قريبا منها يقال لها «سويس» وهى أيضا كالخراب لقلة سكانها .

ولما تكلم ياقوت على «السويس» قال : إنها بليدة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) من نواحى مصر وهو ميناء أهل مصر الى مكة والمدينة بينها وبين الفسطاط سبعة أيام فى برية معطشة وتحمل اليها الميرة من مصر على ظهور الجمال ثم تطرح فى السفن ويتوجه بها الى الحرمين . ولما تكلم المقريزى فى خططه على القلزم (ص٢١٢ ج١) ذكر موضعها وأوصافها ثم قال وخربت القلزم وعرف موضعها «بالسويس» .

وبالبحث تبين لى :

١ — أن القلزم خربت فى القرن الخامس الهجرى ولما كانت مصر فى حاجة دائمة الى مرفأ لها على البحر الأحمر لنقل التجارة والميرة بين مصر والحجاز واليمن والحبشة وغيرها من البلاد الشرقية أنشأ =

والطور[1]، وسار الأمير قَبْجَق المنصوريّ نائب الشام بمن كان معــه إلى عَقبة السـيل[2]، وسار طُقُصْبا والى قُوص[3] بعـرب الطاعة ، وأخذ عليهم المفـازات؛ وقـد عُمِّيتْ أخبار الديار المصرية على أهـل الصعيد لمَنْع المسافرين إليهـا فطرقوا

= التجار بلدة جديدة فى القرن السادس الهجرى فى مكان القلزم القديمة واختاروا لها اسم «السويس» وانما فضلوه على اسم القلزم لخراب هذه ولأن « السويس » هو اسم المكان الذى كان مصدر حياة سكانها اذ كان ينقل منه الماء الى القلزم .

٢ — يستدل أن « السويس » تقع فى ذات المكان الذى كان به بلدة القلزم مما ذكره كل من ياقوت والمقريزى كما رأيت فضلا على أن التل المرتفع القائم بجوار « السويس » لا يزال يعرف إلى اليوم باسم قلعة القلزم .

هذا هو تاريخ « السويس » قديما . وأما اليوم فانها بسبب شق الترعة المعروفة باسم قنال السويس قد أصبحت من المدن المصرية الشهيرة وأحد ثغور مصر ومحافظاتها وأكبر ميناء بالبحر الأحمر وهى ذات حركة تجارية واسعة ويرسو فى مينائها الذى يسمى «بور توفيق» غالب البواخر الذاهبة من مصر وأوروبا إلى بلاد البحر الأحمر وسائر نواحى الشرق بآسيا وأوستراليا وكذا البواخر القادمة من تلك الجهات .

وتقع مدينة « السويس » شرقى مدينة القاهرة وبينهما طريقان قريبان للسفر ونقل البضائع : أحدهما طريق السكة الحديدية وطوله ١٤٠ كيلو مترا من محطة كوبرى الليمون . والثانى طريق السيارات وطوله ١٣٠ كيلومترا من ميدان إبراهيم باشا بالقاهرة .

وللسويس ترعة توصل اليها المياه الحلوة تخرج من ترعة الإسماعيلية بالقرب من مدينة الإسماعيلية ثم تسير جنوبا الى السويس فيستق منها سكانها ومزارعها .

(١) الطور من البلاد المصرية القديمة . وردت فى كتاب مسالك الأمصار لابن خرداذبة مع القـلزم (السويس) وأيلة (العقبة) فى كورة واحدة . وذكر ياقوت فى معجم البلدان أن الطور كورة تشتمل على عدة قرى بأرض مصر الشرقية بالقرب من جبل فاران (بشبه جزيرة سينا) وذكر مؤرخو الافرنج أن الطور كانت تسمى « رايتو » وهذا خطأ لأن « رايتو » بلدة أخرى غير الطور يسميها العرب « الرايه » وقد ذكرهما كل من قـدامة والقضاعى والدمشقى فى كور مصر باسمى « الطور » و « الرايه » ومن هـذا يتبين أنهما بلدتان وقد اندثرت الراية ولا تزال أطلالها ظاهرة جنوبى الطور وعلى بعد ثمانية كيلو مترات منها .

وأما الطور فهى الآن قرية صـغيرة على الشاطئ الغربى لشبه جزيرة سينا فى الجهة الجنوبيـة الشرقية من خليج السويس بينها وبين السويس ٢٤٠ كيلو مترا . وهى اليوم مركز قسم سينا الجنوبى أحد أقسام محافظة سينا التابعة لمصر . وبالطور محجر صحى يمر عليه جميع الحجاج العائدين من الحجاز إلى مصر عن طريق البحر الأحمر بعد أداء فريضة الحج حيث يكشف عليهم صحيا لمنع نقل الأمراض الوبائية إلى مصر .

(٢) عقبة السيل ، المقصود بها هنا بلدة العقبة الصغيرة ، وهى من أعمال برقة ، وموقعها غربى مربوط (راجع كتاب الانتصار لابن دقماق) .

(٣) راجع الحاشية رقم ١ ص ٢٩٢ من الجزء الخامس من هذه الطبعة .

الأمراءُ البلاد على حين غفلة من أهلها ، ووضعوا السيف من الجيزة بالبرّ الغربىّ (١)
والإطْفِيحية (٢) من الشرقىّ ، فلم يتركوا أحدا إلّا قتلوه ، ووسّطوا نحو عشرة آلاف
رجل ، وما منهم إلا من أخذوا ماله وسبَوْا حريمه ، فكان إذا ادّعى أحد منهم
أنه حَضَرىّ ، قيل له : قل دقيق ، فإن قال : دقيق بالكاف لغات العرب قُتِل ،
وإن قال : بالقاف المعهودة أُطلِق ، ووقَع الرعب فى قلوب العربان حتى ٥
طبّق عليهم الأمراء وأخذوهم من كلّ جهة فرّوا إليها ، وأخرجوهم من مخابئهم حتى
قتلوا من جانبى النيل (٣) إلى قُوص ، وجافت الأرض بالقتلَى ، واختفى كثير منهم بمغاور
الجبال فأُوقِدَتْ عليهم النِّيرانُ حتى هلكوا بأجمعهم ، وأُسِر منهم نحو ألف وستمائة لهم
فِلاحات وزُرُوع ، وحُصِّل من أموالهم شىء عظيم جدّا تفرّقته الأيدى ، وأُحضِر
منه إلى الديوان السلطانىّ ستة عشرة ألف رأس من الغنم ، وذلك من جملة ثمانين ١٠
ألف رأس ما بين ضأن وماعِز ، ومن السلاح نحو مائتين وستين حملا من السيوف
والسلاح والرماح ، ومن الأموال على بِغال محملة مائتين وثمانين بغلا ، ونحو أربعة
آلاف فَرَس ، واثنين وثلاثين ألف جمَل ، وثمانية آلاف رأس من البَقَر ، غير ما أُرْصِد
فى المعاصر ، وصار لكثرة ما حُصّل للاجناد والغلمان والفقراء الذين اتّبعوا العسكر
فباعوا الكبش الكبير السمين من ثلاثة دراهم إلى درهم (٤) ، والمَعز بدرهم الرأس ، ١٥
والجَزّة الصوف بنصف درهم ، والكِساء بخمسة دراهم (٥) ، والرِّطل السمن بربع درهم ،
ولم يوجد من يشترى الغلال لكثرتها ؛ فإنّ البلاد طُرِقت وأهلها آمنون ، وقد كسَرُوا
الخراج سنتين (٦) . ثم عاد العسكر فى سادس عشر شهر رجب من سنة إحدى وسبعمائة ،

---

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٣٤٨ من الجزء الخامس من هذه الطبعة . (٢) راجع الحاشية رقم ٥ ص ٩١ من هذا الجزء . (٣) فى الأصلين : «من جانب النيل» . وما أثبتناه عن السلوك . ٢٠
(٤) فى السلوك : «من ثلاثة دراهم إلى درهمين» . (٥) عبارة السلوك : «والكساء بخمسة دراهم إلى درهمين» . (٦) فى أحد الأصلين : «سنين» .

وقد خلت بلاد الصعيد من أهلها بحيث صار الرجل يمشى فلا يجد فى طريقه أحدا ويترل القرية فلا يرى إلا النساء والصبيان؛ ثم أفرج السلطان عن المأسورين وأعادهم إلى بلادهم لحفظ البلاد.

وعند عود الأمراء المذكورين من بلاد الصعيد ورد الخبر من حلب أن تكفور متملك سيس منع الحمل وخرج عن الطاعة وانتمى لغازان، فرسم بخروج العساكر لمحاربته، وخرج الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح، والأمير عز الدين أيبك الخازندار بمضافيهما من الأمراء وغيرهم فى شهر رمضان، فساروا إلى حماة فتوجه معهم نائبها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى فى خامس عشرين شوال. وتوجهوا إلى بلاد سيس وأحرقوا الزروع وانتهبوا ما قدروا عليه، وحاصروا مدينة سيس وغنموا من سفح قلعتها شيئا كثيرا من جفال الأرمن؛ وعادوا من الدربند إلى مرج أنطاكية[1]. ثم قدموا حلب فى تاسع عشر ذى القعدة. ثم ورد الخبر على السلطان من طرابلس[2] بأن الفرنج أنشئوا جزيرة تجاه طرابلس تعرف بجزيرة

(١) مدينة فى شمال سوريا فى الحوض الأدنى لنهر العاصى على مقربة من مصبه، بنيت فى نهاية القرن الثالث للميلاد وكانت حاضرة الولايات الأسيوية فى عهد الإمبراطورية الرومانية. توالت عليها غزوات الفرس الى أن فتحها العرب عام ١٧ ﻫ ثم وقعت فى أيدى الصليبيين الى أن فتحها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٠ ﻫ بعد أن قتل عشرات الألوف من حماتها المسيحيين وبعد أن ظلت فى قبضتهم ١٧٠ عاما.

والمدينة حسنة الموقع وافرة الماء تقع على الشاطئ الجنوبى لنهر العاصى الذى يبلغ عرضه عندها ٣٨ مترا وتمتد الى سفح الجبل على ارتفاع ١٥٢٥ قدما عن سطح البحر. وكانت أنطاكيه القديمة أكبر مركز للتجارة بين الشرق والغرب لوقوعها عند ملتقى الطرق الموصلة بين الفرات والبحر الأبيض المتوسط. وكانت تتبع ولاية حلب فى الماضى وهى اليوم تتبع منطقة الاسكندرونة التركية وسكانها يقربون من ٤٠ ألفا. (انظر دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٣ صفحة ٦٢ وما بعدها، وانظر المعاجم الجغرافية الحديثة).

(٢) سماها المؤرخون اليونان تريبوليس أى المدن الثلاث لأنها كانت مؤلفة من ثلاث مستعمرات أسسها أهالى صور وصيدا وأرواد وكانت زاهرة فى عهد الرومان. وقد دخلها العرب دون أن يلقوا مقاومة سنة ١٧ ﻫ واستولى عليها الصليبيون سنة ٥٠٣ ﻫ بعد حصار طويل. شيدوا فى خلاله على رابية بالقرب =

أَزْوَاد[1]، وعمّروها بالعُدَد والآلات ، وكثُر فيها جمعهم. وصاروا يركَبُون البحر ويأخذون المراكِب . فرسم السلطان للوزير بعمارة أربعة شوانٍ حربيّة في محرّم سنة آثنتين وسبعمائة ففعل ذلك ، ونُجزت عمارة الشوانى وجُهّزت بالمقاتلة وآلات الحرب مع الأمير جمال الدين آقوش القارئ العَلائي والى البَهْنَسا[2] ، واجتمع الناس لمشاهدة لَعِب الشوانى في يوم السبت ثانى عشر المحرّم[3] ، ونزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك ، وآجتمع من العالَم ما لا يُحصيه إلّا الله تعالى حتّى بلَغ كراء المركَب التى تحمل عشرة أنفس إلى مائة درهم[4] ، وآمتلأ البرّ من بولاق

= من المدينة قصرا حصينا لا يزال الى اليوم ، ويعرف باسم قلعة صنجيل وسقطت بعد ١٨٥ سنة في أيدى قلاوون سلطان مصر سنة ٦٨٨ هـ ، فدثرها وشيد على أنقاضها مدينة جديدة وقد خربت أبنيتها مرارا في العصور الوسطى على أثر زلازل قوية .

والمدينة الحالية واقعة بالقرب من القصر الحصين على نهر أبي على على مسافة كيلو مترين من البحر وعلى بعد ٦٧ كيلو متر من بيروت شمالا بآنحراف الى الشرق . وعلى بعد نحو ثلاثة كيلو مترات من طرابلس الى الشمال الغربي يوجد الميناء الذى هو بلدة قائمة بنفسها وفيه خمسة آلاف نفس وهو متصل بالمدينة بخط ترام . وفي السهل بين المدينة والميناء كثير من أشجار البرتقال والليمون . وعدد سكان المدينة بخلاف الميناء ٢٧ ألف نفس . وهى تعد مدينة ذات حركة تجارية كبيرة . (انظر لبنان بعد الحرب لأديب باشا ص ٩٧ وانظر حوادث هذه السنوات في النجوم الزاهرة طبع دار الكتب) .

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ١١ من هذا الجزء . (٢) البهنسا ، هى من المدن المصرية القديمة اسمها المصرى « پمجيه » ويقال لها « پامازيت » والرومى « أوكسيرنخوس » وسماها العرب « البهنسا » . ووردت في معجم البلدان لياقوت « البهنسى » بألف مقصورة وكتبها بعضهم « البهنسة » .

وكانت البهنسا قاعدة القسم السابع عشر بالوجه القبلى في زمن الفراعنة ، وقاعدة « ارشية اركاديا » في عهد الرومان ، وقاعدة كورة البهنسا في أيام العرب ، وقاعدة الأعمال البهنساوية في أيام دولتى الجراكسة ، وقاعدة « ولاية » البهنساوية في أيام الحكم العثمانى إلى أن أنشئت « مديرية » الأقاليم الوسطى في سنة ١٢٤٥ هـ = ١٨٣٠ م فجعلت قاعدتها مدينة المنيا ، وبذلك ألغيت ولاية البهنساوية من ذاك التاريخ .

والبهنسا اليوم إحدى قرى مركز بنى مزار بمديرية المنيا بالوجه القبلى واقعة على الشاطئ الغربي لبحر يوسف بينها وبين بنى مزار الواقعة على الترعة الإبراهيمية ١٥ كيلو مترا ، وبينها وبين الواحات البحرية التى تعرف بواحات البهنسا نسبة إليها طريق طوله ٢٠٠ كيلو متر . (٣) كذا في الأصلين والسلوك وعقد الجمان . وفي التوفيقات الإلهامية أن أوّل المحرّم سنة ٧٠٢ هـ يوم الأحد .

(٤) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٠٧ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

إلى الصّناعة[1] حتّى لم يوجَد موضعُ قَدَم، ووقَف العسكر على برّ بستان الخشّاب[2] وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة، وبرزت الشوانى[3] تجاه المِقْياس[4] تلعَب كأنّها فى الحرب، فلَعِب الشينيّ الأوّل والثانى والثالث، وأعجب الناس إعجابا زائدا لكثرة ما كان فيها من المُقَاتلة والنفوط وآلات الحرب، وتقدّم الرابع وفيه الأمير آقوش فما هو إلّا أنّه خرج من الصناعة بمصر وتوسّط فى النيل إذا بالريح حرّكته فمال به مَيْلةً واحدة آنقلب وصار أعلاه أسفله، فصرَخ الناس صرخةً واحدة كادت تسقُط منها الحَبَالَى، وتكدّر ما كانوا فيه من الصّفْو فتلاحق الناس بالشِّينِيّ وأخرجوا ما سقَط منه فى المـاء، فلم يَعدَم منه سوى الأمير آقوش وسَـلِم الجميع، فتكدّر السلطان والأمراء بسببه، وعاد السلطان بأمرائه إلى القلعة وآنفضّ الجمع. وبعـد ثلاثة أيام أُخرِج الشِّـينِيّ فإذا امرأة الريّس وآبنها وهى تُرضِعه فى قَيْـد الحياة، فاشتدّ عجَبُ الناس من سلامتها طول هذه الأيام! قاله المقريزى وغيره، والعُهْدة عليهـم فى هذا النقل. ثم شرع العمل فى إعادة الشِّينى الذى غَرِق حتى نُجِّز، وندَب السلطان الأميرَ سيف الدين كُهُرْدَاش[5] الزّرّاق المنصوريّ إلى السفر فيه عوضا عن آقوش الذى غَرِق، رحمه الله تعـالى، وتوجّه الجميـع إلى طرابُلُس ثم إلى جزيرة أَرْوَاد المذكورة، وهى بالقرب

(١) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٩٩ من الجزء الرابع من هذه الطبعة. (٢) بر بستان الخشاب، يقصد المؤلف من بر بستان الخشاب شاطئ النيل الشرقى الذى يجاور هذا البستان من الجهة الغربية على النيل، وهـذا البر مكانه اليوم شارع القصر العالى بالقاهرة. وأما بستان الخشاب فكانه الآن خط القصر العالى المعروف بجاردن سيتى وخط المنيرة. راجع الحاشـية رقم ٦ ص ٤٤ من الجزء الرابع من هـذه الطبعة وص ٣٨٨ من الجزء السابع من هذه الطبعة فى الكلام على بستان الخشاب. (٣) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٣٢٠ من الجزء السادس من هذه الطبعة. (٤) المقياس، المقصود به هنا مقياس النيل بجزيرة الروضة بمصر وقد أنشئ فى آخر أيام الخليفة المتوكل على الله جعفر العباسى سنة ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م، ولا يزال هـذا المقياس موجودا ومستعملا باسم مقياس الروضة. ومكانه فى الطرف الجنوبى من جزيرة الروضة تجاه مصر القديمة. وراجع الحاشية رقم ٢ ص ١٠٨ من الجزء الخامس من هذه الطبعة.

(٥) فى الدرر الكامنـة والمنهل الصافى: «كهرداس» بالسين. وسيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧١٤ هـ.

من أَنْطَرْطُوس[(١)]، فأخربوها وسَبَوْا وغَنِموا، وكان الأَسْرَى منها مائتين وثمانين نفرًا، وقَدِم الخبرُ بذلك إلى السلطان فسُرّ وسُرّ الناس قاطبةً ودُقّت البشائر لذلك أياما؛ وآتفق فى ذلك اليوم أيضا حضورُ الأمير بَكْتاش الفخرى أمير سلاح من غزو سِيس .

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من حلب بأنّ قازان على عزْم الحركة إلى الشام، فوَقع الآتفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، وعُيّن من الأمراء الأميرُ بيبرس الجاشْنَكير، وطُغْريل الإيغانى، وكَرَاى المنصورى، وحسام الدين لاچين أستادار بمضافيهم وثلاثةُ آلاف من الأجناد، وساروا من مصر فى ثامن عشر شهر رجب، وتواترت الأخبارُ بنزول قازان على الفُرَات، ووصل عسكره إلى الرحبة، وبعث أمامه قُطْلُوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفا، وكتب إلى الأمير عِزّ الدين [أَيْبَك[(٢)]] الأفرم نائب الشام يُرَغّبه فى طاعته، ودخل الأمير بيبرس الجاشْنَكير بمن معه إلى دِمَشْق فى نصف شعبان، ولَبِث يَستَحِثّ السلطان على الخروج . وأقبل الناس من حلب وحَمَاة إلى دمشق جافلين من التّتار، فآستعدّ أهلُ دمشق للفِرار ولم يبقَ إلّا خروجُهم، فنُودِى بدمشق من خرج منها حَلّ ماله ودمه، وخرج الأميرُ بَهادُر آص والأمير قُطْلُوبك المنصورى، وأَنَس الجَمَدَار فى عسكر إلى حَمَاة، ولَحِق بهم عساكر طرابُلُس وحِمْص . فاجتمعوا على حماة عند نائبها الملك العادل كَتْبُغَا المنصورى، وبلَغ التتارَ ذلك فبعثوا طائفةً كثيرة إلى القَرْيَتَيْن[(٣)] فأوقعوا بالتُّرْكمان، فتوجّه إليهم أَسَنْدَمُر[(٤)] كُرْجى نائب طرابُلُس وبَهادُر آص

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ١١٣ من الجزء الخامس من هذه الطبعة . (٢) زيادة عن السلوك .

(٣) راجع الحاشية رقم ١ ص ٨٧ من الجزء الخامس من هذه الطبعة . (٤) فى المنهل الصافى : « أسندمر بن عبد الله الكرجى الأمير سيف الدين » وذكر وفاته سنة ٧١١ هـ . وفى الدرر الكامنة أن وفاته كانت سنة ٧٢١ هـ . ولم يذكر المؤلف وفاته فى إحدى هاتين السنتين .

وبُخُكُن و إغزلو العادلى وتَمُر الساقى وأَنَص الجَمَدَار ومحمد بن قَرَاسُنْقُر فى ألف وخمسمائة فارس، فطرقوهم بمنزلة عُرْض[1] فى حادى عشر شعبان على غفلة، فآفترقوا عليهم أربع فِرَق، وقاتلوهم قتالًا شديدًا من نصف النهار إلى العصر حتّى كسروهم وأَفْنَوْهم، وكانوا التّتار، فيما يقال، أربعة آلاف، وآستنقذوا التُّركمانَ وحريمهم وأولادهم من أيدى التتار، وهم نحو ستة آلاف أسير، ولم يفقد من العسكر الإسلامى إلا الأمير أَنَص الجَمَدَار المنصورى ومحمد بن بَاشْقِرْد الناصرىّ وستة وخمســون من الأجناد، وعاد من آنهزم من التتار إلى قُطْلُوشاه، وأَسَر العسكر المصرىُّ مائة وثمــانين من التتار، وكُتِب إلى السلطان بذلك ودُقّت البشائر[بدمشق][2] . وكان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره وأمرائه من الديار المصريّة إلى جهة البلاد الشاميّة فى ثالث شعبان، وخرج بعده الخليفة المُستكْفِى بالله ، وآستناب السلطانُ بديار مصر الأميرَ عِزّ الدين أَيْبَك البغدادِىّ .

وجدّ قُطْلُوشاه مقــدّم التتار بالعساكر فى المَســير حتّى نزل قُرون حمـاة فى ثالث[3] عشر شـعبان ، فآندفعت العساكر المصريّة التى كانت بحمـاة بين يديه إلى دمشق ، وركب نائبُ حمـاة الأميرُ كَتْبُغَا الذى كان تسلطن وتلقّب بالملك العادل فى مِحَفّة لضعفه ، وآجتمع الجميع بدمشق وآختلف رأيُهم فى الخروج إلى لقاء العدوّ أو آنتظار قدوم السلطان، ثم خَشُوا من مفاجأة العدوّ فنادَوْا بالرحيل، وركبوا فى أوّل شهر رمضان من دِمَشق، فآضطربت دمشق بأهلها وأخذوا فى الرحيل منها على وجوههم، وآشـتَرُوا الحِمار بستمائة درهم والجملَ بألف درهم، وترك كثيرٌ منهم حريمَه وأولاده ونجا بنفســه إلى القلعة، فلم يأتِ اللّيل إلا و بوادِرُ التتار فى سـائر

---

(١) عرض : بلد فى برية الشام من أعمال حلب بين تدمر والرصافة (عن مراصد الاطلاع) .

(٢) زيادة عن السلوك . (٣) فى السلوك : « فى ثالث عشرينه » .

نواحى المدينة، وسار العسكر مُخفًّا، و بات الناس بدمشق فى الجامع يَضجُّون بالدعاء إلى الله تعالى، فلمّا أصبحوا رَحَل التتار عن دِمَشــق بعد أن نزلوا بالغُوطة .

و بلغ الأمراءَ قدومُ السلطان فتوجّهوا إليه من مَرْج راهط (١) فلقوه على عقبة الشُّحُورا (٢) فى يوم السبت ثانى شهر رمضان وقبّلوا الأرض، ثم ورد عند لقائهم به الخبرُ بوصول التتار فى خمسين ألفا مع قُطْلُوشاه نائب غازان، فلَبِس العسكر بأجمعه السلاح، واتّفقوا على قتال التتار بشَقْحَب (٣) تحت جبل غباغب (٤)، وكان قُطْلُوشاه قد وقف على أعلى النهر، فصفّت العساكر الإسلامية، فوقف السلطان فى القلب وبجانبه الخليفةُ، والأميرُ سَــلّار النائب، والأمير بِيبَرْس الجاشْنَكِير، وعزّ الدين أَيْبَك الخازندار، و بَكْتَمُر الجُوكَنْدار، وآقوش الأفرم نائب الشــام، والأمير بُرُلْغى (٥)، والأمير أَيْبَك الحَمَوِىّ، و بَكْتَمُر الأَبُو بكرِىّ، وقُطْلُوبَك، ونُوغَاى السلاح دار، ومُبارِز الدين أمير شِكار، ويعقو با الشَّهْرُزُورِىّ، ومبارز الدين أَوْلِيَا بن قَرَمان؛ ووقف فى الجناح الأيمن الأميرُ قَبْجَق بعساكر حَمَاة والعُرْبان و جماعة كثيرة من الأمراء؛ ووقف فى الميسرة الأمير بدر الدين بَكْتاش الفخرِىّ أمير سلاح، والأمير قَرَا سُنْقُر نائب حلب بعساكرها، والأمير بَخاص نائب صَفَد بعساكرها؛ والأمير طُغْرِيل الإيغانى (٦)، وبَكْتَمُر السلاح دار

(١) مرج راهط، المرج هو الأرض الواسعة فيها نبت كثير، وراهط : موضع فى الغوطة من دمشق فى شرقيه بعد مرج عذراء . (عن ياقوت ومراصد الاطلاع) . (٢) راجع الحاشية رقم ٨ ص ١٢١ من الجزء السادس من هذه الطبعة . (٣) شقحب : قرية فى الشمال الغربى من غباغب، و يقال لها تل شقحب ذكرها « دسود » فى الكلام عن وادى العجم من ضواحى دمشق .
(انظر كتاب التخطيط التاريخى لسوريا القديمة والمتوسطة لرينيه دسود طبع باريس سنة ١٩٢٧ ص ٣٢٢).
Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale Par Rene Dussaud.

(٤) فى الأصلين : «صاغب» . وما أثبتناه عن السلوك . (٥) فى السلوك : «بلرغى» . وقد ذكر صاحب الدرر الكامنة عدّة لغات فى هذا الاسم . وضبطه بالعبارة (بضم أوله وثانيه وسكون ثالثه) .

(٦) فى الدرر الكامنة : «طغريل الإيغانى كان من مماليك إيغان الملقب سم الموت» . توفى سنة ٧٠٧ هـ.

و بيــبَرْس الدّوادار بمضافيهم . ومشى السلطان على التتار والخليفــة بجانبه ومعهما القرّاء يتلون القرآن و يحثّون على الجهاد و يُشوّقون إلى الجنة ، وصار الخليفة يقول : يامجاهدون لاتنظروا لسلطانكم ، قاتلواعن دين نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم وعن حريمكم! والنــاس فى بكاء شــديد ، ومنهم مَن سَقَط عن فرسه إلى الأرض! ووصّى بيبرس[1] وسلّار على الثبات فى الجهاد . وكلّ ذلك والسـلطان والخليفة يَكُرُّ فى العساكر يمينًا وشمــالا . ثم عاد السلطان والخليفة إلى مواقفهما، ووقف خلفه الغِلْمــان والأحمال والعساكر صــفًّا واحدا ، وقال لهم : من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتــلوه ولكم سَــلَبُه . فلمّا تمّ الترتيب زَحفَتْ كراديس[2] التتار كقطع الليل، وكان ذلك وقت الظهر من يوم السبت ثانى رمضان المذكور . وأقبــل قُطْلُوشاه بمن معــه من الطّوَامين، وحَمَــلوا على الميمنة فثبتَتْ لهم الميمنة وقاتلوهم أشــدّ قتال حتى قُتِــل من أعيان الميمنة الأميرُ حُسام الدين لاجين الأستادار ، وأُولِيَــا بن قَرَمان، والأمير سُنْقُر الكافورى[3]، والأمير أَيْدَمُر الشَّمْسى القَشّاش، والأمير آقوش الشمسىّ الحاجب، وحُسام الدين على بن باخل ونحو الألف فارس، كلّ ذلك وهم فى مقابلة العدوّ والقتالُ عمّال بينهم . فلما وقَع ذلك أدركتهم الأمراء من القلبِ ومن الميسرة، وصاح سَلّار : هلك والله أهلُ الإسلام ! وصرخ فى بيبرس الجاشْنكير وفى البرجيّة فأتَوْه دَفْعةً واحدة، فأخذهم وصدَم بهم العدوّ وقصد مقدّمَ التتار قُطْلُوشاه ، وتقدّم عن الميمنة حتّى أخذت الميمنة راحةً ، وأبلَى سلّار فى ذلك اليوم هو و بيبرس الجاشْنكِير بلاءً حسنًا، وسلّموا نفوسهم إلى الموت . فلمّا رأى باقى الأمراء منهم ذلك ألقَوْا نفوسهم إلى الموت، واقتحموا القتال، وكانت لسَلّار والجاشْنكِير فى ذلك

(١) فى الأصلين : « وتواصوا بيبرس وسلار » . وما أثبتناه عن السلوك .
(٢) كراديس، جمع كردوس وكردوسة ، وهى كتيبة الفرسان .
(٣) كذا فى أحد الأصلين والسلوك . وفى الأصل الآخر وتاريخ سلاطين المماليك : « سنقر الكافرى » .

اليوم اليدُ البيضاء على المسلمين — رحمهما الله تعالى — وآستمرّوا فى القتال إلى أن كشفوا التّتار عن المسلمين، وكان جُوبان وقُرْمُجى من طوامين التتار قد ساقا تقويةً لبُولاى وهو خلف المسلمين ؛ فلمّا عاينوا الكَسْرة على قُطْلُوشاه أَتَوْه نجدةً ووقفوا فى وجه سَلّار و بيبرس ، فخرج من عسكر السلطان [أَسَنْدَمُر[1]] والأمير قُطْلُوبك والأمير قَبْجَق والمماليك السلطانية وأردفوا سَلّار و بيبرس ، وقاتلوا أشدّ قتال ٥ حتّى أزاحوهم عن مواقفهم، فمالت التتارُ على الأمير بُرُلْغِى فى موقفه ، فتوجّهوا الجماعة المذكورون إلى بُرُلْغِى ، وآستمرّ القتال بينهم .

وأمّا سلّار فإنّه قصد قُطْلُوشاه مقدّم التتار وصدمه بمن معه ، وتقاتلا وثبت كلٌّ منهما . وكانت الميمنة لمّا قُتل الأمراء منها آنهزم من كان معهم ، ومرّت التتارُ خلفهم بجَفَل الناس وظنّوا أنّها كَسْرة ، وأقبل السواد الأعظمُ على الخزائن السلطانية ١٠ فكسروها ونهبوا ما فيها من الأموال ، وجَفَل النساءُ والأطفال . وكانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها ، وكشَف النساء عن وجوههنّ وأسبلنَ الشعور وضجّ ذلك الجمع العظيم بالدعاء ، وقد كادت العقول أن تطيش وتذهب عند مشاهدة الهزيمة ! وآستمرّ القتال بين التتار والمسلمين إلى أن وقف كلٌّ من الطائفتين عن القتال . ١٥

ومال قُطْلُوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه ، وصَعِد عليه وفى نفسه أنّه آنتصر ، وأنّ بُولاى فى أثر المنهزمين من المسلمين ، فلمّا صَعِد الجبل رأى السهلَ والوَعْرَ كلّه عساكر والميسرة السلطانية ثابتة ، وأعلامها تَخْفُق . فبُهت قُطْلُوشاه وتحيّر وآستمرّ بموضعه حتّى كمل معه جمعه وأتاه من كان خلف المنهزمين من السلطانية ومعهم عِدّةٌ من المسلمين قد أسروهم ، منهم : الأميرُ عزّ الدين أَيْدَمُر نقيب المماليك السلطانيّة ، ٢٠

(١) زيادة عن السلوك .

فأحضره قُطْلُوشاه وسأله من أين أنت ؟ فقال : من أمراء مصر، وأخبره بقـدوم السلطان، وكان قُطْلُوشاه ليس له علم بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا ذلك الوقت، فعنـد ذلك جمع قُطْلُوشاه أصحابه وشاوَرهم فيما يفعـل ، وإذا بكُوسات السلطان والُبوقات قد زَحَفت وأزعجت الأرض وأرجفت القلوب بِحسها ، فلم يثبت بُولاى
٥ وخرج من تجاه قُطْلُوشاه فى نحو العشرين ألفا من التتار، ونزل من الجبل بعدالمغرب ومرّ هارباً .

وبات السلطان وسائرُ عساكره على ظهور الخيـل والطُّبُول تضرب ، وتلاحق بهم من كان آنهزم شـيئًا بعد شىء، وهم يقصِـدون ضَرْب الطبول السلطانية والكُوسات ، وآحتاط عسكر السلطان بالجبل الذى بات عليه التتار، وصار بِيبَرْس
١٠ وسلّار وقَبْجَق والأمراء والأكابر فى طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يُوصونهم ويرتّبونهم ويُؤكّدون عليهم فى التيقُّظ، ووقف كُلُّ أمير فى مصافّه مع أصحابه ، والحِمْل والأثقال قد وقف على بُعد ، وثبتوا على ذلك حتى آرتفعت الشمس، وشَرَع قُطْلُوشاه فى ترتيب من معه ونزلوا مُشاةً وفُرْسانا وقاتلوا العساكر، فبَرَزت المماليك السلطانيّة بمقدّميها إلى قُطْلُوشاه وجُوبان، وعمِلوا فى قتالهم عملاً عظيما ، فصاروا تارةً يرمونهم
١٥ بالسهام وتارةً يواجهونهم بالرماح ، وآشـتغل الأمراء أيضًا بقتـل من فى جهتهم يتنـاوبون القتال أميرًا بعـد أمير، وأَلَحَّت المماليك السلطانية فى القتال وأظهروا فى ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية مالا يُوصف حتّى إنّ بعضهم قُتِل تحته الثلاثة من الخيل ، وما زال الأمراء على ذلك حتّى آنتصف نهار الأحد ، صَـعِد قُطْلُوشاه الجبل وقد قُتِل من عسكره نحو ثمانين رجلا ، وجُرِح الكثير وآشتدّ عطشُهم ، وآتّفق
٢٠ أنّ بعض من كان أَسَره التتار هَرَب ونزل إلى السلطان، وعرّفه أنّ التتار قد أجمعوا على النزول فى السَّحَر لمصادمة العساكر السلطانية ، وأنّهم فى شـدّة من العطش،

فآقتضى الرأى أن يفرج لهم عند نزولهم ويَرْكَبَ الجيشُ أقفيتهم. فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الآثنين ركب التتار فى الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرّض لهم أحدٌ وساروا إلى النهر فآقتحموه، فعند ذلك ركبهم بلاءُ الله من المسلمين وأيدهم الله تعالى بنصره حتى حصدوا رءوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيف ومرّوا فى أثرهم قتلًا وأسرا إلى وقت العصر. وعادوا إلى السلطان وعرّفوه بهذا النصر العظيم، فكُتِبت البشائر فى البطائق، وسُرِّحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غَزة. وكُتِب إلى غزّة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، وتَتَبُّع من نَهَب الخزائن السلطانية والآحتفاظ بمن يُمسك منهم، وعيّن السلطان الأميرَ بدرَ الدين بَكْتُوت الفتّاح للسير بالبِشارة إلى مصر.

ثم كُتِب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار، وبات السلطان ليلته وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهلُ دمشق، فسار إليها فى عالم عظيم من الفُرْسان والأعيان والعامّة والنساء والصبيان لا يُحصيهم إلّا الله تعالى، وهم يَضِجُّون بالدعاء والهناء والشكر لله سبحانه وتعالى على هذه المِنّة! وتساقطت عَبَراتُ الناس فرحًا ودُقّت البشائر بسائر الممالك، وكان هذا اليوم يوما لم يُشاهَد مثلُه. وسار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق (1)، وقد زُيِّنت المدينة، وآستمرّت الأمراء وبَقِيت العساكر فى طلب التتار إلى القَرْيَتَيْن، وقد كلّت خيول التتار وضعُفت نفوسهم وألْقَوْا أسلحتهم وآستسلموا للقتل، والعساكرُ تقتلهم بغير مدافعة، حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خَلْقا كثيرًا وغَنِموا عِدّة غنائم، وقتل الواحدُ من العسكر العشرين من التتار فما فوقها؛ ثم أَدْرَكَت عُرْبان البلاد التتارَ وأخذوا فى كَيْدهم كأنّهم يهدونهم إلى طريق قريبة مفازة، فيوصّلونهم إلى البرّيّة

(1) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٢٧٨ من الجزء السابع من هذه الطبعة.

وتركوهم بها فماتوا عطشًا ، ومنهم من دار بهم وأوصلوهم إلى غُوطة دمشق ، فخرجت إليهـم عامّة دمشق فقتلوا منهم خَلْقا كثيرًا . ثم تَتَبّعت الحكّام النَّهبة وعاقبوا منهم جماعة كثيرةً حتّى تحصل أكثرُ مانُهِب من الخزائن ولم يُفقَد منه إلّا القليل . ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم ، ثم حضَر الأمير بُرُلْغِى وقد كان آنهزم فيمن آنهزم ، فلم يَأْذَن له السـلطان فى الدخول عليـه ، وقال : بأىّ وجه تدخُل علىّ أو تنظـرُ فى وجهى ! فمـا زال به الأمراء حتى رَضِى عنـه . ثم قُبِض على رجل من أمراء حلب كان قد آنتمى إلى التتار وصار يدُلّهم على الطُّرُقات ، فسُمِّر على جمل وشُهِّر بدمشق وضواحيها ، وآستمرّ الناس فى شهر رمضان كلّه فى مسرّات تتجدد ، ثم صلّى السلطان صلاة عِيد الفطر وخرج فى ثالث شوّال من دمشق يريد الديار المصريّة .

وأمّا التتار فإنّه لمّـا قُتِل أكثرهم ودخل قُطْلُو شاه الفُرات فى قليل من أصحابه ووصل خبرُ كَسْرته إلى هَمَذَان(١) ، ووقعت الصَّرخات فى بلادهم ، وخرج أهل تِبرِيز(٢) وغيرها إلى لقائهم وآسـتعلام خبر من فُقِـد منهم حتّى عَلِموا ذلك ، فقامت النِّياحة فى مدينة تِبْرِيز شهرين على القَتْلَى .

ثم بلغ الخبرُ غازان فآغتمّ غمًّا عظيمًا وخرج من منخريه دمٌ كثير حتّى أشفَى على الموت وآحتجب عن حواشيه ، فإنه لم يصل إليه من عساكره من كلّ عشرة واحد ! ممن كان آنتخبهم من خِيار جيشه . ثم بعد ذلك بمدّة جلس قازان وأوقف قُطْلُو شاه مقـدّم عساكره وجُوبان وسُـوتاى ومن كان معهـم من الأمراء ، وأنكر على قُطْلُو شاه وأَمَر بقتله ، فمـا زالوا به حتى عفا عنه وأبعده من قدّامه حتّى صار على

---

(١) همذان ، هى وسط بلاد الجبال ، ومنها الى حلوان أول بلاد العراق سبعة وستون فرسخا . وهمذان مدينة كبيرة ، ولها أربعـة أبواب ولها مياه وبساتين وزروع كثيرة وهى على طـريق الحاج والقوافل (عن صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦٩) . (٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ١١٩ من هذا الجزء .

مسافة بعيدة بحيث يراه، وقام إليه، [وقد مسكه الحُجّاب[1]] وسائر من حضروهم خَلْق كثير جدًّا، وصار كلٌّ منهم يبصُق في وجهه حتى بَصَق الجميع ! ثم أبعده عنه إلى كِيلان[2] ثم ضَرَب بُولاى عِدّة عِصيٍّ وأهانه . وفي الجملة فإنّه حصل على غازان بهذه الكَسْرة من القَهْر والهمّ مالا مزيد عليه، ولله الحمد .

وسار السلطان الملك الناصر بعساكره وأمرائه حتى وصل إلى القاهرة، ودخلها في يوم ثالث عشرين شوّال حسب ما يأتي ذكره . وكان نائب الغَيْبَة رَسَم بزينة القاهرة من باب النصر[3] إلى باب السلسلة[4] من القلعة، وكَتَب بإحضار سائر مغاني[5] العرب بأعمال الديار المصرية كلّها، وتفاخر الناس في الزينة ونصبوا القِلاع[6]، واقتسمت أستادارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، وزيّنوا مايخصّ كلّ واحد منهم وعملوا به قلعةً بحيث نُودِي من استعمل صانعًا في غير صنعة القِلاع كانت عليه جناية[7] السلطان، وتحسّن سِعْر الخشب والقَصَب وآلات النِّجارة، وتفاخروا

---

(١) زيادة عن السلوك . (٢) يلان ، ويقال لها (الجيل وجيلان) . قال صاحب صبح الأعشى في الكلام على إقليم الجيل (ج ٤ ص ٣٨٠) نقلا عن مسالك الأبصار : إن بلاد كيلان في وطاة من الأرض يحيط بها أربعة حدود، من الشرق إقليم مازندران، ومن الغرب موقان، ومن الجنوب عراق العجم، ومن الشمال بحر طبرستان . وهي شديدة الأمطار كثيرة الأنهار، ومدنها غير مسوّرة، وجميع مبانيها بالآجر . وبها حمامات يجرى اليها الماء من الأنهار؛ وبها المساجد والمدارس وتسمى الخوانق . اهبا ختصار .

(٣) هو أحد أبواب مدينة القاهرة القديمة في سورها البحرى . وإلحاقا لما ذكرناه عن هذا الباب في ص ٣٨ من الجزء الرابع من هذه الطبعة أذكر أن باب النصر الحالى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمال وزير الخليفة المستنصر الفاطمى في سنة ٤٨٠ هـ = ١٠٨٧ م، وهو من أقدم وأجمل الأبنية الحربية الباقية في مصر . وجهته تتكون من بدنتين مربعتين نقش عليهما في الحجر أشكال تمثل بعض آلات الحرب من سيوف وتروس، ويتوسط البدنتين باب شاهق ويعلو الوجهة إفريز يحيط بالبدنتين به كتابة تضمنت اسم المنشئ وتاريخ نشاء . (٤) باب السلسلة، هو أحد أبواب قلعة الجبل الذى يعرف اليوم بباب العزب بميدان محمد على بالقاهرة . وراجع الحاشية رقم ١ ص ١٦٣ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

(٥) لعله يريد المغنين والمغنيات . (٦) القلاع جمع قلعة، والمراد بها هنا الزينة التى كانت مركبة على قلعة من الخشب معلق عليها المصابيح (قوس النصر) . (٧) في السلوك : «كانت عليه خيانة السلطان» .

فى تزيين القــلاع المذكورة، وأقبــل أهلُ الرِّيف إلى القاهرة للفُرْجة على قدوم السلطان وعلى الزينة، فإنّ الناس كانوا أخرجوا الحُلِىّ والجواهر واللآلئ وأنواع الحرير فزيّنوا بها. ولم ينسلخ شهر رمضان حتّى تهيّأ أمرُ القِلاع؛ وعَمِل ناصر الدين محمد ابن الشَّيْخىّ والى القاهرة قلعةً بباب النصر فيها سائرُ أنواع الجِدّ والهزل ونصَب عِدّةَ أحواض ملأها بالسُّكّر والليمون وأوقف مماليكه بشربات حتّى يَسْقُوا العسكر.

قلت: لو فعَل هذا فى زماننا والى القاهرة لكان حصَل عليه الإنكارُ بسبب إضاعة المــال، وقيــل له: لِمَ لا حملتَ إلينــا ما صرفتَــه؟ فإنّه كان أنفع وخيرًا من هــذا الفُشار[1]، وإنمــا كانت نفوس أولئك غَنِيّــةً وهممهم عليّة، وما كان جُلُّ قصدهم إلا إظهارَ النّعمة والتفاخر فى الحشم والأَسْمِطة والإنعامات حتى يُشاع عنهم ذلك ويُذْكَرَ إلى الأبد، فرَحِم الله تلك الأيامَ وأهلَها!.

وقدِم السلطان إلى القاهرة فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين شــوّال، وقد خرج الناس إلى لقائه وللفُرْجة عليه، وبلَغ كِراءُ البيت الذى يمرّ عليه السلطان من خمسين درهما إلى مائة درهم، فلمّا وصــل السلطان إلى باب النصر ترجّلَ الأمراء كلّهم، وأوّل من ترجّل منهــم الأمير بدر الدين بَكْتاش الفَخْرِىّ أمير ســلاح وأخذ يَحْمِل سلاح السلطان، فأمره السلطان أن يركب لِكِبَرِ سِنّه ويحمل السلاح خلفه فامتنع ومشَى، وحمــل الأمير مبارِز الدين سوار[2] الرومى أمير شِكار القُبّةَ، والطير على رأس الســلطان، وحَمَل الأمير بَكْتَمُر أميرُ جَانْدار العصا، والأميرُ سَنْجَر [الجُمَقْدار][3] الدّبّوس؛ ومشَى كلُّ أمير فى منزلته وفَرَش كلٌّ منهم الشُّقَق من قلعته إلى قلعة غيره

(١) الفشار: الهذيان، وليس من كلام العرب، وإنمــا هو من استعمال العامة. والعامة تبنى منه فعلا فتقول: فشر وفشّر (عن أقرب الموارد). (٢) فى الأصلين: «بسوار الرومى». والتصحيح عن السلوك والدرر الكامنة. وقد ذكر صاحب الدرر أنه توفى سنة ٧٠٤ هـ. (٣) زيادة عن السلوك وتاريخ سلاطين المماليك، وهو حامل الصولجان.

التى أنشئوها بالشوارع . وكان السلطان إذا تجاوز قلعة فُرشت القلعة المجاورة لها الشُّقَق، حتّى يمشى عليها بفرسه مَشْياً هيِّناً من غير هَرْج بسكون ووقار لأجل مَشْى الأمراء بين يديه . وكان السلطان كلّما رأى قلعة أمير أمسك عن المشى ووقف حتّى يُعَايِنها ويعرفَ ما آشتملت عليه هو والأمراء حتى يَجبر خاطر فاعلها بذلك .

هذا والأمراء من التتار بين يديه مقيّدون ورءوسُ من قُتِل منهم معلَّقةٌ فى رقابهم، والفُ رأس على ألف رُمْح، وعدّةُ الأَسْرَى ألفُ وستمائة، وفى أعناقهم أيضا ألفُ وستمائة رأس، وطبولُهم قدّامهم مخرّقة . وكانت القِلاع[1] التى نُصِبت أوّلها قلعة الأمير ناصر الدين آبن الشَّيخى والى القاهرة بباب النصر، ويليها قلعةُ الأمير علاء الدين مُغْلَطَاى أميرُ مجلس، ويليها قلعة آبن أَيْتَمُش السَّعْدىّ، ثم يليها قلعة الأمير سَنْجَر الجاولى، وبعده قلعة الأمير طُغْرِيل الإيغانىّ ثم قلعة بَهَادُر اليُوسُفِىّ، ثم قلعة سَوْدِى[2]، ثم قلعة بِيلِيك الخَطِيرى، ثم قلعة بُرُلْغِى، ثم قلعة مبارز الدين أمير شِكار، ثم قلعة أَيْبَك الخازِنْدَار، ثم قلعة سُنْقُر الأعسر، ثم قلعة بِيبَرْس الدَّوَادَار، ثم قلعة سُنْقُر الكاملىّ، ثم قلعة موسى[3] آبن الملك الصالح، ثم قلعة الأمير آل ملك، ثم قلعة علم الدين الصوابى، ثم قلعة الأمير جمال الدين الطَّشْلاَقِىّ، ثم قلعة الأمير [سيف الدين][4] آدم، ثم قلعة الأمير سَلّار [النائب][4]، ثم قلعة الأمير بِيبَرْس الجاشْنَكِير، ثم قلعة بكْتَاش أمير سلاح، ثم قلعة الطَّواشى مُرْشِد[5] الخازِنْدار، وكانت قلعته على باب

---

(١) فى الأصلين: «وكانت عدّة القلاع... الخ». وما أثبتناه عن السلوك لأن كلمة: «عدّة» مقحمة.

(٢) هو سودى بن عبد الله الناصرى نائب حلب ومن مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧١٤ هـ . وقد ضبطه المؤلف فى المنهل الصافى بالعبارة فقال: (وسودى بفتح السين المهملة وواوا ساكنة ودال مهملة وياء). (٣) هو موسى بن على بن قلاوون الأمير مظفر الدين ابن الملك الصالح ابن السلطان المنصور قلاوون . توفى سنة ٧١٨ هـ (عن الدرر الكامنة).

(٤) زيادة عن السلوك . (٥) هو مرشد بن عبد الله الخازندار الطواشى شهاب الدين المنصورى . توفى سنة ٧١٦ هـ (عن الدرر الكامنة).

المدرسة المنصورية[1]، ثم بعده قلعة بَكْتَمُر أمير جانْدار[2]، ثم قلعة أَيْبَك البغدادى نائب الغَيْبَة، ثم قلعة آبن أمير سلاح، ثم قلعة بَكْتُوت الفتّاح[3]، ثم قلعة تاكز[4] الطغْريلى، ثم قلعة قُلّى السلاح دار، ثم قلعة لاجين زيرباج الجاشْنَكير[5]، ثم قلعة طَيْبَرْس الخازِنْدارى نقيب الجيش، ثم قلعة بَلَبَان طُرْنا[6]، ثم قلعة سُنْقُر العلائى، ثم قلعة بهاء الدين يعقوبا، ثم قلعة الأبو بكرى، ثم قلعة بهادُر المعزى[7]، ثم قلعة كُوكَاى، ثم قلعة قرا لاجين، ثم قلعة كَرَاى المنصورى[8]، ثم قلعة جمال الدين آقوش قتال السبع، وقلعته كانت على باب زَوِيلة[9]؛ وكان عِدّتها سبعين قلعة. وعند ما وصل السلطان إلى باب البِيمَارِسْتان[10] المنصورى ببين القصرين نزل ودخل وزار قبر والده الملك المنصور قلاوون وقرأ القُرّاء أمامه، ثم ركب إلى باب زويلة ووقف حتّى أَرْكَبَ الأمير بدرَ الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح، ثم سار السلطان على شُقَق الحرير إلى داخل قلعة الجبل. هذا والتهانى فى دُور السلطان والأمراء وغيرهم قد آمتلأت منهم البيوت والشوارع بحيث إنّ الرجل كان لا يسمع كلامَ من هو بجانبه إلا بعد جَهْد، وكان يومًا عظيمًا عَظُم فيه سرورُ الناس قاطبةً لاسيّما أهل مصر، فإنّهم فرحوا بالنصر وأيضا بسلامة سلطانهم الملك الناصر محمد.

(١) المدرسة المنصورية، هى التى تعرف اليوم بجامع قلاوون. وراجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٢٥ من الجزء السابع من هذه الطبعة. (٢) فى السلوك: «أمير سلاح». (٣) بكتوت الفتاح بدر الدين، كان من مماليك المنصور وترقى أمير جاندار، وكان خصيصا عند الملك المظفر بيبرس الجاشنكير. توفى سنة ٧١٠ هـ (عن الدرر الكامنة). (٤) فى الأصلين: «شاكر» وفى السلوك: «تباكر» وما أثبتناه عن عقد الجمان وهو سيف الدين بلبان الطغريلى المعروف بتاكز.
(٥) هو لاجين المنصورى يعرف بالزيرباج الجاشنكير. توفى سنة ٧٣١ هـ (عن الدرر الكامنة).
(٦) ضبطه صاحب الدرر الكامنة بالعبارة (بضم أوله وسكون الراء) وذكر وفاته سنة ٧٣٤ هـ.
(٧) فى الأصلين: «بهادر العزى». وتصحيحه عن الدرر الكامنة وتاريخ سلاطين المماليك. وهو بهادر بن عبد الله التركمانى السيفى المعزى. توفى سنة ٧٣٩ هـ. (٨) سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧١٩ هـ. (٩) هو أحد أبواب القاهرة فى سورها القبلى. وراجع الحاشية رقم ٦ ص ٣٧ من الجزء الرابع من هذه الطبعة. (١٠) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٢٥ من الجزء السابع من هذه الطبعة.

وأقام الملك النـاصر بالديار المصريّة إلى سـنة ثلاث وسبعمائة وَرَد عليه الخبر بموت غازان بمدينة الرّيّ (١) وقام بعـده أخوه خَرْبَنْدَا (٢) بن أَرْغُون بن أبغا بن هولاكو في ثالث عشر شوال وجلس خَرْبَنْدَا على تخت الملك في ثالث عشر (٣) ذى الحجّة وتلقّب غياث الدين محمّدا، وكَتَب إلى السلطان بجلوسه وطلب الصلح وإخمادَ الفتنة .

ثم في السـنة آستأذن الأميرُ سـلّار نائب السلطنة في الحجّ فأَذِن له، فحَجّ كما حَجّ الأمير بِيبَرْس الجَاشْنَكِير في السنة المـاضية سنة آثنتين وسبعمائة إلّا أنّ سلّار صـنَع من المعروف في هذه السنة والإحسان إلى أهل مكّة والمجاورين وغيرِهم وعاد، ثم حجّ الأمير بِيبَرْس الجاشْنَكِير ثانيا في سنة أربع وسبعمائة . وورد الخبر على السلطان الملك النـاصر بقدوم رجل من بلاد التتار إلى دِمشق يقال له الشيخ بُرَاق (٤) في تاسـع جمادى الأولى ومعه جماعةٌ من الفقراء نحو المـائة لهم هيئةٌ عجيبة، على رأسهم كلاوت لباد مقصّـص بعمائم فوقها ، وفيها قُرون من لباد تُشـبه قرون الجـواميس، وفيها أجراسٌ، ولحاهم محلّقة دون شـواربهم، ولُبْسهم لبابيد بيض، وقـد تقلّدوا بحبال منظومة بكعاب البقر ، وكلٌّ منهم مكسور الثَّنِيّة العليا (٥)، وشيخُهم من أبناء الأربعين سـنة ، وفيه إقدامٌ وجُرأة وقوّة نفس وله صَـوْلةٌ ، ومعه طبلخاناه تدقّ له نوبة، وله محتسِبٌ على جماعته ، يؤدِّب كلّ من يترك شيئا من سُنّته، يضرب عشرين عصاة

(١) الري، كانت مدينة بلاد الجبال، اسمها اليوناني القديم «افرو بوس» ثم «راغه» ومنه اشتق الاسم العربي، فتحها نعيم بن مقرن في خلافة عمر وفيها ولد الخليفة هارون الرشيد، وهي الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من شرق طهران (عاصمة ايران) تعرف باسم «مشهد عبد العظيم» . عن معجم الخريطة التاريخية للمالك الاسلامية لأمين واصف بك ص ٥٦ .

(٢) كذا سمي أولا، وكان بعد ذلك: خدابندا، ومعناه: عبد الله . وهو محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى بن جنكزخان . وسيذكر المؤلف وفاته سنة ٧١٦ هـ .

(٣) في السلوك: «في ثالث عشرين ذى الحجة» .

(٤) هو براق القرمى أصله من قرية من قرى دوقات، وكان أبوه صاحب إمرة وعمه كاتبا معروفا . وتجرد هو وصحب الفقراء، وتلمذ له جماعة . وقد ذكرت له المصادر التي ترجمت له حوادث خارقة للعادة . وكانت وفاته سنة ٧٠٧هـ (عن المنهل الصافي والدرر الكامنة) .

(٥) في أحد الأصلين: «الشفة العليا» .

تحت رجليه ، وهو ومن معه ملازمون التعبّد والصلاة ، و إنه قيل له عن زِيّه ، فقال : أردت أن أكون مسخرة الفقراء . وذُكر أنّ غازان لما بلغه خبرُه آستدعاه وألقى عليه سَبُعًا ضاريًا فركب على ظهر السَّبُع ومشى به فخَلَى فى عين قازان ونَثَر عليه عشرة آلاف دينار ، وأنّه عند ما قَدِم دِمَشق كان النائب بالمَيْدان الأخضر فدخل عليه ، وكان هناك نعامةٌ قد تفاقم ضررُها وشرُّها ولم يقدر أحد على الدنو منها ، فأمر النائبُ بإرسالها عليه فتوجّهت نحوَه ، فوثَب عليها وركبها فطارت به فى المَيْدان قَدْرَ خمسين ذراعا فى الهواء حتّى دنا من النائب ، وقال له : أطِير بها إلى فوق شيئًا آخر ؟ فقال له النائب : لا ، وأنعم عليه وهاداه الناس ، فكتب السلطان بمنعه من القدوم إلى الديار المصريّة ، فسار إلى القُدس ثم رَجَع إلى بلاده . وفى فقرائه يقول سِراج الدين عمر الوراق من موشّحة طويلة أوّلها :

[جتنا عَجَمْ من جوِّ الرومْ] (١) * صُوَر تحير فيها الأفكارْ
لها قُرونْ مثل التّيران * إبليسْ يصيح منهم زِنْهارْ

وقد ترجمنا بُراق هذا فى تاريخنا المنهل الصافى بأوسع من هذا . انتهى .

ثم إنّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع وسبعمائة ضَجِر من الحَجْر عليه من تَحَكُّم الأميرين سَلّار وبِيبَرْس الجَاشْنَكِير ومَنْعِه من التصرُّف وضِيق يده ، وشكا ذلك لخاصّته ، وآستدعى الأميرَ بَكْتَمُر الجُوكَنْدَار وهو أمير جَانْدَار يوم ذاك فى خِفْية وأعلمه بما عزَم عليه من القيام على الأميرين سَلّار وبِيبَرْس ، فقرّر معه بَكْتَمُر أنّ القلعة إذا أُغلقت فى اللّيل وحُمِلت مفاتيحُها إلى السلطان على العادة لبِسَتْ مماليك السلطان السلاح وركبت الخيول من الإسطبل وسارت إلى إسطبلات الأمراء ، ودُقّت كُوسات السلطان بالقلعة حَرْبيًّا ليجتمع المماليك تحت القلعة بمن هو فى طاعة السلطان ، قال بَكْتَمُر : وأنا أَهْجُم على بيتَى سَلّار و بِيبَرْس بالقلعة أيضًا .

(١) التكملة عن السلوك فى حوادث سنة ٧٠٦ هـ .

قلت : أعني أنّ بَكْتَمُر كان سكنه بالقلعة ، فيهجُم هو أيضا على بيتى سَلّار وبِيبَرْس بالقلعة أيضا ، ويأخذهما قَبْضًا باليد .

وكان لكلٍّ من بِيبَرْس وسَلّار أَعْيُنٌ عند السلطان ، فبلّغُوهما ذلك فآحترزا على أنفسهما ، وأمرا الأميرَ [سيف الدين] بَلَبَان الدِّمَشْقِيّ (١) والى القلعة ، وكان خَصِيصًا بهما ، أنْ يُوهِمَ أنّه أغلَق باب القلعة ويُطَرِّف أقفالها ويَعْبُر بالمفاتيح إلى السلطان على العادة ففعل ذلك . وظنّ السلطان ومماليكه أنّهم قد حصلوا على غرضهم ، وآنتظروا بَكْتَمُر الجُوكَنْدَار أن يحضُر إليهم فلم يحضُر ، فبعثوا إليه فإذا هو مع بِيبَرْس وسَلّار وقد حَلَف لهما على القيام معهما . فلمّا طَلع النهار ظنّ السلطان أنّ بَكْتَمُر قد غَدَر به وترقّب المكروه من الأمراء وليس الأمر كذلك ، وما هو إلّا أنّ سلّار وبِيبَرْس لمّا بلغهما الخبرُ خرجوا إلى دار النيابة بالقلعة ، وعَزَم بِيبَرْس أن يهجُم على بَكْتَمُر ويقتُلَه فمنعه سلّار لِما كان عنده من التثبُّت والتُّؤَدَة ، وأشار بالإرسال إليه ويُحضره حتّى تبطُل حركةُ السلطان ، فلمّا أتى بَكْتَمُر الرسولُ تحيّر في أمره وقصد الآمتناع ، وألبس مماليكه السلاح ومنعهم وخرج إليهم ، فعنّفه سلّار ولامه على ماقصد فأنكر وحَلَف لهم على أنّه معهم ، وأقام عندهم إلى الصباح ودخل مع الأمراء إلى الخِدْمة عند الأمير سَلّار النائب ، ووقف أَزْامُ سلّار وبِيبَرْس على خيولهم بباب الإسطبل مُتَرَقِّبين خروجَ المماليك السلطانية ، ولم يدخل أحدٌ من الأمراء إلى خدمة السلطان وتشاوَرُوا . وقد أُشيع في القاهرة أنّ الأمراء يريدون قَتْلَ السلطان الملك الناصر أو إخراجَه إلى الكَرَك ، فعزّ عليهم ذلك لمحبّتهم له ، فلم تُفتَح الأسواق ، وخرج العامّة والأجناد إلى تحت القلعة ، وبَقِي الأمراء نهارَهم مجتمعين وبعثوا

(١) زيادة عن السلوك .

بالاحتراس على السلطان خَوْفًا من نزوله من باب السِّر[١]، وألبسوا عِدّة مماليك وأوقفوهم مع الأمير سيف الدين سُمُك[٢] أخى سَلّار على باب الإسطبل[٣] . فلمّا كان نصفُ الليل وقَع بداخل الإسطبل حِسٌّ وحركةٌ من قيام المماليك السلطانية ولُبْسهم السلاح لينزلوا بالسلطان على حَمِيَّة من الإسطبل وتوقّعوا الحرب، فمنعهم السلطان من ذلك، وأراد الأميرُ سُمُك إقامةَ الحُرْمة فرَمَى بالنُّشاب ودَقّ الطَّبْـلَ فوقع سهمٌ من النُّشّاب بالرَّفرف السُّلطانىّ، واستمرّ الحال على ذلك إلى أذان العصر من الغد، فبعث السلطان إلى الأمراء يقول : ما سببُ هـذا الركوب على باب إسطبلى ؟ إن كان غَرضُكم فى المُلك فما أنا مُتَطَلِّع إليه، فخذُوه وابعثونى أىّ موضع أردتم ! فَردُّوا إليه الجواب مع الأمير بِيبَرْس الدَّوَادَار والأمير عِزّ الدين أَيْبَك الخازندار والأمير بُرُلْغى الأشرفى بأنّ السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يُحرِّضونه على الأمراء، فأنكر أن يكون أحدٌ من مماليكه ذَكَر له شيئا عن الأمراء؛ وفى عَوْد الجواب من عند السلطان وقعَتْ صيْحة بالقلعة سببها أنّ العامة كان جمعُهم قد كثُر، وكان عادتهم أنّهم لا يريدون أن يَلِىَ المُلكَ أحدٌ من المماليك، بل إن كان ولا بدّ يكون الذى يَلِى المُلكَ من بنى قلاوون . وكانوا مع ذلك شديدى المحبّة للملك الناصر محمد بن قلاوون .

---

(١) باب السر بقلعة الجبل، ورد فى صبح الأعشى عند الكلام على القلعة (ص ٣٧٢ ج٣) : أنه كان للقلعة ثلاثة أبواب : أحدها من جهة القرافة والجبل المقطم . والثانى باب السر . والثالث بابها الأعظم الذى يعرف بباب المدرج، ثم تكلم على باب السر فقال : ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما، ويتوصل إليه من الصوه وهى بقية النشز الذى بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة بتعريج يمشى فيـه مع جانب جدارها البحرى حتى ينتهى اليه بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام المواكب، وهذا الباب يبقى مغلقا حتى ينتهى اليه من يستحق الدخول أو الخروج منـه فيفتح له ثم يغلق . ومن البحث تبين لى أن باب السر المذكور هو الذى يعرف اليوم بالباب الوسطانى وهو البوابة الوسطانية التى تفصل بين دهليز الباب العمومى البحرى للقلعـة وبين الحوش الذى فيه جامع الناصر محمد بن قلاوون وجامع محمد على باشا بالقلعة . (٢) فى تاريخ سلاطين المماليك : «سموك» بالواو . (٣) هو بذاته باب السلسلة أحد أبواب قلعة الجبل الذى يعرف اليوم بباب العزب بميدان محمد على بالقاهرة . وراجع الحاشية رقم ١ ص ١٦٣ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

فلمّا رأوا العامة أنّ الملك النـاصر قد وَقَف بالرَّفْرَف من القلعة، وحواشى بيبَرْس وسَـلّار قد وقفوا على باب الإسطبل محاصرينه، حَنِقُوا من ذلك وحملوا وصَرَخُوا يدًا واحدة على الأمراء بباب الإسطبل، وهم يقولون : يا ناصر يامنصور ! فأراد سُمُك قتالهم، فمنعه من كان معـه من الأمراء وخوّفه الكَسْرة من العوامّ، فتقهقروا عن باب الإسطبل السلطانىّ وسَـطَا عليهم العامّةُ وأفحشوا فى حقّهم . وبلغ ذلك بيبَرْس وسَـلّار فأركبا الأمير بَتْخاص المنصورىّ فى عِدّة ممـاليك فنزلوا إلى العامة يُخَوِّنهم ويضربونهـم بالدبابيس ليتفرّقوا فآشـتدّ[1] صِياحُهم : يا ناصر يامنصور ! وتكاثر جمعُهم وصاروا يدعون للسلطان، ويقولون : الله يَخُون الخائن، الله يخون من يخون آبن قلاوون ! ثم حَمَل طائفةُ منهم على بَتْخاص ورَجَمه طائفة أخرى، فجرّد السيفَ ليضَعَه فيهم فخشِىَ تكاثُرَهم عليه، فأخذ يُلاطفهم، وقال لهم : طيِّبوا خاطِرَكم، فإنّ السـلطان قد طاب خاطِره على أمرائه، وما زال يَحْلِف لهم حتّى تفرّقوا؛ وعاد بَتْخاص إلى سَلّار وبيبَرْس وعرّفهم شِـدَّة تعصُّب العامّة للسلطان؛ فبعث الأمراءُ عند ذلك ثانياً إلى السلطان بأنّهـم مماليكُه وفى طاعته، ولا بُدّ من إخراج الشباب الذين يَرْمُون الفِتْنة بين السلطان والأمراء، فآمتنع السلطان من ذلك وآشـتدّ، فما زال به بيبَرْس الدّوَادار وبُرُلْغِى حتّى أخرج منهـم جماعةً وهم : يَلْبُغَا التُّرْكَمَانِىّ، وأَيْدَمُر[2] المَرْقِبِى، وخاصّ تُرك؛ فهدّدهم بيبَرْس وسَلّار وبَجْاهم وقصد سلّار أن يُقَيِّدهم، فلم تُوافق الأمراء على ذلك رعايةً لخاطر السلطان؛ فأخْرِجوا إلى القُدس من وقتهم على البريد . ودخل جميعُ الأمراء على السلطان وقبّلوا الأرض ثم قبّلوا يده لخلَع على الأمير بيبَرْس وسَلّار، ثم سأل الأمراءُ السلطانَ أن يركبَ فى أمرائه

(١) فى الأصل الآخر : «فكثر غوشهم وآشتد صياحهم» .

(٢) كان من أمراء دمشق ثم طرابلس ومات بها سنة ٧٤٤ هـ (عن الدرر الكامنة) .

إلى الجبل الأحمر[(١)] حتّى تطمئنّ قلوبُ العامّة عليه و يعلموا أنّ الفتنة قد خمدت ، فأجاب لذلك . و بات ليلته فى قلق زائد وكرب عظيم لإخراج مماليكه المذكورين إلى القدس . ثم ركب بالأمراء من الغد إلى قبّة النصر[(٢)] تحت الجبل الأحمر ، وعاد بعد ما قال لبيبرس وسلار : إنّ سبب الفتنة إنما كان من بكتمر الجوكندار ، وذلك أنه رآه قد ركب بجانب الأمير بيبرس الجاشنكير وحادثه فتذكّر غدره به فشقّ عليه ذلك فتلطّفوا به فى أمره ؛ فقال والله ما بقيت لى عين تنظر إليه ، ومتى أقام فى مصر لا جلستُ على كرسى المُلك أبدًا فأُخرج من وقته إلى قلعة الصُّبيبة[(٣)] ، وآستقرّ عوضه أميرُ جاندار الأمير بدر الدين بكتوب الفتّاح . فلمّا مات سُنقُرشاه بعد ذلك آستقرّ بكتمر الجوكندار فى نيابة صفد عوضه فنقل إليها من الصُّبيبة . وآجتاز السلطان بخانقاه[(٤)]

---

(١) هو من الجبال المشرفة على القاهرة فى جهتها الشرقية البحرية . راجع الحاشية رقم ٤ ص ٢٦١ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٢) كانت واقعة بقرب الجبل الأحمر . وراجع الحاشية رقم ١ ص ٤١ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٣) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢٨١ من الجزء السادس من هذه الطبعة . (٤) خانقاه الأمير بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية ، هى التى ذكرها المقريزى فى خططه باسم خانقاه ركن الدين بيبرس (ص ٤١٦ ج ٢) وقال : إنّ هذه الخانقاه من جملة دار الوزارة الكبرى وهى أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقدارا وأتقنها صنعة ، بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير قبل أن يلى السلطنة وهو أمير ، فبدأ فى بنائها فى سنة ٧٠٦ هـ وأتمها فى سنة ٧٠٩ هـ و بنى بجانبها رباطا كبيرا يوصل إليه من داخلها ، وجعل بجانب الخانقاه قبة بها قبره ، وقرر بالخانقاه أربعمائة صوفى ، و بالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت . وجعل بها مطبخا يفرق على كل منهم فى كل يوم الخبز واللحم والحلوى ، ورتّب بالقبة درسا للحديث النبوى .

وأقول : إن هذه الخانقاه لا تزال موجودة إلى اليوم بشارع الجمالية بالقاهرة باسم جامع بيبرس أو البيبرسية أو خانقاه بيبرس ، وجهتها غربية فوقها مئذنة أثرية على شكل مآذن العصر الأيوبى ، يعلوها خوذة مضلعة كانت مكسوة بالقاشانى ، و يمتد بأعلى الوجهة طراز عريض يدور مع تجويف الباب العمومى مكتوب فيه بخط مملوكى كبير اسم السلطان بيبرس وألقابه وتاريخ إنشاء الخانقاه . و يوجد على يسار الداخل من الباب العمومى قبة شاهقة بها قبر منشئها ، و يكسو جدرانها وزرة من الرخام و يحيط بصحن الجامع إيوانان بسقف معقود ، و بأحدهما المحراب وعدة قاعات يعلوها دوران من الغرف ، كانت مخصصة لإقامة الصوفية ، وأما الرباط فقد زال ؛ ومكانه اليوم الوكالة التى أنشأها سليمان أغا السلاح دار فى سنة ١٢٣٣ هـ ولا تزال موجودة باسم حوش عطى بجوار هذا الجامع من الجهة البحرية بشارع الجمالية المذكور .

الأمير بِيبَرْس الجَاشْنَكِير داخل باب النصر فرآها فى ممره، وكان قد نَجزَ العملُ منها فى هذه الأيام، وطلَعَ السلطان إلى القلعة وسكَن الحال، والأمراءُ فى حَصْر من جهة العامّة من تعصُّبهم للسلطان، والسلطان فى حَصْر بسبب حَجْر الأمراء عليه و إخراج ممـاليكه من عنده . وآستمرّ ذلك إلى أن كان العاشر من جُمَـادَى الآخرة من سنة ثمانٍ وسبعمائة عَدّى السلطانُ الجيزةَ وأقام حول الأهرام(١) يتصيّد عشرين يومًا، وعاد وقد ضاق صدرُه وصار فى غاية الحَصْر من تحكُّم بِيبَرْس الجَاشْنَكِير وسلّار عليه، وعدَمِ تصرُّفه فى الدولة من كلّ ما يريد، حتى إنّه لا يصل إلى ما تشتهى نفسه من المأكل لقلة المرتّب له ! فلولا ما كان يتحصّل له من أملاكه وأوقاف أبيه لمـا وجَد سبيلا لبلوغ بعض أغراضه، وطال الأمر عليه سنين، فأخذ فى عمل مصلحة نفسه

(١) الأهرام، هى من أقدم الآثار المصرية وأشهرها ومن أضخم المبانى الأثرية وأعلاها آرتفاعا عن سطح الأرض، وقد عدّها كتّاب التاريخ من عجائب الدنيا .

والغرض من بناء الأهرام هو جعلها قبورا للملوك الذين شـيدوها على شكل هرمى ذى قاعدة مربعة، ويشمل كل هرم على حجرة أو عدة حجرات يدخل اليهـا الإنسان من دهاليز منحدرة منحوتة فى ذات البناء لدفن الملوك وأقاربهم .

وكان يوجد بأرض مصر أهرام كثيرة بعضهـا كبير والبعض صغير وبعضهـا من طين ولبن وأكثرها من الحجر الأملس وبعضها مدرج وكلها على شكل هرمى .

ويوجد الآن بمصر نحو ستين هرما قد أقيمت متعاقبة بعضها وراء بعض على سفح الجبل الغربى من تجاه مدينة الجيزة إلى ناحية اللاهون بالفيوم، وأشهرها الأهرام الثلاثة القائمة غربى مدينة الجيزة والمعروفة بأهرام الجيزة وهى التى يشير إليها المؤلف . ويليها أهرام سقارة ثم دهشور ثم اللشت ثم ميدوم ثم الفيوم .

وأطول الأهرام آرتفاعا الهرمان الشهيران بالجيزة، فأحدهما أنشأه الملك خوفو (كيوبس) وكان ارتفاعه ٥٠و١٤٦ م . وأما اليوم فارتفاعه ١٣٧ م، بسبب تساقط أحجار قمته، وكان طول كل ضلع من أضـلاع قاعدته ٣٥و٢٣٠ م . ومن تساقط الأحجار أصبـح طول الضلع الواحد ٥٠و٢٢٧ م . والهرم الثانى أنشأه الملك خفرع (كفرن) وكان ارتفاعه ٥٠و١٤٣، وبسبب تساقط أحجار قمته أصبح ارتفاعه ٤٠و١٣٦، وكان طول كل ضلع من أضـلاع قاعدته ٢١٥ م . وبسبب تساقط الأحجـار أصبح طول الضلع الواحد ٢١٠ م، ويجاور هـذين الهرمين هرم ثالث أصغر منهما أنشأه الملك منقورع (مكرينوس)، وهؤلاء الملوك الثـلاثة من ملوك الأسرة الرابعة المصرية الفرعونيـة التى حكمت مصر من سنة ٢٩٠٠ ق م الى سنة ٢٧٥٠ ق م .

وأظهر أنّه يريد الحجّ بعياله ، وحدّث بيبرس وسلّار فى ذلك يوم النصف من شهر رمضان فوافقاه عليه ، وأعجب البرجيّة خشداشية بيبرس سفره لينالوا أغراضهم وشرعوا فى تجهيزه ، وكتب إلى دمشق والكرك وغزّة برمى الإقامات ، وألزم عرب الشرقية بحمل الشعير ، فتهيّأ ذلك ، وأحضر الأمراء تقادمهم له من الخيل والجمال فى العشرين من شهر رمضان فقبلها منهم وشكرهم على ذلك . وركب فى خامس عشرين شهر رمضان من القلعة يريد السفر إلى الحجّ ، ونزل من القلعة ومعه جميع الأمراء ، وخرج العامّة حوله وحاذوا بينه وبين الأمراء ، وهم يتباكون حوله ويتأسفون على فراقه ويدعون له إلى أن نزل بركة الحجاج . وتعيّن للسفر مع السلطان من الأمراء : عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ الأستادار ، وسيف الدين آل ملك الجوكندار ، وحسام الدين قرا لاچين أمير مجلس ، وسيف الدين بلبان [المحمدىّ][1] أمير جاندار ، وعزّ الدين أيبك الرومى السلاح دار ، وركن الدين بيبرس الأحمدىّ ، وعلم الدين سنجر الجمقدار ، وسيف الدين تقطاى[2] الساقى ، وشمس الدين سنقر السعدىّ النقيب ؛ ومن المماليك خمسة وسبعون نفرا . وودّعه سلّار وبيبرس بمن معهم من الأمراء ، وهم على خيولهم من غير أن يترجّلوا له وعاد الأمراء ، فرحل السلطان من ليلته وخرج إلى جهة الصالحيّة[3] وتصيّد بها ، ثم سار إلى الكرك ومعه من الخيل مائة وخمسون فرسا ، فوصل إلى الكرك فى يوم الأحد عاشر شوّال بمن معه من الأمراء ومماليكه . واحتفل الأمير جمال الدين آقوش الأشرفى نائب الكرك بقدومه وقام له بما يليق به ، وزيّن له القلعة والمدينة ، وفتح له باب السرّ من قلعة الكرك ومدّ الجسر على الخندق ، وكان له مدّة سنين لم يمدّ وقد ساس خشبه لطول مكثه .

(١) زيادة عن ابن إياس وتاريخ سلاطين المماليك وعقد الجمان . (٢) فى الأصلين : « تقطاى السنانى » . وما أثبتناه عن السلوك وعقد الجمان . وذكر صاحب الدرر الكامنة أن « طقطاى » ترسم بالتاء والطاء . (٣) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٠٥ من الجزء الخامس من هذه الطبعة .

فلمّا عَبَرت الدوابّ عليه وأتى السلطان فى آخرهم آنكسر الجسرُ تحت رِجْلَى فرس السلطان بعد ما تعدّى يدا الفرس الجسرَ، فكاد فرسُ السلطان أن يسقُط لولا أنهم جبذُوا عِنان الفرس حتّى خرج من الجسر وهو سالمٌ، وسقَط الأمير بَلَبان طُرُنا أمير جاندار وجماعةٌ كثيرة، ولم يمُت منهم سوى رجل واحد وسقط أكثرُ خاصّكيّة السلطان فى الخنْدق وسَلِموا كلُّهم إلا آثنين، وهم: الحاج عِزّ الدين أَزْدَمُر رأس نَوْبة الجَمَدَاريّة آنقطع نُخاعه و بطَل نصفُه وعاش كذلك لسنة ستّ عشرة وسبعمائة، والآخر مات لوقته.

قال آبنُ كثير فى تاريخه: ولمـا توسـط السلطان الجسرَ آنكسر فسَلِم من كان قُدّامه وقفَز به فرسُه فسَلِم، وسقَط من كان وراءه وكانوا خمسين فمـات أربعة وتهشّم أكثرُهم فى الوادى تحته. انتهى.

وقال غيره[1]: لمـا آنقطعت سلسلة الجسر وتمزق الخشبُ صرَخ السلطان على فرسه وكان قد نزلت رِجْلُه فى الخشب فوثّب الفرسُ إلى داخل الباب، ووقع كلُّ من كان على الجسر وكانوا أكثرَ من مائة مملوك، فوقعوا فى الخَنْدق فمات منهم سبعةٌ وآنهشم منهم خَلْقٌ كثير وضاق صدرُ السلطان[2]، فقيل له: هـذه شِدّة يأتى من بعدها فرج!.

ولمـا جلس السلطان بقلعة الكَرَك ووقف نائبُها الأميرُ آقوش تَجِلا وجلا خائفًا أن يتوهّم السلطان أن يكون ذلك مكيدةً منـه فى حقّه، وكان النائب المذكور قد عَمِل ضِيافةً عظيمة للسلطان غَرِم عليها جملةً مستكثرةً، فلم تقع المَوْقِـعَ لآشتغال

(١) يريد به ابن دقماق صاحب نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام كما فى عقد الجمان.

(٢) فى عقد الجمان: «فضاق صدر السلطان» وقال فى نفسه: هـذه شدة يكون عقبها خيرا إن شاء الله تعالى»

السلطان بهمّه و بمـا جَرَى على ممـاليكه وخاصّكيّته . ثم إنّ السلطان سـأل الأمير آقوش عن الجسر المذكور فقال : ماسبب آنقطاعه ؟ فقال آقوش بعـد أن قبّل الأرض : أيّد الله مولانا السلطان، هذا الجسر عتيقٌ وثَقُل بالرجال فمـا حَمل، فقال السلطان : صدقتَ، ثم خَلَع عليـه وأمره بالآنصراف . وعند ما آستقرّ السلطان بقلعـة الكَرَك عَرَّف الأمراء أنّه قد آنثنى عزمُه عن الحجّ ، وآختار الإقامة بالكَرَك وترك السلطنة ، وخَلَع نفسه ليستريح خاطرُه .

وقال آبن كثير : لمـّا جَرَى على السلطان ما جرى وآسـتقرّ فى قلعة الكَرَك خلَع على النائب، وأذِن له فى التوجُّه إلى مصر فسافر .

وقال صاحب النُّزْهة : لمـّا بات السلطان تلك الّليلةَ فى القلعة وأصـبح طلَب نائبَ الكَرَك وقال له : ياجمال الدِّين، سافر إلى مصر وآجتمِـع بخُشْدَاشيّتِك فباس الأرضَ، وقال : السمعَ والطاعةَ، ثم إنّه خرج فى تلك الساعة بمماليكه وكلِّ من يلوذ به . ثم بعد ثلاثة أيام نادَى السلطان بالقلعة والكَرَك لا يبقى هنا أحدٌ لا كبيرٌ ولا صغيرٌ حتّى يخرجَ فيجيبَ ثلاثةَ أحجار من خارج البلد، فخرجَ كلُّ من بالقلعة والبلد . ثم إنّ السلطان أغلق باب الكَرَك ورجَعت الناس ومعهم الأحجار فرأَوُا الباب مُغلقا فقيل لهم : كلّ من له أولادٌ أو حريمٌ يخرج إليه ولا يبقَ أحدٌ بالكَرَك ، فخرج الناس بمتاعهم وأولادهم وأموالهم، وما أمسى المَسـاء و بقى فى الكرك أحدٌ من أهلها غيره ومماليكه . ثم طَلَب مملوكَه أَرْغُون[1] الدَّوَادار وقال له : سِرْ إلى عقبة أَيْلة[2] وأحضِر بيتى وأولادى، فسار إليهم أَرْغُون وأقدمهم عليه . ووجَد الملك الناصر من الأموال

(١) هو أرغون بن عبـد الله الدوادار سيف الدين الناصرى . سـيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٣١ هـ . وقد ذكر له صاحب الدرر الكامنة ترجمة طويلة فراجعها .

(٢) راجع الحاشية رقم ٨ ص ٢٠٦ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

بالكَرَك سبعةً وعشرين ألف دينار عَيْناً، وألف ألف درهم وسبعمائة ألف درهم.
ثم إنّ السلطان طَلَب الأمراء الذين قَدِموا معه وعرفهم أنّه آختار الإقامة بالكَرَك كما
كان أوّلا، وأنه ترك السلطنة فشَـقّ عليهم ذلك وبَكَوْا وقبّلوا الأرض يتضرّعون
إليه فى تَرْك هذا الخاطر وكَشَفُوا رءوسهم فلم يَقْبَل ولا رجَع إلى قولهم. ثم آستدعى
القاضىَ علاء الدين[1] علي بن أحمد بن سعيد بن الأثير كاتب السرّ، وكان قد توجّه ٥
معه، وأَمَره أن يكْتُب للأمراء بالسلام عليهم، ويُعَرّفهم أنّه قد رجَع عن الحجّ وأقام
بالكَرَك ونَزَل عن السلطنة، وسألهم الإنعام عليه بالكَرَك والشُّوبَك، وأعطى الكُتُبَ
للأمراء وأَمَرهم بالعَوْدة إلى الديار المصريّة، وأعطاهم الهُجُنَ التى كانت معه برَسْم
الحجّ، وعِدّتُها خمسمائة هَجِين والجمال والمال الذى قدّمه له الأمراءُ برَسْم التَّقْدِمة قبل
خروجه من القاهرة، فساروا الجميع إلى القاهرة. ١٠

وأمّا إخراج السلطان أهلَ قلعة الكَرَك منها لأنّه قال: أنا أعلم كيف باعوا الملِك
السعيد بَرَكَة خان آبن الملك الظاهر بيبَرْس بالمال لِطُرُنْطاى! فلا يُجَاورونى، فخرج
كلّ من كان فيها بأموالهم وحريمهم من غير أن يتعرّض إليهم أحدٌ البتّة.

وأمّا النائب آقوش فإنّه أخذ حريمه وسافر إلى مصر بعد أن قَدّم ما كان له
من الغِلال إلى السلطان، وهو شيءٌ كثير، فقَبِله السلطانُ منه. فلمّا قَدِم آقوش ١٥
إلى مصر قال له سَلّار وبيبَرْس: مَن أمرك بتمكين السلطان من الطلوع إلى القلعة؟
(يعنى قلعة الكَرَك) فقال: كتابُكم وصل إلىّ يأمرنى بأن أَنْزِل إليه وأُطلِعَه إلى القلعة،
فقال: وأين الكتاب؟ فأخرجه، فقالا: هذا غيرُ الكتاب الذى كتبناه فآطلبوا
أَلْطُنْبُغَا، فطلبوه فوجدوه قد هرب إلى الكَرَك عند السلطان فسكتوا عنه. انتهى.

---

(١) سيذكر المؤلف وفاته فى حوادث سنة ٧٣٠ هـ.

وأمّا الكتاب الذى كتبه الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكَرَك إلى بيبَرْس وسَلّار مضمونه ، بسم الله الرحمن الرحيم :

حَرس الله تعالى نعمة الجَنابَيْن العالِيَيْن الكبيرين الغازِيَيْن المجاهِدَيْن ، وفقهما الله تعالى توفيقَ العارفين! أمّا بعدُ فقد طلَعتُ إلى قلعة الكَرَك وهى من بعض قِلاعى ومُلْكى ، وقد عوّلتُ على الإقامة فيها ، فإن كنتم مماليكى ومماليكَ أبى فأطيعوا نائبى (يعنى نائبه سلّار) ولا تخالفوه فى أمر من الأمور ، ولا تعملوا شيئاً حتّى تشاورونى فأنا ما أريد لكم إلّا الخير ، وما طلعتُ إلى هـذا المكان إلا لأنه أَرْوَحُ لى وأقلُّ كُلْفةً ، وإن كنتم ما تسمعون منى فأنا مُتوكِّلٌ على الله والسلام .

فلمّـا وصل الكتاب إلى الأمراء قرءوه وتشاوروا ساعة ، ثم قاموا من باب القلعة وذهبوا إلى دار بيبرس وآتفقوا على أن يُرسِـلوا إلى الملك الناصر كتابا ، فكتبوه وأرسلوه مع البَرْوانِىّ على البريد ، فسار البَرْوانِىّ إلى أن وصل إلى الكرك وآجتمع بالملك الناصر وقبّل الأرض بين يديه وناوله الكتاب ، فأعطاه الملك الناصر لأَرْغُون الدَوادار ، فقرأه فتبسّمَ السلطان وقال : لا إله إلا الله! وكان فى الكتاب : ما علِمْنا ما عوّلت عليه ، وطُلُوعَك إلى قلعة الكَرَك و إخراجَ أهلها وتشييعَك نائبها ، [وهذا أملٌ بعيد][(١)] نخلِّ عنك شُغْل الصّبِىّ ، وقُمْ وآحضر إلينا و إلّا بعد ذلك تطلُب الحضور ولا يَصِـحّ لك ، وتندم ولا يَنفعك النّـدَم . فياليت لو علمنا ما كان وقع فى خاطرك وما عوّلت عليه ، غيرَ أنّ لكلِّ مُلْك آنصرام ، ولآنقضاء الدولة أحكام ، ولحلول الأقدار سهام؛ ولأجل هـذا أَمرك غَيُّك بالتطويل ، وحسّن لك زُخْرُفَ الأقاويل؛ فالله الله حال وقوفك على هذا الكتاب ، يكون الجواب حضورَك بنفسك ومعك مماليكك ، و إلا تعـلم أنّا ما نُخَلِّيك فى الكَرَك ، [ولو كثُر شاكروك][(١)] ويخرج المُلْك من يدك؛ والسلام .

(١) الزيادة عن عقد الجمان .

فقال الملك الناصر : لا إله إلا الله، كيف[1] أظهروا ما فى صدورهم ! ثم أمر بإحضار آلة المُلك مثل العصائب والسناجق والكُوسات [والهُجُن][2] وكلّ ما كان معه من آلة الملك وسلّمها إلى البَرْوَانِىّ ، وقال له : قل لسَلّار ما أخذتُ لكم شيئا من بيت المال، وهذا الذى أخذتُه قد سيرتُه لكم، وآنظروا فى حالكم فأنا ما بَقِيت أعمل سلطانا، وأنتم على هذه الصورة ! فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إمّا بالموت و إمّا بغيره . فأخذ البَرْوَانِىّ الكتاب و جميعَ ما أعطاه السلطان وسار إلى أن وصل إلى الديار المصريّة؛ ودفَع الكتاب لسَلّار وبِيبَرْس ، فلما قرأا الكتاب قالا : ولو كان هذا الصبىّ يجىء ما بَقِى يُفْلِح ولا يصلُح للسلطنة ، وأىّ وقت عاد إلى السلطنة لا نأمن غَدْرَه . فلمّا سمعت الأمراء ذلك آجتمعت على سلطنة الأمير سَلّار ، فخاف سَلّار من ذلك وخَشِى العاقبةَ فآمتنع ، فآختار الأمراء ركن الدين بِيبَرْس الجَاشْنَكِير وأكثرُهم البرجية فإنّهم خُشْداشِيّتُه . وبُويع له بعد أن أثبتَ كتابَ الملك الناصر محمد بن قلاوون على القضاة بالديار المصريّة بأنّه خلَع نفسه ، وكانت البَيْعَة لبِيبَرْس فى الثالث والعشرين من شَوّال من سنة ثمان وسبعمائة فى يوم السبت بعد العصر فى دار سَلّار . يأتى ذكر ذلك كلّه فى أوّل ترجمة بِيبَرْس ، إن شاء الله تعالى. وكانت مُدّةُ سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى هذه المرّة الثانية عشر سنين وخمسة أشهر وتسعة[3] عشر يوما . وتأتى بقيّة ترجمته فى سلطنته الثالثة ، بعد أن نذكر سلطنة بِيبَرْس وأيّامَه ، كما نذكر أيّام الملك الناصر هذا قبل ترجمة بيبرس المذكور على عادة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . والحمد لله وحده .

---

(١) فى عقد الجمان : « لقد أظهروا ... الخ » . (٢) الزيادة عن عقد الجمان .

(٣) فى السلوك : « وسبعة عشر يوما » .

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر محمـد بن قلاوون الثانية على مصر، وهى سنة ثمان وتسعين وستمائة، على أن الملك المنصور لاچين كان حكم منها مائة يوم.

فيها كان قَتْـل الملك المنصور حُسام الدين لاچين المذكور ومملوكه مَنْكُوتَمُر حسب ما تقدّم.

وفيها فى العَشْر الأوسط من المحرّم ظهر كوكبٌ ذُو ذُؤابةٍ فى السماء ما بين أواخر بُرْج الثَّوْر إلى أوّل بُرْج الجَوْزاء، وكانت ذُؤابتُه إلى ناحية الشمال، وكان فى العَشْر الأخير من كانون الثانى وهو شهر طُوبة[1].

وفيها تُوُفِّىَ القاضى نظام الدين أحمد آبن الشيخ الإمام العلّامة جمال الدين محمود ابن أحمد بن عبدالسلام الحَصِيرىّ[2] الحنفىّ فى يوم الخميس ثامن[3] المحرّم ودُفِن يوم الجمعة بمقابر الصوفيّة[4] عند والده، وكان إمامًا عالمـا بارعًا ذكيًّا وله ذِهْنٌ جيّد وعبارةٌ طَلِقةٌ مفيدةٌ، ودرّس بالنُّورِيّة[5] وغيرها وأَفْتَى سنين وأَقْرأ، وناب فى الحُكْم بِدَمشـق عن قاضى القُضاة حُسام الدين الحنفىّ[6] وحسُنت سِيرتُه رحمه الله.

---

(١) هو الشهر الخامس من شهور القبـط . ودخوله فى السادس والعشرين من كانون الأوّل من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثانى (صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٧٥).

(٢) فى الأصلين والوافى بالوفيات للصـفدى : «ابن عبد السيد» . وما أثبتناه عن المنهل الصافى وجواهر السلوك وعقد الجمان والبداية والنهاية لابن كثير.

(٣) فى الأصلين : «ثانى المحرم». والتصحيح عن جواهر السلوك والتوفيقات الإلهامية والمنهل الصافى والبداية والنهاية لابن كثير.

(٤) يريد مقابر الصوفية بدمشق.

(٥) النورية، نسبة إلى نور الدين محمود الشهيد، كان له بدمشق مدرستان بهذا الاسم، وهما النورية الكبرى التى كانت قديما دار معاوية بن أبى سفيان ودار هشام ابن عبد الملك . والنورية الصغرى وهى المدرسة التى كانت بجامع قلعة دمشق (عن خطط الشام ج ٦ ص ٩٧ ومختصر تنبيه الطالب و إرشاد الدارس فى أخبار المدارس، لعبد الباسط العلوى الدمشـقى (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤١٩ تاريخ).

(٦) راجع الحاشية رقم ٦ ص ٢٨ من الجزء السابع من هذه الطبعة.

وفيها تُوُفّى الأميرُ عزّ الدين أَيْبَك المَوْصِلىّ [المنصورى(١)] نائب طرابُلُس والفتوحات الطرابُلُسيّة فى أوّل صفر مسموما . وكان من أجلّ الأمراء وله مواقفُ مشهورة .

وفيها توفّى قتيلًا الأميرُ سَيْف الدين طُغْجِى بن عبد الله الأَشْرَفىّ . أصله من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون . وقُتِل أيضًا الأمير سيف الدين كُرْجِى . والأمير نُوغاى الكرمونى السلاح دار ، وهؤلاء الذين قتلوا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين ومملوكه مَنْكُوتَمُر ، ثم قُتِلوا بعده بثلاثة أيام حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّه فى آخر ترجمة الملك المنصور لاچين مُفَصّلًا ، وقُتِل معهم تمامُ اثنى عشر نَفَرًا من الأمراء والخاصّكيّة ممّن تألّبُوا على قتل لاچين .

وفيها تُوُفّى الأمير بدر الدين بدر [الحَبَشىّ(١)] الصَّوَابىّ [الخادم(١)] فى ليلة الخميس تاسع جمادى الأولى بقرية الخِيَارة(٢) ، كان خرج إليها فمَرِض بها ومات ، وقيل بل مات فَجْأةً وهو الأصحّ فحُمِل منها إلى جبل قاسيون ، ودُفِن بتُربته التى أعدّها لنفسه . وكان أميرًا مباركا صالحا دَيِّنا خيِّرا . قال عِزّ الدين بن عبد الدائم : أقام أميرَ مائة ومُقَدَّم ألف أكثرَ من أربعين سنة ، وولى إمْرة الحاجّ بدِمَشْق غيرَ مرّة . رحمه الله .

وفيها تُوُفّى العلّامة حُجّة العَرَب الإمام الأستاذ بهاء الدين أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحَلَبىّ النحوىّ المعروف بآبن النّحّاس ، مات بالقاهرة فى يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى وأُخرِج من الغد ، ودُفِن بالقرافة بالقُرْب من تُرْبة الملك المنصور لاچين ، ومولده فى سنة سبع وعشرين وستمائة بحلب ، وكان إماما عالما علّامة بارعا فى العربيّة ، نادرةَ عصره فى فنون كثيرة . وله نظم ونثر .

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام والمنهل الصافى . (٢) قرية ذكرها ياقوت فى الكلام عن حطين بالقرب منها ، قال : وبها قبر شعيب عليه السلام . والقرية اندثرت الآن وأما قبر سيدنا شعيب فباق بالقرب من حطين ؛ وحطين تابعة لقضاء طبرية فى فلسطين (انظر ياقوت وانظر جغرافية فلسطين لروحى ص ٦٠ وما بعدها) .

قال العلّامةُ أثيرُ الدين أبو حيّان[(١)] : قال حدّثنا الشيخُ بهاء الدين آبن النحاس قال : آجتمعتُ أنا والشِّهاب مسعود السُنبُلِى والضياءُ المُناوى[(٢)] فأنشد كلٌّ منا له بيتين، فكان الذى أنشده السُّنبُلِى فى مَليح مُكارِى :

عَلِقتُـه مُكـارِيًا * شَرّدَ عن عينى الكَرَى
قد أشـبَه البَدر فلا * يَمَلّ من طول السُّرَى

وأنشد المُناوِى فى مليح آسمه جَمْرِى :

أَفدِى الذِى يَكبُتُ بَدرَ الدُّجَى * لحُسْـنه الباهر من عَبْـده
سَمَّـوه جَمْرِيًا وما أنصـفُوا * ما فيـه جمرى سـوى خَدّه

وأنشد الشيخ بهاء الدين هذا فى مَليح مشروط :

قلت لمـا شرطوه وجَرَى * دَمُهُ القانِى على الوجه اليَقَقْ
غيرُ بِدْعٍ ما أَتَوْا فى فعلهم * هو بَدْرٌ سَـتَرُوه بالشَّفَقْ

قلت : ونظمُ الثـلاثة نظمٌ متوسِّط ليس بالطبقة العُلْيـا . وأحسن من الأوّل قولُ من قال :

أَفدِى مُكارِيًا تراه إذا سـعَى * كالبَرْق يتنهبُ العيونَ ويَخْطَفُ
أخذ الكِرَا مِنِّى وأَحْرَمَنِى الكَرَى * بينى و بينك يا مُكارِى المَوْقِفُ

وأحسن من الأخير قولُ من قال، وهو نجم الدين عبد المجيد بن محمد التَّنُوخِى :

أنظُـرْ إليه وسَـلْ قَلْـبَكَ عن محبتـه لَعَلّكْ
مَلَك الفـؤادَ بغـير شَرْ * طٍ حُسْنُه والشَّرْطُ أَمْلَكْ

---

(١) هو محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسى الغرناطى، نحوى عصره ولغو يه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبـه ، . سيذكر المؤلف وفاته سـنة ٧٤٥ هـ

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن المناوى ضياء الدين . توفى سـنة ٧٤٦ هـ . (عن شذرات الذهب والدرر الكامنة) .

غيرُه في المعنى :

شرَّطوه فبـكى من ألَمٍ * فغـدا ما بين دمْعٍ ودمِ
ناثراً من ذا ومن ذا لؤلؤاً * وعقيقـاً ليس بالمنتظِمِ

وفيها تُوُفِّيَ الصاحب تقيّ الدين أبو البقاء [الربعيّ][1] توبةُ بن عليّ بن مُهاجِر بن شُجاع بن توبة التَّكْرِيتيّ [المعروف بالبيّع][2] في ليلة الخميس ثامن جُمادَى الآخرة ودُفِن بقاسيون . وكان رئيسًا فاضلاً ولى الوزَر بدمشق لخمسة سلاطين : أوّلهم المنصور قلاوون ، ثانيهم ابنـه الأشرف خليل ، ثم لأخيـه الناصر محمد ، ثم للعادل كَتْبُغَا ، ثم للمنصور لاچين . انتهى . وكان مولده سنة عشرين وستمائة .

وفيها في أوّل ذى القعدة وقيل في شوّال تُوُفِّيَ بالقاهرة الأمير الكبير بدر الدين بَيْسَرِى[3] بن عبد الله الشَّمسيّ الصالحيّ النَّجْمِيّ بالسِّجن بقلعة الجبل ، ودُفِن بتربته بالقاهرة . كان أميرًا جليلاً مُعَظَّمًا في الدُّول ، كان الظاهر بيبَرْس يقول : هـذا ابن سـلطاننا في بلادنا ! وعُرِضت عليه السـلطنة لـما قتل الملك الأشرف خليل ابن قلاوون فامتنع ، وكانت قد عُرِضت عليه قبل ذلك بعد الملك السَّعيد بن الظاهر فلم يَقْبَل ، وهو آخر من بقِيَ من أكابر ممـاليك الملك الصالح نجم الدين أيُّوب ، وترَقَّى حتى صار أميرَ مائة ومقدَّمَ ألف ، وعَظُم في الدُّوَل حتّى قبَض عليه خُشْداشُهُ المنصور قلاوون وحبسه تسـع سنين إلى أن أطلقه ابنه الأشرف خليل وأعاده إلى رتبته ، فاستمرّ إلى أن قبَض عليه المنصور لاچين وحبَسه إلى أن قُتِل لاچين ، وأُعيد الناصر محمد بن قلاوون فكلّموه في إطلاقه فأبى إلا حبسَه إلى أن مات في الجُبّ[4] . وكانت له

(١) زيادة عن الذهبي والمنهل الصافي . (٢) زيادة عن المصدرين المتقدمين وجواهر السلوك والوافي بالوفيات للصفدي . (٣) تربة بيسري ، يستفاد مما ذكره المقريزي عند الكلام على هذا الأمير أنه مات في ١٩ شوال سنة ٦٩٨ هـ ودفن بتربته خارج باب النصر وقد اندثرت مع القبور التي لم يحافظ عليها . (٤) في الأصلين : « إلى أن مات في البرج » . وما أثبتناه عن المنهل الصافي .

دارٌ عظيمةٌ ببين القصرين وقد تغيّرت رُسُومها الآن [1]. وكان عالىَ الهِمّة كثيرَ الصدقات والمعروف، كان عليه فى أيام إمْرته رَوَاتِبُ لجماعة من ممـاليكه وحواشيه وخَدَمه، فكان يُرَتّب لبعضهم فى اليوم من اللّحم سبعين رِطْلًا وما تحتاج إليه من التّوابِل وسبعين عَلِيقةً، ولأقلّهم خمسة أرطال [2] وخمس علائق وما بين ذلك، وكان مايَحْتَاج إليه فى كلّ يوم لِسِماطه ولِدُوره والمُرَتّب عليه ثلاثةَ آلاف رطْل لحم وثلاثة آلاف عليقة فى كلّ يوم؛ وكانت صـدقتُه على الفقير مافوق الخمسمائة ولا يُعْطِى أقلّ من ذلك، وكان إنعامُه ألفَ إرْدَبّ غَلّة وألف قنطار عســل وألف دينار وأشياء يطول شرحها . وفى الجملة أنّه كان من أعظم أمراء مصر بلا مدافعة. (و بَيْسَرِى : آسم مركب من لفظتين : تركية وعجمية) وصوابه فى الكتابة (باى سرى) فباى فى اللغة التركية بالتفخيم هو السعيد، وسَرى بالعجمى الرأس، فمعنى الأسم سعيد الرأس .

(١) دار بيسرى، لمـا تكلم المقريزى على الدار البيسرية (فى ص٦٩ ج٢) قال : إن هذه الدار بخط بين القصرين من القاهرة، عمرها الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى النجمى فى سنة ٦٥٩ ﻫ وتأنق فى عمارتها و بالغ فى كثرة المصروف عليها فكانت سعة هذه الدار باصطبلها و بستانها والحمام بجانبها نحو فدانين، ورخامها من أبهج الرخام. وكان لها باب بوابته من أعظم ما عمل من البوابات بالقاهرة، وهذا الباب بجوار حمام بيسرى من شارع بين القصرين، و كان للدار باب آخر بخط الخرشنف (الخرنفش) . ولمـا تكلم المقريزى على قصر بشتاك فى (ص ٧٠ ج ٢) قال : إن هذا القصر تجاه الدار البيسرية والمدرسة الكاملية .

و بالبحث تبين لى :

أولا — أن قصر بشتاك لا يزال جزء منه قائمـا إلى اليوم تجاه المدرسـة الكاملية (جامع الكامل) بشارع المعز لدين الله (شارع بين القصرين سابقا) .

ثانيا — أن حمام بيسرى الذى أنشأه بجوار داره المذكورة لا يزال موجودا إلى اليوم بشارع المعز لدين الله بجوار جامع الكامل من الجهة البحرية و يعرف الآن بحمام إينال لأن الملك الأشرف إينال جدده فى سـنة ٨٦١ ﻫ . وذكر على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية (ص ٦٦ ج ٦) أن حمام بيسرى بأول شارع سوق السمك وهذا خطأ والصواب ما ذكرته لأن الحمام المذكور كان مجاورا لباب الدار البيسرية بشارع بين القصرين ولا يزال هذا الحمام فى مكانها إلى اليوم .

ثالثا — أن الدار البيسرية قد آندثرت ومكانها اليوم مجموعة المبانى الواقعة فى المنطقة التى تحد الآن من الشرق بشارع المعز لدين الله (شارعى بين القصرين والنحاسـين سابقا) ومن الشمال شارع الخرنفش ، ومن الغرب حارة البرقوقية ؛ ومن الجنوب جامع الكامل وما يجاوره من الجهة الغربية إلى حارة البرقوقية .

(٢) فى أحد الأصلين : «سبعة أرطال» .

قلت : وكان سَعيد الرأس كما قيل . وهذا بخلاف مذهب النّحاة فإن هذا الآسم عين المُسَمَّى . انتهى .

وفيها تُوُفّى الأستاذ جمال الدين أبو المجد ياقوت بن عبد الله المُسْتَعْصِمِيّ الرُّومىّ الطَّوَاشِيّ صاحب الخطّ البديع الذى شاع ذكْره شرقًا وغربًا . كان خَصيصا عند أستاذه الخليفة المستعصم بالله العبّاسيّ آخر خلفاء بنى العبّاس ببغداد، ربّاه وأدّبه ٥ وتعهّده حتّى بَرَع فى الأدب، ونَظَم ونَثَر وآنتهت إليه الرياسة فى الخط المنسوب . وقد سُمّى بهذا الآسم جماعةُ كثيرة قد ذُكِر غالبُهم فى هذا التاريخ، منهم كُتّاب وغيرُ كُتّاب، وهم : ياقوت أبو الدرّ [الكاتب مولى أبى المعالى أحمد بن على بن النجار] (١) التاجر الرومى، وفاته بدمشق سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . و ياقوت الصَّقْلَبِيّ الجَمَالى أبو الحسن مولى الخليفة المسترشد العبّاسيّ ، وفاته سنة ثلاث وستين وخمسمائة . ١٠ و ياقوت أبو سعيد مولى أبى عبد الله عيسى بن هبة الله بن النَّقّاش، وفاته سنة أربع وسبعين وخمسمائة . و ياقوت [بن عبد الله] (٢) الموصلى الكاتب أمين الدين المعروف بالمَلِكى نسبة إلى أُستاذه السلطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقىّ ، و ياقوت هذا أيضا ممن آنتشر خَطُّه فى الآفاق، ووفاته بالموصل سنة ثمانى عشرة وستمائة . و ياقوت [بن عبد الله] (٢) الحَمَوِيّ الرومى شهاب الدين أبو الدرّ كان من خُدّام بعض التُّجّار ١٥ ببغداد يعرف بعسكر الحَمَوِيّ، و ياقوت هذا هو صاحب التصانيف والخط أيضا، ووفاته سنة ستّ وعشرين وستمائة . و ياقوت [بن عبد الله] (٢) مهذّب الدّين الرُّومى مولى أبى منصور التاجر الجيلىّ ؛ و ياقوت هذا كان شاعرًا ماهرًا وهو صاحب القصيدة التى أوّلها :

إن غاض دمعك والأحبابُ قد بانوا * فكلّ ما تدّعى زورٌ وبُهْتانُ ٢٠

(١) الزيادة عن الجزء الخامس ص ٢٨٣ من هذه الطبعة .

(٢) تكملة عن الجزء الخامس ص ٢٨٣ من هذه الطبعة .

ووفاته سـنة آثنتين وعشرين وستمائة . فهؤلاء الذين تقدّموا ياقوت المستعصمىّ صاحب الترجمـة بالوفاة ، وكلٌّ منهم له ترجمةٌ وفضيلةٌ وخطٌّ وشِعْرٌ . وقد تقدّم ذكر غالبهم فى هـذا الكتاب ، وإنمـا ذكرناهم هنا جملةً لكون جماعات كثيرة من النـاس مهما رأوه من الخطوط والتصانيف يقرءوه لياقوت المستعصمىّ ، وليس الأمر كذلك بل فيهم من رجّح خَطّه آبْنُ خَلّكان على ياقوت هذا . ٥

قلت : وقد خرجنا عن المقصود لكثرة الفائدة ولنَعُدْ إلى بقية ترجمة ياقوت المستعصمىّ . فمن شعره قوله :

تُجَدِّد الشمسُ شوقى كلّما طَلَعتْ ⁂ إلى مُحَيّـاك يا سمـى و يا بصرى

وأسْهَـرُ اللّيل ذَا أُنسٍ بوَحْشـتِهِ ⁂ إذْ طِيبُ ذكرك فى ظَلْمَائه سَمَرِى

وكلّ يوم مَضَى [لى] لا أراك بِهِ ⁂ فلستُ مُحْتَسِبًا ماضيـه من عُمُرِى ١٠
(١)

لَيْلى نهارِى إذا ما دُرْتَ فى خَلَدِى ⁂ لأنّ ذكْرَك نورُ القلب والبَصرِ

وله أيضا :

صَـدَقْتُمُ فِىَّ الوُشاةَ وقد مَضَى ⁂ فى حُبّكم عُمْـرِى وفى تكذيبها

وزعمتمُ أنّى مَلِلْتُ حَدِيثَـكُمْ ⁂ مَنْ ذا يَمَلُّ من الحياةِ وَطِيبها

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة ، قال : وفيها تُوُفّى السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين المنصورىّ . ومن الغد قُتِل نائبه مَنْكُوتَمُر . ثم قتلوا الأميرين كُرْجى وطُغْجى الأشرفيَّيْن . وأُحْضِر السلطان الملك الناصر وعاد إلى السلطنـة . ١٥ وفيها توفى الإمام جمـال الدين محمد بن سـليمان بن النقيب الحَنَفِىّ صاحب التفسير بالقُـدس فى المحرّم . والعلّامة بهاء الدين محمـد [بن إبراهيم بن محمـد بن إبراهيم] (٢) أبو عبد الله الحَلَبىّ آبن النحاس فى جُمادَى الأولى . والصاحب تقِىّ الدّين تَوْبَة بن علىّ ٢٠

(١) التكملة عن جواهر السلوك . (٢) الزيادة عما تقدم ذكره للؤلف فى وفيات هذه السنة .

[ابن مهاجر](١) التّكْرِيتيّ في جُمَادَى الآخرة . والزاهد المُلَقِّن عليّ بن محمد [بن عليّ](٢) ابن بقاء الصالحيّ في شوّال . والمُسْنِد ناصر الدين عمر بن عبد المنعم بن عمر [ابن عبد الله بن غدير](٣) بن القَوّاس في ذى القعدة . وصاحب حماة الملك المظفر تقي الدين محمود ابن المنصور محمد [بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه](٤) . والملك الأوحد يوسف ابن الملك الناصر داود بن المُعَظَّم عيسى . والعِمَاد عبد الحافظ بن بَدْرَان بن شِبْل النابُلُسِيّ في ذى الحجّة ، وقد قارب التسعين .

§ أمر النيل في هذه السنة — الماء القديم خمس أذرع وأصابع . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا وست عشرة إصبعا .

*
* *

السنة الثانية من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، وهى سنة تسع وتسعين وستمائة .

فيها كانت وقعة السلطان الملك الناصر محمد المذكور مع قازان على حِمْص . وقد تقدّم ذكرها .

وفيها تُوفّى القاضى عَلَاء الدين أحمد بن عبد الوهّاب بن خلف بن محمود [بن عليّ](٥) ابن بدر العَلَامِيّ المعروف بابن بنت الأعزّ . كان لطيفَ العِبارة جميلَ الصورة لطيف المِزَاج ، تولّى حِسْبَة القاهرة ونظر الأحباس، ودرّس بعدّة مدارس وحجّ

---

(١) فى الأصلين هنا : «تقى الدين ابن توبة» . والزيادة والتصحيح عما تقدم ذكره للؤلف والذهبي وشذرات الذهب . (٢) التكلة عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب . (٣) التكلة عن تاريخ الإسلام والمنهل الصافى . (٤) زيادة عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب .

(٥) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبى .

ودخل اليَمَن ثم عاد إلى القاهرة ومات بها فى شهر ربيع الآخر، وكان له نظم ونثر .
ومن شعره قصيدة أوّلها :

إن أَوْمَضَ البَرْقُ فى لَيْلٍ بِذِى سَلَمٍ ... فإنّه ثَغْرُ سَــلْمَى لَاحَ فى الظُّــلَمِ

وفيهــا تُوُفِّى الشيخ المُسْنِد المعَمَّر شرف الدين أحمد بن هبة الله ابن تاج الأمناء
أحمــد بن محمد [بن الحسن[1] بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين] بن عساكر بدمشق،
وبها دُفِن بمقابر الصوفيّة بتُرْبة الشيخ فخر الدين بن عساكر[2]. وكان من بقايا المُسْنِدين
تَفَرَّد سماعًا و إجازةً .

ذكر مَنْ عدم فى هذه السنة فى وقعة حِمْص مع التّتار

قاضى القضاة حُسام[3] الدِّين الحَنَفِىّ . والشيخ عماد الدين إسماعيل ابن تاج الدين
[أحمد بن سـعيد[4]] بن الأثير الكاتب . والأمير جمال الدين المطروحى[5] . والأمير
سيف الدين كُرْت[6] . والأمير ركن[7] الدين الجَمَالى نائب غَزّة، ولم يظهر للجميع خبر،
غير أنّهم ذكروا أن قاضى القضاة حُسام الدين المذكور أَسَرُوه التتار و باعوه للفرنج،
ووصــل قُبْرُص وصار بها حكيما، ودَاوَى صاحب قُبْرُص من مَرَض مُخِيف فشُفِى
فأوعده أن يُطلقه، فمَرِض القاضى حُسام الدين المذكور ومات . كذا حكى بعض
أجناد الإسكندرية .

(١) تكلة عن تاريخ الإسلام والمنهل الصافى . (٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين فخر الدين أبو منصور المعروف بابن عساكر . تقدمت وفاته سنة ٦٢٠ ﻫ فى الجزء السادس من هذه الطبعة . (٣) هو قاضى القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن ابن أنو شروان أبو الفضائل . (٤) التكلة عن المنهل الصافى والسلوك . (٥) هو الأمير جمال الدين آخوش الحاجب، كان حاجبا جليلا خبيرا عاقلا . (عن تاريخ الإسلام للذهبى) . وفى السلوك : «ومات الأمير آقش كرجى المطروحى الحاجب» . (٦) هو الأمير سيف الدين المنصورى كرت و يقال له «كرد» بن عبد الله نائب طرابلس ، كان فارسا بطلا شجاعا مع دين وخير ومعروف وصدقة (عن المنهل الصافى وتاريخ الاسلام) . (٧) هو منكبرس الجمالى الأمير الكبير ركن الدين أبو سعيد التركى الساقى أحد غلمان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ولى نيابة غزة (عن تاريخ الاسلام) .

وفيها تُوفى الشيخ الصالح الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فَرَج بن أحمد بن اللَّخْمِىّ الإشبيلي بدمشق، ودُفن بمقابر الصوفية، وكان حافظا دينًّا خيرًا زاهدا متورِّعًا، عُرِض عليه جهات كثيرة فأعرض عنها، وهو صاحب القصيدة المشتملة على صفات[1] الحديث :

غَرَامِى صحيحٌ والرَّجا فيك معضلُ * وحُزْنِى ودَمْعِى مُرْسَلٌ ومُسَلْسَلُ
وصَبْرِىَ عنكم يشهَدُ العقل أنّه * ضعيفٌ ومتروكٌ وذُلِّىَ أجْمَلُ
فلا حسنٌ إلا سماعُ حديثكم * مُشافهةً تُمْلَى علىّ فأنْقُلُ
وأمْرِىَ موقوفٌ عليك وليس لى * على أحد إلّا عليك المُعَوَّلُ
ولو كان مرفوعًا إليكَ لكنتَ لِى * على رَغْم عُذَّالى تَرِقُّ وتَعْدِلُ
وعَذْلُ عَذُولِى مُنْكَرٌ لا أُسِيغه * وزُور وتدليسٌ يُرَدُّ ويُهمَلُ
أقَضِّى زمانِى فيك مُتَّصِلَ الأَسَى * ومُنْقطِعًا عمّا به أتَوَصَّلُ
وها أنا فى أكفان هَجْرِك مُدْرَجٌ * تُكَلِّفُنِى ما لا أُطِيقَ فأحْمِلُ

وهى أطول[2] من ذلك .

وفيها تُوُفّى قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز آبن قاضى القضاة محيى الدين يحيى ابن محمد بن علىّ بن الزكىّ فى يوم الأحد حادى عشر ذى الحِجّة. وكان من أعيان الدمَشْقيين، ودرّس بعدّة مدارس وآنتفع به الناس . رحمه الله .

وفيها تُوفى الشيخ الإمام العالم مُفتِى المسلمين القاضى شمس الدين محمد آبن الشيخ الإمام العلّامة شيخ المواهب[3] قاضى القضاة صدر الدين أبى الربيع سليمان

(١) كذا فى المنهل الصافى وتاريخ الإسلام : وفى الأصلين : « على صناعة الحديث » .
(٢) وردت هذه القصيدة فى المنهل الصافى وتاريخ الاسلام وعقد الجمان وعدد عدد أبياتها فيها عشرون بيتا . (٣) فى أحد الأصلين وعقد الجمان : « شيخ المذاهب » . وقد ورد فى تاريخ الاسلام للذهبي بعد أن ذكر نسبه : « أبن العلامة الأوحد شيخ الطائفة » .

آبن أبى العِزّ وُهَيْب الحَنَفى الدِّمَشْقِى فى يوم الجمعة سادس عشر ذى الحجة بالمدرسة النُّورِية (١) بدمشق، ودُفِن بتربة والده بقاسِيون، وكان فقيهاً عالما مُفْتِياً بصيراً بالأحكام متصدِّيا للفَتْوَى والتدريس، أفتى مدّة أربع وثلاثين سـنة وقرأ عليه جماعةُ كثيرة وآنتفع الناس به، وكان نائبًا فى القضاء عن والده وسُـئِل بالمناصب الجليلة فآمتنع

٥ من قبولها . رحمه الله .

قلت : وبنو العز بيت كبير بدمشق مشهورون بالعلم والرياسة .

وفيها تُوُفِّى صاحبُ الأَنْدَلُس أميرُ المسلمين أبو عبد الله محمد (٢) بن محمد بن يوسف المعروف با بن الأَحْمَر ملك الأندلس وما ولاها بعد موت والده سنة إحدى وسبعين وستمائة، وآمتدت أيامه وقَوِى سلطانه، ومات فى عشر الثمانين رحمه الله تعالى .

١٠ الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال : فيها تُوُفِّى الإمام شمس الدين محمد بن عبدالقَوِىّ المَقْدِسىّ النحوىّ . وعِمادالدين يوسف بن أبى نصر الشقارِىّ (٣)، وقاضى القضاة إمام الدين عمر بن عبـد الرحمن القَزْوِينىّ بمصر فى ربيـع الآخر . وعبـد الدائم بن أحمـد المَحَجّى [القَبّانى] الوزّان (٤) . وعلى بن أحمد بن عبـد الدائم وأخوه عمر . وأحمد بن زيد [بن أبى الفضل الصالحى الفقير المعروف] (٥) بالجمّـال .

١٥ وشرف الدين أبو الفضل أحمد بن هبة الله بن أحمد بن عساكر فى جمادى الأولى . وعيسى بن بَرَكة بن والى . ومحمد بن أحمد بن نوال الرصافى . وعلى بن مطر المَحَجّى

---

(١) راجع الحاشية رقم ٥ ص ١٨٢ من هذا الجزء . (٢) لم يذكر مصدر من المصادر التى تحت يدنا وفاة محمد بن محمد بن يوسف فى هذه السنة . وذكر كا فى الإحاطة فى أخبار غرناطة (ج ١ ص ٣٩) والعبر لابن خلدون (ج ٤ ص ١٦٨ — ١٧٣)، والدرر الكامنة : أن وفاته فى سـنة ٧٠١ هـ .

٢٠ (٣) فى الأصلين : «الشقراوى» . وما أثبتناه عن تاريخ الإسلام و عقد الجمان والقصيدة اللامية فى التاريخ . وفى شذرات الذهب : «السفارى» بالسين والفاء . (٤) فى الأصلين : «الوراق» والزيادة والتصحيح عن تاريخ الإسلام . (٥) زيادة عن تاريخ الإسلام .

البَقّال[1]. وصفيّة بنت عبد الرحمن بن عمرو الفَرّاء، وٱبن عمها إبراهيم بن أبى الحسن [بن عمرو بن موسى أبو إسحاق الفرّاء][2]. وأحمد بن محمد الحدّاد. وخديجة بنت [التَّقِىّ محمد بن محمود بن عبدالمنعم][3] المَرَاتِبِىّ. والحافظ شهاب الدين أحمد بن فَرَج اللَّخْمىّ الإشبيلىّ فى جُمادى الآخرة. وأبو العبّاس أحمد بن سليمان بن أحمد المَقْدِسىّ الحرّانى. والشيخ عِزّ الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد الحقّ. والخطيب موفّق الدين محمد بن محمد [المعروف بـ][4]ٱبن حُبَيش فى جُمادى الآخرة بدمشق. والمعمَّرة زينب بنت عمر ابن كُنْدِى[5] ببعلبكّ. والأمير علم الدين [سَنْجَر البُرْنُلِى][6] الدُّوَادَارى[7] فى رجب بحصن الأكراد. والمؤيّد علىّ بن[8] إبراهيم بن يحيى ابن خطيب عَقْرَبَاء[9]. وشمس الدين محمد ابن على بن أحمد بن فضل الواسطىّ فى رجب، وله أربع وثمانون سنة. والعلّامة نجم الدين أحمد بن مكّى فى جُمادى[10] الآخرة. والإمام شمس الدين محمد بن سَلْمَان[11] بن حَمَائل سبط غانم[12]. والشيخ بدر الدين حسن بن على بن يوسف بن هود المُرسِىّ فى رجب[13]. والإمام شمس الدين محمد ٱبن الفخر عبد الرحمن بن يوسف البَعْلَبَكِّىّ فى رمضان. والشريف شمس الدين محمد بن هاشم بن عبد القاهر العباسىّ العدل فى رمضان،

(١) فى الأصلين: «النقال». وما أثبتناه عن تاريخ الإسلام للذهبي وشذرات الذهب. (٢) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي وشذرات الذهب. (٣) الزيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي. (٤) التكلة عن تاريخ الإسلام للذهبي وشذرات الذهب. (٥) فى الأصلين: «عمر بن كندر». وتصحيحه عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب. (٦) الزيادة عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب وعقد الجمان والمنهل الصافى. (٧) راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٤٢ من الجزء السابع من هذه الطبعة. (٨) كذا فى أحد الأصلين وتاريخ الإسلام وشذرات الذهب. وفى الأصل الآخر: «علىّ بن إبراهيم بن على بن إبراهيم بن يحيى» ويظهر أن ذلك تكرار من الناسخ.
(٩) عقرباء: اسم مدينة الجولان وهى كورة من كورة دمشق كان ينزلها ملوك غسان (عن معجم البلدان لياقوت). (١٠) فى تاريخ الإسلام: «فى ربيع الآخر». (١١) فى الأصلين: «سليمان». وتصحيحه عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب وعقد الجمان. (١٢) هو غانم بن على بن إبراهيم بن عساكر المقدسى النابلسى القدوة الزاهد. تقدمت وفاته سنة ٦٣٢ هـ فيمن نقل المؤلف وفاتهم عن الذهبي. (١٣) فى تاريخ الإسلام للذ: «توفى فى السادس والعشرين من شعبان».

وله أربع وتسعون سنة . والشيخ بهاء الدين أَيُّوب بن أبى بكر[بن إبراهيم[1] بن هبة الله أبو صابر] بن النحاس مدرس القليجية[2] فى شوّال . والمفتى جمال الدين عبد الرحيم بن عمر البَاجْرَبِقِى[3] . والعدل بهاء الدين محمد بن يوسف البِرْزَالى عن اثنتين وستين سنة . والأديب جمال الدين عمر بن إبراهيم بن العقيمى الرَّسْعَنِىّ[4]، وله أربع وتسعون سنة .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم ثلاث أذرع وعدة أصابع . مبلغ الزيادة ستَّ عشرةَ ذراعا وستّ أصابع، وكان الوفاء ثالث عشر توت .

* * *

السنة الثالثة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، وهى سنة سبعمائة من الهجرة .

فيها تُوُفِّى الأمير سيف الدين بَلَبَان الطَّبَّاخِىّ بالعسكر المنصور على الساحل ، وكان من أعيان الأمراء وأحْشَمهم وأشجعهم وأكثرِهم عُدَّةً ومماليكَ وحاشية . وولى نيابةَ حَلَب قبل ذلك بمدّة، ثم ولى الفتوحات بالساحل ودام عليها سنين . وكان جميلَ السِّيرة والطريقة وله المواقف المشهورة والنِّكاية فى العدوّ . رحمه الله تعالى .

وفيها تُوُفِّى الأديب البارع شهاب الدين أبو جَلَنْك[5] الحَلَبِىّ الشاعر المشهور صاحب النوادر الطَّريفة، كان بارعًا ماهرًا وفيه هِمَّةٌ وشجاعة . ولما كانت وَقْعة التّتار فى هذه السنة نزل أبو جَلَنْك المذكور من قلعة حَلَب لقتال التّتار، وكان ضَخْمًا

---

(١) زيادة عن الذهبى وشذرات الذهب . (٢) راجع ما كتب على تلك المدرسة فى الاستدراك السابع ص ٣٩١ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٣) فى الأصلين : «التاجر بق» . وتصحيحه عن عقد الجمان وشذرات الذهب والقصيدة اللامية فى التاريخ . وفى تاريخ الاسلام : «الباجر يق» بالياء التحية بعد الراء . (٤) فى الأصلين : «الربعى» . وتصحيحه عن تاريخ الإسلام وشذرات الذهب والقصيدة اللامية فى التاريخ والمنهل الصافى . (٥) اسمه أحمد بن أبى بكر .

سمينًا فوقع عن فرسه من سهم أصاب الفرس فبقى راجلًا ، فأسروه وأحضروه بين يدىْ مقدّم التتار، فسأله عن عسكر المسلمين، فرفع شأنهم فغضب مقدّم التتار ، عليه اللعنة، من ذلك فضرب عنقه . رحمه الله تعالى . ومن شعر أبى جلنك المذكور قوله :

وشادنٍ يصفع مغرًى به * براحةٍ أندى من الوابلِ ٥
فصحتُ فى الناس ألا فاعجبوا * بحرٌ غدا يلطم فى الساحلِ

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى رحمه الله : وكان أبو جلنك قد مدح قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلّكان فوقّع له برطلىْ خبز ، فكتب أبو جلنك على بستانه :

لله بستانٌ حللنا دوحه * بجنةٍ قد فتّحت أبوابها[1] ١٠
والبانُ تحسبه سنانيرًا رأت * قاضى القضاة فنفّشت أذنابها

قلتُ : لعل الصلاح الصفدى وهم فى ابن خلّكان، والصوابُ أنّ القصة كانت مع قاضى القضاة كمال الدين بن الزّملكانى[2] . انتهى .

ومن شعر أبى جلنك فى أقطع .

وبى أقطعٌ مازال يسخو بماله * ومن جوده ماردّ فى الناس سائلُ ١٥
تناهت يداه فاستطال عطاؤها * وعند التناهى يقصر المتطاولُ

قلت : ووقع فى هذا المعنى عدّةُ مقاطيع جيدة فى كتابى المسمى بـ«حلية الصفات فى الأسماء والصناعات» فمن ذلك :

أفديه أقطع يشدو * ساروا ولا ودّعونى
ما أنصفوا أهل ودّى * واصلتهم قطعونى ٢٠

---

(١) رواية هذا الشطر فى فوات الوفيات : * والورق قد صاحت عليه لما بها *

(٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ١٢٦ من هذا الجزء .

ولشمس الدين بن الصائغ الحنفيّ[(١)] :

وأقطـــع قلتُ له * هل أنت لِصٌّ أوْحَدُ
فقال هَـذِى صنعةٌ * لم يبـقَ لى فيها يَدُ

وفى المعنى هَجْوٌ :

٥ تجنّبْ كُلَّ أقْطَع فهْـــو لِصٌّ * يُريد لك الخيــانَةَ كُلَّ ساعَةْ
وما قَطَعُوه بعـد الوصل لٰكِنْ * أرادوا كَفَّــهُ عَن ذِى الصِّنَاعَةْ

غيره فى المعنى :

مَنْ يكُنْ فى الأصل لِصًّا * لم يَكُنْ قَطُّ أمينَـا
فَثِقُـــوا منـــه بِرَهْنٍ * أو خُذوا منـــه يَمِينَـا

١٠ وفيها تُوُفّىَ الشيخ الصالح المُسْنِد عِزّ الدين أبو الفِدَى إسماعيل بن عبد الرحمن ابن عمر بن موسى بن عميرة المعروف بابن الفَرّاء المرداوىّ ثم الصالحىّ الحنبلىّ، مولده سنة عشر وستّمائة[(٢)] وسَمِع الكثير وحدّث، وخَرّج له الحافظ شمس الدين الذّهبىّ مشيخة، وكان دَيِّنًا خَيِّرا وله نَظْمٌ . من ذلك قوله :

أين من عهْد آدم وإلى الآ * ن مُلوكٌ وسادةٌ وصُـــدُورُ
١٥ مَزّقتْهم أيدى الحوادث واستو * لتْ عليهم رَحَى المنونِ تَدُورُ

وله فى المعنى وقيل هما لغيره :

ثم انقضت تلك السّنون وأهلُها * فكأنّهـا وكأنّهم أحـــلامُ
وكذاك مَنْ يأتى وحقّك بعْدَهمْ * أمضاهُ رَبٌّ قادرٌ عَـــلّامُ

---

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن على المعروف بابن الصائغ الحنفى . سيذكر
٢٠ المؤلف وفاته سنة ٧٧٧ هـ . (٢) فى الأصلين : «سنة ست عشرة وستمائة» . وتصحيحه عن
تاريخ الإسلام وشذرات الذهب .

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة ، قال : وفيها تُوُفّى عزّ الدين أحمد ابن العماد عبد الحميد بن عبد الهادى فى المحرّم ، وله ثمان وثمانون سنة . وعماد الدين أحمد [بن محمد](١) بن سعد المَقْدِسِيّ(٢) وله ثلاث وثمانون سنة . وعزّ الدين إسماعيل ابن عبد الرحمن بن عُمَر(٣) الفَرّاء فى جُمادى الآخرة ، وله تسعون سنة . وأبو علىّ(٤) يوسف ابن أحمد بن أبى بكر الغَسُولىّ(٥) فى الشهر ، وله نحو من تسعين سنة . والحافظ شمس الدين أبو العلاء محمود بن أبى بكر البُخارىّ الفَرَضىّ بمارِدِين(٦) فى ربيع الأوّل ، وله ستّ وخمسون سنة . وشمس الدين أبو القاسم الخِضْر بن عبد الرحمن [بن(٧) الخِضْر بن الحسين ابن الخِضْر بن الحسين] بن عبد الله بن عبدان الأَزْدِىّ فى ذى الحجة . والمقرئ شمس الدين محمد بن منصور الحاضِرِىّ فى صفر .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم والحديث (أعنى مجموع النيل) فى هذه السنة ستّ عشرةَ ذراعا وثمانىَ عشرةَ إصبعا .

* * *

السنة الرابعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، وهى سنة إحدى وسبعمائة .

فيها فى ثالث عشر من شهر ربيع الأوّل سافر الأمير رُكْن الدين بِيبَرْس الجاشْنَكِير إلى الإسكندريّة وصحبتُه جماعة كثيرةٌ من الأمراء بسبب الصَّيْد ، ورسم

(١) الزيادة عن تاريخ الإسلام والمنهل الصافى وشذرات الذهب . (٢) فى الأصلين : «ابن سعيد» . وتصحيحه عن المصادر المتقدمة . (٣) فى الأصلين : «عمرو» . وما أثبتناه عن تاريخ الاسلام وشذرات الذهب . (٤) من هذا الاسم إلى آخر الأسماء التى ذكرها المؤلف نقلا عن الذهبى لم يذكرها أحد الأصلين . (٥) الغسولى : نسبة الى الغسولة ، قرية بدمشق (عن لب اللباب ومعجم البلدان لياقوت) . (٦) راجع الحاشية رقم ١ ص ٩٧ من هذا الجزء . (٧) فى الأصلين : «الحضرمى عبد الرحمن بن عبدان» والتكلة والتصحيح عن المنهل الصافى وتاريخ الإسلام للذهبى .

له السلطان أنّ مدّة مقامه بالإسكندريّة يكون دَخْلُها له ، ثم أَعْطَى السلطانُ لجميع الأمراء دُسْتُورًا لمن أراد السفر لإقطاعه لعمل مصالح بلاده، وكان إذ ذاك يُرَبّعُون خيولهم شهرًا واحدًا لأجل العدوّ المخذول .

وفيها تُوُفِّى مُسْنِدُ العَصْر شهاب الدين أحمد بن رَفِيع الدّين إسحاق بن محمد بن المؤيّد الأَبَرْقُوهِيّ(١) بمكّة فى العشرين من ذى الحجّة . ومولده سنة خمس عشرة وستمائة بأَبَرْقُوه(٢) من أعمال شِيراز، وكان سَمِع الكثير وحدّث وطال عمرُه وتفرّد بأشياء .

وفيها تُوُفِّى الحافظ شرف الدين أبو الحسين علىّ ابن الإمام أبى عبد الله محمد بن أبى الحسين أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد اليُونِينِيّ فى يوم الخميس حادى عشر شهر رمضان ببَعْلَبَكّ(٣) . ومولده فى حادى عشر شهر رجب سنة إحدى وعشرين وستمائة ببعلبك .

وفيها تُوُفِّى الأمير علم الدين سَنْجَر بن عبد الله المعروف بأَرْجَوَاش المنصورىّ نائب قلعة دِمَشْق فى ليلة السبت ثانى عشرين ذى الحجّة وكان شُجاعًا . وهو الذى حفِظ قلعة دمَشْق فى نَوْبة غازان وأظهر من الشجاعة ما لا يُوصف على تَغَفُّلٍ كان فيه ؛ حسب ما قدّمنا من ذكره فى أصل ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون ما فعله وكيف كان حِفْظُه لقلعة دِمَشق . وأمّا أمرُ التَّغَفُّل الذى كان به :

(١) فى الأصلين : « الأبرقهى » . والتصحيح عن الدرر الكامنة وشذرات الذهب .

(٢) فى الأصلين : « بأبرقهة » . والتصحيح عن المصدرين المتقدمين ومعجم البلدان ، وهى بلد فى فارس شمالى اصطخر فى منتصف الطريق بين هذه المدينة و يزد وتسمى أيضا أبرقويه وكثيرا ما يختصر اسمها فيقال برقوه أو ورقوه ، وكان عدد سكانها فى القرون الوسطى يقرب من ثلث سكان أصطخر . وهذه المدينة موجودة الآن فى أقصى شمالى مقاطعة فارس الإيرانية وتعرف باسم أبرجوه . (انظر دائرة المعارف الاسلامية وانظر أطلس فلبس الجغرافى) . (٣) فى الأصلين : « حادى عشرين » . وتصحيحه عن الدرر الكامنة وشذرات الذهب .

قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك فى تاريخه : حَكَى لى عنه عبد الغنى الفقير المعروف قال : لمّا مات الملك المنصور قلاوون (أعنى أستاذه) قال لى : أَحْضِرْ لى مُقْرِئين يقرءُون خَتْمَةً للسلطان ، فأحضرتُ إليه جماعةً فجعلوا يقرءُون على العادة ، فأحضر دبوسا وقال : كيف تقرءُون للسلطان هذه القراءة ! تقرءون عاليا ، فضَجُّوا بالقراءة جَهْدَهم ، فلمّا فَرَغُوا منها ، قلتُ : يا خَوَنْد فرغَت الخَتْمَة ، فقال : يقرءُون أُخْرَى فقرءُوها وقَفَزُوا ما أرادوا ، فلمّا فَرَغُوا أعلمتُه ، قال وَيْلَك[1] ! السماءُ ثلاثةٌ ، والأرضُ ثلاثة ، والأيام ثلاثة ، والمعادنُ ثلاثة ، وكل ما فى الدنيا ثلاثة ، يقرءون أخرى ! فقلت : اقرءوها واْحمدوا الله تعالى على أنّه ما عَلِم أن هذه الأشياءَ سبعة سبعة ، فلمّا فَرَغُوا [من][2] الثلاثة وقد هَلَكُوا من صُراخهم ، قال : دعهم عندك فى التّرْسِيم إلى بُكرة ، ورُح اكتب عليهم حُجّة بالقسامة الشريفة بالله تعالى ، وبنعمة السلطان أنّ ثوابَ هذه الخَتَمات لمولانا السلطان الملك المنصور قلاوون ؛ ففعلتُ ذلك وجئتُ إليه بالحجّة ، فقال : هذا جيِّد ، أصلح الله أبدانكم وصَرف لهم أُجْرَتَهم . وحُكِى عنه عِدّةُ حكايات من هذا تَدُلّ على تَغَفُّلٍ كبير .

قلتُ : ويُلْحَقُ أَرْجَوَاش هذا بعقلاء المجانين فإنّ تدبيره فى أمر قلعة دِمَشْق وقيامَه فى قتال غازان له المنتهى فى الشجاعة وحسن التدبير . انتهى .

وفيها تُوُفِّى شمس الدين[3] سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير فى سابع عشر ذى القعدة بدمشق ، وكان رئيسا فاضلا كاتبا ، كَتَب الإنشاء بدِمَشْق سنين .

وفيها تُوُفِّى الشريف نجم الدين أبو نُمَىّ محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قَتَادَة بن إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علىّ بن عبد الله

(١) فى الأصلين : « والك » . (٢) زيادة يقتضيها السياق .
(٣) فى الأصلين : « سعد الدين » . والتصحيح عن الدرر الكامنة والسلوك .

آبن محمد بن موسى بن عبد الله المحض[1] بن موسى [بن عبد الله] بن الحسن بن الحسن بن علىّ آبن أبى طالب الحسَنِىّ المكِّىّ صاحب مكّة المشرّفة فى يوم الأحد[2] رابع صفر بعد أن أقام فى إمرة مكّة أربعين سنة، وقدِم القاهرة مِرارًا، وكان يقال لولا أنّه زَيْدىّ لصلح للخلافة لحُسن صفاته.

٥ § أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم ثلاث أذرع وأصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا وثلاث عشرة إصبعا.

*
* *

السنة الخامسة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، وهى سنة آثنتين وسبعمائة.

١٠ فيها فى أوّل المحرّم قَدِم الأمير بيبَرْس الجاشْنَكير من الحجاز ومعه الشريفان حُمَيْضة[3] ورُمَيْثة[4] فى الحديد فسُجِنا بقلعة الجبل.

وفيها فى رابع جُمادى الآخرة[5] ظَهَر بالنيل دابّة كَلَوْن الجاموس بغير شعر، وأُذُناها كأُذن الجَمَل، وعَيْنَاها وفَرْجها مثل الناقة، ويُغَطِّى فَرَجَها ذنبٌ طوله شِبرٌ ونصفٌ،

---

(١) يظهر مما ورد فى الدرر الكامنة أن هذا اللقب ليس لعبد الله بن موسى هذا وإنما هو لقب لجدّه ١٥ عبد الله بن الحسن بن الحسن الذى زدناه عن الدرر وقد ورد فى شرح القاموس مادة «محض»: «والمحض لقب جماعة من العلويين منهم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على». (٢) فى الدرر الكامنة: «مات بمكّة فى الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٧٠١ ﻫ». (٣) فى الأصلين: «خميصة». وهو حميضة بن أبى نمى محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الشريف عز الدين أمير مكّة الحسنى. توفى بمكّة فى جمادى الآخرة سنة ٧٢٠ ﻫ (عن الدرر الكامنة والمنهل الصافى).

٢٠ (٤) هو رميثة أسد الدين أبو عرادة بن أبى نمى محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة بن إدريس ابن مطاعن الشريف أمير مكّة مع أخيه حميضة. توفى بمكّة فى سنة ٧٤٦ ﻫ كما فى المنهل الصافى أو سنة ٧٤٨ ﻫ كما فى الدرر الكامنة. (٥) فى الأصلين: «رابع جمادى الأولى». وما أثبتناه عن تاريخ سلاطين المماليك والسلوك وابن كثير.

طَرَفُه كذَنَب السَّمَك، ورَقَبَتُها مثل ثخن التِّلِّيس[1] المحشوّ تِبْناً، وفَمُها وشفتاها مثل الكِرْبَال،
ولها أربعُ أنياب[اثنتان فوق اثنتين][2] فى طول نحو شِبْر وعَرْض إصبعين، وفى فمها ثمانيةٌ
وأربعون ضِرْسًا وسِنًّا مثل بَيَادق الشِّطْرَنْج، وطول يدها من باطنها شِبْران ونصفٌ،
ومن ركبتها إلى حافرها مثل أظافير الجمل، وعَرْضُ ظَهْرها قدرُ ذراعين ونصف،
ومن فمها إلى ذنبها خمس عشرة قدمًا، وفى بطنها ثلاث كُروش، ولحمها أحمرُ له ذَفَرَةُ
السَّمَك، وطعمُه مثل لحم الجمَل، وثخانةُ جِلْدها أربعُ أصابع، لا تعمَل فيه السُّيُوف؛
وحُمِل جِلْدُها على خمسة جمال فى مقدار ساعة من ثِقَـلِه، وكان يُنقَل من جَمَل إلى
جَمَل وقد حُشِيَ تِبْناً حتّى وَصَل إلى قلعة الجبل.

وفيهـا كان بمصر والقاهرة زَلزلة عظيمة أَخربتْ عدّة منـائر ومبانٍ كثيرة من
الجوامع والبيوت حتّى أقامت الأمراءُ ومباشرو الأوقاف مدّةً طويلة تَرُمُّ وتُجـدّد
ماتشعّث فيها من المدارس والجوامع حتّى منارة الإسكندريّة[3].

---

(١) فى السلوك: «ثخن التيس المحشو تبنا». وفى ابن كثير: «ورقبتها مثل غلظ التنيس».
(٢) زيادة عن السلوك وابن كثير. (٣) منارة الإسكندرية، صوابه منار الاسكندرية
لأن المنار مقصود به هنا علم الطريق، وأما المنارة فهى المئذنة. والمنار يعرف اليوم باسم الفنار،
وهى كلمة تركية مأخوذة من فناريون اليونانية، ومعناها المصباح. والفرنسيون يسمونه «فار» وهى مأخوذة
من كلمة «فاروس» وهو اسم الجزيرة التى كان قائمـا بها منار الإسكندرية.
ومنار الإسكندرية الذى يشير إليه المؤلف هو منارها القـديم وكان عبارة عن برج مرتفع فى جزيرة
فاروس الواقعـة فى البحر المـالح بقرب شاطئ الاسكندرية ويعلوه مشعل يضىء ليلا بنور شديد لإرشاد
السفن إلى الميناء.
وقد جمع المقريزى فى خططه عنـد الكلام على منار الاسكندرية (ص ١٥٥ ج ١) ماذكره مؤرخو
العرب عن هذا المنار وعن التمثال الذى يعلوه، ونقل عنهم عدة روايات، منها: أن بالمنار مرآة إذا ألقت
شعاعها على أى سفينة أحرقتها. ومنها أن من جلس تحت مرآة المنار يرى من بمدينة القسطنطينية (اصطنبول)
وغير ذلك من الروايات غير المعقولة. والذى أرجحه أنه كان يوجد بالقرب من موقد مشعل المنار مرآة
من المعدن المصقول ينعكس عليها ضوء اللهب فيزيده فى الليل وضوحا وانتشارا فى الأفق.
وقد وضع الأستاذ هرمن تيرش الألمانى كتابا عن جزيرة فاروس طبع ليبزج سنة ١٩٠٩ م جمع فيه كل
ما كتبه مؤرخو العرب وغيرهم عن هذا المنار من عهد الرومان إلى أن انهدم. ويستفاد مما ورد فى الكتاب =

وفيها أبطل الأمير رُكن الدين بِيبَرْس الجَاشْنَكِير عِيد الشهيد بمصر، وهو أنّ النصارى كان عندهم تابوتٌ فيه إصبعٌ يزعمون أنّها من أصابع بعض شهدائهم، وأنّ النيل لا يزيد ما لم يُرْمَ فيه هـذا التابوت، فكان يجتمع النصارى من سائر النواحى إلى شَـبْرا[1]، ويَقع هناك أمور يطول الشرح فى ذكرها، حتى إنّ بعض النصارى باع

= المذكور أن منار الاسكندرية أنشأه بطليموس فيلادلف ثانى ملوك البطالسة بمصر حول سنة ٢٨٠ ق م، وكان ارتفاعه ١٢٠ مترا وقد اعتبره المؤرخون من عجائب الدنيا وبعلوه موقد يحرق فيه الخشب الراتنجى فيعطى لهبا قويا هو مصدر الضوء الذى يرشد السفن إلى الميناء .

وقد عمر هذا المنار عدة مرات بسبب ما أصابه من التخريب الذى كان أكثره من الزلازل وطرأ على شكله الأصلى عدة تغييرات حتى صار فى آخر أيامه برجا عاديا لا يزيد ارتفاعه عن ستين مترا وهو ارتفاع طبقته الأولى التى تهدمت بعد ذلك . وقد خرب هذا المنار وبطل استعماله فى المدة الثالثة من حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون أى بين سنتى ٧٠٩ هـ = ١٣١٠ م و ٧٤١ هـ = ١٣٤١ م . وفى سنة ٨٨٢ هـ أمر السلطان الأشرف قايتباى أن يبنى على أساس هذا المنار القديم حصن . وفى سنة ٨٨٤ هـ تم بناء هذا الحصن وجعل به جامعا بخطبة وطاحونا وفرنا وحواصل شحنها بالسلاح وجعل حول هـذا الحصن مكاحل معمرة بالمدافع لمنع الاعتداء على المدينة . وكان هذا البرج هو المستعمل فى هداية المراكب القادمة على الاسكندرية إلى أن أنشأ محمد على باشا الكبير فى سنة ١٨٤٨ الفنار الحالى المعروف بفنار رأس التين القائم على الطرف الغربى لشبه جزيرة رأس التين بالميناء الغربية .

وأما حصن قايتباى الذى أنشأه مكان المنار القديم فقد تخرب أيضا والجزء الباقى منه يعرف الآن باسم طابيـة قايتباى، وطابية كلمة تركية معناها الحصن الذى يسميه مؤرخو العرب «البرج» . ويوجد داخل الطابية المذكورة الجامع الذى أنشأه السلطان قايتباى، وهذه الطابية واقعة فى شمال الميناء الشرقية التى يحيط بها شارع متنزة الملكة نازلى بالاسكندرية .

(١) شبرا، المراد بها شبرا الخيمة وهى من القرى القديمة اسمها الأصلى «شبرو» كما وردت فى كتاب أحسن التقاسيم للقدسى . ووردت فى نزهة المشتاق للإدريسى باسم شبره، وفى المشترك لياقوت الحموى: شـبرا دمنهور لمجاورتها إلى دمنهور شـبرا، وفى تحفة الإرشاد والانتصار لابن دقـاق وفى التحفة السنية لابن الجيعان : شـبرا الخيمة، وهى شبرا الشهيد من ضواحى القاهرة . وفى كتاب وقف السلطان الغورى سنة ٩١١ هـ شبرا القاهرة لأنها من ضواحيها . وقال فى تاج العروس : شبرا المكاسة لأن خيمة المكس كانت تضرب فيها . وعلى ألسنة العامة : شبرا بغير إضافة لشهرتها . وسكان القاهرة يقولون : شبرا البلد تمييزا لها عن قسم شبرا أحد الأقسام الإدارية بمدينة القاهرة، ويفصله عن شبرا البلد ترعة الإسماعيلية .

وورد فى الخطط المقريزية : شبرا الخيام ويقال لها شبرا الشهيد، لأنه كان يوجد بهذه القرية صندوق صغير من الخشب فى داخله إصبع شهيد من شهداء النصارى محفوظة بها دائما، فاذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية يخرجون تلك الإصبع من الصندوق ويغسلونها فى بحر النيل لزعمهم أن النيل لا يزيد فى كل سـنة حتى يلقوا فيه تلك الإصبع، ويسمون احتفالهم بذلك عيد الشهيد، فاشتهرت هذه القرية باسم شبرا الشهيد . =

فى أيام هـذا العيد باثنى عشر ألف درهم خمرًا من كثرة الناس التى تتوجّه إليـه للفُرجة، وكان تثور فى هذا العيد فِتَنٌ وتُقتل خلائق . فأمر الأمير بيبَرْس رحمه الله بإبطال ذلك ، وقام فى ذلك قَوْمةً عظيمة ، فشقّ ذلك على النصارى ، وآجتمعوا بالأقباط الذين أظهروا الإسـلام ، فتوجّه الجميع إلى التاج بن سـعيد الدولة كاتب بيبَرْس ، وكان خَصِيصًا به وأوعدوا بيبرس بأموال عظيمة ، وخوّفه من عدم طلوع النيل ومن كَسْر الخراج، فلم يلتفت إلى ذلك وأبطله إلى يومنا هذا .

وفيها تُوُفّى الشيخ كمال الدين[1] أحمـد بن أبى الفتح[2] محمود بن أبى الوَحْش أسد آبن سـلامة بن سليمان بن فِتيَان المعروف بآبن العطّار ، أحد كُتّاب الدَّرج بدِمَشق فى رابع عشر[3] ذى القعدة . ومولده سنة ستّ وعشرين وستمائة ، وكان كثير التلاوة محبًّا لسماع الحديث وسَمِـع وحدّث ، وكان صدرًا كبيرًا فاضلا وله نظم ونثر ، وأقام بكتب الدَّرج أربعين سنة .

وفيها تُوفّى الشيخ شهاب الدين أحمـد آبن الشيخ القُدْوة برهان الدين إبراهيم ابن مِعْضاد الجَعْبَرِى[4] بالقاهرة ، وقد تقدم ذكر وفاة والده، ودفن بزاويتـه خارج باب النصر من القاهرة .

= وتعرف بشبرا الخيمة أو الخيم أو الخيام ، لأن الناس كانوا يحتفلون بذكرى عيد الشهيد سنويا على اختلاف طبقاتهم فى خيام ينصبونها على شاطئ النيل تجاه شبرا هـذه للإقامة فيها مدة أيام عيـد الشهيد فاشتهرت باسم شبرا الخيمة وهو اسمها الحالى فى جداول أسماء البلاد . وهى اليوم إحدى قرى مأمورية ضواحى مصر بمديرية القليوبية .

(١) فى الأصلين : «جمال الدين» . وتصحيحه من عقد الجمان والسلوك والوافى بالوفيات للصفدى .

(٢) فى الأصلين : «ابن أبى الفتوح بن محمود» . والتصويب عن المصادر المتقدّمة والبداية والنهاية لابن كثير . (٣) فى السلوك : (فى رابع عشرين ذى القعدة) . (٤) هـذه الزاوية واقعة بجبانة باب النصر من القاهرة . وراجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٧٥ من الجزء السابع من هذه الطبعة . وقد تقدّمت وفاة والده سنة ٦٨٧ هـ .

وفيها تُوُفّى الأمير فارس الدين أَلْبَكى الساقى أحد مماليك الملك الظاهر بِيبَرْس ، كان من أكابر أمراء الديار المصريّة ، ثم آعْتُقِل إلى أن أُفْرِج عنه الملك المنصور قلاوون وأنعم عليه بإمرة ؛ ثم نقله إلى نيابة صَـفَد فأقام بها عشر سنين ، وفرّ مع الأمير قَبْجَق إلى غازان وتزوّج بأخته ، ثم قَدِم مع غازان ولَحِق بالسلطان ، فولّاه نيابة حمْص حتى مات بها فى يوم الثلاثاء ثامن ذى القعدة . وكان مليحَ الشكل كثير الأدب ما جلس قطُّ بلا خُفّ ، و إذا رَكب ونزل حمَل جمَدارُه شاشه ، فإذا أراد الركوب لفّه مرّةً واحدةً بيده كيف كانت .

وفيها آستُشْهِد بوقعة شَقْحَب[١] الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر العِزّى نقيب المماليك السلطانيّة [فى أيّام لاچين][٢] ، وأصله من مماليك الأمير عزّ الدين أَيْدَمُر [الظاهرى][٢] نائب الشام وكان كثير الهَزْل ، و إليه تُنسب سُوَيْقة العِزّى[٣] خارج القاهرة بالقرب من جامع أَلْجاى اليُوسُفِىّ[٤] .

(١) راجع الحاشية رقم ٣ ص ١٥٩ من هذا الجزء . (٢) زيادة عن الدرر الكامنة .

(٣) سويقة العزى ، ذكر المقريزى هذه السويقة فى خططه (ص ١٠٦ ج ٢) فقال : إنها خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل بالقاهرة عرفت بالأمير عز الدين أيبك العزى نقيب الجيوش ، وآستشهد على عكا عند مافتحها الأشرف خليل بن قلاوون فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ ، وهذه السويقة عامرة بعمارة ماحولها .

ولما تكلم المقريزى على مدرسة ألجاى (ص ٣٩٩ ج ٢) قال : إنها بخط سويقة العزى . وأقول : بالبحث تبين لى أن هذه السويقة كانت قديما تشغل الجزء الجنوبى من شارع سوق السلاح الحالى فى المسافة الواقعة بين شارع القندور و بين شارع محمد على . وفى العهد العثمانى قسم شارع سوق السلاح الحالى إلى قسمين : أحدهما ، وهو البحرى فى المسافة مابين شارع التبانة عند زاوية عارف باشا إلى حارة حلوات ، عرف بشارع سويقة العزى أى فى جهة غير التى كان بها المكان الأصلى لهذه السويقة ، والثانى وهو القبلى الذى كانت فيه السويقة المذكورة فى المسافة بين حارة حلوات وشارع محمد على عرف بشارع سوق السلاح . وفى وقتنا الحاضر أصبحت الطريق كلها فيما بين شارع محمد على وشارع التبانة تسمى شارع سوق السلاح ، و بذلك اختفى اسم سويقة العزى من جداول أسماء الطرق بالقاهرة .

(٤) جامع ألجاى اليوسفى ، ذكره المقريزى فى خططه باسم مدرسة ألجاى (ص ٣٩٩ ج ٢) وقال : إن هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل بخط سويقة العزى . أنشأها الأمير سيف الدين ألجاى =

وفيها آستُشهد الأميرُ سيف الدين أَيْدَمُر الشمسي القشَّاش، وكان قد ولى كَشْف الغربية والشرقية جميعا وآشتدّت مهابته، وكان يعذِّب أهل الفساد بأنواع قبيحة من العذاب، منها: أنّه كان يغرس خازوقًا بالأرض ويجعلُ عوده قائمًا[1] ويرفع الرَّجُل ويُسقِطه عليه! وأشياء كثيرة ذكرناها في ترجمته في تاريخنا المنهل الصافى، ولم يجسُر أحد من الفلّاحين في أيّامه أن يَلبَس مئزرًا أسود ولا يركب فَرسا ولا يتقلّد بسيف ولا يَحمِل عصا مجلّبة حتى ولا أرباب الإدراك، ثم آستعفَى من الولاية ولَزِم داره، وخرج لغزوة شَقْحَب في مِحَفَّة إلى وقت القتال لبِس سلاحه ورَكِب فرسه وهو في غاية الألم، فقيل له: أنت لا تقدِر تُقاتل، فقال: والله لِمثل هذا اليوم أنتظر، وإلّا بأىّ شيء يتخلّص القشّاش من ربّه بغير هذا! وحَمَل على العدوّ وقاتل حتّى قُتِل ورُئى فيه — بعد أن مات — ستّة جِراحات.

وفيها أيضا آستُشهِدَ الأمير أَوْلِيَا بن قَرَمان[2] أحد أمراء الظاهريّة وهو آبن أخت قَرَمان، وكان شجاعًا مِقْدامًا.

= في سنة ٧٦٨ هـ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ودرسا للفقهاء الحنفية وخزانة كتب، وأقام بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة، وهى من المدارس الجليلة المعتبرة. وقد مات ألجاى غريقا في شهر المحرم سنة ٧٧٥ هـ ودفن بهذه المدرسة.

وأقول: إن هذه المدرسة لا تزال موجودة بشارع سوق السلاح بالقاهرة باسم جامع ألجاى اليوسفى أو جامع السايس، وقد غلط المقريزى في تاريخ إنشاء هذه المدرسة فذكر أنها أنشئت في سنة ٧٦٨ هـ والصواب أنها أنشئت في سنة ٧٧٤ هـ بدليل أنه توجد كتابتان على جانبي الباب العمومى بهذا الجامع وبأعلاه مذكور فيهما بعد البسملة: «أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة المقر الأشرف ألجاى أتابك العساكر المنصورة بتاريخ شهر رجب سنة ٧٧٤ هـ».

وسبب تسمية هذا الجامع باسم جامع السايس يرجع كما ظهر لى مما ورد في كتاب المنهل الصافى إلى الأمير علاء الدين على بن أحمد الطيبرسى الشهير بابن السايس، وقد تولى نظارة هذا الجامع بعد وفاة منشئه فعرف به.

ومما يلفت النظر في هذا الجامع من الوجهة المعمارية وجهته والتجويف العلوى لبوابته وقبته المضلعة من الخارج على شكل حلزونى ثم سقف دهليزه ذو العقود المدائنية المصلبة.

(١) في السلوك: «ويجعل محدده قائما، وبجانبه صار كبير يعلق فيه الرجل ثم يرسله فيسقط على الخازوق فيدخل فيه ويخرج من بدنه». (٢) في الأصلين: «أوليا بن قزمان» بالزين وهو تصحيف، وتصحيحه عن عقد الجمان والدرر الكامنة.

وفيها ٱستُشهِد أيضا الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الأُستادار ، وكان من كبار الأمراء المنصوريّة .

وٱستُشهِد الأمير جمال الدين آقوش الشمسى الحاجب . والأمير سيف الدين بَهادُر أحد الأمراء بحَمَاة . والأمير صلاح الدين بن الكامل(١) . والأمير علاء الدين [على](٢) ابن الجاكى . والشيخ نجم الدين [أيُّوب](٣) الكُرْدى . والأمير شمس الدين سُنْقُر الشمسى [الحاجب](٤) . والأمير شمس الدين سُنْقُر الكافورى(٥) . والأمير سُنْقُرْشاه أستادار بيبَرْس الجالق . والأمير حُسام الدين علىّ بن باخل . والأمير لاچين الرومىّ [المنصورى](٤) أستادار الملك المنصور قلاوون و يعرف بالحُسام .

قلت : ورأيت أنا من ذريّته الصارمى إبراهيم بن الحسام . وكلُّ هؤلاء ٱستُشهِدوا فى نَوْبة غازان بشَقْحَب بيد التتار .

وفيها تُوُفِّى الملك العادل كَتْبُغَا المنصورىّ نائب حَمَاة بها وهو فى الكهوليّة فى ليلة الجمعة يوم عيد الأَضْحَى . وقد تقدّم ذكُره فى ترجمته من هـذا الكتاب عند ذكر سلطنته بالديار المصريّة ، وما وقَع له حتى خُلِـع وتوجّه لنيابة صَرْخَد ، ثم نُقِل إلى نيابة حماة فمـات بها .

وفيها تُوُفِّى قاضى القضاة تقىّ الدين محمـد ٱبن الشيخ مجد الدين علىّ بن وهب ابن مُطيع بن أبى الطاعة القُشَيْرِىّ المنفلوطىّ الفقيه المـالكىّ ثم الشافعىّ المعروف بٱبن دقيق العيد قاضى قضاة الشافعيّة بالديار المصريّة . كان إماماً عالمـاً ، كان مالكيّا ثم ٱنتقل إلى مذهب الشافعىّ . ومولده فى عشرين شعبان سـنة خمس وعشرين

---

(١) فى الأصلين : « ابن الكاملى » . وتصحيحه عن السلوك وشـذرات الذهب وتاريخ سلاطين المماليك . (٢) زيادة عن تاريخ سلاطين المماليك . (٣) التكملة عن السـلوك وعقد الجمان والدرر الكامنة ، وقد ذكر له صاحبها ترجمة طويلة . (٤) زيادة عن السلوك . (٥) فى ابن إياس : « الكافورى » .

وستمائة، ومات في يوم الجمعة حادى عشر صفر، وكان تفقه بأبيه ثم بالشيخ عز الدين[1] ابن عبد السلام وغيره، وسمع من ابن المقيّر[2] وابن رواح[3] وابن عبد الدائم[4] وغيرهم، وخرّج لنفسه تساعيات، وصار من أئمة العلماء في مذهبي مالك والشافعي مع جودة المعرفة بالأصول والنحو والأدب، إلا أنه كان قهره الوسواس في أمر المياه والنجاسات، وله في ذلك حكايات ووقائع عجيبة. وروى عنه الحافظ فتح الدين بن سيد الناس، وقاضى القضاة علاء الدين القونوى[5]، وقاضى القضاة علم الدين الإخنائى[6] وغيرهم وكان أبو حيّان[7] النحوى يُطلق لسانه في حق قاضى القضاة المذكور، وقد أوضحنا ذلك في ترجمته في المنهل الصافي باستيعاب. ومن نظمه قصيدته المشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم التي أولها[8] :

يا سائرًا نحوَ الحجاز مُشمِّرا * اِجْهَدْ فَدَيتُك في المسير وفي السُّرى
وإذا سهِرتَ الليل في طلب العُلا * فحذارِ ثم حذارِ من خُدَع الكَرى

وله أيضا :

سحابُ فكرى لا يزال هاميا * وليلُ همّى لا أراه راحلا
قد أتعبتْنى همّتى وفِطْنتى * فليتنى كنت مَهِينًا جاهلا

(١) هو عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام . تقدمت وفاته سنة ٦٦٠ هـ .
(٢) هو أبو الحسن على بن الحسين بن على بن منصور البغدادى الأزجى الحنبلى النجار مسند الديار المصرية . تقدمت وفاته فيمن نقل المؤلف وفاتهم عن الذهبى سنة ٦٤٣ هـ . (٣) هو عبد الوهاب ابن ظافر بن على بن رواح رشيد الدين . تقدمت وفاته سنة ٦٤٨ هـ . (٤) هو أحمد بن عبد الدائم ابن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم زين الدين أبو العباس مسند الشام وفقيهها ومحدثها . تقدمت وفاته فيمن نقل المؤلف وفاتهم عن الذهبى سنة ٦٦٨ هـ . (٥) هو علاء الدين على بن إسماعيل بن يوسف القونوى الفقيه الشافعى . والقونوى : نسبة الى قونية من بلاد الروم . توفى سنة ٧٢٩ هـ (عن الدرر الكامنة وشذرات الذهب ولب اللباب) . (٦) هو محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران ابن رحمة الإخنائى السعدى الشافعى علم الدين . توفى سنة ٧٣٢ هـ (عن المنهل الصافي والدرر الكامنة وشذرات الذهب) . (٧) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٨٤ من هذا الجزء . (٨) وردت هذه القصيدة في فوات الوفيات في نحو سبعة عشر بيتا .

§ أمر النيل فى هذه السنة — المـاء القديم لم يُحَرَّر . مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء، وكان الوفاء فى سابع عشرين مسرى[1] .

*
* *

السنة السادسة من ولاية الملك الناصر محمـد بن قلاون الثانية على مصر، وهى سنة ثلاث وسبعمائة .

فيهـا ٱنتدب الأمراء لعمارة ما خَرِب من الجوامع بالزَّلزلة فى السنة المـاضية، وأنفقوا فيها مالًا جزيلا .

وفيها كملت عمارة المدرسة الناصريّة[2] ببين القصرين، ونَقَل الملك الناصر محمد ٱبن قلاوون أُمَّه من التُّربة المجاورة للمشهد[3] النَّفيسىّ[4] إليهـا . وموضع هـذه المدرسة

(١) هو الشهر الثانى عشر من شهور القبط و يوافقه شهر أغسطس من شهور الروم (عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٧٩) . (٢) المدرسة الناصرية، لمـا تكلم المقريزى فى خططه على هذه المدرسة (ص ٣٨٢ ج ٢) قال إنها بجوار القبـة المنصورية من الجهـة البحرية . أنشأها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى، فابتدأ فى وضع أساسها فى سنة ٦٩٥ هـ، و بعد أن ٱرتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها تصادف أن خلع كتبغا وعاد الناصر محمد بن قلاوون الى مملكة مصر، فاشترى هذه المدرسة قبل إتمامها وأكملها فى سنة ٧٠٣ هـ، وهى من أجل مبانى القاهرة . و بوابتها من الرخام الأبيض، أصلها على باب كنيسة من كنائس عكا، وداخل باب هذه المدرسة قبة جليلة مدفون بها والدة الناصر وٱبنه آنوك . وأما الملك الناصر محمد بن قلاوون فهو مدفون فى تربة والده المنصور قلاوون المجاورة لهذه المدرسة .

ولا تزال المدرسة الناصرية موجودة الى اليوم بين جامعى قلاوون و برقوق بشارع المعز لدين الله (شارع بين القصرين سابقا) بالقاهرة وتعرف بجامع الناصر . ومما يلفت النظر فى هذه المدرسة من الوجهة المعمارية الوجهة المزينة بالزخارف والكتابات وطراز بوابتها الجوتيكى من الرخام المضلع والمئذنة القائمة على الباب المغشاة بالزخارف الجصية وهى من أدق وأحسن ما وجد من نوعها . ولم يبق من أواوين المدرسـة غير الإيوان الشرقى بمحرابه الجصى النادر، والإيوان الغربى و به شباك غاية فى الدقة .

هذا مع العلم بأنه كان يوجد مدرسة أخرى تسمى الناصرية أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب فى سنة ٥٦٦ هـ بمصر القديمة وقت أن كان وزيرا للخليفة العاضد الفاطمى ثم عرفت بمدرسـة ٱبن زين التجار ثم عرفت بالمدرسـة الشريفية . وقد ٱندثرت وسبق التعليق عليهـا فى الجـزء الخامس ص ٣٨٥ — ٣٨٦، والجزء السادس ص ٥٥ — ٥٦ من هذه الطبعة . (٣) التربة المجاورة للشهد النفيسى، يقصد المؤلف تربة الخلفاء العباسيين التى سبق التعليق عليها فى الحاشيـة رقم ٢ ص ١٤٨ من هذا الجزء . (٤) المشهد النفيسى، هو مقام السيدة نفيسة رضى الله عنها، وسبق التعليق عليه فى الحاشية رقم ٢ ص ٣٧٨ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

الناصرية كان دارًا تُعرف بدار سيف الدين بَلَبَان الرشيدى - فآشتراها الملك العادل
زَين الدين كَتْبُغَا وشرع فى بنائها مدرسة ، وعَمِل بوابتها من أنقاض مدينة عكّا
وهى بوّابة كنيسة بها ثم خُلِع كَتْبُغَا ، فآشتراها الملك الناصر محمد هذا على يد
قاضى القضاة زَين الدين علىّ بن مخلوف(١) وأتمّها وعَمِل لها أوقافا جليلة ، من جملتها :
قَيْسارِيّة أمير علىّ(٢) بالشرابشيين(٣) . ٥

(١) هو على بن مخلوف بن ناهض بن مسلم النويرى المالكى قاضى القضاة زين الدين . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧١٨ هـ . (٢) قيسارية أمير على ، يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على قيسارية أمير على (ص ٨٧ ج ٢) وعند الكلام على مسالك القاهرة وشوارعها (ص ٣٧٣ ج ١) : أن هذه القيسارية بشارع القاهرة تجاه الجمالون الكبير بجوار قيسارية جهاركس يفصل بينهما درب قيطون ، عرفت بالأمير على آبن الملك المنصور قلاوون الذى عهد له بالملك ولقبه بالملك الصالح ومات فى حياة أبيه ١٠ فى شعبان سنة ٦٧٩ هـ . وقال المقريزى : إن قيسارية جهاركس ودرب قيطون وقيسارية أمير على كانت كلها على يمين السالك بشارع القاهرة قاصدا بين القصرين ، وإن سوق الجمالون الكبير كان على يساره تجاه قيسارية أمير على .

وذكر آبن إياس فى كتابه تاريخ مصر (ص ٥٨ ج ٤) : أنه فى شهر جمادى الأولى من سنة ٩١٠ هـ كملت عمارة السلطان التى أنشأها تجاه جامعه ، وكان أصلها قيسارية الأمير على ، وقد استبدلها من وقف ١٥ الناصر محمد بن قلاوون . وبالبحث تبين لى :

١ — أن درب قيطون هو الذى يعرف اليوم بعطفة البارودية المتفرعة من شارع المعز لدين الله (شارع الغورية سابقا) .

٢ — أن قيسارية جهاركس مكانها اليوم مجموع المبانى المشرفة على الشارع المذكور فيما بين عطفة البارودية من بحرى وشارع الكحكيين من قبلى . ٢٠

٣ — أن سوق الجمالون هو الذى يعرف اليوم بحارة الجمالون المتفرعة أيضا من شارع المعز بحرى جامع الغورى . ومتى عرف القارئ كل ذلك تبين له أن قيسارية أمير على مكانها اليوم الأرض القائم عليها قبة وسبيل وكتاب السلطان قنصوه الغورى بشارع المعز لدين الله تجاه جامع الغورى المذكور .

(٣) الشرابشيين ، ذكر المقريزى سوق الشرابشيين فى خططه (ص ٩٨ ج ٢) فقال : إنها مما أحدث بعد الدولة الفاطمية ويباع فيها الخلع التى ينعم بها السلطان على الأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم . وقيل له ٢٥ سوق الشرابشيين لأنه كان من الرسم فى الدولة التركية أن السلطان والأمراء يلبسون على رءوسهم كلوتة صفراء مضربة تضريبا عريضا ولها كلاليب بغير عمامة فوقها ، وهو لباس يشبه التاج مثلث الشكل يحمل على الرأس بغير عمامة فعرف هذا السوق بالشرابشيين نسبة الى الشرابيش المذكورة . وقد بطل لبس الشربوش فى الدولة الجركسية . وبهذا السوق عدة تجار لشراء التشاريف والخلع وبيعها على السلطان فى ديوان الخاص .

والرَّبْع المعروف بالدهيشة[1] قريبًا من باب زُويلة[2]، وحوانيت بباب الزُّهومة[3]

= ويستفاد مما ذكره المقريزى عند الكلام على مسالك القاهرة وشوارعها (ص ٣٧٣ ج ١)، ومما ذكرناه فى التعليق السابق الخاص بقيسارية أمير على من أن سوق الشرابشيين كان فى الشارع الأعظم الذى كان يسمى قديما قصبة القاهرة. ومما ذكره ابن إياس فى عدة مواضع فى كتابه تاريخ مصر من أن مدرسة السلطان قنصوه الغورى تقع فى سوق الشرابشيين يستفاد من كل ذلك أن هـذا السوق مكانه اليوم بشارع المعز لدين الله (شارع الغورية سابقا) فى المسافة المحصورة بين شارع الأزهر و بين عطفة البارودية.

ولهذه المناسبة أذكر أن اسم الطربوش الذى نحمله اليوم على رءوسنا مأخوذ من الشربوش السابق ذكره.

(١) الربع المعروف بالدهيشة، بالبحث تبين لى أن هذا الربع لا يزال موجودا، وهو ضمن أعيان وقف رضوان بك الفقارى تجاه جامع الصالح طلائع بن رزيك فى أول شارع قصبة رضوان على اليمين من جهة باب زويلة. وقد أقيم حديثا على جزء من أرض هـذا الربع زاوية السلطان فرج بن برقوق التى أنشأها فى سنة ٨١١ هـ المعروفة بزاوية الدهيشة، والسبب فى نقل هذه الزاوية من مكانها الأصلى إلى جهة هذا الربع هو أنها كانت مزاحمة للطريق العام أمام باب زويلة حيث كان بين الزاوية و بين البدنة الغربية للباب المذكور نحو أربعة أمتار؛ فاتفقت مصلحة التنظيم مع إدارة حفظ الآثار العربية على نزع ملكية جزء من الأرض القائم عليها ربع الدهيشة المذكور ونقل الزاوية إليه. و بناء على هذا الاتفاق رقت جميع الأحجار التى يتكون منها بناء الزاوية المذكورة ثم فكت ونقلت بعناية وأعيد بناؤها فى سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣ م فى مكانها الحالى بأحجارها وشكلها القـديم كما كانت حتى إن من يراها لا يظن أنها منقولة. و بذلك أصبح عرض الطريق بين الزاوية و بين باب زويلة ستة عشر مترا بعد أن كان عرضها أربعة أمتار.

(٢) باب زويلة، يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على باب زويلة (ص ٣٨٠ ج ١): أن باب زويلة القديم عند ما وضع القائد جوهر مدينة القاهرة كان عبارة عن بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح يعرفان بباب القوس وقد زال هـذا الباب ولم يبق له أثر ولما أراد أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى توسيع مدينة القاهرة القديمة نقل سورها القبلى الى جهة الجنوب و بنى باب زويلة الحالى سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م ورفع أبراجه.

و بالبحث تبين لى أن مكان الباب القـديم يقع اليوم فى عرض شارع المعز لدين الله (شارع المناخلية سابقا) تجاه زاوية سام بن نوح، وفى عرض شارع المنجدين تجاه هـذه الزاوية، وفى شمال باب زويلة الحالى، وعلى بعد ١٤٠ مترا من عتبته.

ولما أنشأ الملك المؤيد شيخ المحمودى جامعه الحالى داخل باب زويلة سنة ٨١٩ هـ = ١٤١٦ م هدم الجزء العلوى من بدنتى الباب الحالى (أبراجه) وأقام فوقهما منارتى الجامع، ولا يزال باب زويلة موجودا إلى اليوم على رأس شارع المعز لدين الله الذى يوصل بين هذا الباب و باب الفتوح.

والعامة يسمون باب زويلة بوابة المتولى، لأن متولى حسبة القاهرة فى الزمن الماضى كان يجلس بهذا الباب لتحصيل العوائد والرسـوم من أصحاب الأملاك ومن التجار وللنظر فيما يعرض عليه يوميا من قضايا المخالفات والفصل فيها.

(٣) باب الزهومة، هو أحد أبواب القصر الكبير الشرقى الفاطمى بالقاهرة، كان واقعا فى الزاوية القبلية الغربية من مبانى هذا القصر. وقد سبق التعليق عليه فى الجزء الرابع حاشية رقم ٢ ص ٣٦ من هذه الطبعة.

والحمّام[1] المعروفة بالفخرية بجوار المدرسة الفخرية[2]، وعدّة أوقاف أخرى فى مصر والشام .

(١) الحمام المعروف بالفخرية، يستفاد مما ذكره على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية عند الكلام على حمام البنات (ص ٦٦ ج ٦) : أن هذا الحمام كان من الحمامات القديمة . بناه الأمير فخر الدين عبد الغنى ابن عبد الرازق بن أبى الفرج الأرمنى، وكان يعرف بحمام الكلاب، ثم عرف بحمام البنات لأنه يجاور جامع فخر الدين عبد الغنى الذى يعرف اليوم بجامع البنات بشارع جامع البنات بالقاهرة . وقد هدم هذا الحمام ودخلت أرضه فى دار أم حسين بك ابن محمد على باشا والى مصر .

و بالبحث تبين لى أن هذا الحمام كان واقعا بجوار الجامع المذكور من الجهة القبلية حيث كانت توجد سراى أم حسين بك . وقد هدمت هذه السراى و بيعت أرضها قطعا لبعض التجار، فأقاموا عليها محال تجارية واسعة بشارع جامع البنات .

(٢) فى أحد الأصلين : «بجوار المدرسة السيفية» والمدرسة الفخرية التى يقصدها المؤلف هى التى أنشأها الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الأرمنى، وذكرها المقريزى فى خططه باسم جامع الفخرى (ص ٣٢٨ ج ٢) لتمييزها من المدرسة الفخرية القديمة التى أنشأها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل البارومى . وذكرها المقريزى فى خططه (ص ٣٦٧ ج ٢) لأن جامع الفخرى هو الذى كان بجواره الحمام المعروف بالفخرية المذكور فى التعليق السابق . وأما المدرسة الفخرية القديمة فلم يرد فى كتب الخطط ما يفيد أنها كانت مجاورة لإحدى الحمامات .

وقد تكلم المقريزى على جامع الفخرى المذكور فقال : إنه بخط بين السورين فيما بين باب الخوخة و باب سعادة، و يتوصل إليه من درب العدّاس المجاور لحارة الوزيرية، أنشأه الأمير فخر الدين عبد الغنى بن عبد الرازق بن نقولا الشهير بابن أبى الفرج الأرمنى فى سنة ٨٢١ هـ وخطب فيه يوم الجمعة ٢٨ شعبان من السنة المذكورة وعمل فيه عدة دروس . ولما مات فى منتصف شوال من تلك السنة دفن فى هذا الجامع .

وأقول : إن جامع الفخرى هذا أو المدرسة الفخرية حسب رواية المؤلف لا تزال موجودة إلى اليوم ومعروفة بجامع البنات بشارع جامع البنات بالقاهرة، ولها باب آخر بحارة جامع البنات الموصلة قديما الى درب العداس . وفى سنة ١٢٦٨هـ = ١٨٥١م . جدّدت السيدة ممتاز قادن حرم ساكن الجنان محمد على باشا الكبير الشهيرة بأم حسين بك هذا الجامع . وأنشأت له مئذنة جديدة على الطراز العثمانى . وقد نقش فى لوح من الرخام بأعلى الباب العام تاريخ هذا التجديد . ثم عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحه وتجديده فعملت به جملة إصلاحات وترميمات أرجعته إلى حالته التى أنشئ عليها، وقد تم هذا الإصلاح فى سنة ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥ م .

وأما سبب شهرته بجامع البنات فقد ذكر الشيخ عبد الغنى النابلسى فى كتاب الحقيقة والمجاز الذى وضعه عن رحلته إلى مصر فى سنة ١١٠٥ هـ . أن سبب هذه التسمية يرجع على ما علمه من أن البنت التى لا يتيسر لها زوج تأتى إلى هذه المدرسة فى يوم الجمعة والناس فى الصلاة وتجلس فى مكان هناك، ومتى أقيمت الصلاة وكان الناس فى السجدة الأولى من الركعة الأولى من صلاة الجمعة مرت البنت بين صفوف المصلين ثم تذهب فيتيسر لها الزوج، وقد جربوا ذلك، فاشتهر الجامع باسم جامع البنات لكثرة الزائرات له منهن .

وفيها تُوُفّى الأمير عزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِىّ[1] كان أصله من مماليك الملك المنصور صاحب حَمَاة، فطلبه منه الملك الظاهر بيبَرْس هو وأبو خُرْص [علم الدين سَنْجَر][2] من الملك المنصور، فسيّرهما إليه فرقّاهما ثم أمّرهما، ثم وَلّى الملك الأشرف خليل أيبكَ هذا نيابةَ دِمَشْق بعد سَنْجَر الشجاعىّ حتّى عزله الملك العادل كَتْبُغَا بمملوكه إغزلوا العادلىّ[3]، وولى بعـد ذلك نيابة صَرْخد ثم حِمْص وبها مات فى تاسع عشر ربيع الآخر.

وفيها توفى الأمير ركن الدين بيبَرْس التَّلاوِىّ وكان يَلِى شَدّ دمشق، وكان فيه ظُلْم وعَسْف، وتولّى عِوضَه شـدّ دِمَشْق الأمير قَبْرَان[4] [المنصورى] الدوادارى.

وفيها تُوُفّى القاضى شمس الدين سليمان[5] بن إبراهيم بن إسماعيل المَلَطِىّ[6] ثم الدِّمَشْقِىّ الحنفىّ أحد نوّاب الحكم بدمشق ومصر، كان فقيها عالمـا ديّنا مباركا حسن السِّيرة.

وفيها تُوُفّى القان إيل خان معزّ الدين[7] قازان، وقيل غازان، وكلاهما يصح معناه ابن أرغون بن أبغـا بن هولاكو بن تُولى خان بن چنكزخان ببلاد قَزْوِين[8] فى ثانى عشر شوال[9] وحُمِل إلى تربته وقُبّته التى أنشأها خارج تِبْرِيز[10]. وكان جلوسه على تخت

---

(١) هو الملك المنصور المظفر تقى الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن المظفر محمود ابن المنصور محمـد بن عمر بن شاهنشاه الحموى آخر ملوك حماة. تقدمت وفاته فيمن نقل المؤلف وفاتهم عن الذهبى سنة ٦٩٨ هـ. (٢) التكلة عن الدرر الكامنة وما تقدّم ذكره للؤلف فى الجزء السابع ص ١٧٦ من هـذه الطبعة. (٣) فى أحد الأصلين: «فى تاسع شهر رجب».

(٤) زيادة عن الدرر الكامنة، وذكر أن وفاته كانت سنة ٧٠٩ هـ. (٥) فى عقد الجمان: «سلمان بن إبراهيم». (٦) الملطى (بفتحتين): نسبة الى ملطية، مدينة بالروم (عن لب اللباب).

(٧) فى الأصلين: «سعد الدين». وما أثبتناه عن الدرر الكامنة والسلوك. (٨) قزوين: مدينة لها حصن وماؤها من السماء والآبار ولها قناة صغيرة للشرب، وهى مدينة خصبة مشهورة، بينها وبين أبهر اثنا عشر فرسخا، وبينها وبين الديلم جبل (عن مراصـد الاطلاع وتقويم البلدان لأبى الفدى).

(٩) فى الدرر الكامنة: «ثانى عشر شعبان». (١٠) راجع الحاشية رقم ١ ص ١١٩ من هذا الجزء.

المُلْك في سـنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وأسلمَ في سنة أَربع وتسعين، ونثَرَ الذهب والفِضّة واللؤلؤ على رءوس الناس، وفشا الإسلامُ بإسلامه في ممالك التتار، وأظهَر العدل وتَسمّى محمودا، وكان أجلّ ملوك المُغُـل من بيت هولاكو ، وهو صاحب الوَقَعات مع الملك الناصر محمد بن قلاوون والذى مَلَك الشام . وقد تقدّم ذكر ذلك كلِّه في أصل هذه الترجمة .

وفيها تُوُفّى القاضى فتح الدين أبو محمد عبد الله آبن الصاحب عِزّ الدين محمد بن أحمـد بن خالد بن محمد القَيْسَرَانِىّ في يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيـع الآخر بالقاهرة، وقـد وَزَر جَدُّه موفّق الدين خالد[(١)] للملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكى المعروف بالشهيد ، وكانت لديه فضيلة وعُنِى بالحديث وجمَع وألّف كتابا في معرفة الصحابة ، وكان له نظم ونثر، وخرّج لنفسه أربعين حديثا ، وروَى عنه الدِّمْياطِىّ من شـعره، وأخَذ عنه الحافظ فتح الدين آبن سـيِّد الناس ، والبِرْزَالِىّ والذهبىّ .

ومن شعره :

بوجه مُعـــذِّبى آياتُ حُسْنٍ * فقُل ما شئتَ فيـه ولا تُحاشِى
ونسخةُ حُسنِه قُرِئَتْ فصحَّتْ * وها خَطُّ الكمال على الحواشِى

وفيها تُوفّى القاضى كمال الدين[(٢)] أبو الفتح مؤسى آبن قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن شهاب الدين محمد بن خَلِّكان، كان فاضلا آشتغل في حياة والده ودرس، وكانت سيرتُه غير مشكورة، وهو كان أكبرَ الأسباب في عزل والده، ومات في شهر ربيع الأوّل[(٣)] .

---

(١) هو موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسرانى أبو البقاء صاحب الخط المنسوب . كانت وفاته سنة ٥٨٨ هـ (عن شذرات الذهب وعقد الجمان) . (٢) في الأصلين : « جمـال الدين » . وما أثبتناه عن الدرر الكامنة وأعيان العصر وأعوان النصر للصفدى . (٣) ذكرت وفاته في الدرر الكامنة سنة ٧١٧ هـ . وذكر وفاته الصفدى في أعيان العصر وأعوان النصر سنة ٧٣٣ هـ .

وفيها توفّى الشريف أبو فارس عبد العزيز بن عبد الغنى بن سرور بن سلامة[(١)] المَنُوفىّ أحد أصحاب أبى الحجّاج[(٢)] الأَقْصُرىّ . مات فى ليلة الأثنين خامس عشر ذى الحجة بمصر عن مائة وعشرين سنة .

وفيها تُوفّى الشريف جَمَّاز بن شِيحة [بن هاشم بن قاسم بن مُهَنَّا[(٣)]] أمير المدينة النبويّة مصروفًا عن ولايتها ، والأصح وفاته فى القابلة .

وفيها تُوُفِّى الإمام المحدّث تاج الدين علىّ بن أحمد بن عبد المحسن الحُسَيْنِىّ الغَرَّافِى[(٤)] الإسكندرانىّ فى سابع ذى الحجّة .

وفيها تُوفّى الأمير الوزير ناصر الدين محمد ، ويقال ذُبْيَان[(٥)]، الشيخىّ، تحت العقوبة فى سابع ذى القعدة .

وفيها تُوفّى الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد[(٦)] بن الحسين بن محمد الأُرْمَوِىّ نقيب الأشراف فى تاسع عشر شوّال، وكان فاضلا رئيسا . وقيل وفاته فى الآتية، وهو الأقوى .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم ثلاث أذرع وعدّة أصابع . مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا وستّ عشرة إصبعا . وكان الوفاء أوّل أيام النَّسِىء .

---

(١) ترك المؤلف بعد هذا الجد أجدادا كثيرين ذكرهم صاحب الدرر الكامنة . (٢) هو يوسف ابن عبد الرحيم بن غزى أبو الحجاج القرشى الأقصرى ، توفى سنة ٦٤٢ هـ (راجع ترجمته فى الطالع السعيد). (٣) زيادة عن الدرر الكامنة والمنهل الصافى . (٤) فى الأصلين : « العراق » . وتصحيحه عن الدرر الكامنة والمشتبه وشذرات الذهب . والغرافى، نسبة إلى الغراف : نهر تحت واسط على قرى كثيرة . وذكرت وفاته المصادر المتقدّمة فى السنة القابلة . (٥) ذكر فى الدرر الكامنة والمنهل الصافى باسم ذبيان فقط وهو ذبيان بن عبد الله المـاردى الشيخى ناصر الدين والى القاهرة . وفيهما أن وفاته كانت فى السنة القابلة . (٦) راجعنا وفيات هذه السنة والتى بعدها فى المصادر التى تحت يدنا فلم نعثر على هذا الاسم .

* * *

السنة السابعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، وهى سنة أربع وسبعمائة .

فيها توجّه الأمير بيبَرْس الجاشْنَكير إلى الحجاز مرّة ثانية ومعه علاء الدين أَيدُغْدِى الشُّهْرُزُورِىّ رسولُ مَلك الغرب ، والأمير بيبَرْس المنصورىّ الدّوَادار ، والأمير بهاء الدين يعقوبا وجماعة كثيرة من الأمراء، وخرج رَكْب الحاجّ فى عالَم كثير من الناس مع الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الخازِنْدار زوج بنت الملك الظاهر بيبَرْس .

وفيها ظَهر فى مَعْدن الزُّمُرُّد قطعةُ زِنتها مائة(١) وخمسة وسبعون مثقالا فأخفاها الضامن ثم حَملَها إلى بعض الملوك(٢)، فدفَع فيها مائة ألف وعشرين ألف درهم فأبَى يبيعها ، فأخذها المَلِكُ(٣) منه غَصْبًا وبعث بها إلى السلطان فمات الضامن غمًّا .

وفيها تُوُفِّى القَاضى فتح الدين أحمد بن محمد بن سُلطان(٤) القُوصِىّ الشافعىّ وكيل بيت المال بقُوص وأحَد أعيانها ، كان من الرؤساء ومات بها فى حادى عشر المحرّم .

وفيها تُوُفِّى القاضى زَيْن الدين أحمد ابنُ الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حِنّا فى ليلة الخميس ثامن صفر ، وكان فقيهاً فاضلا متديّنا وافر الحُرْمة .

---

(١) يلاحظ أنه ابتداء من هنا انقطع الكلام فى أحد الأصلين بمقدار لوحة .

(٢) يريد به ملك اليمن ، كما صرح بذلك فى عقد الجمان فى حوادث هذه السنة

(٣) عبارة عقد الجمان : «ورجع بها فأخذت منه وحملت إلى الملك النّاصر فانفطرت مرارة الضامن ومات» .

(٤) فى الأصلين : «أحمد بن محمد بن سليمان» . وتصحيحه عن الطالع السعيد والسلوك للمقريزى .

وفيها تُوُفِّى شمس الدين أحمد بن علىّ بن هبة الله بن السَّديد الإسْنائِىّ خطيب إسْنا[1] ونائب الحكم بها و بأُدْفُو[2] وقُوص[3] فى شهر رجب، وكانت قد ٱنتهت إليه رياسة الصعيد، و بَنَى بقوص مدرسة، وكان قوىّ النفس كثيرَ العطاء مُهابا ممدوحا يبذُل فى بقاء رياسته الآلاف الكثيرة، يقال إنه بذَل فى نيابة الحكم بالصعيد مائتى ألف[4]، وصادره الأمير كَرَاى المنصورىّ وأخذ منه مائة وستين ألف درهم، فقَدِم القاهرة ومات بها .

وفيها تُوُفِّى الأمير بِيبَرْس المُوَفَّقِىّ[5] المنصورىّ أحدُ الأمراء بدِمَشق بها فى يوم الأربعاء ثالث عشر[6] جُمادى الآخرة مخنوقًا وهو سكران . نسأل الله حسن الخاتمة بمنّه وكرمه .

---

(١) إسنا، من المدن المصرية القديمة وهى اليوم قاعدة مركز إسنا بمديرية قنا. سبق التعليق عليها فى الجزء السادس (ص ٢٦٠ الحاشية رقم ٥) من هذه الطبعة . (٢) أدفو : من المدن المصرية القديمة الشهيرة بالصعيد الأعلى واقعة على الشاطئ الغربى للنيل، اسمها المصرى القديم : « تبوت »، والقبطى «إتبو» . وو ردت فى كتاب البلدان لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ضمن كور الصعيد الأعلى باسم «اتفو»، ومنه اسمها الحالى « أدفو » واسمها الرومى «أبوللينو بوليس» الكبيرة نسبة الى المعبود هوريس أبواللون وهو الصقر . وكانت أدفو فى أيام الفراعنة قاعدة القسم الثانى من أقسام مصر بالوجه القبلى ثم كورة فى عهد العرب .

وهذه البلدة شهيرة بمعبدها الأثرى الفخم الذى أنشأه بطليموس الثالث فى سنة ٢٣٧ ق م للإله هوريس . وأتم مبانيه بطليموس الرابع فى سنة ٢١٢ ق م دون أن يزخرفه، وقد ٱشترك فى بنائه وزخرفته من بعدهما بطليموس العاشر و بطليموس الحادى عشر وٱستمرت العمارة والزخارف حتى ٱنتهى نهائيا فى سنة ٥٧ ق م . وهذا المعبد لا يزال موجودا إلى اليوم و يعد من أكبر الآثار المصرية وأفخمها التى تلفت الأنظار بالوجه القبلى .

وأما أدفو فهى اليوم قاعدة مركز أدفو بمديرية أسوان ولها محطة بالسكة الحديدية باسمها واقعة تجاهها على الشاطئ الشرقى للنيل والوصول إليها بالمعدية . (٣) قوص من المدن المصرية القديمة، وهى اليوم قاعدة مركز قوص بمديرية قنا . وسبق التعليق عليها فى الجزء الخامس ص ٢٩٢ الحاشية رقم ١ والجزء السادس ص ٣٨٣ من هذه الطبعة . (٤) فى السلوك : « ثمانين ألف درهم » .

(٥) الموفق : نسبة الى الموفق نائب الرحبة لأنه كان مملوكه . (عن الدرر الكامنة) .

(٦) فى السلوك : « ثالث عشرين جمادى الآخرة » .

وفيها تُوُفِّى الأمير الشريف عزّ الدين جَمّاز بن شيحة أمير المدينة ، وقد تقدّم في الماضية . والأصح أنّه في هذه السنة .

وفيها تُوُفِّى الأمير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبي سعيد بن التِّيتِي[1] الآمدى أحد الأمراء ونائب دار العدل بقلعة الجبل ، كان رئيسا فاضلا .

وفيها تُوُفِّى الأمير مُبارز الدين سِوار[2] الرومى المنصورى أمير شِكَار ، وكان من أعيان الأمراء وفيه شجاعة وحشمة ورياسة ، وكان معظَّما في الدول .

وفيها تُوُفِّى الأمير سيف الدين بَهادُر بن عبد الله المنصورى المعروف بسِمِز[3] (أعنى سمينا) مقتولا بأيدى عرب الشام بعد أن قتل منهم مقتلة كبيرة .

§ أمر النيل في هذه السنة — الماء القديم أربع أذرع وأصابع . مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا واثنتا عشرة إصبعا ، وكان الوفاء رابع توت .

⁂

السنة الثامنة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر ، وهى سنة خمس وسبعمائة .

فيها قدمت هدية الملك المؤيّد هِزَبْر الدين داود صاحب اليمن فوُجِدت قيمتها أقلّ من العادة ، فكُتِب بالإنكار عليه والتهديد .

وفيها استسقَ أهلُ دِمَشق لقلّة الغَيْث فسُقُوا بعد ذلك ، ولله الحمد .

وفيها تُوُفِّى خطيب دِمَشق شرف الدين أحمد بن إبراهيم بن سِبَاع الفَزَارِى الفقيه المقرئ النحوى المحدّث الشافعى في شوّال عن خمس وسبعين سنة .

---

(١) كذا في الأصلين والسلوك . وفي شذرات الذهب وعقد الجمان : « ابن أبي سعد » .

(٢) في الأصل : « مبارز الدين سنقر الرومى المنصورى أمير سلاح » . وتصحيحه عن عقد الجمان والسلوك والدرر الكامنة . (٣) كلمة تركية معناها ما ذكره المؤلف .

وفيها تُوُفّى الحافظ شرف الدين أبو محمـد[1] عبد المؤمن بن خَلَف بن أبى الحسن ابن شرف بن الخضر بن موسى الدِّمْيَاطِىّ الشافعىّ أحد الأئمة الأعلام والحُفّاظ والثقـات . مولده فى سنة ثلاث عشرة وستمـائة بتُونَة[2] وهى بلدة فى بُحَـيْرة تِنّيس[3] من عمل دِمْيـاط، وقيل فى سـنة عشر وستمـائة، وآشـتغل بدمْياط وحَفِظ التنبية[4] فى الفقه ، وسَمِـع بها و بالقاهرة من الحافظ عبد العظيم المنذرىّ[5] وأخذ عنه علم الحديث، وقرأ القرآن بالروايات، و برَع فى عدّة فنون وسمِـع من خلائق؛ آستوعَبْنا أسمـاء غالبهم فى ترجمته فى المنهل الصـافى . ورحل إلى الحجـاز ودمَشق وحلب وحَمَاة و بغداد، وحدّث وسَمِـع منه خلائق مثل اليُونِينِىّ[6] والقُونَوِى[7] والمِزِّى[8]

(١) فى الدرر الكامنة والوافى بالوفيات للصفدى : «أبو أحمد وأبو محمد» . (٢) تونة من البلاد المصرية القديمة وردت فى معجم البلدان لياقوت بأنها فى جزيرة قرب تنيس ودمياط . واسمها القبطى « تونى » ومنه اسمها العربى . وقد وردت فى بعض الكتب باسم بونة وهو خطأ فى النقل .

وكانت تونة من البلاد التى يشتغل أهلها فى نسج الأقشة القطنية والحريرية وفى صيد الأسماك . وقد آندثرت . (مكانها اليوم يعرف بكوم سيدى عبد الله بن سلام الواقع فى جزيرة ببحيرة المنزلة التى كانت تسمى قديمـا بحيرة تنيس . وهذه الجزيرة تقع شرقى بلدة المطرية إحدى بلاد مركز المنزلة بمديرية الدقهلية ، وعلى بعد خمسة كيلومترات من المطرية المذكورة . (٣) بحيرة تنيس : هذه البحيرة هى التى تعرف اليوم ببحيرة المنزلة الواقعـة فى شمال أراضى مديريتى الشرقية والدقهلية بمصر وتمتد من بور سعيد إلى غيط النصارى بدمياط ، وقد كانت معروفة ببحيرة تنيس نسبة الى بلدة تنيس التى كانت واقعة فى جزيرة بهذه البحيرة وسبق التعليق عليها فى الجزء الخامس من هذه الطبعة . (الحاشية رقم ٢ ص ٣١٢) وبعد أن اندثرت تنيس عرفت البحيرة باسم بحيرة المنزلة نسـبة إلى بلدة المنزلة القريبة منها والتى هى اليوم قاعدة مركز المنزلة بمديرية الدقهلية .

(٤) التنبيه ، كتاب محترم فى فقه الشافعية ، ألفه الأستاذ الجليل الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الشيرازى الفيروزابادى . تقدمت وفاته سنة ٤٧٦ هـ . (٥) تقدمت وفاته سنة ٦٥٦ هـ .

(٦) هو الصدر الكبير قطب الدين موسى آبن الشيخ الفقيه أبى عبد الله محمد بن أبى الحسين أحمد بن عبد الله اليونينى . وراجع الحاشية رقم ١ ص ٣٣٤ من الجـزء السادس من هذه الطبعة .

(٧) فى الأصل : «والمقرض» . وما أثبتناه عن تذكرة الحفاظ والدرر الكامنة والمنهل الصافى .

(٨) هو جمال الدين يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٤٢ هـ .

وأبى حيّان[1] والبِرْزالىّ[2] والذهبىّ[3] وآبن سيّد الناس[4] وخَلْق سواهم، وصنّف مصنّفات كثيرةً ذكرنا غالبها فى المنهل الصافى، [وله كتاب فضل الخيل، وقد سمعت أنا[5] هذا الكتابَ بقراءة الحافظ قطب الدين الخَيْضَرىّ[6] فى أربعة مجالس آخرها فى سلخ شعبان سنة خمس وأربعين وثمانمائة بالقاهرة فى منزل المُسْمِع بحارة برجوان][7] على الشيخ الإمام العلّامة مؤرّخ الديار المصرية تقىّ الدين أحمد [بن علىّ بن عبد القادر][8] المَقْرِيزِىّ بسماعه جميعه على الشيخ ناصر الدين محمد بن علىّ بن الطَّبَرْدار الحَرّاوى[9] بسماعه جميعه على الشيخ مؤلِّفه الحافظ شرف الدين الدِّمْياطِىّ صاحب الترجمة — رحمه الله — وكانت وفاته فجأةً بالقاهرة بعد أن صَلّى العصر غُشِى عليه فى موضعه، فحُمِل إلى منزله فمات من ساعته فى يوم الأحد خامس عشر ذى القعدة.

ومن شعره :

رَوَيْنا بإسناد عن آبن مُغَفَّل[10] * حديثًا شهيرًا صحّ من عِلّة القَدْح
بأنّ رسول الله حين مَسيرِه * لثامنةٍ وافته من ليلة الفتح

وفيها تُوُفّى الملك الأوحد، وقيل الزاهر[11]، تقىّ الدين شادى آبن الملك الزاهر مجير الدين داود آبن الملك المجاهد أسد الدين شِيرِكُوهُ الصغير آبن الأمير ناصر الدين

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٨٤ من هذا الجزء . (٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٥١ من هذا الجزء . (٣) هو الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز الذهبى . سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٤٨ هـ . (٤) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٣٧٩ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٥) زيادة عن المنهل الصافى الذى هو للمؤلف .

(٦) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن الخيضر بن سليمان بن داود يعرف بالخيضرى نسبة الى جدّ أبيه . توفى سنة ٨٩٤ (عن الضوء اللامع) . (٧) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٤٨ من الجزء الرابع من هذه الطبعة . (٨) زيادة عن المنهل الصافى . وسيذكر المؤلف وفاته سنة ٨٤٥ هـ .

(٩) هو محمد بن على بن يوسف بن إدريس الدمياطى الحرّاوى ناصر الدين الطبردار . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٨١ هـ . (١٠) هو عبد الله بن مغفل بن عبد نهم بن عفيف بن أسحم بن ربيعة بن عدى بن ثعلبة بن ذؤيب المزنى أبو سعيد من أصحاب الشجرة مات بالبصرة سنة ٥٧ هـ وقيل سنة ٦١ هـ وقال آبن عبد البر : توفى سنة ٦٠ هـ . (١١) لم يذكر هذا اللقب مصدر من المصادر التى تحت يدنا .

محمد ابن الملك المنصور اسد الدين شيركوه الكبير ابن شادى بن مروان الأيوبى فى ثالث صفر وهو يوم ذاك أحد أمراء دمشق .

وفيها توفى المُسْنِد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبى بكر الحَرّانى الحنبلى . مولده بحرّان سنة ثمانى عشرة وستمائة، وسمع من ابن رُوزْبة (١) والمُؤْتَمَن بن قُمَيْرة (٢)، وسمع بمصر من ابن الجُمَيْزِى (٣) وغيره وتفرّد بأشياء، وكان فيه دُعابة ودِين، وتلا بمكة ألف ختمة .

وفيها تُوُفّى قاضى قضاة الشافعيّة بحلب شمس الدين محمد بن محمد بن بَهْرام بها فى أوّل جُمادَى الأولى، وكان فقيهًا فاضلا .

وفيها تُوُفّى الشيخ الإمام شرف الدين أبو زكريّا يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الجُذَامِى الإسكندرانى المالكى شيخ القراءات بها فى هذه السنة، وكان إماما عالما بالقراءات، وله مشاركة فى فنون . رحمه الله .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم لم يُحرّر، وزاد البحر حتى بلغ ثمانى أذرع ونصفا ثم توقّف إلى ثامن مسرى، ثم زاد حتّى أوفى فى رابع توت . وبلغ ست عشرة ذراعا وخمس عشرة إصبعا .

*
* *

السنة التاسعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، وهى سنة ست وسبعمائة .

---

(١) هو أبو الحسن على بن أبى بكر بن روزبة البغدادى القلانسى الصوفى . تقدّمت وفاته سنة ٦٣٣ هـ فيمن نقل المؤلف وفاتهم عن الذهبى . وفى الأصلين هنا : «روزويه» وهو تحريف .

(٢) هو أبو القاسم يحيى بن أبى السعود نصر بن قبيرة المؤتمن التاجر تقدّمت وفاته سنة ٦٥٠ هـ فيمن نقل المؤلف وفاتهم عن الذهبى .

(٣) هو الفقيه بهاء الدين على بن هبة الله بن سلامة بن الجميزى . تقدّمت وفاته سنة ٦٤٩ هـ .

فيها وقع بين الأميرين: علم الدين سَنْجَر البَرْوَانِيّ وسيف الدين الطشلاقيّ على باب قلعة الجبل مخاصمةٌ بحضرة الأمراء لأجل استحقاقهما في الإقطاعات، لأنّ الطشلاقيّ نزل على إقطاع البَرْوَانِيّ، وكان كل منهما في ظُلْم وعَسْف. والبَرْوَانِيّ من خواصّ بيبَرْس الجاشَنْكير، والطشلاقيّ من ألزام سلّار لأنه خشداشه، كلاهما مملوك الملك الصالح على ابن الملك المنصور قلاوون، ومات في حياة والده قلاوون. فسطا الطشلاقيّ على البَرْوَانِيّ وسَفِه عليه، فقام البَرْوَانِيّ إلى بيبَرْس واشتكى منه فطلبه بيبرس وعنّفه، فأساء الطشلاقيّ في ردّ الجواب وأفحش في حقّ البَرْوَانِيّ، وقال: أنت واحدٌ مَنْفِيٌّ تجعل نفسك مثلَ مماليك السلطان! فاستشاط بيبرس غضباً وقام ليضربه، فجرّد الطشلاقيّ سيفَه يريد ضرب بيبرس، فقامت قيامة بيبرس وأخذ سيفَه ليضربه، فترامى عليه مَنْ حضر من الأمراء وأمسكوه عنه، وأخرجوا الطشلاقيّ من وجهه بعد ما كادت مماليك بيبَرْس وحواشيه تقتله بالسيوف، وفي الوقت طلَب بيبرس الأمير سُنْقُر الكمالِيّ الحاجب وأمر بنفي الطشلاقيّ إلى دمشق، فخشِي سُنْقُر من النائب سلّار ودخل عليه وأخبره، فأرسل سلّار جماعةً من أعيان الأمراء إلى بيبَرْس، وأمرهم بملاطفته حتى يَرْضَى عن الطشلاقيّ وأنّ الطشلاقيّ يلزم داره، فلمّا سمِع بيبرس ذلك من الذين حضروا صَرَخ فيهم وحلف إن بات الطشلاقيّ الليلة بالقاهرة عمِلت فتنة كبيرة، فعاد الحاجب وبلّغ سلّار ذلك فلم يَسَعْه إلّا السكوت لأنّهما (أعني بيبرس وسلّار) كانا غَضِبا على الملك الناصر محمد وتحقّق كلٌّ منهما متى وقع بينهما الخُلْف وجدَ الملك الناصر طريقًا لأخذهما واحدًا بعد واحد، فكان كلٌّ من بيبرس وسلّار يُراعي الآخر وقد اقتسما مملكة مصر، وليس للناصر معهما إلّا مجرّد الاسم في السلطنة فقط. انتهى. وأُخرِج الطشلاقيّ من وقته وأَمَر سلّار الحاجبَ بتأخيره في بلبيس حتّى يُراجع بيبرس في أمره، فعند

ما آجتمع سلّار مع بيبرس فى الخدمة السلطانية من الغـد بدأ بيبَرْس سلّارَ بما كان من الطشلاق فى حقّه من الإساءة ، وسـلّار يُسَكِّنه ولا يسكُن بل يشتدّ فأمسك سـلار عن الكلام على حِقْد فى الباطن ، وصار السلطان يريد إثارة الفتنة بينهما فلم يتمّ له ذلك . وتوجّه الطشلاق إلى الشام منفياً .

وفيها قَدِم البريدُ على الملك الناصر من حَمَاة بمحضر ثابت على القاضى بأن ضَيْعَةً تُعرف ببَارِين[1] بين جبلين فسُمِـع للجبلين فى اللّيل قعقعةٌ عظيمة فتسارع الناس فى الصباح إليهما ، و إذا أحدُ الجبلين قد قَطَع الوادى وآنتقل منه قدرُ نصفه إلى الجبل الآخر ، والمياه فيما بين الجبلين تَجْرِى فى الوادى فلم يسقُط من الجبل المُنتقِل شىء من الحجارة ، ومقدارُ النصف المُنْتَقِل من الجبل مائةُ ذراع وعشرُ أذرع ، ومسافة الوادى الذى قطعه هذا الجبل مائة ذراع ، وأن قاضى حماة خرج بالشهود حتى عاين ذلك وكَتَب به محضرا . فكان هذا من الغرائب .

وفيها وقعت الوحشة بين بيبرس الجاشْنَكِير وسلّار بسبب كاتب بيبرس التاج ابن سعيد الدولة ، فإنّه كان أساء السيرة[2] ، ووقَع بين هـذا الكاتب المذكور وبين الأمير سَنْجَر الجاولى ، وكان الجاولى صديقًا لسلّار إلى الغاية ؛ فقام بيَبرس فى نُصْرة كاتبه ، وقام سـلّار فى نُصْرة صاحبه الجاولى ، ووقع بينهما بسبب ذلك أمور ؛ وكان بيَبْرس من عادته أنّه يركب لسلّار عند ركوبه و ينزل عند نزوله ، فمن يومئذ لم يركب معه وكادت الفتنة أن تقع بينهما ، ثم آستدركا أمرها خوفًا من الملك الناصر وآصطلحا بعد أمور يطول شرحها ؛ وتكلّما فى أمر الوَزَر ومَنْ يصلح لها ، فعيّن سلار

---

(١) فى الأصلين : «بسمارين» . والتصحيح عن السلوك . وبارين . بلدة صغيرة ذات قلعة قـد دثرت ، ولها أعين وبساتين ، وهى على مرحلة من حماة وتقع غربيها بميلة يسيرة إلى الجنوب (عن تقويم البلدان وصبح الأعشى ج ٤ ص ١٤١) . (٢) قد بسط المقريزى فى السلوك فى الكلام على أسباب تلك الوحشة . فراجعه إن شئت فى حوادث هذه السنة .

كاتب بيبرس التاج بن سعيد الدولة المقدّم ذكره تقرّبًا لخاطر بيبرس بذلك ، فقال بيبرس : ما يرضى ، فقال سلار : دعني وإياه ، فقال بيبرس : دونك ، وتفرّقا. فبعث سلّار للتاج المذكور وأحضره فلمّا دخل عليه عبّس وجهه وصاح بإزعاج هاتوا خلعة الوزارة فأحضروها ، وأشار إلى تاج الدولة المذكور بلُبْسها فتمنّع فصرخ فيه وحلف لئن لم يلبسها ضرب عنقه نخاف الإحراق به لما يعلمه من بغض سلار له فلبس التشريف ، وكان ذلك يوم الخميس خامس عشر المحرّم من السنة وقبّل يد سلّار فبشّ في وجهه ووصاه ؛ وخرج تاج الدولة بخلعة الوزارة من دار النيابة بقلعة الجبل إلى قاعة الصاحب بها ، وبين يديه النقباء والحجّاب ،وأخرجت له دواةُ الوزارة والبغلة فعلّم على الأوراق وصرّف الأمور إلى بعد العصر ثم نزل الى داره. وهذا كلّه بعد أن أمسك بيبرس سنجر الجاولى وصادره ثم نفاه إلى دمشق على إمرة طبلخاناه ، وولّى مكانه أستادارًا الأمير أيدمر[1] الخطيري[2] صاحب الجامع ببولاق .

(١) هو أيدمر بن عبد الله الخطيرى الأمير عز الدين . كان أصله مملوكا للخطير الرومى ثم انتقل إلى الملك المنصور قلاوون ، ثم ترقى فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون حتى صار من أكابر الأمراء . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٣٧ هـ وقد ذكر وفاته صاحب الدرر الكامنة سنة ٧٣٨ هـ .

(٢) جامع الخطيرى ، ذكر المقريزى هذا الجامع فى خططه (ص ٣١٢ ج ٢) فقال : إنه واقع على النيل بناحية بولاق خارج القاهرة ، وكان مكانه دار عرفت بدار الفاسقين لكثرة ما يجرى فيها من أنواع المحرّمات فاشتراها الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى وهدمها و بنى مكانها هذا الجامع وكملت عمارته فى سنة ٧٣٧ هـ . وسماه جامع التوبة ، و بالغ فى عمارته فجاء من أحسن الجوامع ، وعمل له منبرا جميلا من الرخام وجعل فيه خزانة كتب جليلة ودروسا للفقهاء .

وأقول : إن هذا الجامع لا يزال موجودا بناحية بولاق باسم جامع الخطيرى بشارع فؤاد الأوّل (شارع بولاق سابقا) بالقرب من النيل ، وهو جامع متسع أصبح اليوم تحت منسوب الشارع بنحو ثلاثة أمتار ، و به صحن سماوى تحيط به أروقة سقفها محمول على ثلاثين عمودا من الرخام ، وله باب آخر فى الجهة الشرقية بشارع الخطيرى ، ومئذنته أثرية مشرفة على هذا الشارع . وقد تهدّم الجزء العلوى منها .

وفى سنة ١٣٠٢ هـ عمر جانبا عظيما منه الشيخ رمضان البولاقى المجذوب . وفى سنة ١٣٣٢ هـ جدّد ديوان الأوقاف وجهته التى على شارع فؤاد الأوّل وجدّد له منبرا من الخشب بدلا من منبره الرخام الذى نقلت بقاياه إلى دار الآثار العربية .

وفيها تُوفّى الصاحب شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عطاء الله[1] الأذْرَعِىّ الدمشقىّ الحنفى محتسب دمشق ووزيرها، وكان رئيسا فاضلا حسَن السِّيرة .

وفيهـا تُوفّى الأمير عزّ الدين أَيْبَـك بن عبد الله الطويل الخازِندار المنصورىّ فى حادى عشر شهر ربيع الأول بدمشق، وكان ديِّنا كثير البِرّ والصدقات والمعروف .

٥ وفيهـا تُوُفّى الأمير بدر الدين بَكْتَاش بن عبـد الله الفخرىّ الصالحىّ النجمىّ أمير سلاح . أصله من مماليك الأمير فخر الدين[2] يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نُقل إلى مِلْك الملك الصالح نجم الدين أيُّوب، فترقّى فى الخـدم حتّى صار من أكابر الأمراء، وغزا غير مرّة وعُرِف بالخير وعلوّ الهمّة وسَداد الرأى وكثرة المعروف . ولمّـا قُتِـل الملك المنصور لاچين أجمعوا على سلطنته فامتنـع وأشار بعَوْد السلطان ١٠ الملك الناصر محمد بن قلاوون، وبعدها ترك الإمْرة فى حال مرضه الذى مات فيه . رحمه الله تعالى .

وفيها تُوُفّى الأمير سيف الدين كاوركا[3] المنصورىّ أحد أعيان الأمراء بالديار المصـــريّة .

وفيها تُوُفّى الأمير سيف الدين بَلَبَـان الجُوكَنْدَار المنصورىّ ، وكان ولى نيابة ١٥ قلعة صَفَد وشَـدّ دواوين دِمَشق ثم نيابة قلعتها، ثم نُقِل إلى نيابة حِمْص فمات بها، وكان مشكور السيرة .

وفيها تُوُفّى القاضى بدر الدين محمد بن فضل الله بن مُجَلّى العُمَرىّ الدمشقى أخو كاتب السرّ القاضى شرف الدين عبد الوهاب ومحيى الدين يحيى وقد جاوز سبعين سنة . وهـذا أوّل بدر الدين من بنى فضل الله، ويأتى ذكر ثانٍ وثالث، والثالث ٢٠ هو كاتب السر بمصر .

---

(١) فى الدرر الكامنة والسلوك وعقد الجمان وعيون التواريخ : «ابن عطاء» بدون ذكر لفظ الجلالة .

(٢) هو فخر الدين يوسف ابن صدر الدين شيخ الشيوخ أبى الحسن محمد بن عمر بن على بن محمد بن حمويه الجوينى . تقدّمت وفاته سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) فى الدرر الكامنة : «كاوزكا» بالزاى .

وفيها تُوُفّى الأمير فارس الدين أصلم الردَّادِى[1] فى نصف ذى القعدة، وكان رئيسا حشِيًّا من أعيان الدولة الناصرية .

وفيها تُوُفّى الأمير بهاء الدين يعقوبا الشَّهْرُزُورِى بالقاهرة فى سابع عشر ذى الحِجّة، وكان أميرًا حشِيًّا شُجاعا وهو من حواشى بِيبَرْس الجاشْنَكير .

٥ وفيها تُوُفّى الطواشى عِزّ الدين دينار العزيزى الخازِنْدار الظاهرى فى يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأول، وكان دِيِّنا خيِّرا كثير الصدقات والمعروف .

وفيها تُوُفّى مَلِك الغرب أبو يعقوب يوسف [بن يعقوب][2] بن عبد الحقّ ، وثَب عليه سَعَادَةُ الخَصِىُّ أحدُ مواليه فى بعض حُجَره وقد خضّب رجليه بالحِنّاء وهو مُستلقٍ على قفاه فطعنه طَعَنَات قطّع بها أمعاءه ، وخرج فأُدرِك وقُتِل ، ومات

١٠ السلطان من جِراحه فى آخر يوم الأربعاء سابع ذى القعدة ، وأقيم بعده فى الملك أبو ثابت عامر ابن الأمير أبى عامر [عبد الله][3] ابن السلطان أبى يعقوب هذا أعنى حفيده . وكان مدّة مُلْكه إحدى وعشرين سنة .

وفيها تُوُفّى الطّواشى شمس الدين صواب السُّهَيْلى بالكَرَك عن مائة سنة، وكان مشكورَ السيرة .

١٥ وفيها تُوُفّى الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن محمد بن على الطوسى الفقيه الشافعى بدمشق فى تاسع عشرين جُمادَى الأُولى[4] ، وكان فقيهًا نحويًّا مصنِّفا شرح «الحاوى» فى الفقه و« مختصر ابن الحاجب » وغير ذلك .

---

(١) الرّدّادى (بالفتح والتشديد) : نسبة الى الرّدّاد : جدّ . وفى الأصلين : « الدواداري » . وتصحيحه عن السلوك وعقد الجمان والمنهل الصافى . (٢) تكلة عن السلوك والدرر الكامنة

٢٠ وشذرات الذهب . (٣) زيادة عن الدرر الكامنة فى ترجمة جدّه يوسف بن يعقوب هذا وتاريخ ابن الوردى فى حوادث هذه السنة . (٤) فى أحد الأصلين : « تاسع جمادى الأولى » . وفى الأصل الآخر: «تاسع عشر جمادى الأولى» وكلاهما خطأ . وصوابه ما أثبتناه نقلا عن المنهل الصافى وعقد الجمان والسلوك .

§ أمر النيل فى هـذه السنة — المـاء القـديم أربع أذرع وعدّة أصـابع . مبلغ الزيادة سبع[1] عشرة ذراعا وسبع أصابع ، وكان الوفاء فى رابع عشر مسرى .

* * *

السنة العاشرة من ولاية الملك النـاصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر ، وهى سنة سبع وسبعمائة .

فيها ورَد الخبر عن ملك اليمن هِزَبْر الدين داود بأمور تدلّ على عصيانه ، فكتَب السلطان والخليفة بالإنذار ، ثم رسم السلطان للأمراء أن يعمل كلُّ أمير مَرْكَبًا يقال لها : جِلْبة[2] ، وعمارةً قيّاسة يقال لها : فِلْوة برسم حمل الأزواد وغيرها لغَزْو بلاد اليمن .

وفيها عَمَّـر الأمير بِيبَرْس الجاشْنَكِير الخانقاه الرُّكْنِيّة[3] داخل باب[4] النصر موضع دار الوزارة[5] برحبة[6] باب العيد من القـاهرة ، ووقف عليها أوقافا جليلة ومات قبل فتحها ، فأغلقها الملك الناصر فى سلطنته الثالثة مدّة ، ثم أمر بفتحها ففتحت .

وفيها عَمَّر الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الأفرم الصغير نائب دِمَشق جامعًا بالصالحية[7] ، وبعث يسأل فى أرض يُوقفها عليه فأُجيب إلى ذلك .

وفيها وقَع الآهتمام على سفر اليمن وعوّل الأمير سَلّار أن يتوجّه إليها بنفسه خشيةً من السلطان الملك الناصر ، وذلك بعد أن أراد السلطان القبض عليه وعلى بيبرس الجاشْنَكِير عنـد ما آتفق السلطان مع بَكْتَمُر الجُوكَنْدار ، وقد تقدّم ذِكْرُ ذلك كلّه

---

(١) فى الأصل الآخر : « ست عشرة ذراعا ... الخ » . (٢) يريد مركبا حربيا كبيرا . وفلوة ، يريد قاربا صغيرا (عن كترميرودوزى) . (٣) راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٧٤ من هذا الجزء . (٤) راجع الحاشية رقم ٣ ص ١٦٥ من هذا الجزء . (٥) راجع الحاشية رقم ٦ ص ٥٠ من الجزء الرابع من هذه الطبعة والحاشية رقم ٤ ص ١٧٤ من هذا الجزء . (٦) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٥٠ من الجزء الرابع من هذه الطبعة . (٧) الصالحية : قرية كبيرة ذات أسواق وجامع بسفح جبل قاسيون المشرف على دمشق وأكثر أهلها ناقلة من نواحى بيت المقدس حنابلة (عن مراصد الاطلاع) .

فى أصل هذه الترجمة، وأيضا أنه شقّ عليه ماصار إليه بيبرس الجاشنكير من القوة والاستظهار عليه بكثرة خُشداشيته البُرجيّة، والبرجية كانت يوم ذاك مثل مماليك الأطباق الآن، وصار غالب البُرْجيـة أمراء، فآشتد شوكة بيبرس بهم بحيث إنّه أخرج الأمير سَنْجر الجاولى وصادره بغير آختيار سلّار، وعظُمت مهابتُه وآنبسطت يده بالتحكّم وآنفرد بالركوب فى جمع عظيم ، وقصد البرجيـة فى نوبة بَكْتَمُر الجُوكَنْدار إخراجَ الملك الناصر محمد إلى الكَرَك وسلطنة بِيبَرْس ، لولا ما كان من منع سَلّار لسياسةٍ وتدبير كانا فيه .

فلمّا وقَع ذلك كلُّه خاف سَلّار عواقب الأمور من السلطان ومن بِيبَرْس وتحيّل فى الخلاص من ذلك بأنه يَحُجُّ فى جماعته ، ثم يسير إلى اليمن فيملكها و يمتنع بها ، ففطن بيبرس لهذا فدسّ عليه جماعةً من الأمراء من أثنَى عزمه عن ذلك، ثم آقتضى الرأىُ تأخير السفر حتى يعود جواب صاحب اليمن .

وفيها حُبِس الشيخ تقىّ الدين بن تيميّة[1] بعد أمور وقعت له .

وفيها تُوُفّى الأمير عزّ الدين أَيْدَمُر السنانىّ بدمشق، وكان فاضلًا وله شعر وخِبْرة بتفسير المنامات . ومن شعره :

تَجِد النَّسيم إلى الحبيب رسولَا * دَنِفٌ حكاه رِقّـةً ونُحـولَا
تجرى العيونُ من العيون صبابةً * فتسيلُ فى إثر الغرِيق سُيولَا
وتقول من حَسَدٍ له ياليتنى : * كنتُ آتّخذتُ مع الرّسول سبيلَا

وفيها تُوُفّى الأمير ركن الدين بِيبَرْس العجمىّ الصالحى المعروف بالجَالِق ، و(الجالِق باللّغة التركيّة : آسم للفَرَس الحادّ المِزاج الكثير اللّعب)، وكان أحد البحريّة

(١) هو شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن تيمية الحرانى الدمشقى الحنبلى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧٢٨ هـ .

وكبير الأمراء بدمشق ، ومات فى نصف جُمادَى الأولى بمدينـــة الرملة[(١)] عن نحو الثمـانين سنة ، وكان ديّنا فيه مُروءة وخير . (وجَالِق بفتح الجيم و بعد الألف لام مكسورة وقاف ساكنة) .

وفيها تُوفّى الأمير الطَّوَاشى[(٢)] شهاب الدين فاخر المنصورىّ مقدّم المماليك السلطانية ، وكانت له ســطوةٌ ومَهابة على المـماليك السلطانية بحيث إنّه كان لا يستجرئ أحد منهم أن يَمُرّ من بين يديه كائنًا من كان بحاجة أو بغير حاجة ، وحيثما وقع بصرُه عليه أمر بضربه .

قلت : لله دَرّ ذلك الزمان وأهله ! ما كانْ أحسن تدبيرَهم وأصوب حَدْسَهم من جَوْدة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم ! حتى ملكوا البــلاد ، ودانت لهم العباد، وآستجلبوا خواطر الرعيّة، فنالوا الرتب السنية . وأما زماننا هذا فهو بخلاف ذلك كلّه، فالمقـــدّم مؤخّر والصغير متنمر[(٣)]، والقلوب متنافرة ، والشرور متظاهرة، وإن شئت تعلم صدق مقالتى حَرِّك تَرَ . انتهى .

وفيها تُوُفّى الشيخ المُعْتَقَد عمر بن يعقوب[(٤)] بن أحمد [السعودى[(٥)] فى جُمادَى الآخرة] .

[وفيها[(٦)] تُوُفّى الشيخ فخر الدين عثمان] بن جَوْشَن السُّعودِىّ فى يوم الأربعاء من شهر رجب ، وكان رجلًا صالحًا مُعْتَقَدًا .

وفيها تُوُفّى الصاحب تاج الدين محمد آبن الصاحب فخر الدين محمد آبن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حِنّا ، ومولده فى تاسع شعبان سنة أربعين وستمائة ،

---

(١) الرملة : بلدة بفلسطين ، آختطها ســليمان بن عبد الملك الأموى ، وهى مشهورة كانت قصبة فلسطين ، و بينها و بين بيت المقدس مسيرة يوم . وكان لعبد الملك الأموى دار بها ، وجر إلى الرملة قناة ضعيفة للشرب منها (راجع تقويم البلدان لأبى الفداء). (٢) فى المنهل الصافى أنه توفى سنة ٧٠٦ هـ. وفى الدرر الكامنة أنه توفى سنة ٧٠٤ هـ . (٣) فى الأصلين : «متنمر» . (٤) فى الأصلين « عثمان بن يعقوب » وهو خطأ . وتصحيحه عن عقد الجمان والسلوك والمنهل الصافى والدرر الكامنة . (٥) التكملة عن المصادر المتقدّمة . (٦) التكملة عن عقد الجمان والسلوك والمنهل الصافى .

وجدّه لأمّه الوزير شرف الدين صاعد الفائزى[1] . وكانت له رياسة ضخمة وفضيلة، ومات بالقاهرة في يوم السبت خامس جمادى الآخرة .

§ أمر النيل في هذه السنة — الماء القديم أربع أذرع وستّ أصابع . مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا وإصبع واحدة .

٥

* * *

السنة الحادية عشرة من ولاية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، وهى سنة ثمانٍ وسبعمائة، وهى التى خُلِع فيها الملك الناصر المذكور من مُلْك مصر وأقام بالكَرَك وتسلطن من بعده بيبرس الجاشنكير حسب ما تقدّم ذكره .

١٠ فيها أُفرِج عن الملك المسعود خِضر ابن الملك الظاهر بيبرس البُنْدُقْدارى من البُرْج بقلعة الجبل، وأُسكِن بدار الأمير عِزّ الدين الأفرم[2] الكبير بمصر، وذلك في شهر ربيع الأوّل .

وفيها كان خروج الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة من القاهرة قاصدًا الحجّ وسار إلى الكَرَك وخَلَع نفسه .

١٥ وفيها تُوُفّى الشيخ علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن أبى الوَحْش رئيس الأطباء بالديار المصريّة والبلاد الشاميّة، وكان بارعًا في الطبّ محظوظا عند الملوك، وناله السعادة من ذلك، حتّى إنّه لمّا مات خلّف ثلثمائة ألف دينار غير القماش والأثاث .

وفيها تُوُفّى الأمير عز الدين أيبك الشجاعى الأشقر شادّ الدواوين بالقاهرة في المحرّم .

---

٢٠ (١) هو الوزير الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى . تقدمت وفاته سنة ٦٥٥ هـ .

(٢) تقدّمت وفاته سنة ٦٩٥ هـ .

وفيهـا تُوُفّى الأمـير علاء الدين أَلِطبَرْس[1] المنصورىّ والى باب القلعة والملقّب بالمجنون المنسوب إليه العمارة فوق قنطرة المجنونة[2] على الخليج الكبير خارج القاهرة، عمّرها للشيخ شهاب الدين العابر[3] ولفقرائه وعَقَدَها قَبْوًا . وفى ذلك يقول علم الدين ابن الصاحب :

ولقد عَجِبتُ من الطَّبَرْسِ وصحبِه * وعقــولهم بعقــوده مفتــونه
عقــدوه عقــدا لا يصح لأنهم * عقــدوا المجنون على مجنونه

وكان أَلِطبَرْس المذكور عفيفًا دِيِّنا غير أنه كان له أحكامٌ قراقوشية من تسلطه على النساء ومنعهنّ من الخروج إلى الأسواق وغيرها، وكان يخرُج أيام الموسم إلى القرافة ويُنَكِّل بهن فآمتنَعْنَ من الخروج فى زمانه إلا لأمر مهم مثل الحَمّام وغيره .

وفيها تُوُفّى الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الرشيدىّ أُستادار الأمير سَلّار نائب السلطنة بالديار المصرية فى تاسع عشر شوال، وكان عاقلا رئيسا وله ثروة واسعة وجاه عريض.

وفيها تُوُفّى الشيخ المُعْتَقَد عبد الغَفّار [بن أحمد بن عبد المجيد بن نُوح][4] القُوصىّ القائم بخراب الكاس بقُوص وغيرها فى ليلة الجمعة سابع ذى القعدة، وكان له أتباع ومريدون وللناس فيه آعتقاد .

---

(١) فى السلوك : «الطلبرس» .
(٢) قنطرة المجنونة، يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على بركة الفيل (ص ١٦١ ج ٢): أن ماء النيل كان يدخل هذه البركة من موضعين : الأول يأخذ مياهه من الخليج المصرى عند قنطرة السد عن طريق بركة قارون التى يعرف مكانها اليوم بخط البغالة بقسم السيدة زينب بالقاهرة، ثم تمر المياه من بركة قارون إلى بركة الفيل بواسطة قنطرة تحت الجسر الأعظم الذى يعرف اليوم بشارع مراسينا . والموضع الثانى يأخذ مياهه من الخليج المصرى مباشرة من تحت قنطرة خصصت لذلك ولأن الماء كان يندفع منها بقوة شديدة وقت فيضان النيل بسبب انحدار أرض البركة فعرفت هذه القنطرة بالمجنونة وقــد اندثرت . ومكانها اليوم بشارع الخليج المصرى (اللبودية بقسم السيدة زينب) فى نقطة تقع بجوار جامع ذى الفقار بك الشهير بجامع غيطاس من الجهة القبلية الغربية للجامع المذكور .
(٣) هو شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة بن سلطان بن سرور النابلسى الحنبلى العابر. تقدمت وفاته سنة ٦٩٧ هـ .
(٤) تكملة عن المنهل الصافى والدرر الكامنة والطالع السعيد .

وفيها تُوُفّى ظهير الدين[1] أبو نصر بن الرشيد بن أبى النصر السّامرِىّ الدمشقى الكاتب فى حادى عشرين شهر رمضان بدِمَشق، ومولده سنة آثنتين وعشرين وستّمائة، كان أوّلا سَامِريًّا ثم أسلم فى أيام الملك المنصور قلاوون، وتنقّل فى الخِدَم حتّى ولى نظر جيش دمشق إلى أن مات .

§ أمر النيل فى هذه السنة — الماء القديم أربع أذرع . مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا وإصبع واحدة مثل السنة الماضية .

(١) كذا فى الأصلين والسلوك . وفى عقد الجمان وعيون التواريخ : « صفى الدين » .

ذكر سلطنة الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير على مصر

السلطان الملك المظفّر ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورىّ الجاشْنَكِير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البُرْجيّة، وكان جَرْكَسِيّ الجنس، ولم نعلم أحدا مَلك مصر من الجراكسة قبله إن صحّ أنه كان جَرْكَسِيًّا. وتأمّر فى أيّام أستاذه المنصــور قلاوون، و بَقِى على ذلك إلى أن صار من أكابر الأمراء فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون. ولمــا تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد قتل أخيه الأشرف خليل صار بِيبَرْس هــذا أُستادارًا[1] إلى أن تسلطن الملك العادل زين الدين كَتْبُغَا عَزَله عن الأُستَادارية بالأمير بَتْخاص، وقيــل: إنّه قبَض على بيبرس هذا وحبسه مدّة، ثم أَفْرج عنه وأنعم عليه بإمرة مائة وتَقْدمة ألف بالديار المصريّة. وآستمرّ على ذلك حتّى قُتِل الملك المنصور حُسام الدين لاچين فكان بيبرس هذا أحد من أشار بعود الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى المُلك. فلمّا عاد الناصر إلى مُلكه تقرّر بيبرس هــذا أُستاداراً على عادته وسلّار نائبا، فأقاما على ذلك ســنين إلى أن صار هو وسَلّار كَفيلَى المـمالك الشريفة الناصرية، والملك الناصر محمــد معهما آلة فى السلطنة إلى أن ضَجِر الملك الناصر منهما وخَرج إلى الحجّ فسار إلى الكَرَك وخَلَع نفسه من المُلك. وقد ذكرنا ذلك كلّه فى ترجمة الملك الناصر محمد. فعند ذلك وقَع الاتّفاق على سلطنة بِيبَرْس هذا بعد أمور نذكرها؛ فتسلطَن وجلَس على تخت الملك فى يوم السبت الثالث والعشرين من شوّال من سنة ثمانٍ وسبعمائة. وهو السلطان الحادى

(١) الأستادار والأستادارية: لفظ فارسى معناه وكيل الخرج أو المؤونة، ومعناه الاصطلاحى فى دولتى المماليك وظيفة من وظائف أرباب الســيوف، وموضوعها التحدّث فى أمر بيوت الســلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان و إليه أمر الجاشنكيرية، وله حديث مطلق وتصرف تام فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت الســلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك للمماليك وغيرهم (صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠ وقاموس استينجاس ص ٤٩).

عشر من ملوك الترك والسابع ممن مسّهم الرِّقّ ، والأوّل من الجراكسة إن صحّ أنه جَرْكَسِيّ الجنس ، ودُقّت البشائر وحضَر الخليفة أبو الربيع سليمان وفوّض إليه تقليد السلطنة ، وكتَبَ له عهدا وشَمِله بخطّه ، وكان من جملة عُنوان التقليد : إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم . ثم جلس الأمير بَتْخاص والأمير قُلّي والأمير لاچين الجَاشْنَكِير لاستحلاف الأمراء والعساكر ، فحلفوا الجميع وكُتِب بذلك إلى الأقطار. ٥

والآن نذكر ما وعدنا بذكره من سبب سلطنة بيبرس هذا مع وجود سلار وآقوش قَتّال السَّبُع وهما أكبر منه وأقدم وأرفع منزلةً ، فنقول :

لمّا خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصريّة إلى الحجّ ثم ثَنَى عزمَه عن الحج وتوجّه إلى الكَرَك خَلَع نفسه ، فلمّا حضر كتابُه الثانى[1] بتركه السلطنة، وقد تقدّم ذكر ذلك في أواخر ترجمة الناصر بأوسع من هذا ، أثبت الكتاب على القضاة. ١٠ فلمّا أصبح نهار السبت الثالث والعشرين من شوّال جلس الأمير سلّار النائب بشُبّاك دار النيابة بالقلعة وحضر إلى عنده الأمير بَيْبَرس الجَاشْنَكِير هذا وسائر الأمراء واستوروا فيمن يَلِي السلطنة ، فقال الأمير آقوش قَتّال السَّبُع ، والأمير بيبرس الدَّوَادَار ، والأمير أَيْبَك الخازِنْدار وهم أكابر الأمراء المنصوريّة : ينبغي استدعاء الخليفة والقضاة وإعلامهم بما وقع ، فخرج الطَّلَب لهم وحضروا ١٥ وقُرِئ عليهم كتابُ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وشهد عند قاضى القضاة زَيْن الدين بن مخلوف[2] الأميران : عِز الدين أَيْدَمُر الخَطِيرىّ والأمير الحاج آل ملك ومن كان توجّه معهم إلى الكَرَك في الرسليّة بنزول الملك الناصر عن الملك

(١) يريد به الكتاب الذى أرسله الملك الناصر من الكرك بخلع نفسه بعد ما أرسل لهم وهو في القاهرة يقول : « ما سبب هذا الركوب على باب إصطبلي إن كان غرضكم في الملك فما أنا متطلع إليه ... الخ » ٢٠ راجع ص ١٧٢ وص ١٨٠ من هذا الجزء .

(٢) هو زين الدين أبو الحسن على ابن الشيخ رضى الدين أبي القاسم مخلوف ابن تاج الدين ناهض بن مسلم النويرى المالكى . سيذكر المؤلف وفاته سنة ٧١٨هـ .

وتركه مملكة مصر والشام فأثبت ذلك، وأعيد الكلام فيمن يصلح للسلطنة من الأمراء، فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سلّار، فقال سلّار: نعم على شرط، كلّ ما أُشير به لا تخالفوه، وأُحْضِر المصحف وحلّفهم على موافقته وألّا يخالفوه فى شىء، فقلِقَ البُرْجيّة من ذلك ولم يبق إلّا إقامتهم الفتنة، فكفّهم الله عن ذلك وآنقضى الحلف، فعند ذلك قال الأمير سلّار: والله يا أمراء، أنا ما أصلح للملك ولا يصلُح له إلّا أخى هذا، وأشار إلى بيبَرْس الجاشْنكير ونهض قائماً إليه، فتسارع البرجيّة بأجمعهم: صدَق الأمير سلّار وأخذوا بيد الأمير بيبرس، وأقاموه كرها وصاحوا بالجاويشية فصرخوا بآسمه، وكان فَرَس النوبة عند الشباك فألبسوه تشريف السلطنة الخليفتى، وهى فَرَجيّة أطلس سوداء وطَرْحة سوداء وتقلّد بسيفين، ومشَى سلّار والأمراء بين يديه من عند سلّار من دار النيابة بالقلعة وهو راكب، وعبَر من باب القلعة(١) إلى الإيوان(٢) بالقلعة، وجلس على تخت الملك وهو يبكى بحيث يراه الناس. وذلك فى يوم السبت المذكور، ولُقّب بالملك المظفر. وقبّل الأمراء الأرض بين يديه طَوعًا وكرها، ثم قام إلى القصر وتفرّق الناس بعد ما ظنّوا كلّ الظنّ من وقوع الفتنة بين السّلّاريّة والبِيبَرْسيّة. وقيل فى سلطنته وجه آخر وهو أنّه لما آشتوروا الأمراء فيمن يقوم بالملك، فآختار الأمراء سلّار لعقله وتؤُدَته، وآختار البرجيّة

---

(١) باب القلعة: المقصود هنا باب قلعة الجبل بالقاهرة الذى أنشأه صلاح الدين. وسبق التعليق عليه فى الجزء السابع (الحاشية رقم ٤ ص ١٩٠) من هذه الطبعة. (٢) الإيوان بالقلعة، ذكره المقريزى فى خططه (ص ٢٠٦ ج ٢) فقال: الإيوان المعروف بدار العدل أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى ثم جدده ابنه الملك الأشرف خليل وآستمر جلوس نائب دار العدل به. فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون الروك الناصرى أمر بهدم هذا الإيوان فهدم وأعاد بناءه وأنشأ به قبة جليلة وأقام بها عمدا عظيمة، ورخمه ونصب فى صدره سرير الملك إلى آخر ما ذكره المقريزى فى وصف هذا الإيوان وقد اندثر.

و بالبحث تبين لى أن الايوان المذكور مكانه اليوم الأرض القائم عليها جامع محمد على باشا الكبير وملحقاته بقلعة الجبل بالقاهرة.

بيبرس ؛ فلم يُجب سلّار إلى ذلك وآنفضّ المجلس ، وخلا كلٌّ من أصحاب بيبرس وسَلّار بصاحبه ، وحسّن له القيام بالسلطنة وخوّفه عاقبة تَرْكها ، وأنه متى ولى غيره لا يوافقوه بل يقاتلونه . و بات البُرجية فى قلق خوفا من ولاية سلّار ، وسعَى بعضهم إلى بعض ، وكانوا أكثرَ جمعًا من أصحاب سلّار ، وأعدّوا السلاح وتأهّبوا للحرب . فبلغ ذلك سلّار فخَشِى سوء العاقبه ، وآستدعَى الأمراء إخوته وحَفَدَته ومن ينتمى إليه ، وقرّر معهم سرا موافقته على ما يُشير به ، وكان مُطاعا فيهم فأجابوه ؛ ثم خرج فى شباك النيابة ووقع نحوُ ممّا حكيناه من عدَم قبوله السلطنة وقبول بِيبَرْس الجَاشْنَكير هذا ، وتسلطن حسب ماذكرناه وتمّ أمره وآجتمع الأمراء على طاعته ودخلوا إلى الخدمة على العادة فى يوم الآثنين خامس عشرين شوّال ، فأظهر بيبرس التغمّم بما صار إليه . وخَلَع على الأمير سلار خِلْعة النيابة على عادته بعد ما آستعفَى وطلَب أن يكون من جملة الأمراء ، وألَحّ فى ذلك حتى قال له الملك المظفر بِيبَرْس : إن لم تكن أنت نائبًا فلا أعمَل أنا السلطنة أبدًا ، فقامت الأمراء على سلّار إلى أن قَبِل ولَبِس خِلْعة النيابة ، ثم عُيِّنت الأمراء للتوجُّه إلى النوّاب بالبلاد الشامية وغيرها ، فتوجّه إلى نائب دِمَشق ، وهو الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير المنصورىّ ، الأميرُ أَيْبك البغدادىّ ومعه آخرُ يُسمَّى شادى[(١)] ومعهما كتاب ، وأمرهما أن يذهبا إلى دِمَشق ويُحلِّفا نائبه المذكور وسائر الأمراء بدمشق ، وتوجّه إلى حلب الأميرُ ركن الدين بِيبَرْس الأحمدىّ وطَيْبَرْس الجَمَدار وعلى يديهما كتابٌ مثل ذلك ، وتوجّه إلى حَمَاة الأمير سيف الدين بَلاط الجُوكَنْدار وطَيْدَمُر الجَمَدار ، وتوجه إلى صفد عِزّ الدين أَزْدَمُر الإسماعيلىّ و بِيبَرْس بن عبد الله ، وتوجّه إلى طرابُلُس

(١) فى السلوك : « وسيف الدين شاطى » بالشين والطاء . وفى عقد الجمان فى موضع « ساطر » بالسين والراء . وفى موضع آخر من هذه الترجمة : « ساطى » بالسين والطاء .

عِزّ الدين أَيْدَمُر اليُونُسِى وأقطاى الجَمْدَار. وخُطِب له بالقاهرة ومصر فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شوّال المذكور، وتوجه الأمراء المذكورون إلى البلاد الشامية . فلما قَرُب من سار إلى دِمَشق خرجَ النائب آقوش الأفرم ولاقاهما خارج دِمَشق وعاد بهما ، فلما قرأ الكتاب بسلطنة بِيبرس كاد أن يطير فرحًا لأنه كان خُشْدَاش بِيبرس ، وكان أيضًا جارْكَسِىّ الجنس ، وكانا يوم ذاك بين الأتراك كالغُرباء ، وزُيِّنت دِمَشق زينةً هائلةً كما زُيِّنت القاهرة لسلطنته . ثم أُخرِج كتابُ السلطان بالحلِف وفيه أن يَحلِفوا و يبعثوا لنا نسخةَ الأيمان ، فأجاب جميعُ الأمراء بالسمع والطاعة وسكت منهم أربعة أنفُس ولم يتحدّثوا بشىء ، وهم : بِيبَرْس العلائىّ وبهادُر آص وآقجبا[1] الظاهرى وبَكْتَمُر الحاجب بدِمَشق ، فقال لهم الأفرم : يا أمراء ، كلّ الناس ينتظرون كلامكم فتكلّموا ، فقال بهادُر آص : نُريد الخطّ الذى كتبه الملك الناصر بيده وفيه عزل نفسه ، فأخرج النائب خطَّ الملك الناصر فرآه بهادُر ثم قال : يا مولانا مَلِك الأمراء ، لا تستعجل فمالك الشام فيها أمراء غيرنا ، مثل الأمير قَرَاسُنْقُر نائب حلب ، وقَبْجَق نائب حَماة ، وأَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس وغيرهم ، فنُرسل إليهم ونتّفق معهم على المصلحة ، فإذا شاورناهم تَطِيب خواطرهم ، ورُبّما يَرَوْن من المصلحة مالا نرى نحن ، ثم قام بهادُر المذكور وخرج فخرجت الأمراء كلُّهم فى أثره ، فقال الأمير أيبك البغدادىّ القادم من مصر للأفرم : لو مسكتَ بهادُر آص لانصلح الأمر على ما نريد ! فقال له الأفرم : والله العظيم لو قبضتُ عليه لقامت فتنةٌ عظيمة تروح فيها رُوحك ، وتغييرُ الدول يا أيبَك ما هو هين ! وأنا ما أخاف من أمراء الشام من أحد إلّا من قَبْجَق المنصورىّ ، فإنّه ربّما يُقيم فتنةً من خوفه على رُوحه .

(١) هو آقجبا الظاهرى فخر الدين أحد الأمراء بدمشق . توفى سنة ٧١٤ هـ (عن الدرر الكامنة) .

قلت : وقبجق هذا هو الذى كان نائب دمشق فى أيّام المنصور لاچين، وتوجّه إلى غازان وأقدمه إلى الشام . وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلّه .

ولـمّا كان اليوم الثانى طلب الأفرمُ هؤلاء الأمراء الأربعة وآختلى بهم ، وقال لهم : اِعلموا أنّ هذا أمر آنقضى، ولم يبق لنا ولا لغيرنا فيه مجال، وأنتم تعلمون أنّ كلّ من يجلس على كرسىّ مصر كان هو السلطان ولو كان عبدًا حبشيًّا، فما أنتم بأعظم من أمراء مصر، وربّما يُبلَّغُ هذا اليه فيتغيّر قلبُه عليكم، ولم يزل يتلاطف بهم حتّى حلفوا له، فلمّا حلفوا حلّف باقى الأمراء، وخلَع الأفرم على جميع الأمراء والقضاة خِلَعًا سنيّة، وكذلك خلَع على الأمير أيبَك البغدادىّ وعلى رفيقه شادى وأعطاهما ألْفَى دينـار وزوّدهما وردّهما فى أسرع وقت . وكتب معهما كتابًا يُهنّئ بيبرس بالمُلك، ويقول : عن قريب تأتيك نسخةُ الأيمـان . وقدِما القاهرة وأخبرا الملك المظفّر بيبَرْس بذلك ، فسُرّ وآنشرح صـدرُه بذلك : ثم إنّ الأفرم نائب الشـام أرسل إلى قَراسُنقُر و إلى قَبْجَق شخصًا[1] من مماليكه بصورة الحال، فأمّا قَراسُنْقُر نائب حلب فإنّه لـمّا سَمِـع الواقعة وقرأ كتاب الأفـرم ، قال : إيش الحاجة إلى مشاورتنا ! أسـتاذك بعثك بعـد أن حلَف، وكان ينبغى أن يتأنّى فى ذلك، وأمّا قَبْجَق نائب حَماة فإنه لـمّا قرأ كتاب الأفرم، قال : لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلى العظيم، إيش جَرَى على آبن أستاذنا حتّى عَزَل نفسـه ! والله لقد دبّرتُم أنحس تدبير، هذه والله نوبةُ لاچـين . ثم قال لمملوك الأفرم : اِذهب إلى أستاذك وقل له : الآن بلغتَ مرادك، وسـوف تبصر من يُصبح ندمان، وفى أمره حيْران ! وكذلك لـمّا بعث الأفرم لأَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس، فلمّا[2] قرأ كتابه أطرق رأسه إلى الأرض، ثم قال :

(١) فى عقد الجمان : « فإنه جهز مملوكه بهادر الجاغانى » . (٢) فى الأصلين : « قال أسندمر بعد أن أطرق رأسه ثم قال » . وما أثبتناه عن عقد الجمان .

اذهب لأستاذك وقل له : يا بعيدَ الذّهن وقليلَ العلم بعد أن دبرت أمرًا، فما الحاجة إلى مشاورتنا ! فوالله ليكوننّ عليك أشأم التدبير وسـيعود و بالُه عليك، ولم يكتب له جواباً .

وأمّا قَرَاسُـنْقُر نائب حلب فإنه أرسل إلى قَبْجَق و إلى أَسَنْدَمُر يُعلمهما أنّ الأفرم حلّف عساكر دِمَشق على طاعة بِيبَرْس، ولا نأمن أن يعمَل الأفرم علينا، فهلُمُّوا نجتمع فى موضـع واحد فنتشاور ونَرَى أمرا يكون فيـه المصلحة، فاتّفقوا الجميع على أن يجتمعوا فى حلب عنـد قَرَاسُنْقُر ، وعيَّنُوا ليلة يكون آجتماعهم فيها . فأمّا قَبْجَق فإنه ركب إلى الصـيد بمماليكه خاصّة ، وتصيّد إلى الليـل فسار إلى حلب . وأمّا أَسَـنْدَمُر أظهر أنّه ضـعيف وأَمَر ألّا يُخَلِّى أحدًا يدخل عليـه ، وفى الليل رَكب بمماليكه الذين يَعتمِد عليهـم وقد غيّرُوا ملابسهـم ، وسار يطلب حلب . وآجتمع الجميع عند قَرَاسُـنْقُر ، فقال لهم قَرَاسُـنْقُر : ما تقولون فى هـذه القضيّة التى جرت؟ فقال قَبْجَق : والله لقد جَرَى أمرٌ عظيم ، و إن لم نُحسن التدبير نَقَع فى أمور! يُعزَل آبن أستاذنا و يأخذُها بيبرس! و يكون الأفرم هو مدبِّر الدولة! وهو على كلّ حال عدوُّنا ولا نأمن شرّه ، فقالوا : فـما نفعـل ؟ قال : الرأىُ أن نكتب إلى آبن أستاذنا فى الكَرَك ونطلُبه إلى حلب ونركَب معه، فإما نأخذ له الملك، و إما أن نموت على خيولنا! فقال أسندمر: هذا هو الكلام، فحلف كلٌّ من الثلاثة على هـذا الآتفاق، ولا يقطَع واحدٌ منهم أمرًا إلّا بمَشُورة أصحابه ، وأنّهـم يموت بعضُهم على بعض، ثم إنّهم تفرّقوا فى اللّيل كلٌّ واحد إلى بلده .

وأمّا الأمراء الذين خرجوا من مصر إلى النوّاب بالبلاد الشاميّة بالخلَع و بسلطنة بِيبَرْس، فإنهم لـمّا وصلوا إلى دِمَشق قال لهم الأفرم : أنا أرسلتُ إليهـم مملوكى، فردّوا علىّ جوابا لا يُرْضَى به مولانا السلطان . وكان الأفرم أرسل إلى الملك المظفّر

بيبرس نسخةَ اليمين التى حَلَف بها أمراء دِمَشق مع مملوكه مُغْلَطَاى، فأعطاه الملك المظفّر إِمْرَة طبلخاناه[١] وخلَع عليه، وأرسل معه خِلْعةً لأستاذه الأفرم بألف دينار، وأطلق له شيئًا كثيرا كان لبيبرس فى الشام قبل سلطنته من الحواصل والغلال، فسُرّ الأفرم بذلك غايةَ السرور، ثم قال الأميران اللذان وصلا إلى دِمَشق للافرم: ما تُشير به علينا؟ فقال لهما: ارجعا إلى مصر ولا تذهبا إلى هؤلاء، فإنّ رءوسهم قويّة، وربّما يُثيرون فتنة، فقالا: لاغنى لنا [من] أن نسمع كلامهم، ثم إنّهما رَكِبا من دِمَشق وسارا إلى حَمَاة، ودخلا على قبجَق ودفعا له كتاب الملك المظفّر، فقرأه ثم قال: وأين كتاب الملك الناصر؟ فأخرجا له الكتاب، فلمّا وقف عليه بكى، ثم قال: من قال إنّ هذا خطُّ الملك الناصر؟ والله واحد يكون وكيلًا فى قرية ما يعْزِل نفسه منها بطيبة من خاطره! ولا بُدّ لهذا الأمر من سبب، اذهبا إلى الأمير قَرَاسُنْقُر فهو أكبر الأمراء وأخبرُهم بالأحوال، فركبا وسارا إلى حلب واجتمعا بقَرَاسُنْقُر، فلمّا قرأ كتاب المظفّر قال: يا إخوتى إنّا على أيمان آبن أستاذنا لا نخونه ولا نحلِف لغيره ولا نُواطئ عليه ولا نُفسِد مُلْكه، فكيف نَحلِف لغيره! والله لا يكون هذا أبدًا ودعُوا يَجْرِى مايجرى[٢]، وكلُّ شىء ينزل من السماء تحمله الأرض. ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم! فخرجا من عنده وسارا إلى طرابُلُس ودخلا على أَسَنْدَمُر فقال لهما: مثل مقالة قَبْجَق وقَرَاسُنْقُر، فخرجا ورَكِبا وسارا نحو الديار المصريّة، ودخلا على الملك المظفر بيبرس وأعلماه بما كان، فضاق صدر المظفّر وأرسل خَلْف الأمير سَلّار النائب وقصّ عليه القِصّة، فقال له سَلّار: هذا أمرٌ هيّن ونقدِر (أن) نُصلح هؤلاء، فقال: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قال: تكتب إلى

(١) فى عقد الجمان: «فأعطاه الملك المظفر إمرة أربعين».

(٢) فى الأصلين: «ودع يجرى ما يجرى ... الخ». وما أثبتناه عن عقد الجمان.

قَرَاسُنْقُر كتابًا وتُرقّق له فى الكلام ، وأرسل إليه تقليدًا بنيابة حلب و بلادها ، وأنّه لا يُحمَل منه الدِّرهم الفَرْد ، وكذا لقَبْجَق بحَماة ، ولأَسَـنْدَمُر بطرابُلُس والسواحل ، فقال بيبرس : إذا فَرَّقتُ البلاد عليهم ما يُساوى مُلْكى شيئا ! فقال له سَلّار : وكم [من] يدٍ تُقَبَّل عن ضرورة وهى تستحقّ القطع ! فآسمع منّى وأَرْضِهم فى هذا الوقت ، فإذا قدرت عليهم بعد ذلك اِفعل بهم ما شئتَ ؛ فمال المظفَّر إلى كلامه وأَمَر أن يُكتب بمـا قاله سَلّار لكلّ واحد على حِدته . فكتب ذلك وأرسله مع بعض خواصّه .

وأمّا أمرُ الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ الملك المظفّر لمّـا تسلطن وتمّ أمرُه كَتَب له تقليدًا بالكَرَك ، وسيَّره له على يد الأمير آل ملك ، ومنشورًا بما عيّن له من الإقطاعات . وأمّا أمْرُ قَرَاسُنْقُر فإنّه جهّز ولده محمدا إلى الملك الناصر محمد بالكَرَك ، وعلى يده كتابه وكتاب قَبْجَق نائب حَماة وكتاب أَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس . ومضمون كتاب قَرَاسُنْقُر : أنّه يلوم الملك الناصر عن نزوله عن المُلك ، وكيف وقَع له ذلك ولم يشاوره فى أوّل الأمر ، ثمّ وعده برجوع مُلكه إليه عن قريب ، وأنّه هو وقَبْجَق وأَسَنْدَمُر ما حلفوا للمظفر ، وأنّهم مقيمون على أيمانهم له . وكذلك كتابُ قَبْجَق وكتاب أَسَنْدَمُر ، فأخذ الأمير ناصر الدين محمد بن قَرَاسُنْقُر كُتُبَ الثلاثة وسار مُسرعا ومعه نجّاب[1] خبير بتلك الأرض ، فلم يزالا سائرين فى البرّيّة والمفاوز إلى أن وصلا إلى الكَرَك ، وآبنُ قَرَاسنقر عليه زىُّ العرب ، فلمّا وقفا على باب الكَرَك سألوهما من أين أنتمـا ؟ فقالا : من مصر ، فدخلوا وأعلموا الملك الناصر محمدًا بهما وآستأذنوه فى إحضارهما ، فأَذن لهما بالدخول ؛ فلمّا مَثَـلَا بين يديه كشَف آبنُ قَرَاسُنْقُر لثامَه عن وجهه فعرفَه السلطان ، وقال له : محمد؟ فقال : لَبَّيْك يا مولانا السلطان ، وقبّل الأرض وقال : لا بُدّ من خَلْوة ، فأَمَر السلطان لمن حوله بالآنصراف ، فعنـد ذلك حدّث

(١) فى عقد الجمان : « ومعه نجاب يسمى معن » وسيصرح للمؤلف باسمه بعد قليل .

ٱبنُ قَرَاسُنْقُر السلطان بما جرى من أبيه وقَبْجَق وأَسَنْدَمُر، وأنهم ٱجتمعوا فى حلب وتحالفوا بأنّهم مقيمون على الأيمـان التى حلفوها للملك الناصر، ثم دفَع له الكُتُب الثلاثة فقرأها، ثم قال: يا محمد، مالهم قُدرة على ما ٱتّفقوا عليه، فإنّ كلّ من فى مصر والشام قد ٱتّفقوا على سلطنة بيبرس، فلما سمِـع ٱبنُ قَرَاسُنْقُر ذلك حَلَف بأنّ كلّ واحد من هؤلاء الثـلاثة كفءُ لأهل مصر والشام، ومولانا السلطان أخبرُ بذلك منّى، فتبسّم السلطان وقال صدقتَ يا محمد، ولكن القائل يقول:

كُنْ جَرِيا إذا رأيتَ جبانًا ✱ وجبانا إذا رأيتَ جَـرِيًّا

لا تُقاتِلْ بواحدٍ أهلَ بيتٍ ✱ فضعيفان يغلبانِ قويًّا

وهذه البلاد كلُّها دارت مع بِيَبْرس ولا يَتِمّ لنا الحال إلّا بحُسن التدبير والمُداراة والصبر على الأمور. ثم إنّه أنزله فى موضع وأحسن إليه، وقال له: ٱِسترح اليوم وغدًا ثم سافِرْ، فأقام يومين ثم طلبه الملك الناصر فى صبيحة اليوم الثـالث وأعطاه جواب الكُتُب، وقال له: سَلِّم على أبى (يعنى على قَرَاسُنْقُر) وقل له: ٱِصبر، ثم خلع عليه خِلْعة سنيّة وأعطاه ألف دينار مصريّة، وخلَع على مَنْ النجّاب الذى أتى به أيضا وأعطاه ألف درهم؛ فخـرَج ٱبنُ قَرَا سُنْقُر والنجّاب معـه، وأسرعا فى السـير إلى أن وصلا إلى حلب، فدخل ٱبن قَرَا سُنْقُر إلى أبيـه ودفع له كتاب الملك الناصر ففتحه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: حرس الله تعـالى نعمة المَقَرّ العالى الأبوى الشمسى ومتّعنا بطول حياته، فقد علِمنا ما أشار به وما عَوّل عليه، وقد علمنا قديمًا وحديثًا أنّه لم يزل على هـذه الصورة، وأُريد منك أنّك تطوّل روحك علىّ، فهذا الأمر ما يُنال بالعَجَلة لأنّك قد علمتَ ٱنتظام أمراء مصر والشام فى سلك واحد ولا سيّما الأفرم ومن معه من اللئام، فهذه عُقدة لا تحلّ إلّا بالصبر، و إن حضَر إليك أحدُ

من جهة المظفّر وطلب منك اليمين له ، فقدِّم النيّة أنك مجبورٌ ومغصوب وآحلف . ولا تقطع كُتُبَك عنى فى كلّ وقت ، وعرّفنى بجميع ما يجرى من الأمور قليلها وكثيرها . وكذلك كَتَب فى كتاب قَبْجَق وأَسَنْدَمُر ، فعرَف قَرَا سُنْقُر مضمونَ كتابه وسكت .

ثم بعد قليل وصل إلى قَرَاسُنْقُر من الملك المظفّر بيبرس تقليدٌ بنيابة حلب و بلادها دَرْبَسْتْ[1] على يد أمير[2] من أمراء مصر . ومن مضمون الكتاب الذى من المظفّر إلى قَرَاسُنْقُرا : أنت خُشْدَاشِى ، ولو علمتُ أنّ هـذا الأمر يصعُب عليك ما عمِلت شيئًا حتّى أرسلتُ إليك وأعلمتُك به ، لأنّ ما فى المنصوريّة أحد أكبر منك ، غير أنّه لمـا نَزَل آبنُ أستاذنا عن المُلْك آجتمع الأمراء والقضاة وكافّةُ الناس ، وقالوا : ما لنـا سلطان إلّا أنت ، وأنت تعلم أنّ البلاد لا تكون بلا سلطان ، فلو لم أتقدّم أنا كان غيرى يتقدّم [وقد وَقع ذلك][3] ! فآجعلنى واحدًا منكم ودبِّرنى برأيك . وهذه حلَب و بلادها دَرْبَسْتْ لك ، وكذا لخُشْدَاشِيّتك : الأمير قَبْجَق والأمير أَسَنْدَمُر . وسيّر الملك المظفّر لكلّ من هؤلاء الثلاثة خِلْعَةً بألف دينار ، وفرشًا قماشه بألف دينار ، وعشرة رءوس من الخيل . فعند ذلك حلَف قَرَاسُنْقُر وقَبْجَق وأَسَنْدَمُر ، و رجع الأمير المذكور إلى مصر بنسخة اليمين . فلمّـا وقَف عليها الملك المظفّر فرِح غاية الفرَح ، وقال : الآن تمّ لى المُلْك . ثم شرَع من يومئذ فى كَشْف أمور البلاد و إزالة المظالم والنظر فى أحوال الرعيّة .

ثم آستهلّت سنة تسع وسبعمائة وسلطان الديار المصريّة الملك المظفّر ركن الدين بيبَرْس الجَاشْنَكِير المنصورى ، والخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سـليمان ، وناتب

(١) دربست : التخوم والحـدود (عن القاموس الفارسى الانجليزى لاستينجاس) .

(٢) فى الأصلين : « على يد أميرين » وما أثبتناه عن عقد الجمان وما سيذكره المؤلف بعد قليل .

(٣) زيادة عن عقد الجمان .

السلطنة بديار مصر الأمير سلّار، ونائب الشام الأمير آقوش الأفرم الصغير، ونائب حلب الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصورى، ونائب حَمَاة الأمير سيف الدين قَبْجَق المنصورى، ونائب طرابُلُس الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر المنصورى. ثم فشا في الناس في السنة المذكورة أمراضٌ حادّة، وعمّ [الوباء](1) الخلائق وعزّ سائرُ ما يحتاج إليه المَرْضَى. ثم توقّفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسرى، وآرتفع سِعْرُ القمح وسائر الغِلال، ومَنَع الأمراءُ البيع من شُوَنهم إلّا الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيرى الأُستادار، فإنّه تقدّم إلى مباشريه ألّا يتركوا عنده سوى مئونة سنة واحدة، وباع ما عداه قليلًا قليلًا. والخَطِيرى هذا هو صاحب الجامع الذى بخُطّ(2) بولاق. انتهى.

وخاف الناس أن يقَع نظيرُ غلاء كَتْبُغَا، وتشاءم الناس بسلطنة الملك المظفّر بيبرس المذكور. ثم إنّ الخطيب نورَ الدّين علىّ بن محمد بن الحسن بن علىّ القَسْطَلّانى(3) خرج بالناس وآستَسْقَى، وكان يومًا مشهودًا، فنُودِىَ من الغد بثلاث أصابع، ثم توقّفت الزيادة مدّة، ثم زاد وآنتهت زيادة النيل فيه إلى خمس عشرة ذراعًا وسبع عشرة إصبعا في سابع عشرين توت، ثم نَقَص(4) في أيّام النسىء وجاء النَّوْرُوز ولم يُوَفِّ النيل ستَّ عشرةَ ذراعا فُفُتِح خليج السدّ(5) في يوم الجمعة ثامن توت وهو ثامن عشرين(6) شهر ربيع الأوّل. وذَكَر بعضُهم أنّه لم يُوَفِّ إلى تاسع عشر بابه، وهو يوم الخميس

(١) زيادة عن السلوك. (٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣ من هذا الجزء.
(٣) كذا في أحد الأصلين والسلوك للقريزى. وفي الأصل الآخر: «السقلاطى».
(٤) كذا في الأصلين. ولم يخف ما فيها من آضطراب. (٥) لعل المؤلف يقصد: «وفتح سد الخليج» وعلى كل حال فالخليج المعتاد سده وفتحه سنويا هو خليج القاهرة المعروف بالخليج المصرى. ومكانه اليوم شارع الخليج المصرى وسبق التعليق عليه في الجزء الرابع (الحاشية رقم ٤ ص ٤٣) من هذه الطبعة، وفي الاستدراكات بالجزء السابع (ص ٣٨٧) منها. وأما السد الذى كان يقام سنويا في هذا الخليج و يفتح وقت فيضان النيل فكان قريبا من فم هذا الخليج. ومكانه يقع اليوم في نهاية شارع الخليج المصرى من الجهة القبلية في نقطة واقعة جنوبى البقعة المعروفة بعشش الساقية. (٦) في الأصلين: «وهو ثامن عشر شهر ربيع الأول». وما أثبتناه عن السلوك وهو الموافق لما في التوفيقات الإلهامية

حادى عشر جُمادَى الأُولى، وذلك بعد اليأس منه ، وهـذا القول هو الأشهر .
قال : وآنحطّ مع ذلك بعد الوفاء السِّعْرُ وتشاءم الناس بطَلْعة الملك المظفّر بِيبَرْس .
وغَنّت العامّة فى المعنى :

سلطاننـا رُكين * ونائبنـا دُقين * يجينا المـاء من أين
يجيبوا لنـا الأعرج * يجى المـاء ويدّحرج[1]

ومن يومئذ وقعَت الوحشة بين المظفّر و بين عامّة مصر، وأخذتْ دولة الملك المظفّر بِيبَرْس فى آضطراب ، وذلك أنّه كثُر توهُّمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقصَد فى أيّامه كل واحد من خشداشيته أن يترَقّى إلى أعلى منزلة ، وآتّهموا الأمير سلار بمباطنة الملك الناصر محمد وحذّروا الملك المظفّر منه، وحسّنوا له القبض على سَـلّار المذكور ، فجَبُن بِيـبَرْس عن ذلك . ثم ما زالوا حتّى بعث الأميرَ مُغْلَطَاى إلى الملك النـاصر محمد بن قلاوون بالكَرَك ليأخذ منه الخيل والمماليك التى عنده ، وتَغلَّظ فى القول ، فَغضب الملك الناصر من ذلك غضباً شديداً وقال له : أنا خَلَّيتُ[2] ، مُلك مصر والشام لبِيبَرْس، ما يكفيه حتّى ضاقت عينُه على فرس عندى ومملوك لى ويكرِّر الطلب! ارجع إليه وقل له : والله لئن لم يترُكْنى، وإلّا دخلتُ بلاد التّتار وأُعلِمهم أنّى تركتُ مُلك أبى وأخى ومُلْكى لمملوكى،وهو يُتَابِعُنى و يطلب منّى ما أخذتُه، فجافاه مُغْلَطاى وخشّن له فى القول بحيث آشتدّ غضبُ الملك الناصر ، وصاح به : ويلك وصلتَ إلى هنـا ! وأَمَر أن يُجَرّ ويُرْمَى من سُور القلعة، فثار به المماليك، يسبُّونه ويلعنونه وأخرجوه إلى السُّور ، فلم يزل به أَرْغُون الدَّوَادَار والأمير طُغَاى

---

(١) ورد فى آبن إياس (ج ١ ص ١٥٠) بعد هذا الكلام : «وكان الأمير سلار أجود فى حنكه بعض شعرات لأنه كان من التتار فسماه العوام دقين ، وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون به بعض عرج فسموه العوام الأعرج ، وكان السلطان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين فسماه العوام ركين» .
(٢) فى الأصلين : « ياجليب » .

إلى أن عفا عنه وحبسه ثمّ أخرجه ماشيًا، وعظُم ذلك على الملك النـاصر وكتب مُلَطّفات إلى نُوّاب البلاد الشامية بحلب وحَمَاة وطرابُلُس وصَفَد، ثمّ إلى مصر ممّن يَثِق به، وذكر ما كان به من ضِيق اليد وقلّة الحُرْمة، وأنّه لأجل هذا ترك مُلْك مصر وقَنِـع بالإقامة بالكَرَك، وأنّ السلطان الملك المظفّر فى كلّ وقت يُرسل يطالبه بالمماليك والخيل التى عنده . ثم ذكر لهم فى ضِمْن الكتاب : أنتم مماليكُ أبى وربّيتمونى فإمّا أن تردّوه عنى وإلّا سرتُ إلى بلاد التّتار، وتَلَطّف فى مخاطبتهم غايةَ التلطّف؛ وسيّرلهم بالكُتُب على يد العُرْبان فأوصلوها إلى أربابها . وكان قد أرسـل الملك المظفّر قبل ذلك يطلُب منه المال الذى كان بالكَرَك والخيل والمماليك التى عنده . حسب ما يأتى ذكرُه فى ترجمة الملك الناصر محمـد . فبعَث إليه الملك الناصر بالمبلغ الذى أخذه من الكَرَك فلم يَقْنَع المظفّر بذلك وأرسـل ثانيًا ، وكان الملك النـاصر لمّـا أقام بالكَرَك صار يُخْطَب بهـا للملك المظفّر بِيبَرْس بحضرة الملك الناصر والملك النـاصر يتأدّب معـه ، ويسكُت بحضرة مماليكه وحواشـيه . وصار الملك الناصر إذا كاتب الملك المظفّر يكتب إليـه : « المَلَكِىّ المظفّرىّ » وقصد بذلك سكونَ الأحوال وإخماد الفِتَن، والمظفّر يُلِحّ عليه لأمرٍ يريده الله تعالى حتى كان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وأما النُّوّاب بالبلاد الشاميّة فإنّ قَراسُنْقُر نائب حلب كتب إلى الملك النـاصر الجواب : بأنّى مملوك السلطان فى كلّ ما يَرْسُم به ، وسأل أن يبعث إليـه بعض المماليك السلطانيـة ، وكذلك نائب حَمَـاة ونائب طرابُلُس وغيرهما ما خلا بَكْتَمُر الجُوكَنْدار، فإنّه طَرَد قاصد الملك الناصر ولم يجتمع به . ثم أرسـل الملك الناصر مملوكه أَيْتَمُش المحمّدىّ إلى الشام وكتَب معه مُلَطّفات إلى الأمير قُطْلُوبَك المنصورىّ وبَكْتَمُر الحُسَامِىّ الحـاجب بدمشق ولغيرهما ، ووصَل أَيْتَمُش إلى دِمَشق خِفْيَـةً

ونزل عند بعض ممـاليك قُطْلُوبَك المذكور، ودفَع إليـه المُلَطَّف؛ فلمّا أوصله إلى قُطْلُوبَك أنكر عليه وأمره بالآحتفاظ على أَيْتَمُش المذكور ليوصِّله إلى الأفرم نائب الشام ويتقرّب إليه بذلك؛ فبلغ أَيْتَمُش الخبرُ فترك راحلته التى قَدِم عليها ومَضَى إلى دار الأمير بَهادُر آص فى اللّيل، فآستأذن عليه فأذن له فدخل إليه أَيْتَمُش وعرّفه ما كان من قُطْلُوبَك فى حقّـه، فطيّب بهادُر آص خاطرَه وأنزله عنده وأركبه من الغد معه إلى المَوْكِب، وقد سـبق قُطْلُوبَك إلى الأفرم نائب الشام وعرّفه قدوم مملوك الملك الناصر اليه وهُروبَه من عنده ليلا، فَقلِق الأفرم من ذلك وألزم والى المدينة بتحصيل المملوك المذكور، فقال بَهادُر آص : هذا المملوك عندى وأشار إليه، فنَزل عن فرسه وسَلّم على الأفرم وسار معه فى المَوْكِب إلى دار السعادة، وقال له بحضرة الأمراء : السلطان الملك الناصر يُسَلِّم عليك ويقول : ما منكم أحدٌ إلّا وأكل خبز الملك الشهيد قلاوون، وما منكم إلا مَنْ إنعامه عليـه، وأنتم تربية الشهيد والده، وأنه قاصـد الدخول إلى دِمَشق والإقامة بهـا، فإن كان فيكم من يُقاتله ويمنعه العبور فعرِّفوه، فلم يَتمّ هـذا القول حتى صاح الكُوكَنْدِى[1] الزرّاق أحدُ أكابر أمراء دمشـق وآبنَ أسـتاذاه! وبَكَى، فغَضب الأفرم نائب الشام عليـه وأخرجه، ثم قال الأفرم : لأَيْتَمُش قل له (يعنى الملك الناصر) : كيف يجىء إلى الشام أو إلى غير الشام! كأنّ الشام ومصر الآن تحت حكمك. أنا لمّـا أرسل إلىّ السلطان الملك المظفر أن أحْلِف له ما حلفتُ حتى سيّرتُ أقول له : كيف يكون ذلك وآبنُ أستاذنا باقٍ! فارسل يقول : أنا ما تقدّمت عليـه حتى خَلَع آبنُ أستاذنا نفسَـه، وكَتَب خَطَّه وأشهد عليه بنزوله عن الملك فعند ذلك حَلَفتُ له، ثم فى هذا الوقت تقول : من يردّنى عن الشام! ثم أَمر به الأفرم فسُلِّم إلى أُستاداره. فلمّا كان اللّيل آستدعاه ودفع له

(١) فى السلوك فى حوادث سنة ٧٠٩ هـ : « الكركند الزراق ».

خمسين دينارا وقال قل له : لا تذكُر الخروج من الكَرَك، وانا أكتب إلى المظفّر وأرْجعه عن الطلب، ثم أطلقه فعاد أَيْتَمُش[1] إلى الكَرَك وأعلم الملك الناصر بما وقع . فأعاده الملك الناصر على البريد ومعه أَرِكْتَمُر[2] وعثمان الهجّان ليجتمع بالأمير قَرَاسُنْقُر نائب حلب ويُواعدَه على المسير إلى دِمشق، ثم خرج الملك الناصر من الكَرَك وسار إلى بركة زَيزاء[3] فنزل بها .

وأمّا الملك المظفّر بِيبَرْس صاحب الترجمة فإنّه لمّا بلغه أنّ الملك الناصر حبَس قاصدَه مُغُلْطاى المقدّم ذكرُه قَلِق من ذلك وآستدعى الأمير سَلّار وعرّفه ذلك، وكانت البُرْجيّة قد أَغْرَوُا المظفّر بيبرس بسَلّار واتّهموه أنّه باطَن الملك الناصر وحسّنوا له القبض عليه، حسب ما ذكرناه ، فجَبُن الملك المظفّر من القبض عليه . وبلغ ذلك سلّار نخاف من البُرْجيّة لكثرتهم وقوّتهم وأخذ فى مُداراتهم ؛ وكان أشدّهم عليه الأمير بيكور[4] وقد شرِق إقطاعه ، فبعث إليه سلّار بستة آلاف إرْدَب غلّة وألف دينار فكَفّ عنه ، ثم هادى خواصّ المظفّر وأنعم عليهم . فلمّا حضر سلّار عند المظفّر وتكلّما فيما هم فيه فآقتضى الرأى إرسالَ قاصدٍ إلى الملك الناصر بتهديده ليُفرج عن مُغُلْطاى . وبينما هم فى ذلك قَدِم البَرِيد من دِمَشق بأنّ الملك الناصر سار من الكَرَك إلى البُرْج[5] الأبيض ولم يعرف أحد مَقْصِده، فكتب الجوابَ فى الحال بحفظ

(١) يريد طلب الجبل والمماليك كما فى السلوك، وما ذكره المؤلف قبل ذلك بقليل .

(٢) فى أحد الأصلين والسلوك : «فأعاده الملك الناصر على البرية» . (٣) فى الأصلين : «بركة ريزة» . وتصحيحها عن تقويم البلدان لأبى الفداء، ومعجم البلدان لياقوت . وراجع الحاشية رقم ١ ص ٥٣ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٤) فى الأصل الآخر: «بنكور» بالنون بدل الياء .

(٥) البرج الأبيض ، من عمل البلقاء التى هى إحدى كور الشراة . وقاعدتها حسبان ، وهى بلدة صغيرة لها واد به أشجار وبساتين وزروع ، ويتصل هذا الوادى بغور زغر . والبلقاء على مرحلة من أريحا التى هى فى الغرب منها . (عن صبح الأعشى رابع ١٠٦ ، وتاريخ سلاطين المماليك وتقويم البلدان لأبى الفداء إسماعيل) .

الطُّرُقات عليه . وآشتهر بالديار المصريّة حركةُ الملك الناصر محمد وخروجُه من الكَرَك فهاجت الناس، وتحرّك الأمير نُوغاى القَبْجَاقِىّ، وكان شُجاعا مِقْداما حادّ المِزاج قَوِىّ النفس، وكان من أَلْزَام الأمير سَلّار النائب، وتواعَد مع جماعة من المماليك السلطانية أن يهجُم بهم على السلطان الملك المظفّر إذا ركب ويقتلَه . فلمّا ركب المظفّر ونزَل إلى بركة الجُبّ آستجمع نُوغاى بمن وافقه يريدون الفَتْك بالمظفّر فى عَوْده من البركة، وتقرّب نُوغاى من السلطان قليلًا قليلًا وقد تغيّر وجهُه وظهر فيه أَمارات الشرّ، ففطن به خواصّ المظفر وتحلّقوا حول المظفّر، فلم يجد نُوغاى سبيلًا إلى ما عزَم عليه، وعاد الملك المظفّر إلى القلعة فعرّفه أَلْزَامُه ما فهموه من نُوغاى وحسّنوا له القبض عليه وتقريرَه على من معه، فاستدعَى السلطانُ الأميرَ سلّار وعرّفه الخبر، وكان نُوغاى قد باطَن سلّار بذلك، فحَذّر سلّار الملك المظفّر وخوّفه عاقبة القبض على نُوغاى وأنّ فيه فسادَ قلوب جميع الأمراء، وليس الرأى إلّا الإغضاء فقط . وقام سلار عنه فأخذ البرجيّةُ بالإغراء بسلّار وأنّه باطَن نُوغاى، ومتى لم يقبض عليه فسَد الحال . وبلَغ نوغاى الحديثُ فواعد أصحابه على اللحاق بالملك الناصر، وخرَج هو والأمير مُغْلَطاى القازانى وتُقْطَاى الساق ونحو ستين مملوكا وقت المغرب عند[1] غلق باب القلعة فى ليلة الخميس خامس عشر جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعمائة المذكورة . وقيل فى أمر نوغاى وهربه به وجهٌ آخر :

قال الأمير بيبَرْس الدّوادار فى تاريخه : تسحّب من الديار المصريّة إلى الكَرَك المحروس سيف الدين نُوغاى القَفْجَاقِىّ أحدُ المماليك السلطانيّة وسيف الدين تُقْطَاى الساقى وعلاء الدين مُغْلَطَاى القَازَانىّ، وتوجّه معهم من المماليك السلطانية بالقلعة

(١) فى الأصلين : « بعد غلق باب القلعة » . وما أثبتناه عن السلوك (لوحة ٣٢١ قسم رابع أوّل) .

مائةٌ وستة وثلاثون نَفَرًا، وخرجوا طُلْبًا واحدا بخيلهم وهُجُنِهم وغِلْمانهم وتركوا بيوتهم وأولادهم . انتهى .

وقال غيره[1] : لمّا ولى الملك المظفر بيبرس السلطنة بقى سلّار هو الملك الظاهر بين الناس والملك المظفّر بيبرس من وراء حِجاب ، فلمّا كان فى بعض الأيام دخل على الملك المظفّر أميران : أحدهما يُسمَّى نُوغاى والآخر مُغْلطَاى فباسا الأرض بين يديه وشَكَوَا له ضعف أخبازهما، فقال لهما المظفّر : اشْكُوَا إلى سلّار فهو أعلم بحالكما منى ، فقالا : خلّد الله مُلك مولانا السلطان، أهو مالك البلاد أم مولانا السلطان! فقال : اذهبا إلى سلّار، ولم يزدهما على ذلك، فخرجا من عنده وجاءا إلى سَلّار وأعلماه بقول الملك المظفّر، فقال سلّار : والله يا أصحابى أبْعَدَكُما بهذا الكلام، وأنتما تعلمان أنّ النائب ما له كلامٌ مثل السلطان . وكان نُوغاى شُجاعًا وعنده قوّةُ بأْس، فأقسم بالله لئن لم يُغَيِّروا خُبْزَه ليقيمَنّ شرًّا تهرق فيه الدماء، ثم خرجا من عند سلّار . وفى الحال ركب سلّار وطلع إلى عند الملك المظفّر وحدّثه بما جرى من أمر نُوغاى ومُغْلَطَاى، وقال : هـذا نُوغاى يصدُق فيما يقول، لأنّه قادر على إثارة الفتنة، فالمصلحة قبضه وحبسه فى الحبس ، فاتّفقوا على قبضه . وكان فى ذلك الوقت أميرٌ يقال له أنس[2] فسمِـع الحديث ، فلمّـا خرج أعلمَ نُوغاى بذلك، فلمّا سَمِـع نُوغاى الكلام طلَب مُغْلَطَاى وجماعةً من مماليك الملك الناصر، وقال لهم : يا جماعة، هذا الرجل قد عوّل على قبضنا، وأمّا أنا فلا أُسَلِّم نفسى إلّا بعد حرب تُضْرب فيه الرِّقاب ، فقالوا له : على ماذا عوّلتَ ؟ فقال : عوّلتُ على أنّى أَسير إلى الكَرَك إلى الملك الناصر أستاذِنا، فقالوا له : ونحن معك فحلَف كلٌّ منهم على ذلك، فقال نُوغَاى، وكان بيته خارج

(١) يريد به صاحب نزهة الناظر كما صرح بذلك فى عقد الجمان .
(٢) فى عقد الجمان : « أمير يقال له أبتر » .

باب النصر : كونوا عندى وقت الفجر الأوّل راكبين وأنتم لابسون وتفرّقا، فجهّز نُوغاى حاله فى تلك الليلة وركب بعد الثُّلُث الأخير مع مماليكه وحاشيته، ثم جاءه مُغْلَطاى القازانى بمماليكه ومعه جماعة من مماليك السلطان الملك الناصر والكلّ ملبّسون [على ظهر الخيل](١) . ثم إنّ نُوغاى حرّك الطبلخاناه(٢) حَرْبِيًّا وشقّ من الحسينية(٣) فماجت الناس وركبوا من الحسينية وأعلموا الأمير سلّار، فركب سلار وطلع إلى القلعة وأعلم السلطان بذلك .

قال ٱبن كَثِير : وكان ذلك بمباطنة سلّار مع نُوغاى . فلمّا بلَغ المظفّر ذلك قال على إيش توجّها ! فقال سلّار : على نُباح الجراء فى بطون الكلاب(٤)، والله ما ينظر فى عواقب الأمور ولا يخاف آثار المقدور؛ فقال المظفر: إيش المصلحة ؟ فٱتفقوا على تجريد عسكر خَلْف المُتَسَحّبين لجزد فى أثرهم جماعة من الأمراء صحبة الأمير علاء الدين مُغْلَطاى المسعودىّ(٥)، والأمير سيف الدين قُلِّى فى جماعة من المماليك، فساروا سيرًا خفيفا قصدًا فى عدم إدراكهم وحفظا لسلطانهم وٱبن سلطانهم الملك الناصر محمد ٱبن قلاوون فلم يدركوهم، وأقاموا على غَزّة أياما وعادوا إلى القاهرة .

وقال صاحب نُزْهة الألباب(٦) : وجرّد السلطان الملك المظفّر وراءهم خمسة آلاف فارس صحبة الأمير أخى سلّار، وقال له المظفّر : لا ترجع إلّا بهم ولو غاصوا

(١) زيادة عقد الجمان . (٢) حرك الطبلخاناه حربيا — يقصد بذلك أنه أمر بقرع الطبول لتنبيه الجنود وحثهم على الاستعداد للحرب . (٣) الحسينية — هذا الاسم كان يطلق قديما على حارة كبيرة من حارات القاهرة أى على خط كبير من أخطاطها خارج باب الفتوح وقد سبق التعليق عليها فى الجزء الرابع (الحاشية رقم ٢ ص ٥٤) من هذه الطبعة . وأما الآن فيطلق هذا الاسم على الطريق الموصلة من باب الفتوح إلى ميدان الأمير فاروق وتشمل شارعى الحسينية والبيومى . (٤) فى أحد الأصلين : «على نباح الذئاب فى بطون الكلاب» . وفى الأصل الآخر : «على نباح الذئاب فى بطون الكتّاب» . وما أثبتناه عن عقد الجمان . (٥) فى الأصلين : «مغلطاى المنصورى» . وما أثبتناه عن عقد الجمان وتاريخ سلاطين المماليك وابن إياس . (٦) فى عقد الجمان : «وقال صاحب نزهة الناظر» .

فى البحر ! وكان فيهم الأمير شمس الدين دَبَاكُوز (١) وسيف الدين بجاس وجَنْكَلِى (٢) ابن البابا وكُهُرْدَاش وأَيْبَك البغدادى وبَلاط وصاروُجا (٣) والقَرَمانى وأمير آخر، وهؤلاء الأمراء هم خِيار عسكر مصر فساروا . وكان نُوغَيْه قد وصل إلى بلبيس وطلب واليها وقال له : إن لم تُحضر لى فى هذه الساعة خمسة آلاف دينار من مال السلطان وإلّا سلختُ جِلْدك من كعبك [إلى أذنك] (٤) ، ففى الساعة أحضر الذهب، وكان نُوغَيْه قد أرصد أُناسا يَكْشِفون له الأخبار، فجاءوا له وذكروا أنّ عسكرا عظيما قد وصل من القاهرة وهم سائقون ؛ فلمّا سَمِع نُوغَيْه ذلك ركب هو وأصحابه وقالوا لوالى بلبيس قل للامراء الجائين خلفى أنا رائح على مَهَل حتى تلحقونى ، وأنا أُقسم بالله العظيم لئن وقعتْ عينى عليهم لأجعلَنّ عليهم يومًا يُذْكَر إلى يوم القيامة! ولم يبعُد نُوغَيْه حتى وصل أخو سَلّار وهو الأمير سُمُك ومعه العساكر ، فلاقاهم والى بلبيس وأخبرهم بما جرى له مع نُوغَيْه وقال لهم : ما ركب إلا من ساعة ، فلما سمعوا بذلك ساقوا إلى أن وصلوا إلى مكان بين الخطّارة (٥)

(١) فى تاريخ سلاطين المماليك : «دباكز» بغير واو . (٢) هو جنكلى بن محمد بن البابا ابن جنكلى بن خليل بن عبد الله العجلى بدر الدين . سيذكره المؤلف فى حوادث سنة ٧٤٦ هـ .
(٣) فى الأصلين : «ساروجا» بالسين . وما أثبتناه عن الدرر الكامنة والمنهل الصافى وتاريخ سلاطين المماليك . (٤) تكملة عن عقد الجمان . (٥) الخطارة، من القرى المصرية التى أنشأها العرب بمصر، وردت فى جداول أسماء البلاد ، وفى صبح الأعشى (ص ٣٧٧ ج ١٤) : ضمن مراكز البريد بين السعيدية والصالحية . وفى العهد العثمانى قسمت الخطارة إلى ناحيتين : وهما الخطارة الكبرى والخطارة الصغرى . وفى سنة ١٢٧٥ هـ ألغيت ناحية الخطارة الكبرى وأضيف زمامها إلى ناحية الجاجية بمركز فاقوس بمديرية الشرقية ، فأصبحت من توابعها . وأما الخطارة الصغرى فلا تزال قرية قائمة بذاتها ضمن قرى مركز فاقوس باسم الخطارة الصغرى فى جداول وزارة المالية ، وباسم الخطارة فى جداول وزارة الداخلية .

والمكان الذى يشير اليه المؤلف لا بد أن يكون بأراضى ناحية القرين إحدى قرى مركز الزقازيق لأنها هى التى تقع بين ناحيتى الخطارة والسعيدية .

والسعيدية[1]، فإذا بنُوغَاى واقفُ وقد صَفّ رجاله ميمنةً وميسرةً وهو واقف فى القلب قُدّام الكلّ، فلما رآهم سُمُك أرسل إليه فارسًا من كبار الحَلْقة، وسار إليه الفارس وآجتمع بنُوغَيْـه وقال له : أرسَـلَنِى سُمُك إليك وهو يقول : السلطان الملك المظفّر يُسَـلِّمُ عليك و يقول لك : سبحان الله! أنت كنت أكبر أصحابه، فمـا الذى غيّرك عليه ؟ فإن كان لأجل الخُبْز فمـا يا كل الخبزَ أحدُ أحقّ منك ، فإن عُدتَ إليه فكلّ ما تشتهى يفعله لك . فلمّا سمع نُوغَيْه هذا الكلام ضحِك وقال : إيش هذا الكلام الكذب ! لمـا أمس سألتُه أن يُصلِـح خُبْزى بقَرْية واحدة ما أعطانى، وأنا تحت أمره ، فكيف يسـمح لى اليوم بمـا أشتهى وأنا صرتُ عدوه ! خلّ عنك هـذا الهَذَيانَ، ومالكم عنـدى إلا السيف، فرجع الرسـول وأعلم سُمُك بمقالتـه، ثم إنّ نُوغَيْه دَكَس[2] فرسه وتقدّم إلى سُمُك وأصحابه وقال له : إن هؤلاء الذين معى أنا الذى أخرجتُهم من بيوتهـم وأنا المطلوب ، فمن كان يريدنى يبرُز لى وهـذا المَيْدان ! فنظَـرتِ الأمراء بعضُهم إلى بعض ، ثم قال : يا أمراء، ما أنا عاص على أحد، وما خرجتُ من بيتى إلا غَبْنًا، وأنتم أغبنُ منى، ولكن ما تُظهرون ذلك ،وهاأنتم سمعتم منى الكلام فمن أراد الخروج إلىّ فليخرُج و إلا آحملوا علىّ بأجمعكم، وكان آخر النهار، فلم يخرُج اليه أحد فرجع إلى أصحابه ونزل سُمُك فى ذلك المكان . فلما أمسى الليل

(١) السعيدية ، لمـا تكلم المقريزى فى خططه على ترجمة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى التى ذكرها فى كلامه على جامع الظاهر (ص ٣٠٠ ج ٢) قال : إن هذا الملك عمر بلدة السعيدية من الشرقية ، وورد أيضا اسمها فى صبح الأعشى ضمن مراكز البريد (ص ٣٧٧ ج ١٤) بين بلبيس والخطارة بأرض مصر . وقد تبين لى من البحث أن الملك الظاهر لمـا أنشأ هذه القرية سماها السعيدية تيمنا باسم ولده السعيد محمد بركه خان. وقد آندثرت هذه البلدة. ومكانها اليوم عزبة الشيخ مطر حنفى وآخرين الواقعة على فم ترعة السعيدية بأراضى ناحية العباسـة بمركز الزقازيق بمديرية الشرقية . و إلى هـذه القرية تنسب ترعة السـعيدية الممتدة بأراضى مركزى الزقازيق وفاقوس ، وينسب إليهـا أيضا حوض السعيدية أحد أحواض أراضى ناحيـة العباسة المذكورة.

(٢) لعلها كلمة عامية يراد بها معنى ركس بالراء أى غمزه برجله ليستحثه على الجرى.

رحل نُوغَيْه بأصحابه وسار مجدًّا ليله ونهاره حتى وصل قَطْيَا (١)، فوجد واليهَا قد جَمع العُرْبان لقتاله، لأنّ البطاقة وردت عليه من مصر بذلك، والعُرْبان الذين جَمَعهم الوالى نحوُ ثلاثة آلاف فارس؛ فلما رآهم نوغاى قال لأصحابه: احملوا عليهم وبادرُوهم حتى لا يأخذَهم الطَّمَع فيكم (يعنى لقلّتهم) وتأتى الخيل التى وراءكم، فحَمَلوا عليهم وكان مقدّم العرب نَوْفَل [بن حابس] (٢) البياضى، وفيهم نحو الخمسمائة نَفَر بلبوس، فحملت الأتراك أصحابُ نُوغاى عليهم وتقاتلا قتالًا عظيما حتى ولّت العرب، وانتصر نُوغَيْه عليهم هو وأصحابه، وولّت العرب الأدبار طالبين البَرِّيّة، ولَحِق نُوغَيْه والى قَطْيَا فطعَنه وألقاه عن فرسه وأخذه أسيرًا. ثم رجعت الترك من خلف العرب وقد كَسَبُوا منهم شيئًا كثيرًا.

وأمّا سُمُك فإنه لم يزل يَتْبَعهم بعساكر مصر منزلةً بعد منزلة حتى وصلوا إلى قَطْيَا فوجدوها خرابًا، وسمعوا ماجرى من نُوغَيْه على العرب، فقال الأمراء: الرأى أننا نسير إلى غَزّة ونشاور نائب غَزّة فى عمل المصلحة، فساروا إلى غَزّة فلاقاهم نائب غزّة وأنزلهم على ظاهر غَزّة وخدمهم، فقال له سُمُك: نحن ماجئنا إلّا لأجل نُوغاى، وأنّه من العريش (٣) سار يطلب الكَرَك، فما رأيُك؟ نسير إلى الكَرَك أو نرجع إلى مصر؟ فقال لهم نائب غزة: رواحكم إلى الكَرَك ماهو مصلحة، وأنتم من حين خرجتم من مصر سائرون وراءهم ورأيتموهم فى الطريق فما قدرتم عليهم، وقد وصلوا إلى الكَرَك وانضمّوا إلى الملك الناصر، والرأى عندى (٤) أنكم ترجعون إلى مصر وتقولون للسلطان ماوقع وتعتذرون له، فرجعوا وأخبروا الملك المظفّر بالحال فكاد يموت غَيْظًا، وكتب

(١) قطيا قرية مصرية كانت بين القنطرة والعريش اندثرت. وسبق التعليق عليها فى الجزء السابع (الحاشية رقم ٢ ص ٧٧) من هذه الطبعة. (٢) زيادة عن عقد الجمان. (٣) العريش، بلدة مصرية بقرب حدود فلسطين. وراجع الحاشية (رقم ٤ ص ١٥٧) من الجزء الخامس من هذه الطبعة.
(٤) فى الأصلين: «والذى عندى». وما أثبتناه عن عقد الجمان.

من وقته كتابا للملك الناصر فيه : إنّ ساعة وقوفك على هذا الكتاب وقبْل وضعه من يدك تُرسل لنا نُوغاى ومُغْلَطاى ومماليكهما ، وتبعث المماليك الذين عندك ولا تُخَلّ منهم عندك سوى خمسين مملوكا، فإنك آشتريت الكلّ من بيت المال، و إن لم تسيرهم سرتُ إليك وأخذتُك وأنفُك راغم ! وسيّر الكتاب مع بدوى[1] إلى الملك الناصر.

٥ وأمّا نُوغاى فإنه لما وصل إلى الكَرَك وجد الملك الناصر فى الصيد، فقال نُوغَيْه لمُغْلَطاى: انزل أنت ها هنا وأسير أنا للسلطان، وركب هجينًا وأخذ معه ثلاثة مماليك وسار إلى ناحية عَقَبة أَيْلة[2] ، وإذا بالسلطان نازل فى موضع وعنده خَلْق كثير من العَرَب والترك ، فلما رأوا نُوغَيْه وقد أقبل من صدر البَرِّية ، أرسلوا إليه خيلًا فكشفوا خَبَره ، فلما قربوا منه عَرَفه مماليك السلطان فرجعوا وأعلموا السلطان

١٠ أنه نُوغَاى ، فقال السلطان : الله أكبر! ما جاء هذا إلّا عن أمر عظيم ، فلما حضر نزل و باس الأرض بين يدى الملك الناصر ودعا له ، فقال له الملك الناصر : أراك ما جئتَ لى فى مثل هذا الوقت إلى هذا المكان إلا لأمرٍ؟ فحدثنى حقيقة أمرك ، فأنشأ نُوغَيْه يقول :

أنت المليكُ وهــذه أعناقُنا * خضعَت لعِزّ عُلاك يا سُلطانِى

١٥ أنت المُرَجّى يا مليكُ فمن لَنا * أســدُ سِواك وما لكُ البُلْدانِ

فى أبيات أُخَر، ثم حكَى له ما وقَع له منذ خرج الملك الناصر من مصر إلى يوم تاريخه، فركب الملك الناصر وركب معه نُوغَيْه وعادا إلى الكَرَك، وخلَع عليه وعلى رفقته وأنزلهم عنده و وعدَهم بكلّ خير .

---

(١) فى عقد الجمان : « وسير الكتاب مع بريدى » . (٢) عقبة أيلة ، هى التى تعرف

٢٠ اليوم باسم العقبة ، وهى بلدة تابعة لحكومة شرق الأردن فى الحدود الشرقية لمصر، وراجع الحاشية رقم (٨ ص ٢٠٦) من الجزء السادس من هذه الطبعة .

ثم إنّ الملك الناصر جمع أمراءه ومماليكه وشاورهم فى أمره ، فقال نُوغَيْه : من ذا الذى يُعاندك أو يقف قُدَّامَك والجميع مماليكك ! والذى خَلَق الخلق إذا كنتَ أنت معى وحدى ألتقى بك كلّ مَنْ خرج من مصر والشام ! فقال السلطان : صدقتَ فيما قلتَ ، ولكن من لم ينظُر فى العواقب ، ما الدهر له بصاحب . انتهى .

وقال ابن كَثِير فى تاريخه : وصل المتوجِّهون إلى الكَرَك إلى الملك الناصر فى الحادى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فقَبِلهم الناصر أحسن قبول ، وكان حين وصلوا إلى قَطْيَا أخذوا ما بها من المال ، ووجدوا أيضا فى طريقهم تَقْدِمَةً لسيف الدين طُوغَان[1] نائب البيرة[2] فأخذوها بكمالها وأحضروا الجميع بين يدى الملك الناصر محمد ، ولمّا وصلت إليه الأمراء المذكورون أمر الملك الناصر بالخُطبة لنفسه ، ثم كاتب النوّاب فآجتمعوا وأجابوه بالسمع والطاعة . ولما عاد الأمراء من غزّة إلى مصر آشتدّ خوفُ السلطان الملك المظفر وكثُر خيالُه من أكثر عسكر مصر ، فقبَض على جماعة تزيد على ثلثمائة مملوك ، وأخرج أخبازَهم وأخبازَ المتوجِّهين مع نُوغَيْه إلى الكَرَك لمماليكه ، وتحلّقوا عليه البُرْجيّة وشوّشوا فكره بكثرة تخيُّله بمخامرة العسكر المصرىّ عليه ، وما زالوا به حتّى أخرج الأمير بَيْنْجار والأمير صارم الدين الجَرْمَكِىّ فى عدّة من الأمراء مجرّدين ، وأخرج الأمير آقوش الرومىّ بجماعته إلى طريق السُّوَيْس ليمنع من عساه يتوجّه من الأمراء والمماليك إلى الملك الناصر . ثم قبَض الملك المظفّر على أحد عشر مملوكا وقصد أن يَقبِض على آخرين فآستوحش الأمير بطرا[3] فهرب ، فأدركه الأميرُ جَرَكْتَمُر بن بهادُر رأس نَوْبة فأحضره فحُبِس ، وعند إحضاره

(١) طوغان ، كان من مماليك المنصور قلاوون وتنقل فى خدمته إلى أن قرره فى نيابة البيرة إلى سنة ٧١٠ هـ ثم نقل الى شد دواوين دمشق ثم قبض عليه وسجن بالكرك إلى أن مات سنة نيف وعشرين وسبعمائة (عن الدرر الكامنة) .

(٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ٢٠٦ من الجزء السادس من هذه الطبعة .

(٣) فى السلوك : «الأمير سيف الدين أيطز» .

طلَع الأمير الدِّيكز السِّلاح دار بملطَّف من عند الملك الناصر محمـد ، وهو جواب الكتّاب الذى كان أرسـله الملك المظفر للملك الناصر يطلب نُوغَيْه وأصحابه . وقد ذكرنا معناه وما أغلظ فيه وأفحش فى الخطاب للملك الناصر، وكان فى وقت وصول كتاب المظفّر حضر إلى الملك الناصر الأمير أَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس كأنّهما كان على ميعاد ، فأخذ الناصر الكتّاب وأَسَنْدَمُر إلى جانبه ، وعليه لُبْس العُرْبان، وقد ضرَب اللِّثام فقرأ الناصر الكتّاب ، ثم ناوله إلى أَسَنْدَمُر فقرأه وفَهِـم معناه، ثم أمر الملك الناصر الناس بالأنصراف وبقِى هو وأَسَنْدَمُر،وقال لأَسَنْدَمُر : مايكون الجواب ؟ فقال له أَسَنْدَمُر : المصلحة أن تُخادعه فى الكلام وتترقّق له فى الخطاب حتى نجهّز أمرنا ونستظهِرَ، فقال له السلطان : أُكتُب له الجواب مثل ما تختاره، فكتب أَسَنْدَمُر :

«المملوك محمـد بن قلاوون يُقبِّل اليد العالية المولوية السلطانيّة المظفّريّة أسبغ الله ظِلّها ، ورفع قَدْرها ومحلّها ، ويُنْهِى بعد رفع دعائه ، وخالص عبوديته وولائه أنه وصل إلى المملوك نُوغَيْه ومُغْلطَاى وجماعةٌ من المماليك، فلمّا علِم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة ولم يُمكِّن أحدًا منهم يعبُر إليه، وسيّرت إليهم ألومهم على ما فعلوه، وقد دخلوا على المملوك بأن يبعث ويشفع فيهم، فأخذ المملوك فى تجهيز تقدمة لمولانا السلطان ويشفع فيهم،والذى يُحيط به علم مولانا السلطان أنّ هؤلاء من مماليك السلطان، خلّد الله مُلكه ، وأنّ الذى قيل فيهم غير صحيح، وإنما هربوا خوفًا على أنفسهم، وقد آستجاروا بالمملوك، والمملوك يستجير بظلّ الدولة المظفّريّة ، والمأمول[1] ألّا يُخيِّب سؤالَه ولا يَكْسِر قلبه، ولا يردّه فيما قصده[2] . وفى هذه الأيام يجهِّز المملوك

(١) فى أحد الأصلين : «والسؤال» وفى الأصل الآخر: «والمسئول» وسياق الكلام يقتضى ما أثبتناه.

(٢) عبارة عقد الجمان : « ولا يردّ ما قصده ، بل يسير لهم أمانا ومناشير إقطاعاتهم بزيادة عليها ، ويكون ذلك من جملة صدقات الدولة المظفرية ، والمراحم الأعظمية ، وفى هذه الأيام ... الخ » .

تقدمةً مع المماليك الذين طلبهم مولانا السلطان ، وأنا مالى حاجةٌ بالمماليك في هذا المكان ، وإن رسم مولانا مالك الرِّق أن يُسيِّر نائبًا له ينزل[1] المملوك بمصر ويلتجئ بالدولة المظفريّة ويحلق رأسه ويقعُد فى تربة الملك المنصور. والمملوك قد وطّن نفسه على مثل هذا ؛ وقد قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : « ما أقربَ الراحةَ من التعب والبؤسَ من النِّعَم والموت من الحياة » . وقال بعضهم : إيّاك وما يُسخط سلطانك ، ويُوحش إخوانك ؛ فمن أسخط سلطانَه فقد تعرّض للمنيّة ، ومن أوحش إخوانه فقد تبرّأ عن الحرية[2] . والمملوك يسأل كريم العفو والصفح الجميل ! والله تعالى قال فى كتابه الكريم وهو أصدق القائلين : ﴿ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. والمملوك ينتظر الأمان والجواب . أنهى المملوك ذلك » .

فلمّا قرأ الملك المظفّر الكتاب خَفَّ ما كان عنده، وكان سَلّار حاضراً فقال له سَلّار : ما قلتُ لك إنّ الملك الناصر ما بَقِيَتْ له قُدرة على المعاندة ! وقد أصبح مُلْك الشام ومصر طوع يدك ، ولكن عندى رأىٌ : وهو أن تُسَيِّر إلى الأفرم بأن يجعل بالَه من الأمراء، فإنّهم ربّما يهربُون إلى بلاد التّتار فٱستصوب المظفّر ذلك، وكتَب إلى الأفرم فى الحال بالغرض، فلمّا وصل الكتاب إلى الأفرم ٱجتهد فى ذلك غاية الآجتهاد .

وأخذ الملك الناصر فى تدبير أمره ، وبينما المظفّر فى ذلك ورد عليه الخبر من الأفرم بخروج الملك الناصر من الكَرَك ، فقَلِق المظفّر من ذلك وزاد توهُّمه ونَفَرت قلوب جماعة من الأمراء والمماليك منه وخَشُوا على أنفسهم وٱجتمع كثير

(١) فى الأصلين : « و ينزل » .

(٢) فى الأصلين : « فقد تبرأ عن الجريمة » . وما أثبتناه عن عقد الجمان .

من المنصوريّة والأشرفية والأُوَيْرَاتيّة[1] وتواعدوا على الحرب ، وخرج منهـم مائةٌ وعشرون فارسًا بالسلاح ، وساروا على حَمِيَّة إلى الملك الناصر، فخرج فى أثرهم الأميرُ بَيْنَجار والصارم الجَرْمَكِيّ بمن معهم ، وقاتلوا المماليك وجُرِح الجَرْمَكِيّ بسيف فى خدّه[2] سقَط منه إلى الأرض ، ومضى المماليك إلى الكَرَك ولم يستجرئ أحدُ أن يتعرّض إليهم ؛ فعظُم بذلك الخَطْب على الملك المظفّر، وآجتمع عنده البُرْجيّة وقالوا : هذا الفسادُ كلُّه من الأمير سَلّار ، ومتى لم تَقبِض عليه خرَج الأمرُ من يدك ، فلم يُوافِق على ذلك وجبُن من القبض على سَلّار لشَوْكته ولآضطراب دولته ، ثم طلَب الملك المظفّر الأميرَ سلّار وغيرَه من الأمراء وآستشارهم فى أمر الملك النـاصر ، فآتفق الرأىُ على خروج تجريدة لقتال الملك الناصر .

وأمّا الملك الناصر فإنّه أرسل الأمير أَيْتَمَش المحمّدىّ الناصرىّ إلى الأمير قَبْجق نائب حمـاة ، فأحال الأميرُ قبجق الأمرَ على الأمير قَرَا سُنْقُر نائب حلب ، فآجتمع أَيْتَمَش بقَرا سُنْقُر فأكرمه ووافق على القيام مع الملك الناصر، ودخَل فى طاعته وأعلن بذلك . وهو أكبر المماليك المنصوريّة ، وواعد الملكَ الناصر على المسير إلى دِمَشْق فى أوّل شعبان . ثم كتَب قَرَاسُنْقُر إلى الأفرم نائب الشام يَحُثّه على طاعة الملك الناصر ويُرَغّبه فى ذلك ويُحذّره مخالفتَه ؛ وأشار قَرَاسُنْقُر على الملك الناصر أنه يُكاتب الأمير بَكْتَمُر الجُوكَنْدَار نائب صَفَد ، والأمير كَرَاى المنصورىّ نائب القُدس . ثم عاد أَيْتَمَش إلى أستاذه الملك الناصر وأخبره بكلّ ماوقَع ، فسُرّ الملك الناصر بذلك هو وكلُّ من عنده

---

(١) فى الأصلين والسلوك : «الأويراتية» . وفى تاريخ سلاطين المماليك : «العويراتية» . وهم طائفة من التتار فروا هاربين من ظلم الملك غازان عظيم التتار وأتوا إلى مصر سنة ٦٩٥ هـ طالبين الدخول فى الإسلام ، وكان المقدّم عليهم الأمير طرغاى زوج بنت هولاكو . وكانت عدتهم نحوا من عشرة آلاف بيت من التتار، فأمر الملك العادل كتبغا الأمير علم الدين سنجر الدواداري أن يقابلهم بجيء بهم إلى دمشق فأنزلوهم بالقصر الأبلق من الميدان . (راجع ترجمة العادل كتبغا ص ٦٠ من هذا الجزء) .

(٢) فى السلوك (لوحة ٢٢٣ قسم رابع أول) : « بسيف فى فخذه » .

غاية السرور، وتحقّق كلّ أحد من حواشي الملك الناصر بإتمام أمره . وكان نُوغَيْه منذ قَدِم على الملك النـاصر بالكَرَك لا يَبْرَح يُحَرِّضــه على المسير إلى دِمَشق حتّى إنّه ثَقُل على الملك الناصر من مخاشنته في المخاطبة بسبب توجُّهه إلى دِمَشق ، وغَضِب منــه وقال له : ليس لى بك حاجةُ، اِرجِـع حيث جئتَ، فترك نُوغاىْ الخــدمة وآنقطع وحَقَد له الملك الناصر ذلك حتّى قتله بعد عَوْده إلى الملك بمدّة حسب ما يأتى ذكره من كثرة ما وبّخه نُوغَيْه المذكور، وأسمعه من الكلام الخَشِن .

ولمّـا قَدِم أَيْتَمُش بالأجوبة على الملك الناصر قَوِى عزمُ الملك الناصر على الحركة ؛ ثم إنّ الملك الناصر أيضا أرسل مملوكه أَيْتَمُش المحمدى المذكور إلى الأمير بَكْتَمُر الجُوكَنْدار نائب صَــفَد حسب ما أشار به قَرَا سُنْقُر، فسار أَيْتَمُش إليــه وآجتمع بالأمير محمد بن بَكْتَمُر الجُوكَنْدار، فجمع محمد المذكور بين أَيْتَمُش و بين أبيه ليــلًا فى مقابر صــفد ، فعتبه أَيْتَمُش على ردّه أوّلًا قاصدَ السلطان الملك الناصر فآعتذر له بَكْتَمُر بالخوف من بِيبَرْس وسَلّار كما كان وقع له مع النـاصر أوّلا بالديار المصريّة حين آتّفقا على قَبْض بِيبَرْس وســلّار ولم يَتِمّ لهم ذلك، وأُخْرِج بَكْتَمُر بسبب ذلك من الديار المصريّة ، وقد تقدّم ذكر ذلك كلّه. اِنتهى. ثم قال له بَكْتَمُر: ولولا ثِقتى بك ما آجتمعتُ عليك ، فلمّا عرّفه أَيْتَمُش طاعة الأمير قَرَاسُنْقُر والأمير قَبْجَق والأمير أَسَــنْدَمُر أجاب بالسمع والطاعة ، وأنّه على ميعـاد النوّاب إلى المضى إلى الشام، وعاد أَيْتَمُش إلى الملك الناصر بجواب بَكْتَمُر فسُرّ به غاية السرور .

وأمّا الســلطان الملك المظفّر بِيبَرْس هــذا فإنّه أخذ فى تجهيز العساكر إلى قتال الملك الناصر محمد حتّى تَمّ أمرُهم وخرجوا من الديار المصريّة فى يوم السبت تاسع شهر رجب وعليهم خمسة أمراء من مقدّمى الألوف، وهم : الأمير بُرُلْغِى الأشرفىّ ، والأمير جمال الدين آقوش الأشرفى نائب الكرك كان ، والأمير عزّ الدين أَيْبَك

البغدادىّ ، والأمير سيف الدين طغْريل الإيغانِىّ ، والأمير سيف الدين الذُكز[1] السلاح دار ، ومعهم نحو ثلاثين أميراً من أمراء الطبلخاناه بعد ما أنفق فيهم الملك المظفّـر ، فأعطى بُرُلْغِى عشرة آلاف دينـار ، وأعطى لكل مقـدّم ألْفَى دينـار ، ولكلّ من الطبلخاناه ألف دينار ، ولكلّ واحد من مقدّمى الحَلْقة ألف درهم ،

٥ ولكل واحد من أجناد الحَلْقَة خمسمائة درهم ، ونزلوا بمسجد التِّبْن[2] خارج القاهرة ولم يتقدّموا ، ثم عادوا بعـد أربعة أيّام إلى القاهرة . وكان الباعث على عَوْدهم أن كتب آقوش الأفرم نائب الشـام وردت على الملك المظفّر : تتضمّن وصول الملك الناصر إلى البُرْج[3] الأبيض ، ثم عاد إلى الكَرَك فاطمأنّ الملك المظفر وأرسل إلى بُرُلْغِى ومن معه من المجرّدين بالعَوْد فعادوا بعـد أربعة أيام . فلم يكن إلا أيّام

١٠ وورد الخبر ثانيًا بمسير الملك الناصر محمد من الكَرَك إلى نحو دمشق ، فتجهّز العسكر المذكور فى أربعـة آلاف فارس وخرجوا من القاهرة فى العشرين من شعبان إلى العَبّاسـة . فورد البريد من دِمَشق بقدوم أَيْتَمُش المحمّدى من قِبَـل الملك الناصر بمشافهةٍ إلى الأفرم ذكرها للظفّر . ثم إنّ الأفرم بعد قدوم أَيْتَمُش بعث الأمير علاء الدين أَيْدُغْدِى شُقَيْر الحُسَامىّ ، والأمير جُوبان لكشف خبر الملك الناصر ،

١٥ وأنهما توجّها من الشام إلى جهة الكَرَك ، فوجدا الملك النـاصر يتصيّد وأنّه عوّق أَيْتَمُش عنده ، فسُرّ المظفّر بذلك ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وهو أن أمرهما : أنّه لمّا سيّرهما الأفرم لكشف خبر الملك الناصر قَدِما على الملك الناصر ، ودخلا تحت طاعته ، وعرّفاه أنهما جاءا لكشف خبره وحَلَفا له على القيام بنُصْرته سِرًّا ، وعادا إلى الأفرم بالجواب المذكور . وكان الناصر هو الذى أَمَرهما بهذا القول ، فظنّ

---

٢٠ (١) ورد فى السلوك هذا الاسم هكذا : «ساكر» . (٢) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٣١ من هذا الجزء . (٣) راجع الحاشية رقم ٥ ص ٢٤٧ من هذا الجزء .

الأفرم أنّ أخبارهما على الصدق، فكَتب به إلى المظفّر. ثم إنّ الأفرم خاف أن يطرُق الملكُ الناصر دِمَشق على غَفْلة فجرّد إليه ثمانية أمراء من أمراء دِمَشق، وهم: الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك المنصوريّ، والأمير سيف الدين الحاج بهادُر الحلبيّ الحاجب، والأمير جُوبان، والأمير كُجْكُن، والأمير علم الدين سَنْجَر الجاولى وغيرهم ليُقيموا على الطُّرقات لحفظها على من يخرُج من الشام وغيره إلى الملك الناصر. وكتَب إلى الملك المظفّر يستحِثّه على إخراج عساكر مصر لتجتمع عنده مع عساكر دِمَشق على قتال الملك الناصر، وأنّه قد جدّد اليمين للظفّر وحلّف أمراء دمشق ألّا يخونوه ولا ينصروا الملك الناصر. فلمّا قرأ المظفّر كتاب الأفرم اضطرب وزاد قلقُه. ثم ورد عليه كتاب الأمير بُرُلْغِي من العبّاسة بأنّ مماليك الأمير آقوش الروميّ تجمّعوا عليه وقتلوه وساروا ومعهم خزائنُه إلى الملك الناصر، وأنّه لَحِق بهم بعضُ أمراء الطبلخاناه في جماعة من مماليك الأمراء وقد فَسَد الحال، والرأى أن يخرُج السلطان بنفسه.

فلمّا سمِع الملك المظفّر ذلك أخرج تجريدةً أخرى فيها عِدّةُ أمراء أكابر، وهم: الأمير بجاس[1] و بَكْتُوت وكثير من البُرجيّة، ثم بعث إلى بُرُلْغِي بألفى دينار ووعده بأنه عازم على التوجّه إليه بنفسه.

فلمّا ورد كتاب الملك المظفر بذلك و بقدوم التجريدة إليه عزَم على الرحيل إلى جهة الكَرَك، فلمّا كان الليل رَحَل كثير ممّن كان معه يريدون الملك الناصر، فثَنَى عزمَه عن الرحيل ثانيا، وكتب إلى المظفّر يقول: بأنّ نصف العسكر سار إلى الملك الناصر وخرج عن طاعة الملك المظفّر، ثم حرّض الملكُ المظفّر على الخروج

(١) في السلوك وتاريخ سلاطين المماليك: «بشاس». وفي ابن إياس: «بَجاس».

بنفسه . وقبل أن يطلُع الفجر من اليوم المذكور وصل إلى القاهرة الأمير بهادُرجُك[(١)]
بكتاب الأمير بُرُلْغِىَ المذكور وطلَع إلى السلطان ، فلمّـا قضَى الملك المظفّر صـلاة
الصبح تقـدّم إليه بهادُرجُك وعرّفه بوصول أكثر العسكر إلى الملك الناصر وناوله
الكتاب ، فلما قرأه بِيبَرْس تبسّم وقال : سَلِّم على الأمير بُرُلْغِى ، وقل له لا تخشَ من
شيء ، فإنّ الخليفة أمير المؤمنين قد عَقَد لنا بَيْعةً ثانية وجدّد لنا عهدًا ، وقد قُرِئ
على المنابر ، وجدّدنا اليمين على الأمراء ، وما بقِى أحد يجسُر أن يخالف ما كتَب به
أمير المؤمنين ! ثم دفع إليه العهـد الخليفتى وقال : اِمضِ به إليـه حتى يقرأه على
الأمراء والجند ثم يرسله إلىّ ، فإذا فَرَغ من قراءته يرحل بالعساكر إلى الشام وجهّز
له بألفى دينـار أخرى ، وكتب جوابه بنظير المشافهة ، فعاد بهادُرجُك إلى بُرُلْغِى .
فلمّـا قرأ عليـه الكتابَ وآنتهى إلى قوله : وأنّ أمير المؤمنين ولّانى توليةً جديدة
وكَتب لِى عهدًا وجدد لى بَيْعةً ثانية ، وفَتح العهدَ فإذا أوّلُه : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ
وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فقال بُرُلْغِى : ولسليمان الريح ! ثم آلتفت إلى بهادُرجُك
وقال له ، قل له : يا بارد الذقن ، والله ما بقِى أحد يلتفت إلى الخليفة ، ثم قام وهو
مُغْضَب . وكان سبب تجديد العهد للملك المظفّر هذا أنّ الأفرم نائب الشام لمّـا ورد
كتابُه على المظفّر أنه حلّف الأمراء بدمشق ثانيا ، وبَعث بالشيخ صدر الدين محمد
ابن عمر [بن مَكِّى بن عبدالصمد الشهير بآبن[(٢)]] المُرَحِّل إلى الملك المظفّر فى الرسليّة ،
صار صدر الدين يجتمع به هو وآبن عدلان[(٣)] وصار الملك المظفّر يشغَل وقتـه بهما ،
فأشارا عليه بتجديد العهد والبَيْعة وتحليف الأمراء ، وأنّ ذلك يثبّت به قواعد مُلْكه

---

(١) فى السلوك : «بهادر جنكى» . (٢) تكلة عما سيذكره المؤلف فى وفاته سنة ٧١٦ ﻫ ، والدرر الكامنة والمنهل الصافى . (٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان بن محمود ابن لاحق بن داود الكنانى المصرى الفقيه الشافعى شمس الدين . توفى سنة ٧٤٩ ﻫ (عن الدرر الكامنة وشذرات الذهب) .

ففعل الملك المظفّر ذلك، وحلف الأمراء بحضور الخليفة، وكتب له عهدًا جديدًا عن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسىّ . ونسخة العهد :

« ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ من عبد الله وخليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبى الربيع سليمان بن أحمد العبّاسىّ لأمراء المسلمين وجيوشها، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وإنّى رضيتُ لكم بعبد الله تعالى الملك المظفّر ركن الدين نائبا عنى لملك الديار المصرية والبلاد الشاميّة، وأقمتُه مُقام نفسى لدينه وكفاءته وأهليّته ورَضيتُه للمؤمنين، وعزلتُ من كان قبله بعد علمى بنزوله عن المُلك، ورأيت ذلك متعيّنا علىّ، وحكمْتُ بذلك الحُكّام الأربعة، وآعلموا، رحمكم الله، أنّ المُلك عقيم ليس بالوراثة لأحدٍ خالف عن سالفٍ ولا كابرٍ عن كابرٍ، وقد آستخرتُ الله تعالى وولّيتُ عليكم الملك المظفّر، فمن أطاعه فقد أطاعنى، ومن عصاه فقد عصانى، ومن عصانى فقد عصَى أبا القاسم آبن عمّى صلّى الله عليه وسلّم . وبلغنى أنّ الملك الناصر آبن السلطان الملك المنصور شقّ العَصَاة على المسلمين وفرّق كلمتهم وشتّت شملَهم وأطمع عدوّهم فيهم، وعرّض البلاد الشاميّة والمصريّة إلى سَبْى الحريم والأولاد وسَفْك الدماء، فتلك دماءٌ قد صانها الله تعالى من ذلك . وأنا خارج إليه ومحاربُه إن آستمرّ على ذلك، وأُدافع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم لهذا الأمر العظيم، وأقاتلهُ حتّى يفىءَ إلى أمر الله تعالى، وقد أوجبتُ عليكم يا معاشرَ المسلمين كافّةً الخروجَ تحت لوائى اللّواءِ الشريف، فقد أجمعت الحُكّام على وجوب دَفْعه وقتاله إن آستمرّ على ذلك، وأنا مستصحب معى الملك المظفّر فجهّزوا أرواحكم والسلام » .

وقُرِئَ هذا العهدُ على منابر الجوامع بالقاهرة ، فلمّا بلغ[1] القارئُ إلى ذكر الملك الناصر صاحت العوامّ : نَصره الله نصره الله ! وكررت ذلك ، وقَرَأ ، فلمّا وصل إلى ذكر الملك المظفّر صاحوا : لا ، ما نريده ! ووَقَع فى القاهرة ضجّة وحركةٌ بسبب ذلك . انتهى .

٥ ثم قَدِم على الملك المظفّر من الشام على البريد الأميرُ بهادُر آص يَحُثُّ الملك المظفر على الخروج إلى الشام بنفسه ، فإن النوّاب قد مالوا كلُّهم إلى الملك الناصر ، فأجاب أنه لا يخرج ، واحتجّ بكراهيته للفتنة[2] وسَفْك الدماء ، وأنّ الخليفة قد كَتَب بولايته وعَزَل الملك الناصر فإن قَبِلوا و إلّا تَرَك المُلك . ثم قَـدِم أيضا الأميرُ بلاط بكتاب الأمير بُرُلْغِى ، وفيه أن جميع من خرج معه من أمراء الطبلخاناه لَحِقُوا بالملك الناصر

١٠ وتَبِعهـم خَلْقٌ كثير ، ولم يتأخر غيرُ بُرُلْغِى وآقوش نائب الكَرَك وأَيْبَـك البغدادىّ ، والدِكْز والفتّاح ، وذلك لأنّهم خواصّ الملك المظفَّر .

وأمّا الملك الناصر فإنّه سار من الكَرَك بمن معه فى أوّل شعبان يريد دمشق بعد أمور وقعت له ، نذكرها فى أوائل ترجمته الثالثة . فلمّا سار دخل فى طاعته الأمير قُطْلُوبك المنصوريّ والحاج بهادُر و بَكْتَمُر الحُسَامىّ حاجب حُجّاب دمشق وعَلَم الدين

١٥ سَنْجَر الجاولى . وصار الملك الناصر يتأنّى فى مَسيره من غير سُرْعة حتّى يتبيّن ما عند أمراء دمشق الذين أخرجهم الأفرم لحفظ الطرقات قبـل ذلك ، فكتبـوا أمراءُ دمشق المذكورون إلى الأفرم أنّه لا سبيل لهم إلى محاربة الملك الناصر ، وأرادوا بذلك إمّا أن يخرج بنفسه فيقبضوه أو يسيرَ عن دمشق إلى جهة أخرى فيأتيهم بقيّة الجيش وكان كذلك . فإنّه لمّـا قَدِم كتابُهم عليه بدمَشق شارع بين الناس مجىءُ الملك

٢٠ (١) فى الأصلين : « فلما قرأ القارئ إلى ذكر ... الخ » . وتصحيحه عن السلوك .
(٢) فى الأصلين : «بكراهيته نفسه» . وتصحيحه عن السلوك .

الناصر من الكَرَك فثارت العوامّ وصاحوا . نصر الله الملك الناصر! وتسلّل عسكره من دمشق طائفةً بعد طائفة إلى الملك الناصر، وآنفرط الأمر من الأفرم وآتّفق الأمير بيبَرْس العَلَائِيّ[1] والأمير بيبَرْس المجنون[2] بمن معهما على الوثوب على الأفرم والقبض عليه، فلم يثبت عند ما بلغه ذلك، وآستدعى علاء الدين [علىّ][3] بن صبيح، وكان من خواصّه وخرج ليلًا وتوجّه إلى جهة الشَّقِيف[4]، فركِب قُطْلُو بَك والحاجّ بهادُر عند ما سَمِعا خبرَ الأفرم، وتوجّها إلى الملك الناصر، وكانا كاتباه بالدخول في طاعته قبل ذلك، فسُرَّ بهما وأنعم على كل واحد منهما بعشرة آلاف درهم، وقَدِم على الناصر أيضا الجاولى وجُوبان وسائر من كان معهم، فسار بهم الملك الناصر حتى نزل الكُسْوة، وخرج إليه بقيّة الأمراء والأجناد . وقد عُمِل له سائر شعار السلطنة من السناجق الخليفتيّة والسلطانيّة والعصائب والجِتْر[5] والغاشية[6]، وحلَف العساكر وسار يوم الثلاثاء ثاني عشر[7] شعبان يريد مدينة دِمَشق، فدخلها من غير مدافع بعد ما زُيِّنت له زينة عظيمة، وخرَج جميع الناس إلى لقائه على آختلاف طبقاتهم حتى صغار الكُتّاب، وبلَغ كِراءُ البيت من البيوت التي بمَيْدان الحصى إلى قلعة دِمَشق للتفرج على السلطان من خمسمائة درهم إلى مائة درهم، وفُرِشت الأرض بشقاق الحرير الملوّنة، وحَمَل الأمير قُطْلُوبَك المنصوريّ الغاشية، وحَمَل الأميرُ الحاج بهادُر الجِتْر، وترجّل الأمراء والعساكر بأجمعهم ومشَوْا بين يديه حتّى نزل بالقصر [الأبلق][8]؛ وفي وقت نزوله قَدِم مملوك الأمير قَرَاسُنْقُر نائب حلب لكشف الخبر

(١) توفى سنة ٧١٢ هـ (عن الدرر الكامنة) . (٢) توفى سنة ٧١٥ هـ عن المصدر المتقدّم . (٣) زيادة عن السلوك، وفيه وفي عقد الجمان . «على بن صبح» . (٤) يريد شقيف أرنون، وراجع الحاشية رقم ٢ ص ١٤٢ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٥) راجع الحاشية رقم ١ ص ٦٠ من هذا الجزء . (٦) راجع الحاشية رقم ٣ ص ٤ من الجزء السابع من هذه الطبعة . (٧) في التوفيقات الإلهامية أن أول شعبان هذه السنة يوافق يوم الأحد . (٨) زيادة عن السلوك .

وأنّ قَرَاسُنْقر خرج من حلب وقَبْجَق خرج من حَمَـاة فخلَع عليه وكتب لهما بسرعة الحضور إليــه . ثم كتَب إلى الأفرم أماناً وتوجّه به علم الدين سَنْجَر الجاولى ، فلم يَثِق بذلك لِمـا كان وقَع منه فى حقّ الناصر لمّـا قَدِم عليه تَنْكِز(١)، وطلب يمين السلطان فحلَف السلطان له وبعث إليه نسخة الحلف . وكان قبـل ذلك بعث الملك الناصر خازِنْدارَه وتَنْكِز مملوكه إلى الأفرم هذا صحبةَ عثمان الركاب يستدعيه إلى طاعته بكلّ ما يمكن ، ثم أمرَه الملك النـاصر إن لم يُطِع يُخَشِّن له فى القـول، وكذلك كتَب فى المطالعة التى على يد تنكز : أوّلها وعد وآخرها وعيد، فلمّا قرأ الأفرم الكتاب المذكور آسودّ وجهُه من الغضب، ثم آلتفت إلى تَنْكِز وقال : أنت وأمثالك الذين حمَّقوا هذا الصبيَّ حتى كتب لى هذا الكتاب، و يلك! من هو الذى وافقه من أمراء دمشق على ذلك! وكان الناصر قد كتَب له فى جملة الكلام(٢) أنّ غالب أمراء البلاد الشاميّة أطاعونى، وكان الأفرم لمـا حضر إليه تَنْكِز قبل أن يقرأ الكتاب جمعَ أمراء دمشق ثم قرا الكتاب ، فلمّا وصل إلى ذلك، قال الأفرم، قل لى : من هو الذى أطاعه حتى أَقْبِض عليه وأُرسلهُ إلى مصر ؟ فنظَر أمراءُ دمشق بعضهم إلى بعض وأمعن الأفرم فى الكلام، فقام الأمير بيبرْس المجنون وقال: ما هذا الكلام مصلحة، تجاوب آبنَ آستاذك بهـذا الجواب ! ولكن لاطفه وقل له : أنت تعلم أنّنا متَّبعون مصر وما يبرُز منها، فإن أردتَ الملك فاطلبه من مصر، ولا تبتلش(٣) بنا وآرجع عنّا، وذكر له أشياء من هذا النَّمَط، فقال الأفرم : أنا ما أقول هذا الكلام ، وليس له عندى إلّا السيف إن جاءنا ! ثم طلب الأفرم تَنْكِز فى خَلْوَة وقال له : سِرْ إلى أستاذك وقل له : يرجع، و إلّا يسمع الملك المظفّر فيمسكك و يحبسك، فتبقى تمنّى أن تشبع

---

(١) هو تنكز بن عبدالله الحسامى . توفى سنة ٧٤١ هـ (عن الدرر الكامنة والمنهل الصافى) .

(٢) فى الأصل الآخر : «حتى كتب فى جملة الكتاب» .

(٣) لا تبتلش بنا : لا تفكر فينا (عن دوزى) .

الخبز! ولا ينفعك حينئذ أحد، فإن كان لك رأى فاقبض على نُوغَيه ومن معه وسيِّرهم للملك المظفّر، فإن عملتَ ذلك يصلُح حالك، ولا تفعل غير هذا تهلك. وكتَب له كتابًا بمعنى هذا ودفعه إلى تَنكِز، فلم يخرُج تَنْكِز من دمشق إلى أثناء الطريق حتى خرَج فى أثره جماعةُ من أمراء دمشق إلى طاعة الناصر. وكان كلام الأفرم لتَنكِز أكبرَ الأسباب لخروج الملك النـاصر من الكَرَك إلى دِمَشق، فلما قَدِم الناصر دمشق وكتَب الأمان للافرم فتخوف الأفرم مما كان وقع منه من القول لمّا قَدِم عليه تنكِز وطلب الحَلِف. انتهى.

وقال بيبَرس فى تاريخه: وأرسل السلطان إلى الأفرم رسلا بالأمان والأيمان[1]، وهمـا الأميران عِزّ الدين أَيْدَمُر الزَّردكاش والأمير سيف الدين جُوبان. وقال غيره: بعث إليه السلطان نسخة الحَلِف مع الأمير الحاج أَرْقَطاى الجَمدَار، فما زال به حتى قَدِم معه هو وابن صبيح[2]، وركب السلطان إلى لقائه حتى قرب منه نزل كلّ منهما عن فرسه، فاعظم الأفرمُ نزولَ السلطان له وقَبّـل الأرض، وكان الأفرم قد لَبِس كاملّية وشدّ وسَطَه وتوشّح بنصفيه (يعنى أنه حضر بهيئة البطالين من الأمراء) وكَفَنُه تحت إبطه، وعند ما شاهدتْه الناس على هذه الحالة صرَخوا بصوت واحد: يامولانا السلطان، بتربة والدك الملك الشهيد قلاوون لا تُؤذِه ولا تغيِّر عليه! فبكى سائر من حضر، وبالغ السلطان فى إكرامه وخلع عليـه وأركبه وأقرّه على نيابة دِمشق، فكثُر الدعاء له وسار إلى القصر. فلما كان من الغـد أحضر الأفرم خيلا وجمالا وثيابا بمـائتى ألف درهم تَقْدِمة[3] إلى السلطان الملك الناصر. وفى يوم الجمعة ثانى عشرين

(١) عبارة الأصلين: «وأرسل السلطان الى الأفرم بالأمان والأيمـان وكان رسله اليه مع الأمير عز الدين أيدمر الزردكاش والأمير جزمان». وما أثبتناه عن عقد الجمان. (٢) فى السلوك وعقد الجمان: «ابن صبح». وراجع الحاشية رقم ٣ ص ٢٦٥ من هذا الجزء. (٣) فى عقد الجمان: «فى اليوم الثامن والعشرين من شعبان ... الخ».

شعبان خُطِب للملك الناصر بدمشق وآنقطع منها آسم المظفّر، وصُليت الجمعة بالمَيْدان فكان يومًا مشهودا؛ وفى ذلك اليوم قَدِم الأمير قَرَاسُنْقُر نائب حلب، والأمير قَبْجَق نائب حَمَاة، والأمير أَسَنْدَمُر كُرجِى نائب طرابُلُس، وتَمُر السّاقى نائب حِمْص، فركب السلطان إلى لقائهم وترجّل إلى قَرَاسُنْقُر وعانقه وشكر الأمراء وأثنى عليهم؛ ثم قَدِم الأمير كَرَاى المنصورى نائب القدس والأمير بَكْتَمُر الجُوكَنْدَار نائب صَفَد، ثم قدّم كلٌّ من الأمراء والنوّاب تَقْدِمته بقَدْر حاله ما بين ثياب أطلس وحوائص ذهب وكُلْفتاة[(١)] زَرْكش وخيول مُسْرَجَة، فى عُنُق كل فرس كيسٌ فيه ألف دينار وعليه مملوك، وعِدّة بغال وجمال بَخَاتِىّ وغير ذلك. وشرَع الملك النـاصر فى النفقة على الأمراء والعساكر الواردة عليه مع النوّاب. فلما آنتهت النفقة قدم بين يديه الأمير كَرَاى المنصورى على عسكره إلى غَزّة فسار إليها، وصار كَرَاى يمدّ فى كلّ يوم سِماطا عظيما للمقيمين والواردين عليـه، فأنفق فى ذلك أموالًا جزيلةً من حاصله، وآجتمع عليه بغَزّة عالَمٌ كثير وهو يقوم بكُلَفهم ويَعِدُهم عن السلطان بمـا يُرضيهم.

وأما الملك المظفّر فإنه قَـدِم عليه الخـبر فى خامس عشرين شـعبان باستيلاء الملك النـاصر على دِمَشق بغـير قتال، فعظُم ذلك على الملك المظفّر وأظهر الذلّة، وخرجت عساكر مصر شيئًا بعد شىء تريد الملك الناصر حتى لم يبق عنـده بالديار المصرية سوى خواصّه من الأمراء والأجناد.

وأمّا الأمير بُرُلْغِى ومن معه من الأمراء صار عساكرهم تتسلّل واحدا بعد واحد حتى بقى بُرُلْغِى فى ممـاليكه وجماعة من خواصّ الملك المظفّر بيبرس، فتشاور بُرُلْغِى مع جماعته حتى آقتضى رأيُه ورأىُ آقوش نائب الكَرَك اللَّحَاق بالملك الناصر أيضا،

(١) كلفتاة، جمعها كلفتات ومعناها الكلوتة التى تقدّم شرحها فى الحاشـية رقم ١ ص ٣٣٠ من الجزء السابع من هذه الطبعة.

فلم يُوافق على ذلك البُرْجيـة ، وعاد أَيْبَك البغدادى[1] وبَكْتُوت الفتّاح وبِجقار ببقية البُرْجيـة إلى القـاهرة ، وصاروا مع الملك المظفّر بيـبرس ، وسار بُرُلْغى وآقوش إلى الملك الناصر فيمَن بقِى من الأمراء والعساكر ، فاضطربت القـاهرة لذلك .

وكان الملك المظفّـر قد أَمّر فى مستهلّ شهر رمضان سـبعةً وعشرين أميرًا ما بين طبلخاناه وعشرات ، منهم من ممـاليكه : صِدِيق وصنقيجى[2] وطُوغان وقَرَمان وإغزلو وبَهادُر ؛ ومن المماليك السلطانية سبعة وهم : قَرَاجا الحُسامى وطُرُنْطَاى المحمّدى وبَكْتَمُر الساقى وبهادُر قَبْجَاق وانكبار[3] وطَشْتَمُر أخو بَتْخاص ولاچين ؛ وممن عداهم جَرَكْتَمر[4] بن بهادُر وحسن بن الردادى[5] ، ونزلوا الجميع إلى المدرسة المنصورية لَيلْبسوا الخَلع على جارى العـادة ، وٱجتمع لهم النقباء والحجّـاب والعامّة بالأسـواق ينتظرون طلوعهم القلعة ، وكلٌّ منهم بقِى لابِسَ الخِلْعة ، فاتّفق أن شخصا من المنجّمين كان بين يدى النائب سَلّار ، فرأى الطالع غيرَ موافق ، فقال : هذا الوقت ركوبهم غير لائق ، فلم يلتفت بعضهم ولَبِس وركب فى طُلْبـه ، فٱستبردوهم العوامّ وقالوا : ليس له حلاوة ، ولا عليه طلاوة ؛ وصار بعضهم يصيح و يقول : يا فرحة لا تمّت .

ثم أَخْرج الملك المظفّـر عِدّة من المماليك السلطانية إلى بلاد الصـعيد وأخذ أخبـازهم ، وظنّ الملك المظفّر أنه ينشئ له دولة ، فلمـا بلغه مسير بُرُلْغى وآقوش نائب الكَرَك إلى الملك الناصر سُقِط فى يده وعَلِم زوال مُلْكه ، فإن بُرُلْغى كان زوج ٱبنته وأحد خواصّه وأعيان دولته ، بحيث إنه أنعم عليه فى هذه الحركة بنَيِّف وأربعين

(١) فى السلوك : « وقار » . (٢) فى أحد الأصلين : « صقيجى » . وفى السلوك : « صنبجى » . (٣) فى السلوك : « وإكبار » . (٤) فى الأصلين : « جرمك وتمر و بهادر » . وتصحيحه عن السلوك والدرر الكامنة . (٥) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣٢٥ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

ألف دينار مصريّة، وقيل : سبعين ألف دينار . وظهر عليه آختلال الحال، وأخذ خواصّه فى تعنيفه على إبقاء سَلّار النائب وأنّ جميع هذا الفساد منه ، وكان كذلك . فإنّه لمـا فاتته السلطنه وقام بيبَرْس فيها حسَده على ذلك ودبّر عليه، و بيبَرْس فى غفلة عنه ، فإنّه كان سليم الباطن لا يظنّ أنّ سـلّار يخونه . ثم قبَض الملك المظفّر ليلة الجمعة على جماعة من العوامّ ، وضُرِبوا وشهِّروا لإعلانهم بسبّ الملك المظفّر بيبرس؛ فما زادهم ذلك إلّا طغيانا ! وفى كلّ ذلك تنسُب البُرْجية فساد الأمور لسَلّار ، فلمّا أكثر البُرْجية الإغراء بسَلّار قال لهم الملك المظفّر : إن كان فى خاطركم شىءُ فدونكم و إياه إذا جاء سَلّار للخدمة ؛ وأما أنا فلا أتعرّض له بسوء قطّ، فآجتمعت البرجيّة على قبض سلار إذا حضر الخدمة فى يوم الآثنين خامس عشره ، فبلغ سلّار ذلك ، فتأخّر عن حضور الخدمة وآحترس على نفسه ، وأظهر أنّه قد توعّك، فبعث الملك المظفّر يُسلِّم عليـه ويستدعيـه ليأخذ رأيه ، فآعتـذر بأنه لا يُطيـق الحـركة لعجزه عنها .

فلمّـا كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان آستدعى الملك المظفّر الأمراءَ كلَّهم وآستشارهم فيما يفعل، فأشار الأمير بيبرس الدَّوادار المؤرّخ والأمير بهادُر آص بنزوله عن المُلك والإشهاد عليه بذلك كما فعله الملك الناصر، وتُسيِّر إلى الملك الناصر بذلك وتستعطفه وتخرج إلى إطفيح بمن تَثِق به وتُقيم هناك حتى يرِد جواب الملك الناصر عليك ، فأعجبه ذلك وقام ليجهّز أمره ، و بعث بالأمير ركن الدين بيبَرْس الدَّوادار المذكور إلى الملك الناصر محمد يعرّفه بما وقع . وقيل : إنّه كتب إلى الملك الناصر يقول مع غير بيبرس الدوادار : والذى أُعَرِّفك به أنّى قد رجعت أُقلّدك بَغْيَك ، فإن حبستَنى عددتُ ذلك خَلْوة ، و إن نَفَيْتَنى عددتُ ذلك سـياحة ، و إن قتلتنى

كان ذلك لى شهادة ؛ فلمّا سَمِع الملك النـاصر ذلك ، عيّن له صِهْيَوْن على ما نذكره .

وأمّا ما كتبه المظفّر على يد بِيبَرْس الدوادار يسأله فى إحدى ثلاث : إمّا الكَرَك وأعمالها ، أو حَمَاة و بلادها، أو صِهْيَوْن ومضافاتها .

ثم آضطربت أحوال المظفّر وتحيّر وقام ودخل الخزائن وأخذ من المـال والخيل ما أحبّ، وخرج من يومه من باب الإسطبل فى مماليكه وعِدّتُهم سبعمائة مملوك، ومعه من الأمراء : الأمير عزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيرى الأُستادار، والأمير بَكْتُوت الفتّاح والأمير سيف الدين قِجْماس والأمير سيف الدين تاكز فى بقية ألزامه من البُرْجيّة، فكأنّما نُودِى فى الناس بأنّه خرج هاربًا ، فآجتمع العوامّ، وعند ما برز من باب الإسطبل صاحوا به وتبعوه وهم يَصيحون عليه بأنوع الكلام ، وزادوا فى الصياح حتّى خرجوا عن الحدّ ، ورماه بعضُهم بالحجارة . فشـقّ ذلك على ممـاليكه وهمّوا بالرجوع إليهم ووَضْع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفّر من ذلك، وأمر بنثر المـال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنه، فأخرج كلٌّ من المماليك حَفْنَةً من الذهب ونَثَرها، فلم يلتفت[1] العامّة لذلك وتركوه وأخذوا فى العَدْو خلفه وهم يَسُبُّون ويَصيحون ، فشَهَر المماليكُ حينئذ سيوفَهم ورجعوا إلى العوامّ فآنهزموا منهم . وأصبح الحُرّاس بقلعة الجبـل فى يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضانَ يصيحون بآسم الملك الناصر، وأُسْقِط آسم الملك المظفّر بإشارة الأمير سَلّار بذلك، فإنّه أقام بالقلعة ومهّد أمورها بعد خروج المظفّر إلى إطفيح . وفى يوم الجمعة تاسع عشره خُطِب على منابر القاهرة ومصر بآسم الملك الناصر، وأُسْقِط آسم الملك المظفّر بيبرس هذا وزال مُلْكه .

---

(١) عبارة عقد الجمان : « فاشتغلوا بالتقاطها عن تألبهم عليه وتطرفهم اليه » .

وأمّا الملك المظفّر فإنّه لمـا فارق القلعـة أقام بإطفيـح يومين ثم آتّفق رأيُه ورأىُ أَيْدَمُر الخَطِيرى و بَكْتُوت الفتّاح إلى المسير إلى بَرْقة[1] وقيل بل إلى أُسْوان[2] ، فأصبح حاله كقول القائل :

موكَّلُ ببقـاعِ الأرض يَذْرَعُها * من خِفَّة الرَّوْع لا من خِفَّة الطَّرَبِ

ولمـّا بلغ مماليكَ الملك المظفّر هـذا الرأىُ عزموا على مفارقتـه . فلمـّا رحَل من إطفيح رجع المماليك عنه شيئا بعد شيء إلى القاهرة ، فما وصل المظفّر إلى إخميم[3] حتّى فارقه أكثرُ من كان معـه ، فعند ذلك آنثنى عزمُه عن التوجّه إلى بَرْقة ، وتركه[4] الخَطِيرى والفتّاح وعادا نحو القاهرة . و بينما هو سائر قَدِم عليـه الأميران : بيبَرْس الدَّوَادار و بهادُر آص من عند الملك الناصر ليتوجّه إلى صِهْيَوْن بعد أن يدفع ما أخذه من الخزائن ، فدفَع المظفّر المـالَ بأجمعه إلى بِيبَرْس الدَّوَادار ، فأخذ بيبرس المـال وسار به فى النيل إلى الملك الناصر وهو بقلعة الجبل ، وقَدِم بهادُر آص فى البرّ بالملك المظفّر ومعه كاتبُه كَرِيم الدين أكرم[5] ، وسأل المظفّرُ فى يمين السلطان مع من يَثِق به ، فحلف له الملك الناصر بحضرة الأمراء و بعث إليه بذلك مع أَيْتَمُش المحمّدى ؛ فلمّا قَدِم عليـه أَيْتَمُش بالغ المظفّر فى إكرامه وكَتب الجوابَ بالطاعة وأنّه يتوجّه إلى ناحية

---

(١) برقة : اسم إقليم كانت تنتهى اليه حدود مصر الغربية ، وكان يعرف عند الرومان باقليم سرينيه وقاعدته مدينة سيرين التى سماها العرب قيرين أو قرناه ، و يسميه الروم بنتابوليس أى الخمس مدن ، ومنه اشتق الاسم العربى بنطابلس أو انطابلس ثم عرف هـذا الإقليم فى عهد العرب باقليم برقة ولا يزال معروفا بهذا الاسم ضمن أقسام بلاد طرابلس الغرب الواقعة فى شمال افريقيا من الجهة الغربية للأراضى المصرية ، وطرابلس اليوم من مستعمرات دولة إيطاليا . وراجع الحاشية رقم ١ ص ٢٤١ من الجزء السابع من هذه الطبعة .

(٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢٩٢ فى الجزء الخامس من هذه الطبعة .

(٣) إخميم : بلدة مصرية قديمة واقعة على الشاطئ الشرقى للنيل تجاه مدينة سوهاج . وراجع الحاشية رقم ٢ ص ٣١٣ من الجزء الخامس من هذه الطبعة .

(٤) فى الأصلين : «و ترك الخطيرى ... الخ» . وما أثبتناه عن السلوك .

(٥) هو أكرم بن هبـة الله القبطى كريم الدين الرئيس ناظر الدولة بالديار المصرية . كانت وفاته سنة ٧٢٤ هـ كما فى الدرر الكامنة أو فى سنة ٧٢٦ هـ كما فى المنهل الصافى .

السُّوَيْس[(١)] ، وأنّ كريم الدين يحضُر بالخزانة والحواصل التى أخذها ، فلم يُعجب السلطانَ ذلك ، وعزم على إخراج تجريدة إلى غَزّة ليردّوه ، وأطلع على ذلك بكْتَمُر الجُوكَنْدار النائب وقَرَاسُنْقُر نائب دِمَشْق[(٢)] والحاج بهادُر وأَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس .

فلمّا كان يوم الخميس الذى قبَض فيه الملك الناصر على الأمراء — على ماسيأتى ذكُره مفصّلا فى أوّل ترجمة الملك الناصر الثالثة إن شاء الله تعالى — جلس بعضُ المماليك الأشرفيّة خارجَ القلعه ، فلمّا خرج الأمراء من الخدمة قال : وأىّ ذنب لهؤلاء الأمراء الذين قَبض عليهم ! وهذا الذى قَتَل أستاذَنا الملكَ الأشرف ، ودمه الآن على سيفه ، قد صار اليوم حاكم المملكة (يعنى عن قَرَاسُنْقُر) ، فقيل هذا لقَرَاسُنْقُر ، فخاف على نفسه وأخذ فى عمل الخلاص من مصر ، فالتزم للسلطان أنه يتوجّه ويحصِّل الملك المظفّر بيبرس هو والحاجّ بهادُر نائب طرابُلُس من غير إخراج تجريدة فإن فى بعث الأمراء لذلك شناعةً ، فمشَى ذلك على السلطان ورَسم بسفرهما ، فخرج قَرَاسُنْقُر ومعه سائر النوّاب إلى ممالكهم ، وعوّق السلطانُ عنده أَسَنْدَمُر كُرْجِى وقد استقرّ به فى نيابة حَمَاة ، وسار البقيّةُ . ثم جهّز السلطان أَسَنْدَمُر كُرْجِى لإحضار المظفّر مُقَيَّدًا . واتّفق دخولُ قَرَاسُنْقُر والأمراء إلى غَزّة قبل وصول المظفّر إليها ؛ فلمّا بلغهم قُرْبُه ركب قَرَاسُنْقُر وسائر النوّاب والأمراء ولَقُوه شرقىّ غَزّة وقد بقى معه عِدّة من مماليكه وقد تأهّبوا للحرب ، فلَبِس الأمراء السلاح ليقاتلوهم ،

(١) السويس : بلدة مصرية وثغر من ثغورها على البحر الأحمر . وراجع الحاشية رقم ٤ ص ١٥١ من هذا الجزء . (٢) تقدّم فى غير موضع من هذه الترجمة أن قراسنقر هذا كان نائب حلب ، ولكن الملك الناصر حين قدم مصر فى هذه المرة قلد الأمير قراسنقر المنصورى نيابة دمشق عوضا عن الأمير جمال الدين آقوش الأفرم . وولى آقوش الأفرم صرخد والأمير سيف الدين قبجق نيابة حلب عوضا عن قراسنقر . وولى الأمير سيف الدين بهادر طرابلس عوضا عن الأمير أسندمر . والأمير أسندمر حماة عوضا عن قبجق ، كما فى عقد الجمان وتاريخ سلاطين المماليك وماسيذكره المؤلف فى أول ترجمة الناصر الثالثة .

فأنكر المظفّر على ممـاليكه تأهّبهـم للقتال وقال : أنا كنتُ مَلِكًا، وحولى أضعافكم ولى عُصبة كبيرةٌ من الأمراء، وما آخترتُ سَفْك الدماء! وما زال بهـم حتّى كفّوا عن القتال، وساق هو بنفســه حتّى بقِىَ مع الأمراء وسلّم نفسه إليهم؛ فسلّموا عليه وساروا به إلى معسكرهم وأنزلوه بخَيْمة ، وأخذوا سـلاح مماليكه ووكّلوا بهـم من يحفظهم ؛ وأصبحوا من الغـد عائدين بهم معهم إلى مصر، فأدركهم أَسَنْدَمُر كُرْجِى بالخَطّارة[1] فأنزَل فى الحال المظفّرَ عن فرسه وقيّده بقَيْد أحضره معه، فبكى وتحدّرت دموعُه على شَيْبته، فشقّ ذلك على قَرَاسُنْقُر وألقى الكُلفتاة عن رأســه إلى الأرض وقال : لعن الله الدنيـا، فياليتنا متنا ولا رأينا هذا اليوم! فترجّلت الأمراء وأخذوا كُلفتاته ووضعوها على رأسه . هـذا مع أنّ قَرَاسُنْقُر كان أكبر الأسباب فى زوال دولة المظفّر المذكور ! وهو الذى جَسّر الملك الناصر حتّى كان من أمره ما كان .

ثم عاد قرا ســنقر والحاج بهادُر إلى محلّ كفالتهما ، وأخذ بهادُر يلوم قَرَاسُنْقُر كيف خالف رأيه ! فإنّه كان أشار على قَرَاسُنْقُر فى اللّيل بعد القبض على المظفّر بأن يُخَلِّى عن المظفّر حتّى يصل إلى صِهْيَوْن، ويتوجّه كلّ منهما إلى محلّ ولايتــه ، ويُخِيفا الملك الناصر بأنّه متى تغيّر عمّا كان وافق الأمراء عليه بِدِمَشْق قاموا بنُصْرة المظفّر وإعادته إلى المُلك، فلم يُوافق قَرَاسُنْقُر ، وظنّ أنّ الملك الناصر لا يستحيل عليــه ولا على المظفّر . فلمّا رأى ما حلّ بالمظفر نَدِم على مخالفة بهادُر. وبينما هما فى ذلك بعث أَسَنْدَمُر كُرْجِى إلى قَرَاسُنْقُر مرسومَ السلطان بأن يحضُر صحبة المظفّر إلى القلعة، وكان عزم الناصر أن يَقبض عليــه : ففطن قَرَاسُنْقُر بذلك وآمتنع من التوجّه إلى مصر ، وآعتــذر بأنّ العشير[2] قـد تجمّعوا ويخاف على دمشق منهم، وجدّ فى الســير وعَرَف أنّه ترك الرأى فى مخالفة بهادُر ! فقَـدِم أَسَنْدَمُر بالمظفّر إلى القلعة فى ليلة

(١) راجع الحاشية رقم ٥ ص ٢٥١ من هذا الجزء. (٢) يريد بالعشير هنا عرب البادية.

الأربعاء الرابع عشر من ذى القعدة(١) ، فلمّا مثل المظفّر بين يدى السلطان قبّل الأرض، فأجلسه وعنّفه بما فعل به وذكّره بما كان منه إليه، وعدّد ذنوبه، وقال له : تذكُر وقد صحتَ علىّ يوم كذا بسبب فلان ! ورددتَ شفاعتى فى حقّ فلان ! وآستدعيتُ بنفقة فى يوم كذا من الخزانة فمنعتَها ! وطلبتُ فى وقتٍ حَلْوَى بلَوْز وسكّر فمنعتَنى ، ويلك ! وزدتَ فى أمرى حتّى منعتَنى شهوةَ نفسى ، والمظفّر ٥ ساكت . فلما فرَغ كلامُ السلطان قال له المظفّر : يا مولانا السلطان، كلّ ما قلتَ فعلتُه ، ولم يبقَ إلّا مراحم السلطان، و إيش يقول المملوك لأستاذه ! فقال له : يا ركن، أنا اليوم أستاذك! وأمس تقول لما طلبتُ إوزًّا مشويًّا : إيش يعمل بالإوَزّ ! الأكل هو عشرون مرّة فى النهار! ثم أَمَر به إلى مكانٍ وكان ليلةَ الخميس، فآستدعى المظفّر بوضوء وقد صلّى العشاء . ثم جاء السلطان الملك الناصر فخُنِق بين ١٠ يديه بوَتَر حتى كاد يتلف ، ثم سيّبه حتى أفاق وعنّفه وزاد فى شتمه ، ثم خَنَقه ثانيا حتى مات وأُنزِل على جنوية(٢) إلى الإسطبل السلطانّى فغُسل ودُفِن خلف قلعة الجبل، وذلك فى ليلة الجمعة خامس عشر ذى القعدة(٣) سنة تسع وسبعمائة . وكانت أيام المظفّر هذا فى سلطنة مصر عشرة أشهر(٤) وأربعة وعشرين يوما لم يتهنّ فيها من الفِتَن والحركة . وكان المظفّر لمّا خَرَج من مصر هاربًا قبل دخول الملك الناصر. قال بعض الأدباء: ١٥

تَثَنَّى عِطْفُ مصرٍ حين وافَى * قُدومَ النـاصرِ الملكِ الخبيرِ

فــذلّ الجَـشْنَكِيرُ بلا لقاءٍ * وأمسى وهو ذُو جَأْشٍ نَكِيرِ

إذا لم تعضد الأقدار شخصًا * فأوّلُ ما يُرَاع من النَّصـيـرِ

(١) فى الأصلين : « الرابع عشر من شوال » . وما أثبتناه عن عقد الجمان والسلوك .

(٢) فى قاموس دوزى : معناها، تعريشة من خشب أو سياج أو درابزين (Palissade) . ٢٠

(٣) فى الأصلين هنا : « خامس عشر شوّال » . وراجع الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة .

(٤) يلاحظ أن المؤلف قدّم فى أوّل ترجمة المظفر هذا أنه جلس على تخت الملك يوم السبت الثالث والعشرين من شوّال من سنة ثمان وسبعمائة .

وقال النُّوَيْرِىّ فى تاريخه : ولمّـا وصلوا بالمظفر بِيبَرْس إلى السلطان النـاصر أوقفه بين يديه وأمر بدخوله الحمّام، وخُنِق فى بقيّة من يومه ودُفن بالقرافة وعَفّى أثَرَ قبره مدّةً ، ثم أمر بآنتقاله إلى تربته بالخانقاه(١) التى أنشأها فنُقِل إليهـا . وكان بِيبَرْس هذا آبتدأ بعمارة الخانقاه والتربة داخل باب النصر موضع دار الوزارة(٢) فى سنة ست وسبعمائة(٣)، وأوقف عليها أوقافا جليلة، ولكنّه مات قبل تمامها، فأغلقها الملك الناصر مدّة ثم فتحها . انتهى كلام النُّوَيْرِىّ .

وكان الملك المظفّر مَلِكا ثابتاً كثيرَ السكون والوَقار ، جميـل الصفات ، ندُب إلى المهمّات مرارًا عديدة ، وتكلّم فى أمر الدولة مدّة سنين ، وحسُنت سِـيرتُه ، وكان يرجع إلى دِين وخير ومعروف، تولّى السلطنة على كره منـه ، وله أوقاف على وجوه البرّ والصـدقة ، وعمّـر ما هُدِم من الجامع الحـاكمى(٤) داخل باب النصر ، بعد ما شعّثته الزلازل . وكان من أعيان الأمراء فى الدولة المنصوريّة قلاوون أستـاذه ، ثم فى الدولة الأشرفية خليـل، والدولة الناصرية محمد بن قلاوون . وكان أبيض اللون أشقرَ مستدير اللّحيـة ، وهو جارْكَسِىّ الجنس على ما قيـل . ولم يتسلطن أحد من الجراكسة قبله ولا بعده إلى الملك الظاهر برقوق ؛ وقيل إنه كان تركيًّا ، والأقوى عندى أنه كان جاركسياً ، لأنه كان بينه وبين آقوش الأفرم نائب الشام مودّة ومحبّة زائدة، وقيل قرابة ،وكان الأفرم جاركسىّ الجنس . انتهى .

وآستولى السلطان الملك الناصر على جميع تعلّقاته ، وآستقدم كاتبه كريم الدين أكرم بن المعلّم بن السديد، فقَدِم على الملك الناصر بأموال المظفّر بِيبَرْس وحواصله ،

(١) راجع الحاشية رقم ٤ ص ١٧٤ من هذا الجزء . (٢) راجع الحاشية رقم ٦ ص ٥٠ والحاشية رقم ٥ ص ٩٢ من الجزء الرابع من هذه الطبعة والحاشية رقم ٤ ص ١٧٤ من هذا الجزء .

(٣) فى الأصلين : « فى سنة سبع وسبعمائة » وهو خطأ . وتصحيحه عن عقد الجمان والحاشية رقم ٤ ص ١٧٤ من هذا الجزء . (٤) راجع الحاشية رقم ١ ص ١٤٠ من هذا الجزء .

فقرّبه السلطان وأثنى عليه ووعده بكلّ جميل إن أظهره على ذخائر المظفّر بيبرس .
فنزل كريم الدين إلى داره وتتبّع أموال بيبرس و بذل جهده فى ذلك، ثم انتمى كريم
الدين إلى طُغَاى وكُستاى وأرْغُون الدّوادار النـاصرية ، و بذل لهم مالًا كثيرًا حتى
صاروا أكبر أعوانه ، ونحوه من أستاذهم الملك الناصر. ثم قدم من كان مع المظفّر
بيبرس من المماليك ومعهم الهُجْن والخيل والسلاح ، ومبلغ مائتى ألف درهم وعشرين (١)
ألف دينـار، وستون بقجة من أنواع الثياب ، فأخذ السلطان جميع ذلك ، وفرّق
المماليك على الأمراء ما خلا بكْتَمُر الساقى لجمال صورته وطُوغان الساقى وقراتَمُر .
ثم استدعى الملك الناصر القضاة وأقام عندهم البيّنة بأن جميع مماليك المظفّر بيبرس
وسلّار ، وجميع ماوقفاه من الضّياع والأملاك اشتُرِى من بيت المـال . فلمّا ثبت
ذلك ندب السلطان جمال الدين آقوش الأشرفى نائب الكَرَك ، وكريم الدين أكرم لبَيْع
تركة المظفّر بيبرس و إحضار نصف ما يتحصّل ، ودفع النصف الآخر لابنة المظفّر
زوجة الأمير بُرُلْغى الأشرفى ، فإنّ المظفّر لم يترك من الأولاد سواها ، فشدّد كريم الدين
الطلب على زوجة المظفّر وابنتـه حتى أخذ منهما جواهر عظيمة القَـدْر ، وذخائر
نفيسة ، ثم تابع موجود المظفّر فوجد له شيئًا كثيرًا .

*
* *

السنة التى حكم فى أوّلهـا الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير على مصر إلى شهر
رمضان (٢) ، ثم حكم فى باقيها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهى سنة تسع وسبعمائة ،
على أن الملك المظفّر بيبرس حكم من السنة المـاضية أياما .

---

(١) فى أحد الأصلين : « ومبلغ مائتى ألف وعشرين ألف دينار » .
(٢) راجع الحاشية رقمى ١ و ٣ ص ٢٧٥ من هذا الجزء .

فيها (أعنى سنة تسع وسبعمائة) كانت الفتنة بين السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون و بين الملك المظفّر بيبَرْس . حسب ما تقدّم ذكره مفصّلا حتى خُلِع المظفّر وأُعِيد الناصر .

وفيها كانت الفتنة أيضًا بالمدينة النبوية بين الشريف مُقْبِل بن جَمّاز بن شِيحة و بين [كُبَيْش ابن](١) أخيه منصور بن جَمّاز، وكان مُقْبِل(٢) قَدِم القاهرة فولّاه المظفّر نصف إمْرة المدينة شريكًا لأخيه منصور، فتوجّه إليها فوجد منصورًا بنَجْد وقد ترك ابنه كُبَيْشة(٣) بالمدينة، فأخرجه مُقْبِلٌ فحشَد كُبَيْشةُ وقاتل مُقْبِلًا حتى قتله، وانفرد منصور بإمْرة المدينة .

وفيها كتب السلطان الملك الناصر لقَرَاسُنْقُر نائب الشام بقتال العَشِير .

وفيها أظهر خَرْبَنْدَا مَلِك التتار الرَّفْض فى بلاده وأمر الخطباءَ ألّا يذكروا فى خُطبهم إلّا علىّ بن أبى طالب وولديه وأهل البيت .

وفيها حجّ بالناس من القاهرة الأمير شمس الدين إلْدِكْز السلاح دار ولم يحجّ أحدٌ من الشام لاضطراب الدولة .

وفيها تُوُفّى الأمير الوزير شمس الدين سنقر الأعسر المنصورىّ بالقاهرة فى شهر ربيع الأوّل ودُفِن خارج باب النصر بعد ما استعفى ولزِم داره مدّة .

وفيها توفى قاضى القضاة شرف الدين أبو محمد عبد الغنى بن يحيى [بن محمد بن أبى بكر](٤) بن عبد الله بن نصر [بن محمد](٥) بن أبى بكر الحَرّانىّ الحنبلىّ فى ليلة

(١) التكلة عن المنهل الصافى وعقد الجمان والدرر الكامنة . (٢) فى الأصلين : « وكان منصور » . وما أثبتناه عن السلوك وما يفهم من سياق كلام المؤلف وعبارة عقد الجمان والدرر الكامنة والمنهل الصافى . (٣) كذا الأصلين : « كبيشة » وجاء فى بعض المصادر التى تحت يدنا : « كبيشة وكبيش » . (٤) زيادة عن المنهل الصافى والدرر الكامنة . (٥) زيادة عن الدرر الكامنة . وفى المنهل الصافى : « ابن عبد الله بن نصر بن أبى بكر بن محمد » .

الجمعة الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول ودُفِن بالقرافة . ومولده بحَرّان فى سنة خمس وأربعين وستمائة ، وسَمِع الحديث وتفقّه وقَدِم مصر فباشر نَظَر الخِزانة وتدريس الصالحيّة[1] ثم أُضِيف إليه قضاء الحنابلة، فباشره وحُمِدت سيرتُه .

وفيها تُوُفّى الشيخ نجم الدين محمد بن إدريس بن محمد القَمُولِيّ[2] الشافعىّ بقُوص فى جُمادَى الأولى، وكان صالحًا عالمًا بالتفسير والفقه والحديث .

وفيها تُوُفّى الأمير سيف الدين طُغْرِيل بن عبد الله الإيغانِيّ بالقاهرة فى عاشر شهر رمضان، وكان من كبار الأمراء وأعيان الديار المصريّة .

وفيها تُوُفّى الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الخَازِندار فى سابع شهر رمضان بالقاهرة، وكان من أعيان أمراء مصر .

وفيها تُوُفّى مُتَمَلِّك تُونُس من بلاد الغرب الأميرُ أبو عبد الله محمد المعروف بأبى عَصِيدة بن يحيى الواثق ابن محمد المستنصر ابن يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص فى عاشر شهر ربيع الآخر . وكانت مدّة مُلْكه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، وتَوَلّى بعده الأمير أبو بكر بن أبى يزيد[3] عبد الرحمن بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الواحد المدعو بالشهيد، لأنّه قُتِل ظُلْما بعد ستة عشر يوما من مُلْكه، وبُويِع بعده أيضا أبو البقاء خالد بن يحيى بن إبراهيم .

وفيها تُوُفّى الوزير التاج أبو الفرج بن سعيد الدولة فى يوم السبت ثانى شهر رجب ، وكان عند الملك المظفّر بيبَرْس بمكانة عظيمة ، ولمّا تسلطن بيبَرْس قرّره

(١) راجع الحاشية رقم ٤ ص ٢٨٠ من الجزء السادس من هذه الطبعة . (٢) القمولى : نسبة الى قوله وتسمى غرب قوله ، اسم كان يطلق قديما على عدّة قرى وكفور واقعة على الشاطئ الغربى للنيل بمديرية قنا بمصر ، وفى سنة ١٢٥٩ هـ قسمت ناحية غرب قوله إلى ثلاث نواح وهى البحرى قولا والأوسط قولا والقبلى قولا والناحيتان الأوليان تابعتان لمركز قوص والناحية الثالثة تابعة لمركز الأقصر .

(٣) فى أحد الأصلين : «أبو بكر بن أبى يزيد بن عبد الرحمن» وفى السلوك : «أبو بكر بن أبى زيد عبد الرحمن» .

مُشيرًا ، فكانت تُحْمَل إليه فُوطة العَلامَة فيُمْضِى منها ما يختاره ، ويكتُب عليه «عُرِض» فإذا رأى المظفرّ خطَّه علَّم وإلّا فلا ، ولم يزل على ذلك حتى بعث إليه الأمير آقوش الأفرم نائب الشام يهدّده بقطع رأسه فآمتنع . وكان الأفرم صار يُدَبِّر غالب أمور الديار المصريّة وهو بدِمَشْق ، لأنه كان خُشْدَاش المظفّر بيبَرْس وخَصِيصًا به والقائم بدولته ، والمعاندَ للناصر وغيره من نُوّاب البلاد الشاميّة ، وقد تقدّم ذكْرُ ذلك كلّه فى ترجمة الملك المظفّر بيبَرْس .

وفيها تُوُفّى الشيخ القُدْوة العارف بالله تعالى تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد آبن عبد الكريم بن عَطَاء الله السَّكَنْدَرِىّ المالكىّ الصوفى الواعظ المذكِّر المُسَلِّك بالقاهرة فى جُمادَى الآخرة ودُفِن بالقرافة ، وقبره[1] معروف بها ، يُقصد للزيارة . وكان رجلا صالحا عالما يتكلّم على كرسىّ ويحضُر ميعاده خَلْق كثيرٌ ، وكان لوعظه تأثيرٌ فى القلوب ، وكان له معرفة تامّة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق ، وكان له نظمٌ حسن على طريق القوم ، وكانت جنازته مشهودةً حفلةً إلى الغاية . ومن شعره قصيدةٌ أوّلها :

ياصاحِ إنّ الركبَ قد سار مُسرِعًا * ونحن قعود ما الذى أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى المخلَّفَ بعدهم * صريعَ الأمانى والغرامُ ينازع
وهذا لسانُ الكون ينطق جهرةً * بأنّ جميع الكائنات قواطعُ

وفيها تُوفّى القاضى عِزّ الدين عبد العزيز آبن القاضى شرف الدين محمد [بن فتح الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد][2] بن القَيْسَرانِىّ أحدُ كُتّاب الدَّرج

(١) قبر آبن عطاء الله السكندرى ، لا يزال موجودا بجبانة سيدى على أبى الوفاء الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث . وهذا القبر يقع على بعد ٣٠٠ متر فى الجنوب الشرقى لجامع سيدى على أبى الوفاء ، وبجوار القبر من الغرب قبة تحتها قبر كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام ، وبالقرب منها فى الشمال الغربى قبر محمد بن سيد الناس ، وقبة تحتها قبر عبد الله بن أبى جمرة .

(٢) زيادة عن عقد الجمان والدرر الكامنة .

ومدرس الفَخْرِية[1] فى ثامن صفر بالقاهرة، ودُفِن عند والده بالقرافة. وكان من أعيان الموقِّعين هو ووالده وجدُّه ، ومات وله دون الأربعين سنة ، وكان له فضيلةٌ ونظمٌ ونثر . ومن شعره فى رَدّ جواب :

جاء الكتابُ ومن سواد مِدادِه * مِسْكٌ ومن قِرْطاسه الأنوارُ
فتشرّف الوادى به وتعطّرتْ * أرجاؤُه وأنارت الأقطارُ

٥

قلت وأين هذا من قول البارع جمال الدين محمد بن نباتة المصرى ، حيث يقول فى هذا المعنى :

أَفْدِيه من مَلِك يُكاتِب عبدَه * بأحرفه اللّاتى حَكَتْها الكواكبُ
مَلكتَ بها رِقّى وأحللى الأَسَى * فهأنذا عبدٌ رقيق مُكاتَبُ

والشيخ علاء الدين علىّ بن محمد [بن عبد الرحمن][2] العُنْبِىّ رحمه الله :

١٠

أَهَلْتَنى لجواب * ما كان ظنّى أُجاوبْ
لكنّنى عبدُ رقّ * مُدَبَّر ومكاتَبْ

وفيها تُوُفّى القاضى بهاء الدين عبد الله ابن نجم الدين أحمد بن على ابن المظفّر المعروف بابن الحِلّى ناظر ديوان الجيش المنصور، واستقرّ عوضَه القاضى فخر الدين صاحب ديوان الجيش .

١٥

وفيها تُوُفّى الأديب إبراهيم بن علىّ بن خليل الحَرّانى المعروف بعَيْن بَصَل . كان شيخًا حائكًا أناف على الثمانين، وكان عاميًّا مطبوعا، وقصَده ابن خَلِّكان واستنشده من شعره فقال : أمّا القديم فلا يليق إنشادُه ، وأمّا نظم الوقت الحاضر فنعم ، وأنشده بديهًا :

(١) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢١١ من هذا الجزء. (٢) زيادة عن الدرر الكامنة والمنهل الصافى . والعبى : نسبة إلى من يبيع العبى . وقد ضبطه صاحب الدرر الكامنة بالعبارة والمشتبه للذهبى .

٢٠

وما كلُّ وقتٍ فيه يسمحُ خاطِرى * بنَظْمِ قَرِيضٍ رائقِ اللفظ والمَعْنَى
وهل يقتضى الشرعُ الشريفُ تَيَمُّماً * بتُرْبٍ وهذا البحرُ يا صاحبى مَعْنَا

فقال له ٱبن خَلِّكان . أنت عين بَصَر، لا عين بَصَل . انتهى .

§ أمر النيل فى هذه السنة — المـاء القديم تأخّر وتأخّرت الزيادة إلى أن دخل شهر مِسْرَى ووقع الغلاء وٱستسقى الناس، فنُودِى بزيادة ثلاث أصابع، ثم توقّفت الزيادة ونقص فى أيام النَّسىء، ثم زاد حتى بلغ فى سابع عشرين توت خمس عشرة ذراعا وست عشرة إصبعا، وفُتِح خليج السدّ، بعد ما كان الوفاء فى تاسع عشر بابه، بعد النَّوْرُوز بتسعة وأربعين يوما. وكان مبلغ الزيادة فى هذه السنة ستّ عشرة ذراعا وإصبعين . وكان ذلك فى أوائل سلطنة المظفّر بِيبَرْس الجَاشْنَكِير . فتشاءم الناسُ بكَعْبه وأبغضتْه العامّة .

* * *

انتهى الجزء الثامن من النجوم الزاهرة، ويليه الجزء التاسع، وأوّله :
ذكرُ عَوْد الملك النـاصر محمد بن قلاوون إلى مُلْك مصر ثالث مرّة

* * *

تنبيـــه : التعليقات الخاصة بالأماكن الأثريّة على ٱختلاف أنواعها، والمدن والقرى القديمة وغيرها مع تعيين وتحـديد مواضعها هى من وضع حضرة الأسـتاذ محمـد رمزى بك المفتش بوزارة المـالية سابقا وعضو المجلس الأعلى لإدارة حفظ الآثار العربية . كالتعليقات السابقة فى الأجزاء المـاضية . فنسدى إليه جزيل الشكر ونسأل الله جلّت قدرته أن يجزيه خير الجزاء عن خدمته للعلم وأهله .

استدراكات

على بعض تعليقات وردت فى الجزء السابع من هذا الكتاب

لحضرة الأستاذ محمد رمزى بك

زاوية الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر

بما أن الشرح الخاص بوصف هذه الزاوية الوارد فى صفحة ٣٨٤ من الجزء السابع من هذه الطبعة جاء غير واف فأضيف إليه ما يأتى :

ذكرت فى التعليق السابق لهذه الزاوية أنها اندثرت ، والصواب أنها خربت لأنه لا يزال يوجد من مبانيها بقايا بابها والحائط الشمالى الشرقى والحائط الذى فيه المحراب . ومكانها اليوم أرض مشغولة بالمقابر . وعلاوة على ما سبق ذكره فى التعليق السابق فإن هذه الزاوية واقعة فى الشمال الغربى لجامع السادات الوفائية على بعد مائتى متر منه ويجاورها قاعة بها ضريح الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر، رحمه الله .

***

الحد الذى كان ينتهى عنده النيل على شاطئه الشرقى تجاه مدينتى مصر القديمة والقاهرة وقت فتح العرب لمصر

بينت فى الاستدراك الخاص بقنطرة عبد العزيز بن مروان الوارد فى صفحة ٣٨٧ من الجزء السابع من هذه الطبعة موقع فم الخليج المصرى ، والنقطة التى كان يأخذ منها مياهه من النيل وقت فتح العرب لمصر . وقد فاتنى أن أبين لقراء النجوم الزاهرة الحد الذى كان ينتهى عنده النيل على شاطئه الشرقى تجاه مدينتى مصر القديمة والقاهرة فى ذاك الوقت ، ولهذا أستدرك ما فاتنى إتماما للفائدة المطلوبة من التعليقات فأقول :

يُستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على ساحل النيل بمدينة مصر (ص ٣٤٣ ج ١) وعلى المنشأة (ص ٣٤٥ ج ١) وعلى أبواب مدينة مصر (ص ٣٤٧ ج ١) وعلى منظرة المقس (ص ٣٨٠ ج ١) وعلى ظواهر القاهرة المعزّية (ص ١٠٨ ج ٢) وعلى برّ الخليج الغربى (ص ١١٣ ج ٢) وعلى اللوق (ص ١١٧ ج ٢) وعلى المقس (ص ١٢١ ج ٢) وعلى بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) وعلى قنطرة السد (ص ١٤٦ ج ٢) وعلى قنطرة باب البحر (ص ١٥١ ج ٢) وعلى جزيرة الفيل (ص ١٨٥ ج ٢)، وعلى صناعة مصر (ص ١٩٧ ج ٢) وعلى الميدان الناصرى (ص ٢٠٠ ج ٢)، ويُستفاد أيضا مما ورد فى حوادث سنة ٦٨٠ هـ المذكورة فى كتاب النجوم الزاهرة لابن تَغْرِى بَرْدِى (ص ٣٠٧ ج ٧) ومما هو مبيّن على خريطة الحملة الفرنسية الموضوعة سنة ١٨٠٠؛ يُستفاد من كلّ ما سبق ذكره، ومن المباحث التى أجريتها أن شاطئ النيل الشرقى الأصلى القديم تجاه مدينة مصر والقاهرة كان وقت فتح العرب لمصر واقعا فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية :

كان النيل بعد أن يمرّ على سكن ناحية أثر النبىّ جنوبى مصر القديمة يسير إلى الشمال بجوار شارع أثر النبى إلى أن يتلاقى بسكة حديد حلوان عند محطة المدابغ، فيسير النيل بجوار هذه السكة إلى أن يتقابل بشارع مارى جرجس فيسير محاذيا له من الجهة الغربية مارّا تحت قصر الشمع (الكنيسة المعلقة بمصر القديمة) وجامع عمرو، ثم يسير محاذيا لشارع سيدى حسن الأنور إلى نهايته ثم يسير شمالا إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع السد البرانى بسكة المذبح، ثم يسير بعد ذلك متّجها فى طريقه إلى الشمال فيمر فى حارة المغربى بجنينة قاميش فشارع بنى الأزرق بجنينة لاظ فشارع جنان الزهرى فشارع الشيخ عبد الله لحارة البير قدار فشارع البلاقسة

فشارع عماد الدين إلى نهايته البحرية ، ثم ينعطف النيل مائلا إلى الشرق و يسير بجوار شارع الملكة نازلى حتى يصل إلى ميدان باب الحديد، ومن هناك ينعطف إلى الشمال الشرقى مارا بميدان محطة مصر ، ثم يمر بجوار محطة كوبرى الليمون من الجهة البحرية الغربية، ثم يسير فى شارع غمرة بطول مائتى متر، ثم يسير إلى الشمال محاذيا لمخازن بضائع محطة مصر من الجهة الشرقية، ثم يسير محاذيا لشارع مهمشة من الجهة الغربية ، ثم يسير بعد ذلك محاذيا لجسر السكة الحديدية الذاهبة إلى الإسكندرية من الجهة الشرقية. وعند وصول النيل إلى نقطة واقعة على هذه السكة تجاه عزبة الخمايسة يميل إلى الغرب حتى يصل إلى سكن ناحية منية السيرج ، وهناك يسير غربى سكن هذه الناحية ، ثم يسير إلى الشمال بدوران خفيف إلى الغرب حتى يتقابل مع مجراه الحالى عند فم الترعة الإسماعيلية .

هذا هو خط سير الشاطئ الأصلى القديم للنيل تجاه مدينتى مصر والقاهرة فى سنة ٢٠ هـ = ٦٤١ م أى وقت فتح العرب لمصر . و بعد ذلك طرح البحر عدة مرات ولذلك انتقل الشاطئ الأصلى المذكور من مكانه القديم السابق ذكره إلى مكانه الحالى من مصر القديمة إلى روض الفرج .

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر — ٩٠١١٨

القاهرة